عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الثالث - اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٦



الطفولة والمراهقة

- النمّو الجسمي في مرحلتي الطفولة
- النمّو النفسي من الطفل الى الراشد
- الانفصال عن العالم والرحيل الى الاعماق
- النمّو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية

الطفولــة والمراهقــة



زاد الاهتمام فى السنوات الاخيرة ،وبخاصةمنذ الستينات ، بدراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ازدياداً كبيرا تمثل فى كثرة الكتابات التيتتناول المشكلات المتعلقة بنمو الطفل ، والتغيرات التى تطرأ على تكوينه الجسمى ، وتطور حياتهالعقلية والانفعالية ،وعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعى ، التى يخضع لها الاطفالفى مختلف المجتمعات والثقافات . وتعتمد هذه الكتابات في الاغلب على الملاحظة المباشرة الطويلة ،التى تعتبر هى الاداة الرئيسية فىالبحوث الحقلية والتجريبية ، وقد أمكن عن طريق هذه الوسيلةالتعرف على كثير من التفاصيل والدقائق عن حياة الطفل فى سنى حياته المبكرة ، وفى مرحلةالمراهقة الخطيرة التى كثيرا ما يكون لها آثار عميقة وبعيدة المدى فى حياته وتكوين شخصيتهوقدرته على التلاؤم مع المجتمع الذى يعيش فيه ، والتواؤم مع ثقافة ذلك المجتمع وعاداتهوتقاليده وقيمه ، وتقبل الاوضاع السائدة فيه أو التمرد عليه . ولكن على الرغم من كثرة هذهالكتابات التى تتناول جوانب كثيرة من المشكلة فلا تزال هناك نواح كثيرة في حاجة الى مزيد منالدراسة والبحث . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان الطفولة والمراهقة قد وجدتا منذبداية القرن العشرين ، وبالذات منذ الستينات،

من عنايــة العلماء فى مختلف التخصصات ما لم تجده من قبل ، وان كان هذا لا يعنى انصراف الكتاب والعلماء والفلاسفة والادباء تماما عـن الكتابة فى الموضـوع قبل القـرن العشريـن ، اذ الواقع أن حياة الطفل بالذات كثيرا ما كانت تثير خيال الكتاب والادباء الذيـن عالجوها فى بعض قصصهم وروایاتهم ، وقدموا لنا صورا دقيقة لما كان يعانيه الاطفال ، وبخاصة فى القرن التاسع عشر ، نتيجة للتصنيع والثورة الصناعية ، وماأحدثته من تغيرات في حياة المجتمع فى الغرب .

والواقع أن الظروف والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التـى سادت المجتمـع الانسانـى عمومـا ، والمجتمعات الغربيـة بوجـه خاص ، والتغيرات الهائلة التى طـرأت علـى بناء هـذه المجتمعات بعد الثورة الصناعية ، كانت من اهم أسباب زيادة الاهتمام بدراسة مشكلات الطفولة دراسة علميـة ، والعمل علـى تشخيص هـذه المشكلات ، ومحاولة ايجاد حلول لها . ذلك ان الانتقال من الحياة التى تعتمد فى المحل الاول على الزراعة وعلى الانشطة المتعلقة بها ، الى الاعتماد على الصناعة وما يرتبط بها من زيادة التخصص والمهارة وتقسيم العمل ، والتحركات السكانية نتيجة لجذب المراكز الصناعية والحضرية للايدى العاملة من المناطق الريفيـة ، وانفصال العامل بالتالى عن عائلته الكبيرة ، وما نجم عن ذلك من تخلخل البناء العائلـى التقليدى ، وظهور الاسر الصغيرة او العائلات النواة ـ كما يسميها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا ـ التي أصبحت تؤلف الشكل الرئيسي للتنظيم العائلى فى المجتمعات الصناعية والمتقدمة عموما ، كـل هذا كانت لـه آثار عميقة على تنشئة الطفل وعلى تغيير النظرة الى الطفولة والمعاملـة التى يلقاها الاطفال ، كما كان وراء ذلك الاهتمام الطبيعى والعميق بدراسة مشكلات الطفولة ووضع الطفـل ثم المراهق فى المجتمع الحديث .

فالمعروف مثلا أن الاوضاع الاقتصادية فى المجتمع الصناعى الحديث تستلزم خروج الرجل والمرأة على السواء للعمل . وقد ترتب على ذلك ظهور اوضاع كثيرة كان لها اثرها في حياة الطفل ونوع الرعايـة التى يلقاها ، اذ ان انصراف الام ـ ولو جزئيا ـ عن حياة البيـت ورعاية الاطفال كان يتطلب ضرورة ايجاد من يحل محلها للقيام بهذه الوظيفة سواء كان ذلك عن طريق الاعتماد على اشخاص آخرين او على مؤسسات متخصصة ، وهي كلها بدائل لم تكن العائلة التقليدية الكبيرة تعرفهـا ، اذ كـان الطفـل ينشأ بـين أفرادها العديدين في وسط صحي يوفر له ما يحتاج اليه من حسن الرعاية والعناية والاهتمام . بـل ان هذه الظروف الاقتصادية ذاتها ، واستقلال المرأة اقتصاديا وعدم اعتمادها فى حياتها على الرجـل كما كان عليه الحال فى المجتمع التقليدى ، ادت بالضرورة الى انكماش دور الاب فى حيات الاسرة الحديثة ، بحيث لـم يعد يؤدى نفـس الوظيفة القديمة ـ او على الاقل لم يعد هو المركز الرئيسى الذى تدور حوله حياة الاسـرة ، وأصبح عـدم وجود الاب في المجتمع الصناعى الحديث ظاهرة مألوفة ، بحيث تجد من بعض علماء الاجتماع من يتكلم الآن عما يسمى بالمجتمـع الذى لا يعرف نظام الابوة او المجتمع بـدون آبـاء fatherless society ، وهو تعبير يكشف عـن كثير من المخاطر والمشكـلات التـى يعانى منها المجتمـع الحديث ، وهى مشكلات تتراوح بـين انفصال الزوجين الى الطلاق الى ظهور العلاقات الجنسية

خارج الزواج وانجاب اطفال لا يعرفـون لهـم آباء شرعيين . ومحصلة هذا كله قلة الرعاية التى يجدها الاطفال فى الاسرة ، وزيادة الانحرافات السلوكية بينهم وبخاصة بـين المراهقين ، وان كانت هناك بغير شك أسباب وعوامل اخرى لهذا السلـوك الانحرافى ، الى جانب قلـة الاهتمام بالاطفال داخل الاسرة . ولكن الذى يهمناهنا هوان انصراف الاسـرة عن بـذل العناية اللازمـة للاطفال ، وظهـور مؤسسات متخصصة للقيام بهذه المهمة ، ومـا ارتبط بهذا كله مـن مشاكل تعترض حياة الطفل وأساليب تربيته كانت كلهامن أهم الاسباب التي دفعت الى زيادة الاهتمام بدراسة هذه المشكلات ، أو الى اعتبار الطفولة والمراهقة كمشكلة من المشاكل التي يجب علـى المتخصصين فى العلوم الاجتماعية والسلوكيـة ان يعطوها ما تستحقه من جهد وعناية .

وليس المقصود بذلك ان الاهتمام بمشكلات الطفولة والمراهقة لم يظهر الا فى القرن العشرين ، اذ الواقع ان حياة الطفل والمراهق كانت تثـير دائما قدرا من الاهتمام ، وكل ما نقصده هو ان القرن العشرين شهد تغيرا كبيرا فى نوع الاهتمام نتيجة لتلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية . ولقد تجلى ذلك في النظريات الكثيرة والآراء الجديدة المتضاربة التي ظهرت بكثرة منذ بداية هذا القرن وهي نظريات وآراء نجد عرضا لها فى الدراسات التي يقدمها لنا الاساتذة الدكتور سيد خـيرى والدكتور سيد غنيم والدكتـور عبـد الرحمـن عيسوى ، والتي يعالجون فيها نواحى هامة فى التطور الفيزيقي والعقلي والانفعالى لدى الطفـل والمراهق . ولقد كان لعلـم النفس والتحليـل النفسى اكبر الفضل فى القاء كثير من الاضـواء على هذه الجوانب . ولقد دفعت كتابات فرويد وبياجيه Piajet الدراسـات السيكولوجيـة والسيكوتحليلية فى هذا المجال دفعة قوية . بل ان كثيرا من العلماء عكفـوا ليس علـى دراسـة الطفولة والمراهقة كمرحلة قائمة بذاتها أو كوحدة متمايزة بل على دراسة فترة صغـيرة محدودة من هذه المرحلة بقصد التعمق فى أسرارها . فقد زاد الاهتمام مثلا بدراسة التطور العقلي لـدى الطفل خلال الشهور الستة الأولى من حياته ، واعتمد هؤلاء العلماء فى ذلك على ألعاب الطفـل باعتبارها تعبيرا رمزيا عـن تجاربـه وتخيلاتـه واحواله الانفعالية . وربما كانت ميلاني كلايـن Melanie Klein وهي مـن تلميـذات فرويد — من اهم من عمل فى هـذا المجال بقصد الكشف عن التطورات التي يمر بها الطفل فى هذه المرحلة المبكرة من حياته ، ثم عمل ونيكوت Winnicott وهو طبيب أطفال ومحلل نفساني — بعد ذلك على تطوير أفكار ميلاني كلاين ، وآرائها وأساليبها وطرائقها ، بحيث استطاع ان يتغلغل في عقل الطفل فى شهره السادس ، وذلك علـى أساس ان هذه المرحلة المبكرة لها أهميتها القصوى فى تكوين الطفل ونموه وتطوره العقلي والجسماني على السواء . فسن السـتة شهور تعتبر هـي « المرحلة الحاسمة التي يبدأ فيها المخ باستخدام الخلايا العصبية الاضافية التي يحصل عليها فى اثناء نموه والتي رفعت الانسان فوق مرتبة باقي الرئيسيات ، وتصبح حاسة اللمس والمناولـة الوسيلة المفضلة لادراك العالم الخارجي ... وفى تلك المرحلة فقط يبدأ الطفل في ادراك حقيقة وجود عالم خارجى ، وبالتالي عالم داخلي ايضا وهـو (الأنا) . اما قبل تلك المرحلة فان معظم المليارين

من الخلايا العصبية للمخ لم تكن قد استخدمت بعد في مجالات التجربة والذاكرة والمنطق ... » وهكذا . (انظر موسوعة الهدف ٢٠٠٠ ، صفحة ١٤٧٤ من الترجمة العربية) . وبصرف النظر عن الأهمية العلمية والعملية لمثل هذه المعلومات ، فالمهم هنا هو ان الاهتمام بالطفل وبحياته وتطوره بلغ درجة عالية جدا ، بحيث اصبحت مرحلة الطفولة تقسم الى مراحل فرعية قصيرة وصغيرة يتوفر على دراسة كل منها فريق من العلماء بغية التوصل الى مزيد من المعلومات والتفاصيل الدقيقة ، التي قد يمكن الاستعانة بها في تحديد نوع التربية والطريقة السليمة لمعاملة الطفل ، وتنشئته اجتماعيا في المجتمع والثقافة اللتين ينتمي اليهما .

• • •

ولقد أسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ، وان كانت معظم دراستهم تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية ، وبخاصة دور العائلة في هذه العملية المعقدة ، والدور الذي يلعبه الوالدان بالذات في تربية الطفل ، او على الاصح في تطويعه وتشكيله لنمط الحياة في المجتمع الحديث ، وللقيم والقواعد التي تحكم سلوك أعضائه . كذلك اهتم البعض منهم بدراسة العلاقة بين نمو شخصية الطفل او المراهق ، واختلاف الادوار التي يضطلع بها ، والاوضاع التي قد تؤدى الى انحرافات السلوك لدى كل منهما . والملاحظ هنا على العموم ان معظم الكتابات السوسيولوجية التي تعالج هذه المسائل متأثرة الى حد كبير بنظريات علم النفس والتحليل النفسى ، وان كان ثمة اتجاه قوى الان الى دراسة التنشئة الاجتماعية على انها عملية تفاعل اجتماعي بكل معاني الكلمة ، اذ يتفاعل فيها الاطفال مع البالغين في العائلة وفي المجتمع ككل وفي كل مناشط الحياة . فهي ليست مجرد عملية تلقين او توجيه وتدريب من البالغين للاطفال الذين كانوا يعتبرون مجرد صفحة بيضاء يمكن للآباء ان يسطروا عليها تعاليمهم وتوجيهاتهم التي يتقبلها الأطفال ويستوعبونها ويتمثلونها ، وبحيث تصبغ شخصياتهم بصبغة معينة محددة . ومع التسليم بان عملية التنشئة تهدف في آخر الامر الى تنمية قوى الطفل وملكاته العقلية ، وتعمل على تلاؤمه مع المجتمع وتوجيه طاقته واستغلالها الى ابعد حد ممكن ، وتنمية خلقه وارادته وشخصيته عموما ، وتعريفه كيف يتقبل عادات المجتمع وانماطه السلوكية واوامره وقوانينه ، فان علماء الاجتماع الان يرون أن هذه العملية لا يمكن ان تؤدى الى ان يفقد الفرد شخصيته وفرديته ، على الاقل لان كل طفل يولد مختلفا عن غيره من الناحية الفيزيقية ، كما يمر بتجارب وخبرات تختلف تماما عن تلك التي يتعرض لها غيره من الاطفال . فكأن المسألة ـ في نظر هؤلاء العلماء ـ ليست مجرد عملية صب الأطفال في قالب جامد ، وانما للطفل دوره الايجابي الذي يقوم به في عملية التنشئة ، وهو دور يجب ان يدرس عن طريق مقابلته بدور البالغين والكبار .

٦

وعلى أية حال فانه يمكن القول ان علماءالاجتماع فى مجموعهم يحرصون فى كتابتهم حول هذا الموضوع على ابراز أثر الظروف والاوضاعالاجتماعية على سلوك الطفل والمراهق ، وتأثرهما باعضاء المجتمع الاخرين ، وتأثيرهما فيهم . ومن هنا كنا نجد معظم الكتابات السوسيولوجية تعالج موضوعات مثل أثر العائلة في الطفل ، واثرالمدرسة والعوامل المؤثرة فى سلوكهم كالعنف والتسامح فى التربية ، وذلك الى جانب البحوث« التجريبية » التي تعتمد على ملاحظة الاطفال الذين يخضعون لنوع معين من التنشئة كما هوالحال بالنسبة للتنشئة فى مؤسسات معينة أو فى مستعمرات خاصة ، لها نظمها وقواعدهاوقوانينهاوفلسفاتها المتعلقة بالتربية وهكذا . وقد أدت هذه الدراسات كلها آخر الامر الى ظهور سوسيولوجياالتربية او علم الاجتماع التربوى ، الذى يحتل فى الوقت الراهن مكانةهامةبين فروع علمالاجتماع،وان لم يحظ بالاهتمام الكافي فى جامعاتنا وبين علمائنا ودارسينا .

• • •

واخيرا فقد أفلح علماء الانثروبولوجيا فىارتياد مجالات جديدة وطريقةفىدراسة مشكلات الطفولةوالمراهقة وذلكحين بذلواكثير امنالجهدوالاهتمام فىالتطور الاجتماعي للفردفي المجتمعات التقليدية التيكانت تعرف عموماباسم المجتمعات(البدائية) وهي تسمية آخذة الآن فى الاختفاء نظرا لما تحمله من مدلولات تقويمية . ولقداتجهت الدراسات والبحوث الانثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان أهمها الاتجاه الذى يعنيبدراسة المراحل الاجتماعية التي يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد ، وبخاصةفىالمجتمعات القبليةالتي يعتمد تنظيمهاالاجتماعي على عامل السن اعتمادا مباشرا ، بحيث يتوزعجميع اعضاء المجتمع فى فئات متمايزة كل التمايز ، وبحيث تضم كل فئة منها الافراد الذين ينتمونالى مجموعة عمومية واحدة ، ويحتلون بفضل عامل السن مرتبة اجتماعية معينة ، ويمارسونمعا نوعا محددا من النشاط الاجتماعي او الاقتصادى او السياسي او الحربي او الدينييتفق مع عمر أفرادها ، ومع قدراتهم الفيزيقية وخبراتهم فى شئون الحياة والمجتمع . ويعرفهذا النظام فى الكتابات الانثروبولوجية باسم نظام طبقات العمر ، على اعتبار ان السنهو العامل الرئيسي او حتى العامل الوحيد فى التفاضل او التفاوت الاجتماعي ، وبصرفالنظر عن الاختلافات والفوارق الأخرى مثل تفاوت الثروة او غير ذلك . وتعتبر الطفولةوالمراهقة فى مثل هذه المجتمعات بمرحلة عمرية واجتماعية واحدة ، تتميز بارتباط الطفلوالمراهق ارتباطا شديدا بمجتمع النساء ، بحيث لايسمح لأى منهما فى الاغلب بالاختلاط بالرجالالبالغين الا بقدر وحساب ، كما ان الطفل او المراهق ينتقل الى مرحلة الشباب والبلوغ التييمارس أصحابهامهمة الحرب والبطولةوالاغارات الا بعد ان يمر بطقوس وشعائر خاصة تختبر فيها قدراتهالجسمية على تحمل المشاق والصمود للصعوبات والقدرة على الحرب ، وهي الشعائرالمعروفة فى الكتابات الانثروبولوجية باسم

التكريس التي تتميز بما فيها من قسوة وعنف . فبمقتضى هذه الشعائر ينتقل الفرد رسميا من مرحلة الطفولة والمراهقة الى مرحلة الشباب والرجولة المبكرة ، كما يدخل اجتماعيا الى مجتمع الرجال وينفصل عن مجتمع النساء ، ويعتبر لاول مرة عضوا كاملا فى المجتمع ككل . وهذا معناه ان مرحلة الطفولة والمراهقة ليست مجرد حالة فيزيقية او فسيولوجية ، وانما هي فى المحل الأول مرتبة اجتماعية خاصة اذا عرفنا ان هذه (المرحلة) تضم أفرادا تتراوح أعمارهم بين سن الولادة ، وسن الخامسة عشرة او اكثر ما دام هؤلاء الافراد لم يتم تكريسهم . ومن هذه الناحية يعتبرون ـ بصرف النظر عن اعمارهم الفيزيقية التي تقدر بعدد السنين ـ اقرانا وزملاء فى الطبقة ، ويعاملون معاملة واحدة متشابهة ، ويحتلون مكانة اجتماعية مجددا مع بعض التمييزات الطفيفة داخل الطبقة لا تؤثر فى خصائص النظام كنظام . (انظر فى ذلك كله مقالنا عن : « نظام طبقات العمر » ـ مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ١٩٦٣) .

والاتجاه الرئيسي الثاني الذى اتجهت اليه بحوث الانثروبولوجيين فى دراسة الطفولة والمراهقة ، وافلحوا فى الاسهام فيه اسهاما وافرا هو الدراسات المقارنة التي تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة فى معاملة الطفل او المراهق فى مختلف الشعوب والثقافات ، وكذلك مقارنة الطقوس المرتبطة بذلك ، واختلاف نظرة المجتمع الى كل منهما ، والمتاعب او المشكلات التي يقابلها كل منهما مع الاهتمام بابراز العلاقة بين المقومات الثقافية وتلك المشكلات .

وربما كانت كتابات العالمة الامريكية مارجريت ميد هى أشهر هذه الاسهامات وان لم تكن اكثرها عمقا أو أشدها دلالة . فكتابات ميد ـ كما يقول ايفانز بريتشارد بحق ـ كتابات « انثوية بمعنى الكلمة » فيها « كثير من الجدل والاستطراد اللذين يبلغان حد الثرثرة » ، كما انها تنزع الى « تصوير الاشياء فى صورة زاهية خلابة » . ولعل أفضل مثال لذلك هو كتابها الشهير عن « البلوغ فى مجتمع ساموا Coming of Age in Samoa » الذى ظهر أول مرة عام ١٩٢٩ واعيد نشره عشرات المرات ، وفيه تقارن بين متاعب المراهقة لدى الفتيان فى هذا المجتمع (البدائى) وفى المجتمع الامريكي المتقدم الحديث . ويلخص ايفانز بريتشارد الكتاب بقوله ـ وانا أنقل هنا عن ترجمتي العربية لكتابه عن « الانثربولوجيا الاجتماعية » ـ و « الكتاب يهدف فى اساسه الى ان يبين ان مشكلات المراهقة ـ وبخاصة عند الفتيات ـ التى تعتبر ظاهرة عامة أساسية فى الحياة الامريكية لا توجد فى ساموا ، وان ظهورها يلازم نوعا معينا من البيئة الاجتماعية ، بمعنى انها لا تنشأ عن الطبيعة ، وانما تنجم عن القيود التى تفرضها الحضارة الحديثة . وعلى ذلك تشرع الدكتورة ميد فى دراسة الاختلافات القائمة بين الظروف التى تصاحب مراهقة الفتاة فى كلا المجتمعين . وقد اضطرها ذلك الى ذكر كل ما تعرفه عن الوضع الاجتماعى العام للفتاة الساموية . فهى تتكلم مثلا عن طريقة تنشئتها ونوع الطفولة التى تمر بها والمكانة التى تشغلها فى حياة الاسرة والقرية والمجتمع المحلى الكبير ،

كما تتكلم عن علاقاتها الجنسيــــة المتنوعة مـــع مختلف الشبان . ولكنها تحرص أشد الحرص اثناء ذلك كله على ان تربط هذه المسائل بمشكلة البحث الأساسية لكي تبين مدى تأثير الظروف الاجتماعية فى تشكيل شخصية الفتاة المراهقة ، ونوع رد الفعل الذى يصدر عن هذه الشخصية ازاء التغيرات الفسيولوجية التى يحدثها البلوغ.

والنتيجة التى تنتهى اليها مارجريت ميد من هذه الدراسات هى أنه لا توجد فوارق بين الفتاة الامريكية والفتاة الســـاموية فى عملية المراهقـــة ذاتهـــا ، وانما تكمن الفـــوارق والاختـــلافات فى الاستجابة لها . فالمراهقة فى ساموا تطور رتيب منظـــم للميـــول والاهتمامات ومختلف انـــواع النشاط ، ولا ينجم عنها اى اجهاد أو كرب أو أزمات ، وبذلك تكون عقول الفتيات بمنأى عن الأهواء المختلفة المتضاربة والصراعات المتعارضة المتباينة ، فـــلا تراودها التأملات الفلســـفية او المطالب الجامحة التى يصعب تحقيقها . والواقع ان الفتاة هناك لا تطمح فى أكثـــر من أن تعيش لأطول مدة ممكنة قبل زواجها مع اكبر عدد ممكن من العشاق والمحبين ، ثم تتزوج من بعد ذلك فى نفس قريتها لتعيش مع أهلها واقاربها وتنجب عددا كبيرا من الاطفال .

وعلى العكس من ذلك تماما تعانى الفتاة الأمريكية المراهقة كثيرا من الارهاصات والتوتر والاجهاد بسبب اختلاف بيئتها الاجتماعية . فماهى اذن الفوارق البارزة الهامة بين الحالتين ؟ تعتقد الدكتورة ميد أن أهم الفوارق يرجع الى انعدام الوجدانات الشخصية والقيم المتصارعة فى ساموا . فالفتاة الساموية لا تهتم لانسان معين أو لشيء معين اهتماما بالغا شديد العمق ، كما انها لا تبنى آمالا عريضة على اية علاقة واحدة بالذات . وقد يكون ذلك راجعا الى أن الفتاة لاتنشأ هناك فى محيط العائلة الضيق المحصوره، وانما تجد نفسها تتحرك منذ الصغر فى محيط الاقارب الواسع الرحب ، حيث تتوزع السلطة والمحبة بين عدد كبير من الاشخاص ، ولاتنحصران فى أفراد العائلة وحدهم . ولكن الأهم من ذلـــك هو أن الثقافة السائدة فى ساموا ثقافة متجانســـة الى حد بعيد . فهم جميعا يتبعون نفس معايير السلوك ، ويعتنقون نفس المعتقدات الدينية ، ويخضعون لنفس القانون الخلقى . وعلى ذلـــك فليس هناك أى مجال للمفاضلة او الاختيار مما يقلل فرص النضال والاحتكاك بالآخرين ، ومما يساعد الفتاة المراهقة على تجنب الصراع الداخلي الذى يدور فى النفس عادة أثناء عملية الاختيار بين القيم المختلفة ، وما يترتب على ذلك الصراع من سوء التوافق ومن العصابات . اما الفتاة الامريكية المراهقة فانها على العكس من ذلك تجابه فى بيئتها الاجتماعية انواعا عديدة من القيم الاجتماعية المتنافرة ، مما يضطرها الى المفاضلـــة والى الاختيار . والاختيار هو مقدمة الصراع والنضال (الطبعة الأولى من الترجمة العربية — منشأة المعارف ١٩٥٨ — صفحات ١٤٣ — ١٤٥) .

والاساس القوى الذى تقوم عليه كل هذه البحوث الحقلية العديدة التى يضطلع بها علماء الانثربولوجيا ويقومون بها فى مجتمعات محددة ومعينة بالذات لدراسة عملية التنشئة الاجتماعية

والثقافية ، والتعرف على أساليب التربية والمشكلات التى يواجهها الطفل والمراهق ، ويعتمدون فى ذلك على الاتصال المباشر والمعيشة لفترة طويلة من الزمن تتجاوز السنة الكاملة فى معظم الاحيان مع استخدام اسلوب الملاحظة المباشرة . فكتابات هؤلاء الباحثين وتقاريرهم هي التى تزود غيرهم من العلماء من أصحاب النظريات بالمعلومات الاساسية التى يقيمون عليها نظرياتهم ويصوغون أفكارهم وآراءهم العامة حول المشكلة . . ولذا كانت هذه البحوث والتقارير الحقلية تحتل مكانة خاصة لدى المهتمين بالموضوع .

• • •

كل هذه الدراسات والبحوث والنظريات والآراء المتضاربة تدل على الاهمية البالغة التى تحظي بها الآن مشكلات الطفولة والمراهقة فى مجال العلوم الاجتماعية من ناحية ، كما تعكس من الناحية الأخرى مدى الاهتمام العام ، وبخاصة بين الآباء ، بالتعرف على خير الوسائل التي يمكن اتباعها فى تنشئة الاطفال والمراهقين ، بحيث يتحقق الهدف من التنشئة ، وهو تنمية مدارك الاطفال والمراهقين وقواهم وملكاتهم ، مع الحرص على تحقيق تلاؤمهم مع قيم المجتمع وتقاليده . ومن هنا كان السؤال الملح الذى يواجه العلماء والآباء على السواء الان هو كيف نعامل الأطفال ؟ وما هو الغرض من التربية ؟ وكيف يمكن تحقيق الشخصية السوية ؟ هذه كلها اسئلة لم تكن تتردد فى الاغلب ــ على الاقل بنفس هذه الدرجة من الالحاح ــ فى الماضي . اذ انه على الرغم من كل ما يقال عن الثورة الصناعية والتغييرات التى أحدثتها فى المجتمع فقد كانت هناك فى القرن التاسع عشر أوضاع محددة ترسم لكل شخص مكانته ومركزه ودوره وطريقة سلوكه ، سواء ضمن الجماعة التى ينتسب اليها عمريا ، أو مع الاجيال السابقة واللاحقة عليه . ولقد كانت العلاقات بين الآباء والابناء بالذات تتصف بالجدية والصراحة التى قد تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام والحب الأبوى ، وان لم يكن الأب يهتم باظهار ذلك الحب او التعبير عن عواطفه نحو أولاده ، ويعتبر ذلك نوعا من التدليل والافساد . ولذا كانت وظيفة التنشئة تنحصر فى تشكيل الطفل وتطويعه بحيث يتلاءم مع تلك الاوضاع القائمة . ورغم كل ما يؤخذ على هذه الطريقة من جمود وصرامة فلقد افلحت ــ كما يقول درايتزل Hans Peter Dreitzel فى أن تنجب رجالا ونساء لعبوا دورا هاما فى تاريخ القرن التاسع عشر فى أوروبا . كذلك فانها رغم كل ما يؤخذ عليها كانت تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام الحقيقي والحب والتماسك العائلي بحيث كان الطفل يشعر بكثير من الاطمئنان والارتياح والاحساس بالأمن ، وهى كلها عناصر يفتقر اليها كثير من الأسر الحديثة فى المجتمعات المتقدمة والصناعية . وهذا لا يعنى بطبيعة الحال انه لم تكن هناك حالات من الانحراف فى السلوك ، اذ لكل عصر ولكل مجتمع اسبابه وأوضاعه التى تدفع الى انحراف بعض أعضائه .

هذه الصرامة فى المعاملة يقابلها الآن التسامح والحرية الزائدة التي يلقاها الأطفال والتي تدفع

الكثيرين الى التساؤل الناجم عن الحيرة عن اى الاسلوبين فى التربية هو الصحيح والمجدى ، أو على الاقل الأكثر جدوى ؟ وأين هو الحد الفاصل بين الصرامة الزائدة والحرية الزائدة والذى يمكن ان يؤدى الى خلق الطفل السوى ؟ ومثل هـذه التساؤلات تبين لنا أن موقف الآباء من أطفالهم قد تغير تغيرا جذريا ، وان الآباء لم يعودوا يأخذون اطفالهم على انهم مجرد مسألة مسلم بها او تحصيل حاصل ، وانما على أنهم مشكلة تستحق التفكير والاهتمام . وبقول آخر لم تعد الأم او الأب الذى يفشل احد اطفاله في حياته يكتفي بأن يندب حظه التعس ويشفق على نفسه من سلوك طفله ، بل أصبح بدلا من ذلك يميل الى التعرف على أسباب انحراف الطفل أو فشله ، وقد يرد ذلك فى كثير من الاحيان الى نوع المعاملة التى لقيها الطفل . والموقف الصعب الذى يجد البالغون والاطفال على السواء انفسهم فيه الآن هو كيف يمكن التوفيق او الاختيار بين الافكار التقليدية التى نشأت والبالغون يميلون الى فرضها ويؤمنون بجداوها ، وبين النظريات والاتجاهات الحديثة التى تعطي للطفل مكانة واعتبارا لم يكن يتمتع بهما فى الماضي ؟ والمعروف ان التنشئة الاجتماعية هي بالضرورة — ومهما يقل عن الاتجاهات التقدمية فيها — عملية فيها جانب كبير (رجعي) أو (محافظ) أن صح هذا التعبير لانها — وان كانت تهدف الى خلق الشخصية السوية — فانها تهدف فى الوقت ذاته الى المحافظـة علـى البناء الاجتماعى والثقافى التقليدى حتى يمكن ضمان استمرارية الحياة الاجتماعية عن طريـق نقـل التراث الاجتماعى والثقافى الى الاجيال التالية . والمعادلة الصعبة هى فى ايجاد وسيلة للتوفيق بين هذين الاتجاهين لضمان الاستمرار مع التجديد ، بحيث يمكن اعداد الطفل لعصر يختلف فى مفاهيمه واتجاهاته وقيمه ونظرته الى الحياة عن العصر الذى يعيش فيه الآباء . ان الوصول الى حل هذه المعادلة الصعبة هو فى الاغلب الوسيلة الفعالة لضمان عدم تمرد الشباب والاجيال التالية ، وهى المشكلة التى تعانى منها المجتمعات الحديثة . ويعرض لنا الاستاذ الدكتور جواد رضا فى دراسته عددا من اللوحات التى تكشف لنا عن كثير من هذه الأمور .

الا أن المشـاهد على العمـوم ان معظم الدراسات التى تعالج هذه المسائل تؤكد موقف الآباء الاكثر تسامحا ازاء الاطفال ، ويعتبرون ذلك موقفا صحيا يقوم على التقدير الصحيح والفهم الصائب لمشكلات الطفولة والمراهقة . كما يكشف عن استعداد الآباء لمراجعة انفسهم ومواقفهم من اطفالهم . وهذا هو ماكنا نقصد اليه حين قلنا ان الاتجاه يزيد الآن نحو عدم اعتبار الاطفال عنصرا سلبيا فى عملية التنشئة ، او انهم يستجيبون دائما للمؤثرات الخارجية التى ترد اليهم مـن البالغين والكبار ، وان الكبار أنفسهم ليسوا دائما عوامل ثابتة فى بيئة الطفل الاجتماعية ، ولكنهم خليقون بأن يتغيروا تحت تأثير التحدى الصادر من اطفالهم . ومن الغريب انه حتى عهد قريب جدا لم تكن معظم بحوث التنشئة الاجتماعية تعتبر الاطفال « كائنات سيكولوجية واجتماعية وتاريخية فى ذاتهم » على ما يقول دراتيزل ، ولم تكن تعتبر الطفولة تصورا أو مفهوما متميزا فى ذاته ، وانه لم يساعد على ظهور هذا المفهوم الا انشاء المدارس الحديثة بعد التغيرات الواضحة التى طرأت على بناء المجتمع الحديث . كذلك من الغريب أن نجد انه رغم كل الاهتمام الذى يبديه المجتمع الحديث

بالأطفال والمراهقين ولعمليات التنشئة فان هذاالمجتمع الحديث نفسه يخلق جوا غير ملاءم تماما للاطفال بوجه عام ، لدرجة أن الكثيرين مـــن الكتاب يتشككون فيما اذا كانت هذه المرونة أو هذا التسامح ازاء الاطفال ناجم حقيقة عن فهم مشاكل الطفولة والرغبة في العمل على حلها ، والايمان بضرورة الاهتمام بمتطلباتها ، أو أنه ناجم عـــن الشعور بالعجز واليأس والاستسلام للاوضاع الراهنة التى لا يجد الآباء والعلماء لها حلا بعد أن فقدت المؤسسات والنظم الاجتماعية التقليدية ، وبخاصة الاسرة ، دورها ووظيفتها فى تنشئـــة الاطفال ، وبعد أن اصبحت المدرسة ذاتها تعانى الكثير من المشكلات ، نظرا لأن المدارس فى العادة توجه التلاميذ نحـو سياســـة تربوية محددة ومرسومة ، بدلا من أن تعمل على الكشف عـــن القدرات الخاصة بكل طفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة للافادة منهم . ان هذا التشكك ومايتعلق به من تساؤلات كثيرة وما يدور حوله من آراء خليق بأن يجد من علمائنا ومفكرينا ما يستحقه من عناية ودراسة واهتمام ، حتى يمكن ان نتجنب فى أساليب ووسائل تنشئة الاطفال والمراهقين فى مجتمعاتنا كثيرا من المشكلات التى يعاني منها الآباء والابناء فى المجتمعات الغربية الأكثر تقدما .

* * *

سيد خيري

النمو الجسمي في مرحلتي الطفولة

من الطريف أن نجد أن الاهتمام بدراسة الاطفال وخبراتهم وسلوكهم يعتبر مركز جذب لأشخاص عديدين غير أولئك الذين يرتبطون ارتباطا طبيعيا وثيقا بتربية الطفل ، وأهم هؤلاء جميعا الآباء والأمهات، فهم الذين، بحكم حبهم لأطفالهم،، يميلون لملاحظتهم فى ولع واهتمام عاطفى ، ويتتبعون تطور شخصياتهم ، ويلمحون معالم التغير في كل ظاهرة من ظواهر حياتهم ، يشاركهم في ذلك كل مهتم بعملية التربية والتنشئة لهؤلاء الاطفال كالمدرسين والمدرسات والمربين والمربيات، وغير هؤلاء كثيرون . الا أن هذا الاهتمام الشديد كثيرا ما يجعل ملاحظاتهم ونتائج تتبعهم لما يطرا على هذه الشخصيات من تغير يشوبها كثير من التحيز والاتجاه الى جانب واحد فى أحكامهم لما يلاحظونه ، فغالبية الآباء يلاحظون كل ما يؤيد امتياز أطفالهم عقليا ، ويتذكرون في ذلك كل حادثة صغيرة مرت أمام أعينهم تسير في هذا الاتجاه ، بل وينحون في تفسيراتهم هذا المنحى ، ولهذا فان الاعتماد على تقارير الآباء والأمهات وذاكرتهم المتعلقة بمراحل النمو التى مر عليها أطفالهم ينبغى لدارس نمو الطفل أن يأخذها بحذر شديد ، وان يجمع ملاحظاته من مصادر

متعددة حتى يستطيع المقابلة بين مختلف الملاحظات والذكريات ويخرج بأكبر قدر من الصحة فيما يتعلق بهذه التغيرات .

اما المتخصصون العلميون ، فانهم يهتمون كذلك بدراسة الاطفال فى فروع كثيرة مختلفة من فروع المعرفة العلمية ، فانهم بالرغم من ان موضوع دراستهم غالبا ما تكون مشتركة موحدة تنحصر فى نمو الطفل وتطوره الا أن كلا منهم ينظر الى هذا النمو من وجهة نظر خاصة ترتبط بناحية تخصصه ، وهذه النظرات المختلفة فى تجمعها تعطى الصورة المتكاملة عن عملية النمو فى شخصية الطفل جسميا ونفسيا من مرحلة ماقبل الميلاد حتى مرحلة النضج التى يستقر فيها النمو ، بل ويذهب الكثيرون الا أن دراسة النمو لا تتوقف عند مرحلة معينة ، فدراسة المسنين مرتع خصيب فى الوقت الحالى للفحوص العلمية الشيقة .

ولعل أهم هؤلاء العلماء اتصالا بموضوع النمو هو التخصص فى علم النفس الارتقائى ، أو سيكولوجية التطور Developmental Psychology **أو علم نفس الطفل كما يسمى عادة** Child Psychology **وبالرغم** من ان الدراسة العلمية لهذا المتخصص تنصب على متابعة نمو الطفل وتطوره ، الا أنه يستمد خبراته وبياناته التى تخدم اغراضه هذه من فروع مختلفة من فروع المعرفة ، ويبدو ذلك طبيعيا اذا تتبعنا المجموعة الهائلة والمتنوعة من العوامل الداخلية والخارجية التى تحدد وتؤثر في عملية النمو .

فبعض هذه المحددات نستمدها من علم الوراثة العضوية والوظيفية ، وبعضها الآخر نستمدها من علم الطب عندما تتعرض للخصائص المرضية والعوامل المؤثرة على صحة الطفل ونموه الجسمى والوظيفى ، ويدخل في ذلك علم وظائف الاعضاء Physiology والتشريح Anatomy وعلم الحياة Biology وأكثر اتصالا من ذلك فروع علم النفس المختلفة كعلم النفس التجريبى Experimental Psychology وعلم النفس المرضى Psychopathology والصحة النفسية Mental Hygiene والتوجيه التعليمى Educational Guidance وغير ذلك من العلوم المرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم النفس كعلم الاجتماع Sociology والانثروبولوجى Anthropology وبوجه خاص التربية .

فدراستنا الحالية لنمو الطفل لايمكن أن تخلو من التعرض لحقائق مختلفة من هذه العلوم التى ذكرناها وغيرها بالقدر الذى يحتاج اليه توضيح معالم هذه الدراسة .

وهذه الفروع المختلفة المرتبطة بدراسة النمو تلقى ضوءا هاما على مايحدث للطفل فى مراحل طفولته المختلفة وقد رأينا أن نبدأ بمرحلة ماقبل الولادة . فحتى عهد حديث كانت دراسة النمو تبدأ من ميلاد الطفل ، أما اليوم فانه من المعترف به أن هناك مظاهر كثيرة على جانب كبير من الأهمية تؤثر في النمو بعد الميلاد تتم قبل الولادة ولهذا فان تحديد دراستنا في السنوات التى تلى الميلاد تكون بمثابة مشاهدة رواية تمثيلية من منتصفها أو بعد مرور عدد من فصولها . فاذا بدأنا دراستنا من يوم الميلاد اصبح ما تم قبل ذلك مجهولا لنا تماما ، بالضبط كما يحدث فى حضور الرواية من منتصفها عندما تغيب عنا اشياء كثيرة عن خلفيات الشخصيات التى تقوم

بالأدوار المختلفة ، وأنه ليصعب علينا أن نتتبعنموذج النمو والتطور للطفل الا اذا عرفنا الكثير عنه قبل الميلاد . فلهذا أصبحت دراسة نموالطفل تبدأ منذ الحمل وتمتد حتى نهاية مرحلة النضج . ولهذا فان دراسة نمو الطفل ينبغىأن تبدأ من مرحلة ماقبل الميلاد لما لهذا المرحلة من اهمية فى توضيح مظاهر ومفاهيم كثيرة فىعملية النمو ، علاوة على مساعدة ذلك على ايضاح ما يزود به الطفل عند ولادته من امكانيات جسمية وعقلية يتضمنها مفهوم النمو أو التطور، وقد رأينا قبلعرضمراحل النمو المختلفة للطفلأن من واجبنا أن نوضح ما نعنيه بمصطلح النمو ، ونعرفه تعريفا اجرائيا واضحا ، ثمنعرض أهم الطرق العلمية لدراسة هذه النمو .

ولما كانت عملية النمو خلاصة لتفاعلالنضج الطبيعى Maturation مع عوامل التدريب والتعليم Learning من البيئةوجدنا من اللازم أيضا توضيح هذا التفاعلبشىء من التفصيل قبل عرض المراحل المختلفة لهذاالنمو .

وبالرغم من تداخل هذه المراحل المتدرجةتداخلا كبيرا نظرا لطبيعتها ونظرا لأن النمو فى ذاته عملية متكاملة فان الدراسة العلمية للنموتتطلب تقسيمه الى مراحل متميزة ، ونوضح المعالم الرئيسية لكل مرحلة من هذه المراحل .

ولعل انسب تقسيم لمرحلة الطفولة ينحصرفى التمييز بين اربعة مراحل مختلفة :

ا ــ مرحلة ما قبل الميلاد

ب ــ مرحلة الرضاعة

جـ ــ مرحلة الحضانة

د ــ مرحلة الطفولة : المبكرة والمتأخرة

ويمكننا أن نحدد هذه المراحل الاربعبأعمار تقريبية متدرجة فنقول ان مرحلة ماقبل الميلاد تتم خلال الشهور التسعة التى يتم فيهانمو الجنين فى بطن أمه منذ تلقيح البويضة حتى وقت الميلاد . أما مرحلة الرضاعة فتبدأ منالميلاد حتى نهاية السنة الاولى تقريبا . وأما مرحلة الحضانه فتمتد من السنة الثانية حتىنهاية السنة الثالثة . واما مرحلة الطفولةفتنتهى بمرحلة المراهقة ويمكن أن نحددها بين الثالثةوالثانية عشرة تقريبا ، وهناك اختلافات كثيرة وخاصة حول المراحل التى تسبق الطفولة 'الاولى(المبكرة) التى تبدأ من الثالثة .

والمرحلة الاولى تستمر حوالى ٩ شهورأو ٢٨٠ يوما ، وبالرغم من صغر مدتها الا أن النمو فيها يتم بغاية السرعة ، واهم مظهر لهذاالنمو هو المظهر الفسيولوجى الذى يتكون خلاله التركيب الجسمى ، أما المرحلة الثانية فهى التىتتضمن انتقال الرضيع الى بيئة مخالفة تماما للبيئة التى نشأ فيها وتعتبر مرحلة ركود فىنموالطفل الرضيع،ووظيفتها احداث عملية التوافق مع جسم الأم الخارجى ، وتستمر فيها عمليةالنمو راكدة حتى تتم عملية التوافق هذه . ووظيفة مرحلة الحضانة تدرج الطفل من الاعتمادعلى غيره فى قضاء لوازم حياته الى ان يصل

الى القدرة على التحكم فى عضلات جسمه ،فيستطيع أن يأكل بنفسه ويلبس ويتكلم ويلعب، وتعتبر مرحلة الطفولة امتدادا لذلك ، فالطفل الذى تعلم التحكم فى عضلاته يتعلم هنا السيطرة على بيئته كما يتعلم كيف يتوافق توافقا اجتماعيا ، وهذا يبدأ في سن السادسة تقريبا ، ولهذا يفضل الكثيرون تقسيم هذه الفترة الى فترتين الطفولة الأولى وتنتهى عند السادسة والطفولة المتأخرة وتبدأ بدخول المدرسة . وهاتان المرحلتان هما اللتان يتعلق بهما بحثنا هذا(١) .

• • •

المقصود من النمو :

هناك لفظان يستخدمان بمعنى واحد غالبا، وهما النمو Growth والتطور Development ونرى منذ البداية التفريق بينهما بالرغم من انه يصعب الفصل بينهما ، فهما يحدثان معا ودائما ولا يمكن أن يحدث أحدهما في غياب الآخر . والنمو يقصد به التغيرات الكمية فى أجزاء ووظائف الكائن الحى كزيادة في الحجم والتركيب وزيادة الوزن وزيادة حجم الجمجمة والتغير في وزن الاعضاء الداخلة فى بنيان جسمه ووزن وحجم المخ ، وقد ينتج عن ذلك زيادة فى قدرة الطفل على التذكر أو التفكير أو الاستدلال أو التعلم أو الادراك ، فالطفل ينمو بهذه الصورة عقليا وجسيما .

وأما التطور فنقصد به هنا التغير النوعى ، ويمكن أن نعرفه بأنه التتابع المستمر المرتب المتسق من التغيرات والتحولات التى تؤدى فى نهايتها الى هدف النضج ، ويقصد باستمرار هذا التتابع فى هذا المجال أن التغيرات تسير فى اتجاه واحد وهو الاتجاه الى الامام لا الى الخلف، كما أن تعريفا كهذا يفترض أن هناك دائما علاقة بين كل مرحلة والمرحلة أو المراحل التى قبلها ، وبالاضافة الى ذلك فان التتابع لا يحدث عن مجرد اضافة بحيث يصبح طول القامة زائدا عن طولها الاصلى ببضعة سنتيمترات ، أو يصبح حجم المخ اكبر من حجمه الاصلى بقدر من السنتيمترات المكعبة ، ولكن المفروض فى التطور ما يحدث من تفاعل ، فهو عملية معقدة متكاملة بين مختلف التركيبات والوظائف ، ولهذا فان كل تغير يعتمد على المراحل السابقة وبالتالى يؤثر على المراحل المقبلة . فالنمو اذن عملية ديناميكية تفاعلية متكاملة ، وينتهى النمو بطبيعة الحال بمرحلة النضج الذى يصل فيه التغير التركيبى نهاية مراحله ، وتستطيع الاعضاء المختلفة القيام بوظائفها على الوجه الاكمل بالمستوى الذى تتيحه له خصائص الطفل وقدراته وامكانياته الجسمية والنفسية ، وبالرغم من أن كل مرحلة من مراحل النمو تقرب الشخص من مرحلة النضج الا أنها فى حد ذاتها تعتبر فترة كاملة تعطى دليلا على مدى مطابقة سرعة نمو الفرد بالسرعة الطبيعية واقتراب قدرات الشخص وامكانياته الجسمية والعقلية من المعدل أو المتوسط المفروض الوصول اليه فى هذا السن المعين فى تلك البيئة التى يعيش فيها ، فالسن الأولى التى تظهر للطفل تعتبر دليلا على دخوله مرحلة مميزة من مراحل النمو فهى تدل على الاقل على أنه

(١) الارقام بين القوسين تدل على رقم المرجع فى قائمة المراجع فى نهاية البحث .

لم يتأخر فى عملية التسنين وأن هذه العمليةتسير بتقدم طبيعى في حالات وانه متأخر أو متقدم في حالات أخرى .

أن الكائن الحى دائمافيتغير مستمرجسمياوعقليا منذ يوم ولادته (أو قبله) حتى يوم وفاته ، وهذه التغيرات تمر في مراحل مختلفةفقد تكون فى بدايتها في أحد الاعمار ، وقد تبلغ اقصاها فى أعمار أخرى ، وقد تصل الى نهايتهافى اعمار ثالثة .

وهذه التغيرات المختلفة تؤثر على النموبأساليب مختلفة ويمكن تقسيمها الى أربعة انواع رئيسية :

١ ـ **التغير فى الحجم** : ففى كل عام كلماينمو الطفل فان ارتفاع قامته ووزنه ومحيط جسمه يزداد عادة ، كما أن الاعضاء الداخليةوالتركيبات الحشوية تنمو فى الحجم لتواجه المطالب المتزايدة للجسم . وليس هذا قاصراعلى المظاهر الجسمية بل يلاحظ كذلك فى الوظائف العقلية كالمحصول اللغوى وقدراتهالعقلية المختلفة .

٢ ـ **التغير فى النسب** : لا يمكننا ان نعتبرالطفل رجلا صغيرا كما كان يظن سابقا ، فان ابعاد جسمه تتغير مع زيادة النمو ، فنسبة حجمالجمجمة والبطن والساقين بالنسبة الى حجم الجسم كلها لا تستمر ثابتة أثناء عملية النمو بلتتغير من مرحلة الى اخرى ، وكما ذكرنا فى التغير فى الحجم فانناللاحظهذا أيضا فىالوظائفوالعمليات العقلية ، وهذا ما يميز كل مرحلة عن غيرها منمراحل النمو،فنسبة الخيال والعدوانوالانانية مثلا تزداد في مراحل خاصة وتقل في غيرها بالنسبة لسلوك الطفل .

٣ ـ **اختفاء بعض المعالم العضوية** :كشعرالجسم الرفيع الذى يكسو الجلد فى الرضيع ، وشعر الراس الناعم والاسنان اللبنية وبعضالافعال المنعكسة والمناغاة والصراخ وغير ذلك تعتبر من المظاهر الجسمية التى تختفى لعدمالحاجة اليها كلما ازداد الطفل نموا ، ويتبع ذلك اختفاء بعض المظاهر العقلية والانفعاليةكحب التملك والأثرة والزهو بالانتصار وجمع الاشياء والمنافسة وغير ذلك وكلها مظاهرلاتثبتمع الطفل بعد ظهورها في مرحلة من مراحل النمو .

٤ ـ **ظهور بعض المعالم العضوية الجديدة** :وذلك لان بعض المعالم العضوية أو العقلية قد تظهر نتيجة لعملية التعلم ، كما ان عمليةالنضج Maturatim تدفع ببعض المؤشراتة للظهور كظهور الاسنان الثابتة والمعالم الجنسيةالاوليةوالثانوية ، وفي العمليات العقلية يمكننا أن نذكر حب الاستطلاع والمعرفة والدافع الجنسيوالتأمل والتفكير الدينى وغير ذلك .

وبوجه عام نقول أن عملية النمو تتضمنعمليتين متضادتين ، أولاهما ينتج عنها اضافة أجزاء ومميزات جديدة ، والثانية تتضمناختفاءوزوال بعض المعالم القديمة ، وبطبيعة الحالفان عملية الاضافة تزداد اثرا فى الاعمار الصغيرةوتبدو أكثر وضوحا ، فهى تساعد على التكوين وملاءمة الصغير للمطالب المتزايدة للحياة المقبلةبينما تزداد عمليةالحذف كلما ازداد النمو ودخل الطفل فى مراحل جديدة ، ولكن هذا لا يمنعمن وجود العمليتين دائما فى عملية النمو .

كما أن بعض هذه العمليات تتآزر فى وظيفتها وتسير جنبا لجنب فى تأدية وظيفة واحدة ، كما يظهر ذلك فى تغير الحجم ونسب وأبعاد الجسم وازدياد الوزن فانه يكون نتيجة عادة لنمو فى العضلات والعظام ، وكما يحدث ذلك التآزر فى المظاهر البدنية يبدو أيضا فى المظاهر النفسية والعقلية كما يحدث نمو فى الذاكرة وفي مستوى الذكاء والقدرة على الاستدلال تبعا لازدياد نمو الطفل .

ان النمو سواء كان جسميا أو عقليا لا يسير بطريقة منتظمة فهو يبلغ أقصى سرعة خلال الاشهر التسعة الاولى قبل الميلاد (أثناء الحمل) ، حيث ينمو الجنين من خلية ميكروسكوبية الى طفل يزن ٧ أرطال في المتوسط و ٢٠ بوصة فى طول القامة .

وبوجه عام فان النمو تزداد سرعته بدرجة ملحوظة خلال السنوات الاولى من حياة الطفل ، ويبدو ذلك واضحا اذا قارنا بين الطفل الوليد والطفل الذى يصل عمره الى ثلاث سنوات ، فمثلا في هذه المدة تجد أن النمو يكون ملحوظا وواضحا حتى للوالدين اللذين يقضيان مع الطفل طول الوقت ، وهذا الاسراع فى النمو الجسمى يصحبه اسراع فى النمو العقلى كذلك ، واما فى المرحلة التالية التى تبدأ فى سن الثالثة وتنتهى فى سن السادسة فان النمو فيها يسير بسرعة كذلك ، ولكن هذه السرعة لن تصل الى السرعة السابقة ، وزيادة عن ذلك فان سرعة النمو تبطىء أكثر بعد السادسة تدريجيا حتى مرحلة البلوغ ، فالطفل ينمو فى هذه المرحلة الا أن نموه هذا لا يقاس بالنمو الذى يحدث فى السنوات الثلاث الأولى .

وهذا النمو بوجه عام قد لا يلحظه الطفل نفسه ، بل هذا ما يحدث عادة حيث لا ينتبه الطفل لما يحدث بجسمه من تغير الا اذا نبهه اليه غيره أو سمع تعليقا عليه ، أما الاطفال الأكبر سنا فانهم يكونون أكثر وعيا لما يحدث فى أجسامهم من تغيرات وخاصة فى المراحل التى تحدث تغيرات وظيفية كمرحلة المراهقة .

ان معرفتنا للنموذج الذى يتبعه النمو البشرى يمكننا اولا أن نعرف ما تتوقعه من أطفالنا فى السنوات المختلفة ، فدراسة النمو وملاحظته يؤدى الى تفهم طبيعة المرحلة ومايحدث فيها من نمو جسمى وعقلى ، وعن طريق التنبؤ مادام الطفل ينمو باسلوب عادى بوجه عام يستطيع المربى أن يعرف من قبل ما سيحدث له جسميا وعقليا فيعد العدة لاستقبال هذا التغير المنتظر . وبذلك لا نتطلب من طفلنا أكثر مما يستطيع آداءه جسميا أو عقليا ، ولنضرب مثلا على ذلك أن استخدام القلم والقبض عليه بأصابع اليد بطريقة يسهل معها توجيهه الوجهة التى يريدها الطفل تتطلب ان يكون الطفل قد مر بمرحلة معينة يستطيع معها التحكم فى أطراف الأصابع واحداث التآزر بين ثنى وتحريك أصابع اليد المختلفة ، وقد تجبر الطفل على هذه العملية قبل أوانها ، ونطالبه بالتحكم فيها ونتهمه بالتأخر اذا لم يستطع اتقانها ، وبالمثل فان ما يحدث من اجبار الطفل أحيانا على التحكم في عمليات النظافة في التبول والتبرز قبل المرحلة العادية

الطبيعية فيه اشعار للطفل بعدم كفاءته للقيامبما كان يجب عليه القيام بهممايسبب له مشكلات انفعالية في المستقبل ، والطفل فى هذه المرحلةينظر الى أوامر وتوجيهات والديه على انها الأوامر الطبيعية للطفل العادى فى نفس سنهوبذلك يحرم الطفلدائما من الحوافز والمشجعات التى تعينه على تحقيق ثمرات نموه. وقد يؤدىهذا به الى مقاومة دائمة لكل من يقلل من شأن قدراته وامكاناته الطبيعية .

والقيمة التشخيصية الأخرى لدراسةمراحل النمو ومعدلاته تنحصر فى وضع معايير المعدلات التى يصل اليها الطفل العادى فى مرحلةمن المراحل ، فنحن نعلم مثلا أن التسنين الاول يبدأ عند الطفل العادى فى مرحلة معينة ، وانالمشى أو الحبو يبدأ فى المتوسط فى سن متوسط محدد ، فاذا تأخر الطفل فى عملية من عملياتالنمو عما يحدث عادة في الطفل العادى كان هذا نذيرا بتأخر جسمى أو عقلى لدى الطفل ،واستوجب هذا عناية خاصة منا بالطفل ، ومن الطبيعى أن هذا المعدل بالرغم من أنه عام الا انهيتغير نسبيا بين الجنسين ، كما يتغير فى كل جنس منهما من مكان الى آخر ، فنعلم مثلاان مرحلة المراهقة تبدأ فى بعض المناطق مبكرة عن غيرها ، ذلك لأن المعروف أن النمو دالةللسن أى أن (ن = (د) س) وليس معنى ذلك أنه يتوقف على السن وحده بل يتوقفعلى عوامل وراثية وبيئية كثيرة يمكن تحديدها الى حد كبير كالمرض والتغذية والعواملالنفسيةوغير ذلك ، فاذا حدث لدى الطفل ما قد ادى الى تأخر نموه فى مرحلة معينة كانت مهمتنا بعدذلك مهمة تشخيصية ، حيث يضع المشخصأمام عينيه جميع العوامل المحتملة ، وبطريقالحذف يستطيع أن يحدد نفسه في عدد من العوامل القليلة ، وبالرغم من أن هذه العمليةالتشخيصية تبدو سهلة هينة الا انها فى حقيقتها عملية شاقة ، حيث لا تتوفر لدى الاخصائىالنفسى عادة المعلومات الكافية التى تساعد على رسم الصورة الكاملة ، ويصبح واجبه أولاتحديد الناقص ثم كيف يملأ هذه الفراغات الناقصة ، ففى بعض الاحيان لا يساعده التقدمالعلمى الحالى لاكتشاف هذه الفجوات ، ويكون السبيل الوحيد الى ذلك هو استخدام البحثالعلمى ، وقد يتطرق هذا البحث العلمى الى فروع كثيرة غير علم النفس كالطب والتربيةوالانثروبولوجى والاجتماع مثلا ، فمن علم الانثروبولوجيا عرفناالكثير عنأثر نموذج التدريبفي الطفولة على سرعة النمو وطبيعته ، وقد أمدنا علم الاجتماع بحقائق كثيرة عن العلاقة بين حجمالاسرة والعلاقات العائلية وخاصة بين الأخوة مما يؤثر على النمو نفسه ، ولما كانت التغيراتالجسمية والنفسية التى تحدث خلال فترات النمو ترتبط ارتباطا وثيقا بالتغيرات العضويةوالوظيفية كان من اللازم دائما ان نلجأ الىالطب وعلم وظائف الاعضاء فى بحوثنا عن النموومسببات سرعته ، اما التربية فهى التى تتيح الفرصة لعامل النضج الوظيفى والعضوى لانيسير فى مجراه الطبيعى ، ويمكننا ان نقتبس هنا المعايير الشائعة الاستخدام وهى توضحالامكانيات التى يستطيع الطفل فى كل مرحلة القيام بها .

أولا ـ مرحلة الحضانة Infancy والطفولة الاولى Early Childhood (من الميلاد حتى ٦ سنوات) .

القدرة على المشى

القدرة على تناول المأكولات الصلبة

القدرة على الكلام

القدرة على التحكم فى التخلص من فضلات الجسم

ادراك الفروق الجنسية

احراز الاستقرار الفسيولوجى

تكوين المفاهيم البسيطة عن الحقائق الاجتماعية

القدرة على ادراك علاقته انفعاليا بوالديه واخوته وباقى افراد مجتمعه .

القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ وظهور ما يمكن ان نطلق عليه الضمير .

ثانيا ـ الطفولة المتاخرة (٦ـ١٢ سنة) Late Childhood

اكتساب المهارات اللازمة للالعاب العادية

بناء اتجاهات عامة نحو نفسه باعتباره كائنا ناميا

تعلم التصرف مع زملائه من نفس عمره .

ادراك دوره كشخص مذكر أو مؤنث .

تنمية المهارات الاساسية للقراءة والكتابة والحساب .

تنمية المفاهيم اللازمة للحياة اليومية .

تنمية الضمير الاخلاقى وادراك مجموعة القيم الاساسية .

تحقيق الاستقلال الذاتى .

تكوين اتجاهات نحو الجماعات والمؤسسات الاجتماعية(٢) .

وقد ذكرنا ان هذه المعايير بغض النظر عن الفروق البيئية والفردية البسيطة نسبيا فهى واحدة وثابتة لجميع الاطفال فى كل سن ، وبهذا نستطيع ان نكتشف الانحراف فى كل طفل عن هذا المعيار، والبحث بالطرق العلمية عن الجوانب التى ادت الى هذا الانحراف ، ونعمل على علاجه سواء من الناحية الجسمية أو الانفعالية او الاجتماعية . وينبغى أن ندرك ان هذه المظاهر المختلفة فى كل مرحلة مرتبطة متشابكة بحيث لا يتسنى لنا أن نعزل مظاهر النمو العضوى أو الجسمى عن الانفعالى أو الاجتماعى ، ولنضرب مثلا بسيطا على ذلك : لنفرض ان الطفل كان

حجمه فى سن معين زائدا عن المعدل بحيث يبدو أكبر من سنه فان مجرد كبر حجم جسمه هذا يجعله يعانى من مشكلات كثيرة انفعالية واجتماعية فهو لا يستطيع أن يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين فى سنه لانهم يعتبرونه أكبر منهم ، ويجد هو نفسه حرجا في اللعب معهم، كما انه لا يستطيع أن يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين يناسبونه فى الحجم ، ذلك لانهم سيكونون أكبر سنا ولهم ما يناسب هذا السن الكبير من القدرات والميول والاهتمامات ، وهذه بطبيعة الحال لابد وأن تختلف عن خصائصه النفسية والاجتماعية ، مما قد يدفع به الى الميل للعزلة وتجنب الآخرين ، والسبب هنا مشكلة جسمية غاية فى البساطة كما تبدو .

● ● ●

الدراسة العلمية للنمو :

ان بداية الاهتمام بدراسة الطفل لم تأت من اهتمام علماء النفس بالطفل نفسه بل من اهتمامهم بطريقة تربيته ومعاملته المعاملة المناسبة لسنه وتتبع ما يظهر عليه من تقدم أو تأخر لجعل طرق تربيته تتمشى مع ما يظهر عليه من هذه المظاهر .

ومن أول المصلحين التربويين كان Johnn Amos Comenius الذى عاش في القرن السابع عشر والذى كان ينادى دائما بدراسة الطفل كما هو لا على اعتبار أنه رجل صغير وقد كتب كتابين أولهما المدرسة فى مرحلة الحضانة « الذى نشر في سنة ١٦٢٨ School of Infancy الذى وصف فيه نمو الطفل حتى السادسة من عمره .

وبعد كومنيس ظهر اتجاهان مختلفان فى دراسة الطفل : الاتجاه الاول كان متميزا بالمعالجات الفلسفية للتربية ، بينما كان الثانى مباشرا في دراسة الطفل عن طريق الملاحظة . ويمثل الاتجاه الاول لوك Loke فى انجلترا وروسو Rousseau فى فرنسا ، وبستالوزى Pestalozzi فى سويسرا ، وهربارت وفروبل فى المانيا . وقد كان الاتجاه الثانى أكثر فائدة فى دراسة النمو ، ولعل أول خيط في هذا الاتجاه ظهر فى سنة ١٧٧٤ وتمثل في مذكرات بستالوزى عن طفلة في سن الثالثة والنصف ، وبعد ذلك فى ملاحظات تأيد مان Tidemann التى دونها عن أطفاله ، كما كانت ملاحظات Millicent Skinn التى ظهرت سنة ١٩٠٠ عن نمو طفلة ابنة أختها خلال السنة الاولى من عمرها طريفة للغاية .

وببداية الدراسة العلمية للطفل التى قام بها Stanley Hall في جامعة كلارك Clark فى سنة ١٨٩١ اتجهت الدراسات بعد ذلك الاتجاه العلمى ، واتخذت الاسلوب العلمى المبنى على الملاحظة الدقيقة المضبوطة ضبطا علميا ، واصبح الاهتمام الاساسى هو دراسة الطفل ذاته فى أعماره المختلفة وفى مواقفه المتباينة .

ومن ذلك يتضح ان دراسة وتتبع نمو الطفل قد اتخذ اهدافا متعددة ، فبينما كانت الدراسة في أولها تهدف الى النهوض بأساليب تربية الطفل انحرف التركيز الى الاهتمام بالطفل

قبل مرحلة المدرسة بهدف الوصول بتدريبهعلى العمليات الجسمية والعضوية البسيطة الى اقصى ما تتيحه وسائل التدريب ، ثم تركزت الدراسة بعد ذلك فى معرفة الامكانيات الطبيعية (الفطرية) التى يزود بها الطفل فى مراحله الاولى بحكم فطرته وطبيعته ، حتى يمكن معرفة ما يمكننا بعد ذلك اكسابه من مهارات والى أى حد نسير معه فى عملية التدريب . كما أن من بين الاهداف الرئيسية التى اتخذتهادراسة الاطفال الصغار اكتشاف مدى صدق بعض النظريات السيكولوجية التى ظهرت فى هذاالوقت كنظريات Watson المتعلقة بالانفعالات الفطرية الثلاثه ، أو باكتساب الانفعالات عن طريق الاشتراط ، وغير ذلك من الجوانب العقلية من شخصية الطفل ، كثبات معامل الذكاء والعلاقة بين ذكاء الطفل وذكاء والديه ، والعلاقة بين ذكائه ومهنة الوالد وهكذا(٣) .

● ● ●

طرق دراسة نمو الطفل :

مما سبق يتضح أن دراسة نمو الطفل تنحصر فى :

١ ـ **الملاحظة الحالية لسلوك طفل معين** فى مرحلة معينة ، وقد تتسع هذه الطريقة فتتضمن ملاحظة عدة أطفال فى نفس المرحلة من العمر ، والخروج بسلوك متوسط تتميز به هذه المرحلة سواء كان ذلك فى الجوانب الحسية الحركية أم في النواحى الوظيفية العقلية أم فى النواحى الانفعالية .

٢ـ **استرجاع نتائج ملاحظات سابقة** Retrospective Reports لطفل معين ، والحصول من هذه التقارير على مميزات كل مرحلة مر عليها الطفل .

٣ ـ **الاستجابات التى يحصل عليها الباحث من استبيان يملأه** الوالد أو الوالدة أو الاخوة أو الافراد الذين يحتكون بالطفل غالبا كالمربية أو احدى القريبات .

وسواء استخدم الباحث وسيلة أو غيرها من هذه الوسائل فان دراسته لابد أن تكون واحدة من نوعين :

أ ـ **الدراسة المستعرضة** Cross-Sectional حيث يضم الباحث عدة دراسات تخصص كل منها فى جانب معين من جوانب الشخصية ونخرج من هذه الدراسات بمميزات مرحلة من المراحل ، تضم الجوانب الجسمية ـ الحركية والجوانب الوظيفية والنمو الانفعالى ومختلف مظاهر النمو ، ويتكرر ذلك في كل مرحلة ، وبذلك يخرج الباحث بصور متتابعة لشخصية الطفل ، والمهم فى هذه البحوث أن تكون العينات التى تدرس عينات ممثلة تمثيلا احصائيا صادقا لمجتمع الدراسة ، وبجمع نتائج هذه الدراسات التى أجريت على عينات مختلفة يمكننا أن نتخلص من الآثار البيئية بقدر الامكان فى المجتمع الواحد .

وبالرغم من المزايا العديدة لهذا النوع من الدراسات ، واتباعها المنهج العلمى السليم بقدر الامكان الا أن لها مثالب لا يمكن أن نغفلها ، فهى لا تعطينا الا صورة تقريبية للنمو وتتابعه، ولايمكن ان نصل بها الى صورة دقيقة للنمو في بيئة محددة ، فاذا اردنا أن ندرس النمو الذى يطرا على سن الرابعة عشرة مثلا فلابد أن تتضمن العينات الأولاد والبنات فى أماكن مختلفة قد يختلف فيها النمو الجنسى والعضوى مع مايتبع ذلك من تغيرات نفسية ، والنتائج التى نحصل عليها فى هذه الحالة لا تنطبق على نتائج دراسة النمو لهذه المرحلة فى مكان معين ولجنس معين فهى لا تأخذ فى اعتبارها الاختلافات البيئية التى تحدث خلال حياة الفرد الواحد من مرحلة لمرحلة اخرى .

كما أنها لا تدلنا على سرعة التغير فى مهارة معينة من مهارات الشخصية ، ولنأخذ مثلا مهارة استخدام أطراف الاصابع وتطور هذه المهارة من الميلاد حتى نهاية السنة السادسة فان الدراسة المستعرضة لا تصل فى تفاصيلها والدقة فى دراستها الى تتبع مظهر دقيق من مظاهر التغير ، كما أن هذه الدراسة لاتدلنا على الوقت الذى يزداد فيه تطور هذه المهارة والفترة التى تبطىء فيها .

ب ـ الدراسة الطولية Longitudenal وتتضمن هذه الدراسة فحص مجموعة من الاطفال عدة فحوص في فترات مختلفة متتابعة هى أقسام فترة الدراسة التى يخططها الباحث لنفسه قبل بحثه ، وهذه الدراسة اذا توخت الدقة كانت حريصة على الحصول على نفس افراد العينة من الاطفال خلال نموهم ، ولكن الباحث كثيرا ماتضطره ظروف بحثه الى التنازل عن هذا الاشتراط فيأخذ عينات مختلفة فى المراحل المختلفة في نفس الوقت الذى يجرى فيه البحث مفترضا فى ذلك افتراضا فيه مغالطة كبيرة وهى أن العينات المختلفة تعادل في خصائصها نفس العينة الاولى عندما تصل الى نفس سنها ونفس مرحلة العمر التى تمر بها الآن ، وبذلك يتغلب الباحث على عامل الوقت الطويل الذى كان يمكن أن تستغرقه الدراسة الطولية لو سارت كما يجب ، وتضمنت الدراسة نفس العينة فى مختلف أعمارها ، وفى هذه الحالة تستغرق الدراسة عشرات السنوات ، وعلاوة على ذلك فان الباحث لا يضمن بقاء أفراد العينة تحت سيطرته وملاحظته المضبوطة دون تغير حتى في حالتهم الدافعية وتقبلهم لوضعهم موضع الدراسة طول هذه الفترة .

ولكن هذه الدراسة بالرغم من الصعوبات الآنفة تساعد الباحث على دراسة التغير فى ظاهرة أو وظيفة معينة مهما كانت دقتها خلال فترة النمو ، ولهذا فنحن نفضلها وسنستخدمها فى هذا البحث ، ويعتقد كثير من الباحثين النفسيين ان هذه الطريقة هى المسؤلة عن وجود فجوات فى معرفتنا عن النمو فى الوظائف المختلفة فى مختلف المراحل ، لان الباحث عادة لا يستطيع أن يتتبع النمو خلال كل فترة صغيرة من فترات النمو بل يأخذ دراسته فى قفزات زمنية لابد أن يفصل بينها فترات مهما كانت صغيرة ، هى التى تخرج عن الدراسة ، وتظل هذه الفترة مجهولة مع ما قد يصاحبها من تغيرات قد تكون حاسمة فى دراسات معينة .

وبالرغم من أن هاتين الطريقتين همـا الطريقتان الرئيسيتان في دراسة النمو فان كلا منهما قد تتخذ الاساليب العلمية المناسبة للدراسة ، ومن بين هذه الاساليب العلمية : التجريب عن طريق التحكم فى العوامل المؤثرة ، وتثبيت بعض العوامل وتغير غيرها ، وطريقة التجريب على الحيوان على اساس ما بين نمو الطفل الآدمى والطفل الحيوان من عوامل متشابهة ، أو الدراسة المقارنة بين الانسان والحيوان فى مرحلة معينة من مراحل النمو ، كما يتبع بعض الدارسين طريقة عزل فرد اوافراد من العينة للتخلص من بعض العوامل البيئية والاجتماعية ، وهذه تتبع بدرجة اكثر مع الحيوان لصعوبة تطبيقها على الانسان . ومهما كان اسلوب الدراسة فيجب الا نسقط من اعتبارنا الفروق الواسعة بين تغير الانسان والحيوان خلال انتقالهما من مرحلة الى اخرى ، وما قد يتخلل هذا التغير من اختلاف فى النضج العضوى والبيولوجى ، وفرص التدريب خلال الحياة وهذا الموضوع هو الذى سنعالجه في النقطة الآتية :

●●●

النضج والتدريب Maturation and Learning (training)

قد نستنتج مما ذكر عن الأهمية الكبرى للنضج ، الذى يتضمن ظهور نماذج سلوكية على الطفل مهما كان اسلوب التدريب الذى يلقاه من البيئة ، ان واجب الوالدين لا يزيد عن انتظار حدوث عملية النضج كى تتم فى مجراها الطبيعى دون أن نتدخل فى استعجالها أو تحويلها ، والواقع يختلف عن ذلك كثيرا فالعوامل البيئية والتدريب الذى يتلقاه الطفل الصغير من بيئته يلعب دورا هاما في عملية النمو فالعمليتان تسيران معا ، ولكن يمكن تمييز أحداهما عن الاخرى ، وعلى المربى فعلا ان يميز بين هاتين العمليتين ، فزارع النبات لابد أن يميز ما اذا كان سبب رداءة النبات راجعا الى ضعف فى البذره أوقلة الرعاية وسوء الظروف البيئية حتى يستطيع تحسين الناتج فى المستقبل . ولا يكفى الآن ان نسلم بأن العمليتين تتفاعلان فى عملية النمو بحيث نستطيع أن نرجع كل مظهر من مظاهر النمو اليهما معا ، ولكن الاهم من ذلك أن نحدد طبيعة عملهما والى أى حد يؤثر كل منهما فى نمو الطفل .

ويجدر بنا بادىء ذى بدء أن نبين ان عملهما لا يكون على صورة الاضافة بل التفاعل التام ، بمعنى اننا لانستطيع ان نقول أن النمو = النضج + التدريب ولكن الأصح أن نقول ان النمو = النضج × التدريب ، وذلك لانه اذا انعدم أحد الاثرين فان الناتج ينعدم تماما ويختفى النمو .

فالطفل الرضيع يكون لديه الطاقة الطبيعية لأن يحبو على الارض فى وقت معين ، ولكن عملية الحبو فى هذا الوقت لن تتم بنجاح الا ان وجد الطفل امامه فسحة من ارض وكانت لديه حرية الحركة فى وقت من أوقات نموه ، والطفل تكون لديه القابلية في وقت معين لينطق ببعض حروف ويستخدم حنجرته فى اظهار الاصوات ، ولكنه يحتاج في هذا الوقت الى عملية التشجيع

والتدريب من المحيطين به حتى تتم عملية الكلام والتحدث بطريقة سلسة وفى تيارها الطبيعى . ويمكننا أن نلخص هنا القواعد التى يتم عليها التفاعل بين العمليتين فيما يلى :

(١) ان التدريب الذى يلقاه الطفل من البيئة التى تحيط به هى الوسط الذى تعمل فيه الامكانيات الطبيعية التى يزود بها الطفل والتى تنضج لديه في سن معين .

(٢) كلما كانت الظروف المادية التى تحيط بعملية التدريب مناسبة أسرع النمو وكانت نتائجه أكثر ضبطا واتقانا .

(٣) بالرغم من أن عملية النضج تتم طبيعيا فان عوامل التدريب قد تعطل من اثر هذه العملية .

ولكن هذا التعطيل غالبا ما يكون محدود التأثير وكامنا ، بحيث اذا أعطيته الظروف المناسبة عادت سرعة عملية النضج الى طبيعتها ، بل قد تعوض الفترة التى أدت الى تعطيلها من عدم اتاحة الظروف المناسبة .

ولقد لخص جيزيل Gesell هذه القواعد فى جملة واحدة حيث يقول(٤) :

« ان النمو الداخلى هبة من الطبيعة ، فنحن يتسنى لنا أن نوجهه ولكننا لا نستطيع أن نخلقه . كما اننا لا نستطيع أن نمنعه بأية قوة بيئية » . ومعنى هذا ان عملية التدريب وماتحدثه من توافق انما هى محدودة بالخصائص الذاتية والداخلية للكائن الحى الذى ينمو . وينبغى مراعاة هذا فنيا فى عمليات التربية والتدريب والتوجيه التعليمى ، حيث أن قدرا كبيرا من الافساد لطبيعة الطفل تحدث عندما ندفع بالطفل دفعا لعملية لم يستعد لها ولا تناسب خصائص نموه وامكاناته النفسية في هذه المرحلة التى يمر بها ، وهذا ما أوضحه جيزيل فى تجاربه العديدة على الاطفال العاديين والتوائم . والقدرات الجسمية الحركية تخضع لهذا التفاعل بين النضج والتدريب ، فبالرغم من أن الاطفال فى بعض البلاد كانوا يقيدون فى حركاتهم برباط محكم أثناء فترات حياتهم الاولى الا انهم يلحقون بغيرهم من الاطفال الآخرين عندما تترك لهم فرصة الحركة العادية .

واذا قلنا ان التدريب يتيح للامكانيات الطبيعية الفرصة لأن تعمل فى اعلى حدودها فاننا نفترض عادة وجود حد أعلى لكل وظيفة من وظائف النمو يمكن ان تصل اليه ، ولكن هذا افتراض فقط . ولكننا لابد وأن نعترف بأن التدريب له اثره الفعال فى نتائج عوامل النضج ، فالأطفال الذين يربون فى مؤسسات فى سنواتهم الاولى يظهر تأخرهم عندما تحل مرحلة انطلاق القدرة على الكلام حيث يبدو تأخرهم في هذه المهارة عن الأطفال العاديين بدرجة ملحوظة الى ان يسير تفاعلهم الاجتماعى سيرا عاديا فتتحسن قدرتهم على التعبير والانطلاق اللغوى والى أن يستردوا امكانياتهم الطبيعية فى ذلك .

ولعل النقطة الأساسية في عملية التفاعل بين التدريب والنمو تنحصر فى عملية التوقيت ، فالتدريب لا يجدى اذا بذل في مرحلة سابقة على مراحل النضج . فالامكانيات الفسيولوجية

ينبغى أن تكون معـدة قبل ان تظهر القـدرةالعقلية ، ومعنى هذا انه بالرغم من ان الوظيفة والتكوين الجبلي يعملان جنبا لجنب وفى تفاعل تام الا ان التكوين الجبلي ينبغى ان يسبق الوظيفة ، وهذا ينطبق على المهارات الحركية ،والمهارات العقلية والسلوك الجنسى على حد سواء . فالأطفال الصـغار لا يمكن أن يكتسبوامهارة مبينة على فعـل منعكس شرطى الا اذا كانت مرحلة النضج في الجهاز العصبى مهياةلذلك مهما اكسـبناهم من تدريب ، وقدرة الرضيع على قبض الاشياء بيديه لا يجدى معهاالتدريب قبل أن يكون هو معدا لذلك .

ولعل الصـعوبة تنحصر في تحديد السنالمناسب تماما بوجه عام فى جميع الاطفال في سن معينة لكى يجرى التدريب معهم،وذلك لسببين:السبب الاول هو اننـا لم نسـتطع حتى الآن الوصول الى تحـديد علمى للسن الذى يتم فيهنضج الوظائف الجسمية والعقلية وذلك لوجود الاختلافات الواسعة والفروق الفردية والبيئيةبين الأطفال ، وثانيا بسبب الافكار غير الصحيحة التى سادت تربية الطفل فترة من الزمن والتىلازالت مؤثرة على المربين ، ومؤداها ان كلطفل ينبغى أن يكون قادرا على التعلم اذا دخـلالمدرسة أو اتيحت له فرصـة التدريب المثمر . والواقع ان هذا يتوقف على امور ثلاثة :

(١) اهتمام الطفـل بالتعليم واحـرازالتقدم مهما كان صغيرا .

(٢) مدى بقاء هذا الاهتمام ودوامة لدىالطفل .

(٣) مدى التقـدم الذى يحرز نتيجـةللتدريب والتعلم ، وهـذه العـوامل ينبغى ان تكون متوفرة جميعا عندما تحل مرحلة الوصولالى النضج فى المهارة التى يقوم المربى بتدريبها لدى الطفل .

وبالرغم من الأثر الواضح لتفاعل التدريبمع النضج فان النمو عادة يتخذ نموذجا عاما فى تقدمهمعوجود الفروق الفردية التى أوضحناها.والمراحل التى يمر بها النمو فى جميع الاطفـال لا تختلف كثيرا من طفل الى طفل فى بيئة معينة.ويكون اثر هذا التفاعل فى حدود السياق الذى تشترك فيـه جميع الأطفال في معالمه . فالنمومثلا يتنقل من الخصائص العامة الى الخاصة ، فالدراسـات العلمية قد أوضحت أن الطفـلالصـغير يتعلم أولا الكلمات العامة قبل الكلمات الخاصة،والجنين قبل الولادة مثلا يحرك جسمهكله أولا قبل أن يستطيع ان يحدث استجابات محددة ، وحتى فى الجانب الانفعـالى : فانانفعالات الطفل الصغير تبدأ عامة ثم تتميز بعد ذلك الى انفعالات محددة وهكذا . كما أن النمويبدأ بالاجزاء القريبة اولا ثم يتدرج الى الأجزاء البعيدة وهذا ما يطلق عليه Propimodistal Law ويمكن أن نطلق عليه القانون التقـاربى اى يبدأ مثـلا من المحور المركـزى للجسم الىالأطراف البعيدة ، وينطبق هذا على النموقبل الميلاد حيث ينمو الرأس والجذع قبل ان تظهرمبادىء الاطراف وحتى في الناحية الوظيفيـة فان الطفل يستخدم ذراعيه جيدا قبل أن يستخدم يديه ، ويستخدم يديه قبل أن يستخدم أصابعه ويسيطر على حركاتها .



شكل (١) قوانين اتجاه النمو ، ماخوذة من (١٧)

ولعل ظهور الأسنان دليل آخر على ثبوت نمط التتابع والسياق فى النمو لدى الاطفال فبوجه عام تظهر الأسنان السفلى قبل العليا والقواطع قبل الاضراس وبوجه عام نستطيع أن نقول أن الاسنان التى تظهر أولا للطفل هى أولى الاسنان التى تستبدل بأسنان دائمة وهكذا وهذا ما يجعلنا نستطيع ان نرتب التطور السلوكي في مراحل عامة على النحو الآتى :

من ٤ أسابيع الى ١٦ أسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته الحركية .

من ١٦ الى ٢٨ أسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته التى تحمل رأسه وتحرك ذراعه ، وهذا ما يجعله يبدأ فى محاولة الوصول الى الأشياء البعيدة عن جسمه .

من ٢٨ الى ٤٠ أسبوعا يسيطر على جذعه ويديه ، وهذا يمكنه من الجلوس والقبض والانتقال وتداول الأشياء بيديه .

من ٤٠ الى ٥٢ أسبوعا تمتد سيطرته الى ساقيه وقدميه والي أصابعه . كما أنه يستطيع أن يقف ، وخلال السنة الرابعة يسأل أسئلة كثيرة ، ويبدأ فى التعميمات وتكوين بعض المفاهيم المبسطة ـ أما في الحياة اليومية المنزلية ففى هذه المرحلة يبدأ فى الاعتماد على نفسه ويزيد هذا الاعتماد حتى نهاية السنة السادسة حين يبدأ بالتعامل مع بيئته حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة كما سبق ايضاحه .

ونظرا لأن هذا البحث يتعلق بالنمو الجسمى لمرحلتى الطفولة فان التركيز سيكون على مرحلة الطفولة المبكرة التى تنحصر بين السادسة والثانية عشرة ومع هذا فلا يمكننا أن نتجاهل المراحل السابقة وهى ما قبل الميلاد ومرحلة الرضاعة والحضانة بالقدر الذى نوضح به تأثير هذه المراحل على مرحلتى الطفولة . الا أن دراستنا ستكون طويله فنتتبع مظاهر معينة منذ الولادة حتى نهاية الطفولة دون تقسيم لهذه المراحل فى هذا التتبع ولكننا سنفرد جزءا خاصا موجزا عن مرحلة ما قبل الميلاد نظرا لتميزها وارتباط مظاهرها ارتباطا يضطرنا الى دراستها كوحدة متكاملة .

• • •

مرحلة ما قبل الميلاد *

منذ القدم تداولت افكار اغلبها خرافية عن تأثير خبرات الأم على تطور الجنين فى بطنها، فنواحى الشذوذ الجسمى والعقلى فى الطفل كانت تعزى لتأثير دم الأم ، ولكن الآن بعد أن أوضح العلماء أن دم الطفل ودم الأم لا يختلطان، واتضح أن دم الجنين انما يتكون من الاوكسجين

* المعايير الخاصة بالنمو المذكورة فى هذا البحث مستمدة من

HURLOCK, E.B. : Child development M.C. Graw-Hill Book Company

والماء والمواد الغذائية التى تمتص الى دم الجنين عن طريق تركيب يشبه المصفاة تعدل الرأى السابق . وقد اتخذت دراسة الجنين اساليب متعددة يمكن تلخيصها فى :

(١) التقارير التى تقدمها الأم عن تحركات الجنين .

(٢) صوت ضربات الجنين والحركات التى يمكن تتبعها بأدوات تتصل ببطن الأم .

(٣) الملاحظة المباشرة لأجنة اخرجت عن طريق العمليات الجراحية من بطون أمهاتهم .

(٤) دراسات الأجنة فى الحيوان .

ولسنا بصدد توضيح لعملية الوراثة فى هذا المجال لشرح التكوين الكروموزومى للجنين بما فيه من مورثات ، كما لا تعنينا ايضا الأساليب الموضوعية والعلمية لتحديد جنس الجنين قبل الولادة ، ولكن الذى يعنينا ما يتصل بما يكون عليه الجنين عند ولادته مباشرة . فبمجرد أن تلقح البويضة بالحيوان المنوى الذكرى يبدا النمو ويتطور من خلية واحدة الى طفل قد يصل تكوينه الى ٢٠٠ بليون خلية من انواع مختلفة ،يتم هذا كله خلال تسعة اشهر في المعتاد ،ويظهر التغير من خلية مفردة ليس لها قدرة فى ذاتها الى طفل يتكون من عظام وعضلات وجلد وأعضاء داخلية وجهاز عصبى مستعد للعمل حتى قبل الميلاد . وتدل البحوث على أن النمو لايتخذ فقط صورة ظهور اعضاء جديدة بل قيام الجسم بوظائف جديدة كذلك بحيث يبدو النشاط على الجنين متخذا صورا مختلفة .

وقد وجد أن بعض الأجنة تكون نشطة خلال ٧٥٪ من وقتها ، بينما نجد ان بعضها الآخر لا يملأ نشاطها اكثر من ٥٠٪ من وقتها . وبعض الأجنة تدير راسها ، وقد بينت الدراسات أن الحركة في كل اجزاء الجسم تحدث فى أوقات محددة يمكن التنبؤ بها على قدر من الدقة ، وقد تبين انه حتى في حالة الأطفال الذين يولدون عن طريق عملية جراحية فان الحركة تسير تبعا لنفس النمط وهى تشبه حركة الدودة بانقباض الاذرع والساقين . ويمكن تقسيم حركة الوليد الى نوعين .

(١) نشاط عام يتضمن جزءا كبيرا من الجسم .

(٢) افعال منعكسة أكثر تحديدا ،وحركة الوليد تتوقف على عوامل كثيرة فبعد الولادة مباشرة تقل الحركات فى الدقائق الخمسة الأولى ثم تزداد تدريجيا حتى الدقائق الثلاثين الأولى .وقد وجد أن الاطفال الذين كانت حركتهم زائدة وهم في بطون أمهاتهم يكتسبون بعض المهارات الحركية فى وقت اسرع بعد ميلادهم عن الأطفال الذين كانت حركاتهم قليلة ، وعلى العكس بالنسبة للتوافق مع البيئة الخارجية فالأجنة الكثيرو والحركة يجدون صعوبة أكثر من الأجنة قليلى الحركة فى توافقهم مع بيئتهم ،وهناك دراسات عديدة تدور حول اثر طريقة الولادة على نمو الطفل الجسمى والعقلى بعد ذلك ولكن اغلبها غير مؤكد ، اللهم الا اذا كانت الولادة العسرة قد احدثت فعلا تلفا فى دماغ الطفل نتيجة استخدام الادوات الميكانيكية في اخراج الطفل . فقد وجد وايل وديفز Wile, S. and R. Davis ان الأطفال الذين يولدون

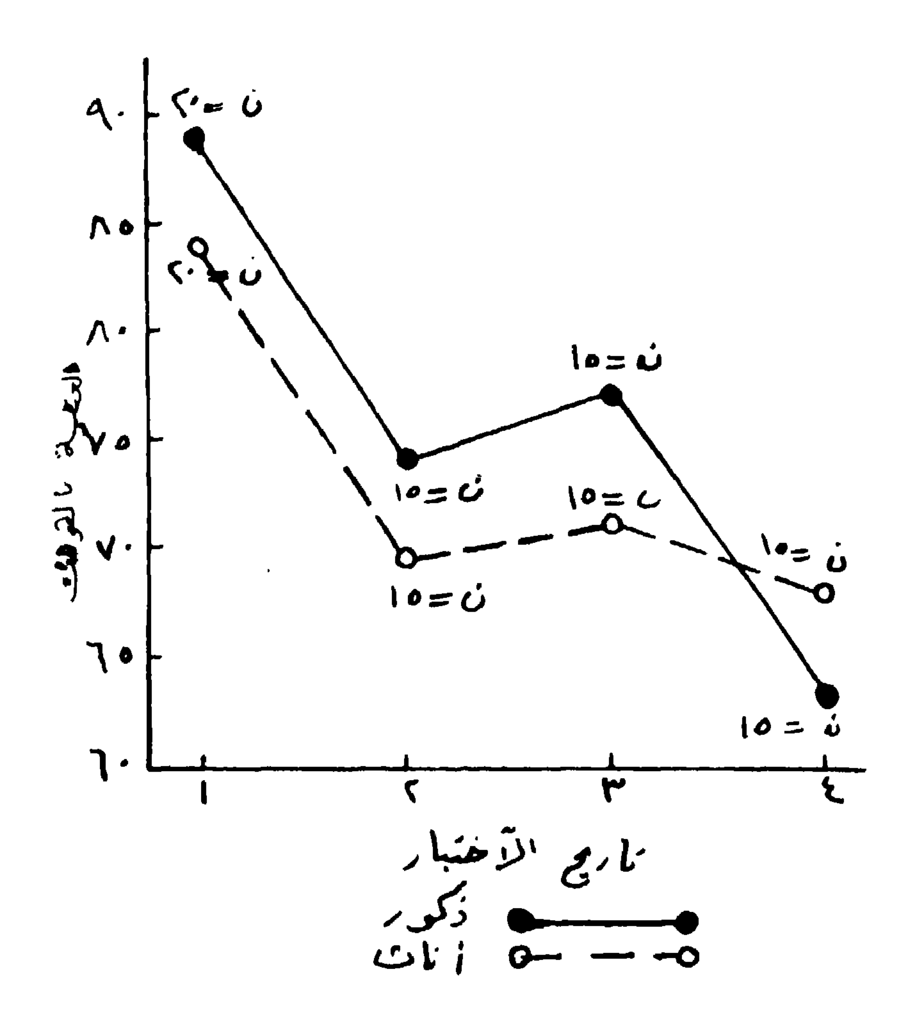
بمساعدات ميكانيكية تظهر عليهم زيادة الحركةعن المعتاد وعدم الاستقرار ، ثم فى كبرهم يجدون صعوبة فى النطق وفى تركيز الانتباهاكثر من غيرهم ممن يولدون بالطرق العادية ، الا انه لا يؤكد ان هذه النتائج المتأخرة تعزىحتما الى اسلوب الولادة ، وبوجه عام فان مشكلة تلف الدماغ أثناء الولادة ليست شائعةلدرجة تستحق معها معالجة نظرية خاصة . فنسبة من يولدون بتلف في ادمغتهم لا تتعدى٥ر٧ ٪ من الأطفال الأحياء .

ومن المهم أن نشير هنا الى أن نوعتغذيةالأم وكمية ما تتناوله من غذاء يؤثر فى حجم المولود ، فهناك علاقة بين حجم المولود وكميةالبروتين الذى تتناوله الأم أثناء الحمل كماظهر لدى كثير من الباحثين ، كما أن ميريديث Meredith يشير الى أن المولود الاول يكون أصغر حجما من المواليد بعد ذلك(٥) .

اما عن نشاطه فان حركاته تكون عشوائيةسواء كانت حركات كلية أو جزئية ، فاذا استثير اى جزء من الجسم فى النوع الأول من الحركاتفان الجسم يتحول كله كجزء واحد ، وقد يكون اكثر شدة فى الجزء المستثار . والحركة فىهذه الحالة تكون غير متناسقة ويكون اكثراجزاء الجسم نشاطا هو الجذع والساقان،وهناك فروق فردية بين الأطفال حديثى الولادة فى كمية هذه الحركة . اما النوع الثانى فيتمثل فى حركاتخاصة كالتركيز البصرى علىالضوء ، والحركات التلقائية للعينين ، والحركات المنتظمة للفم ،والتثاؤب ، وتحريك ورفع الرأس ، والحركات العشوائية لليدين والساقين ، ومد الذراعينوالقدمين .

وعند الميلاد تكون أعضاء الحس مستعدةللعمل ، الا أن بعض هذه الاعضاء تكون أكثر اكتمالا ونشاطا من غيرها ، فحاسة الشموالذوقوالاحساسات الجلدية (كاللمس والضغط والألم والحرارة) كما أن الاحساسات العضوية(كالجوع والعطش) كل هذه تكون أكثر استعدادا للعمل قبل غيرها (مثل النظر والسمع) التىتتأخر قليلا ، كما ان الاحساس بالألم يزداد بسرعة بعد الميلاد بسرعات مختلفة فى مواضعمختلفة من الجسم ، فعتبة الالم تكون اقل فى الرأس عنها فى الأطراف ، وهناك فروق فرديةايضا لدى الاطفال حديثى الولادة للاحساس بالألم كما يتضح من شكل (٢) .

تلك باختصار أهم المظاهر التى تهمنا فىدراسة هذه المرحلة التى تقودنا بعد ذلك الى دراسة الطفولة بمراحلها ، ولن نقسم الدراسةتبعا لهذه المراحل ، متبعين فى ذلك الطريقة العرضية بل نفضل فى هذه المعالجة الطريقةالطولية ، فسنتناول المظاهر والمهارات التى تظهر على الطفل واحدة واحدة متتبعين تطورهامنذ ولادته حتى نهاية طفولته ، مبينين السنة التى يظهر فيها كل تغير حتى تتضح معالمالتطورالذى يحدث فى هذه الامكانات كل على حدة وستدخل فى هذه الدراسة مرحلتا الرضاعةوالحضانة ، دون الحاجة الى فصلها وتمييزها وسنطلق على هذه المراحل معا الطفولة المتقدمةوالمتأخرة مندمجتين ، فتمتد الدراسة فى هذا الجزء لتشمل حياة الطفل من الميلاد حتى نهايةالسنة الثانية عشرة .



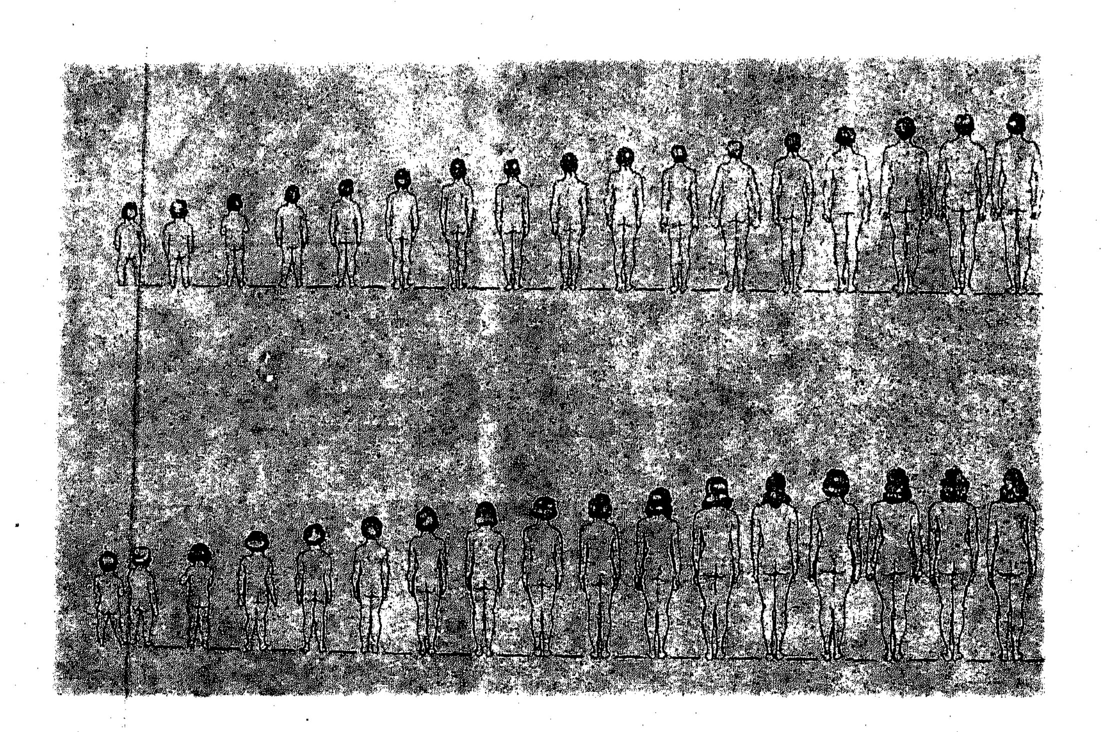
شكل (٢) الفروق الفردية في عتبات الألم عند الرضع الذكور والاناث مأخوذ من (١٩)

(الطفولة المتقدمة والمتاخرة)

دورات النمو : ينمو الطفل عادة فى دورات ولا ينمو بانتظام ، فالطفل مثلا يزداد وزنه عددا ثابتا من الارطال شهريا ، أو يزداد طوله عددا من البوصات بانتظام فى كل فترة . ولقد بينت دراسة النمو أن هناك أربع دورات للنمو اثنتان منها تتميزان بنمو بطىء والاثنتان الأخريان تتميزان بنمو أسرع من ولادة الطفل حتى استقرار نموه في نهاية مرحلة النضج . وتتم منها مرحلتان حتى نهاية الطفولة المتأخرة . فمن وقت ميلاد الطفل الى نهاية السنة الثانية تزداد سرعة النمو ، يلى ذلك فترة من النمو البطىء تتم في نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة حوالى السنة الثانية عشرة .

وينطبق هذا على النمو بوجه عام كما ينطبق على الاعضاء الخاصة وأجزاء الجسم المختلفة ، فالنمو بها يتم على دورات منتظمة وثابتة كذلك .

فلكل عضو أو جزء من الجسم فترة خاصة من النمو السريع أو البطىء ، وكل منها يصل الى حجمه الناضج فى وقت خاص به وهذه **الظاهرة يطلق عليها « النمو المنفصل** Asynchronous growth **وبالرغم من ان هناك معامل ارتباط موجب بين نماذج النمو فى الاعضاء** المختلفة أو فى العظام فان فى كل مجال من مجالات جسم الطفل تباين كبير فى سرعة وبطء النمو



شكل (٣) مميزات الفروق الجنسية فى النمو الجسمي ماخوذة من (٧) ويتضح فى الشكل دورات النمو فى الجنسين

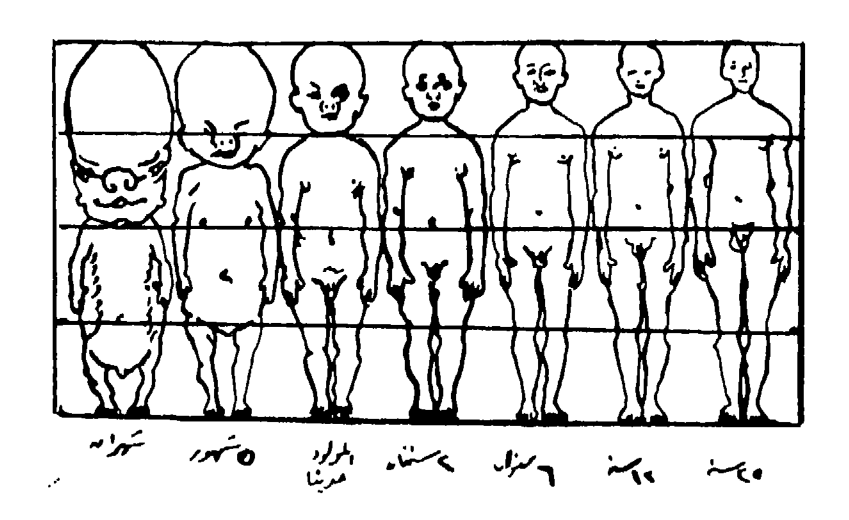
فى اية مرحلة من مراحل الطفولة . ويبدو هذابوضوح اكثر فى مرحلة المراهقة كما يتضح من شكل (٤) .

ولقد أوضحت منحنيات النمو المتعلقةبطول القامة والوزن أنه اذا استثنيا السنة الاولى من العمر فان نمو الوزن يسير بسرعة أكبرمن نمو الطول كما يتضح من شكل (٥) . وفى المراحل الأخيرة من الطفولة (الطفولة المتأخرة)فان الاطراف تنمو أسرع من الجذع ، لدرجة أن الطفل فى هذه المرحلة يبدو وكأنه لا يتكونالا من يدين ورجلين .

وتبدو قاعدة النمو المنفصل أيضا فيالوجه، حيث ينمو الجزء الأسفل أسرع مما ينمو الأعلى ، وخاصة بين سن الخامسة والثامنة منعمر الطفل . كما بينت بحوث دجنز Duggins التى نشرها سنة ١٩٥٠ أن شعر الراس يزدادحجمه بانتظام خلال السنوات الثلاث الاولى من عمر الطفل ، ثم يسير النمو بدرجة ابطأبعد ذلك(٦) .

كما أن هذه القاعدة تنطبق أيضا علىالعضلات والعظام والرئتين ، حيث تزداد نموا حتى مرحلة النضج بما يقرب عشرين مرة عنحجمها الأصلى ، بينما نجد أن العينين وحجم المخ وبعض الاعضاء الاخرى التى تكون أكثرنضجا فى وقت الميلاد لا تزيد كثيرا عن حجمها خلال مراحل النمو .

وبالاضافة الى قاعدة النمو المنفصل نجدقاعدة أخرى تسير فى اتجاه عكسى وهى قاعدة « اتجاه النمو » Developmental Direction فهناك اتجاه عام لنمو الوظائف والاعضاء المختلفة ، ففى جميع أجزاء الجسم نجد انالتغيرات فى أجزاء الجسم لها قاعدة معينة أيضا ، فالتغيرات في نسب الجسم تكون طفيفةخلال الاشهر الستة الأولى من حياة الطفل ،ومن



شكل (٤) تطور ابعاد الجسم من الميلاد حتى النضج ماخوذة من (١١) ويتضح فيه بطء نمو حجم الراس وسرعة نمو الاطراف

هذا الوقت حتى نهاية النضج نجد ان حجم الراس ينمو ببطء والاطراف تنمو بسرعة والجذع ينمو بسرعة متوسطة كما ان المخ وملامح الوجه تنضج وتصل الى نهاية تغيرها في الحجم قبل ان تصل باقى الاعضاء وأجزاء الجذع والاطراف الى هذه المرحلة من نهاية النمو .

ولنتناول الآن نمو اجزاء الجسم ومعالمه بشيء من التفصيل واحدة واحدة من وقت الميلاد حتى نهاية الطفولة المتاخرة دون ان نهتم بالتقسيمات الداخلية فى هذه الفترة حتى تتضح وحدة النمو وتكاملها في هذه الفترة التى تعتبر وحدة اساسية فى حياة الانسان ونفصلها فيما يلى :

ا ـ حجم الجسم وطول القامة والوزن.

ب ـ نسب الراس والوجه .

جـ ـ نسب الجذع .

د ـ نسب الذراعين والساقين .

هـ ـ العظام والعضلات .

و ـ الاسنان .

ز ـ الجهاز العصبى .

(ا) حجم الجسم : طول القامة والوزن

يتحكم فى نمو حجم الجسم الهرمون الخاص بالنمو Growth Hormone الذى يفرز من الفص الداخلى للغدة النخامية . فاذا كان افراز هذا الهرمون بدرجة معتدلة وفي الوقت المناسب فان حجم الجسم ينمو بدرجة معتدلة ويصبح الجسم عاديا مناسبا لمرحلة النمو التى يمر بها الطفل ، اما اذا قل افراز هذه الغدة عن المعتاد فان نمو حجم الجسم يتوقف قبل أن يصل الى نهايته المعتادة ولا يصل الطفل الى الحجم الذى تؤهله له امكانياته الوراثية ، اما اذا زاد افراز هذ الهرمون فان النمو يزداد عن طبيعته. ولا يتوقف حجم الجسم على هذا الافراز وحده بل يتعلق كذلك بافرازات غدد اخرى كالغدة الدرقية وغيرها .

اما فيما يتعلق بطول القامة فانه بالرغم من الاختلافات الواسعة التى توجد بين طول قامة الاطفال فى مرحلة معينة فان هناك نموذجا تتشابه فيه جميع اطفال المرحلة الواحدة . ويمكننا أن نضع هذا النموذج فى صورة معدلات ليعطينا صورة واضحة للنمو العادى للطفل العادى . فالمولود في وقت ولادته يبلغ بين ١٩ ، ٢٠ بوصة (نصف متر تقريبا) في طول القامة ، واثناء السنتين الأوليين تزداد سرعة نمو طول القامة حتى يصل فى الشهر الرابع الى ٢٣ بوصة أو ٢٤ بوصة (٦٠ سم تقريبا) وعندما يصل الطفل الى الشهر الثامن يصل

طول القامة الى ٢٦ أو ٢٨ بوصة (٦٥ — ٧٠سم) . وعند تمام السنة الاولى يرتفع الطول الى ٢٨ — ٣٠ بوصة (٧٥ سم تقريبا) . وفي نهاية السنتين يصل طول القامة الى ٣٢ — ٣٤ بوصة (٨٥ سم تقريبا) . حتى يصل الى سن الخامسة يرتفع طول القامة الى ضعف ماكان عليه وقت الميلاد (متر تقريبا) ومن ذلك الوقت حتى مرحلة المراهقة نجد أن طول القامة يزداد ببطء بمعدل ٣ بوصات فى كل سنة . ومن الطبيعي أن يختلف طول القامة فى البنين عنه فى البنات ، فبما أن مرحلة المراهقة تبدأ في البنين متأخرة عنها فى البنات قليلا (قد يكون الفرق ستة اشهر) فان طول قامة الولد غالبا ما تقل بوصة أو نصف بوصة عن البنت العادية ، كما ان هذه المعايير لابد وأن تختلف باختلاف البيئات ، فقد تنخفض قليلا فى البيئات العربية عنها فى البيئة الامريكية التى أجريت فيها هاهذه البحوث ، فالمنحنيان المرسومان في شكل (٥) يمثلان تدرج الوزن والطول لاحد الاطفال الامريكيين .

والتنبؤ بطول قامة الطفل يمكن احرازه بقدر لابأس به من الدقة اليوم باستخدام الاشعة السينية لطول العظام ، وبالاضافة الى ذلك فان قامة الطفل تميل دائما لان تزداد زيادة مرتبطة بطول قامة الوالدين ، وبذلك نجد ان طول قامة الوالدين تصلح فى التنبؤ بطول قامة الطفل . وقد وجد بايلى Bayley أن معامل الارتباط بين طول قامة الطفل وطول قامة والديه يزداد كلما نما الطفل وازداد عمره ، وهذا يزيد من قيمة التنبؤ مع ازدياد مرحلة نمو الطفل (٧) .

أما عن الوزن فان وزن المولود عند الميلاد يتراوح بين ٦ و ٨ أرطال (مايعادل ٣ او ٣١/٢ كيلو جرامات تقريبا) ، وقد يقل الوزن كثيرا عن ذلك فى حالة بعض الاطفال ، فقد يصل الى نصف ذلك بينما قد يصل البعض الى ضعف ذلك ، ولكن هذا الاختلاف في وزن الاطفال قد يسير بنفس النظام بعد ذلك . ففي نهاية الشهر الخامس نجد ان الرضيع العادى لا ينحصر نموه في تعويض الوزن الناقص اثناء الميلاد بل يستطيع ان يضيف عليه بقدر اضافى من النمو ، ففى نهاية الشهر الرابع تجد ان وزن الرضيع العادى يعادل ضعف وزنه عند الميلاد . وفى نهاية العام الاول نجد أن الوزن قد بلغ ثلاثة اضعاف هذا الوزن عند الولادة . وفى خلال العام الثانى والثالث نجد انه يكتسب من ٣ الى ٥ ارطال سنويا ، الا ان الوزن بعد السنة الثالثة يتزايد ببطء نسبيا الى ان يبلغ الطفل بداية المراهقة ، ففى نهاية السنة الخامسة ينبغى ان يصل وزن الطفل الى خمسة اضعاف وزنه عند الميلاد ، وفى بداية المراهقة أو عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة يتراوح الوزن بين ٨٠ و ٩٠ رطلا (مايقرب من ٤٠ كيلو جراما) .

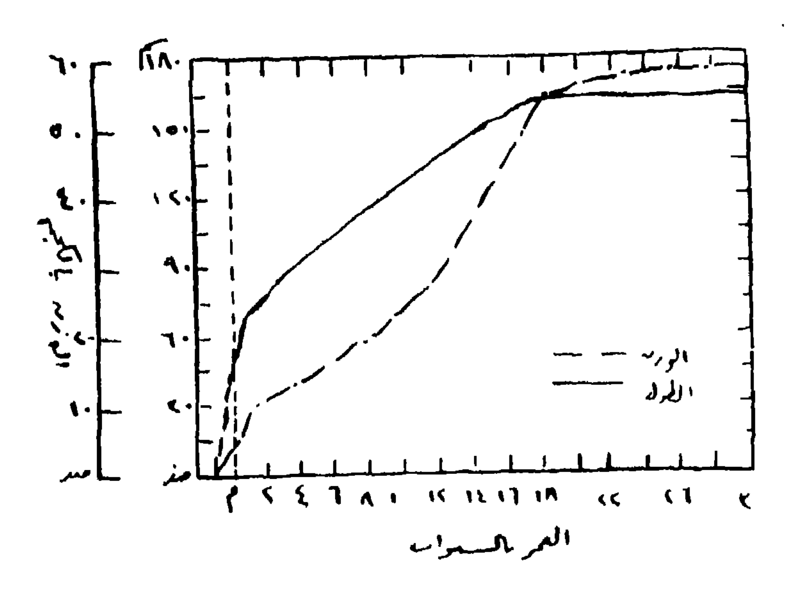
يزداد وزن البنت قليلا عند بداية المراهقة أو نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، حيث تزن فى المتوسط ٨٨٫٥ رطلا بينما يقل الولد العادى أقل من ذلك بثلاثة ارطال تقريبا .

والمعايير التى توضع لكل طفل فى اية مرحلةتتوقف الى حـد كبير على البنيان الجسـمى Body built ويمكن تقسيـم هذا البنيـانالجسـمي الى ثلاثة انواع :

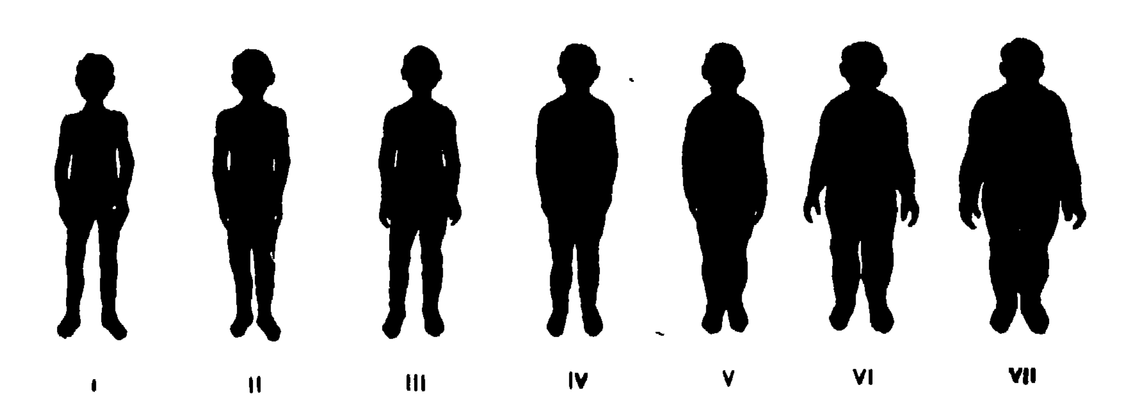
١ ـ النوع المكتز Endomorph ويتميزبجسم زائد السمنة .

٢ ـ النوع المفتول Mesomorph ويتميزبجسم ثقيل ومتين .

٣ ـ النوع الدقيق Ectomorph ويتميزبجسم طويل ملتف ذىعضلات ملتفة رفيعة نسبيا وعظام طويلة ورفيعة .



شكل (٥) منحنى نمو طول القامة والوزن . ماخوذة من (١٨)



شكل (٦) انواع البنيان الجسمي مدرجة (I) النوع الدقيق جدا (II) النوع الدقيق (III) النوع الدقيق نوعـا (IV) النوع المفتول (V) النوع المكتنز نوعا (VI) النوع المكتنز (VII) النوع المكتنزجدا الرسم ماخوذ من (١) .

وازدياد الوزن أثناء النمو لا يتوقف على ازدياد نسبة الدهن فى الانسجة بل يتوقف أيضا على ازدياد حجم العظام وانسجة العضلات . أما فى مرحلة الحضانة فان الازدياد فى الوزن يرجع اساسا الى ازدياد الانسجة الدهنية ، نظر الازدياد كمية الدهن في اللبن الذى يعتبر الوجبة الاساسية فى هذا السن ، وكلما نما الطفل وتقدم في مراحل نموه فان وزنه يرجع الى نسبة العظام والعضلات أكثر من الانسجة الدهنية . وفى المراحل المتاخرة من الطفولة تقل اهمية الانسجة الدهنية عن ذلك حتى تصبح مسئولة عما يقرب من ٢١ الى ٢٩٪ من الوزن الكلي للطفل (٨) .

ب ـ نسب الرأس والوجه :

ينمو حجم الراس بسرعة اقل نسبيا من باقي الجسم منذ ولادة المولود . فعند الميلاد نجد ان طول الراس يبلغ ٢٢٪ من طول الجسم كله ، فاذا بقيت النسبة كما هى لأصبح طول الرأس فى نهاية النضج ما يقرب من ١٦ بوصة بدلا من ٨ او ٩ بوصات كما هى فى الواقع . فمن وقت الولادة الى نهاية النضج نجد أن طول الراس يبلغ ضعف ما كان عليه عند الميلاد بينما يبلغ طول القامة مايقرب من ثلاثة امثال ماكان عليه ، واذا رجعنا الى مساحة الراس وقت الميلاد وجدنا ان المساحة الكلية للرأس تبلغ ٢١٪ من المساحة الكلية للجسم ، بينما تصل نفس النسبة الى ١٣٪ بعد خمس سنوات و ١٠٪ عند نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة ، واذا فحصنا أبعاد الرأس وجدنا ان مؤخرة الراس تكون اكبر حجما من الجزء الوجهي من الراس وتكون النسبة بين عرض الراس وطوله أكبر منها في الاطفال عن الكبار ، فعرض الراس يكون قد وصل الى نهاية نموه عندما يصل الى الثالثة من عمره ، ولكنه يستمر فى الزيادة فى الطول حتى بعد نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة .

والنموذج الذى تتبعه زيادة الرأس طولا وعرضا لايختلف فى البنات عنه في الاولاد ، ولو أن راس الولد يكون عادة اكبر حجما قليلا من رأس البنت فى جميع مراحل النمو تقريبا .

ولنتناول الآن نسبة الوجه بشىء من التوضيح : نلاحظ أن الجزء الاسفل من الراس اثناء فترة الحضانة ومرحلة الطفولة الاولى يكون صغيرا وناقص النمو ، ويرجع ذلك اساسا الى صغر اسنان الطفل الصغير ، وتزداد نسبة الهيكل الوجهي الى الجزء الخلفى من الرأس من بداية الولادة حتى نهاية السنة الثامنة ، وفى هذه السن يختفي مظهر الطفولة الاولى نتيجة لذلك ، حيث تحل مرحلة نمو سريع بين سن الخامسة والثامنة وخاصة بين الاولاد أكثر من اى وقت آخر . ولولا حدوث هذا التغير فى نسبة الوجه لأصبحت العين فى منتصف الوجه .

وبانتقال الطفل من مرحلة الرضاعة الى مرحلة الاسنان الدائمة تزداد المواءمة بين الفكين العلوى والسفلى ، وتصبح اسنان الفكين أكثر انطباقا ، وهذا يؤثر بطبيعة الحال على شكل الوجه في الطفل ، وسوء المواءمة بين الفكين قد ينتج من عدم انتظام فى نمو الفكين أو الاختلاف بين حجم الاسنان العليا والسفلى ، أو عن طريق مص الاصابع وخاصة قبل سن الخامسة ، أو التنفس عن طريق الفم أو الضغط على الذقن وخاصة في النوم على الوجه أوعض اللسان فى مراحل الرضاعة .

وقد يؤثر سوء المواءمة بين الفكين على طريق المضغ عند الصغير وبذلك يؤثر على عملية الهضم ، وبالرغم من أن هذا المظهر قد يتحسن مع تقدم النمو الا ان العلاج التصحيحي قد يكون لازما فى مثل هذه الحالات حتى تنمو لدى الطفل معالم صحيحة للوجه مع وجود الاسنان والذقن في نسبها المعتادة ، وخطوطها المعتدلة .

ويتقدم النمو تحدث تغيرات فى معالم الوجه وشكله ، فمنذ البداية تكون مقدمة الوجه كبيرة مستديرة وبارزة ، ثم تصبح مسطحة تدريجيا ، وتقل فى الحجم بالنسبة الى باقي الوجه حتى يصل الطفل الى الخامسة من عمره ، وتبلغ العينان حجمهما الاقصى كلما اقترب الطفل من نهاية مرحلة طفولته المتاخرة ، وتتباعد العينان بعضهما عن بعض ، كما أن الشفتين الرفيعتين تزدادان امتلاء حتى تصلان الى شكلهما الثابت عندما ينضج الطفل جنسيا .

ولعل الانف هو العضو الذى يبدو فى الطفولة اقل تناسبا عن باقي اجزاء الوجه ، فهو يكون فى البداية صغيرا واكثر انبساطا وتسطحا على الوجه ، ومن سن الخامسة الى العاشرة ينمو بسرعة اكبر من أى جزء آخر بالوجه ، وينتج عن ذلك أن الانف هو أول اجزاء الوجه التي تصل الى نهاية نموها ، وهذا يحدث فى حوالى الرابعة عشرة .

ونلاحظ انه كلما نمت اعضاء الوجه وقربت من نهاية نضجها يزداد الوجه تحددا وتثبت ملامح الوجه مع تقدم النمو (٩ و ١٠) . (راجع شكل (٤) فى هذا البحث) .

(ج) نسب الجذع

ان زيادة وزن الطفل اثناء نموه تؤدى طبيعيا الى صعوبة اتزان الجسم ويجب العمل على تخفيفها قبل أن يتعلم الجلوس أو الوقوف أو المشى ، فكلما كبر الطفل فان التغيرات فى نسب الجسم اللازمة لحصوله على الاتزان المناسب تتحقق عن طريق استطالة الجذع والساقين والرقبة ، واذا وصل الطفل الى سن السادسة فان طول جذعه وعرضه يصل الى ما يقرب من ضعف طوله وعرضه عند الميلاد ، ومنذ ذلك الحين حتى البلوغ فان طول الجذع يزداد بما يقرب من ٥٠٪ مما كان عليه ، ورقبة الطفل في مرحلة الرضاعة تكاد لا توجد ، حيث يستند راسه تقريبا على كتفيه ، وبالتدريج في مرحلة الطفولة الاولى تظهر له رقبة قصيرة ممتلئة تتصل بكتفيه المنحدرين . وحوالى سن الخامسة تبدا القبة فى الاستطالة وتبدو أكثر استدارة ، بينما يأخذ الكتفان في ان يكونا اكثر عرضا واكثر ثباتا ، وكلما انخفض الكتفان مع استطالة الرقبة فان وزن الطفل يزدادا تناسقا وتوزعا على انحاء جسمه .

كما أن شكل الجذع ايضا تحدث به تغيرات سريعة ، ففى السنة الاولى يكون جسم الطفل أكثر سمكا من أى مرحلة اخرى ويرجع ذلك الى الزيادة الكبيرة فى المحيط العرضى عن الطول . وحتى سن الرابعة أو الخامسة يكون شكل الجذع شبيها بالكيس حيث لا يتميز فيه خط الوسط بشكل ظاهر ، كما يكون الكتفان منحدرين ويكون الصدر مستديرا ويكون البطن بارزا مستديرا ، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية مرحلة الطفولة يحدث نقص تدريجى في كثافة وامتلاء

الجذع ، ويتجه الجسم لأن يأخذ الشكل المخروطى او الاسطوانى المنبسط المنسق الذى يتميز فيه الوسط عن باقى الجسم . وفى هذا الشكل المخروطى فان الاكتاف تأخذ الشكل المستطيل المستعرض وخاصة عند الأولاد ، كما أن شكل البطن ينبسط ويقل امتلاؤه واستدارته وبروزه، ويصبح خط الوسط ظاهرا بشكل واضح، كما أن الحوض يصبح أكثر عرضا وأقل استقامة .

وبطبيعة الحال فان شكل الجذع عند الكبار البالغين يتأثر كثيرا بالسن الذى تنضج فيه المظاهر الجنسية. فقوام الذكر الذى يتصف بعرض في الكتفين وضيق فى المقعدين يظهر فى الاولاد العاديين، والبنات اللواتى تبدو لهن أكتاف عريضة هن اللواتي يتأخر نضجهن ، وبوجه عام فانه بدون اعتبار للسن الذى يتم فيه النضج فاننا نلاحظ أن الشكل العام للجذع عند البنت يختلف عن الشكل العام لدى الولد ، فالاجزاء التى يتميز النمو فيها فى الولد غالبا ما يقل النمو فيها عند البنت ، وتعتبر هذه المميزات فى كل جنس دليلا على أن النمو عند كل منهما لم يتخذ مجراه الطبيعى ، وقد يحتاج الى العلاج الذى يعيد لكل فرد من الجنسين الشكل المميز لجنسه ، وهذه الفروق بين الجنسين تختلف مرحلة ظهورها بشكل مميز باختلاف البيئة ، فهى عند الشرقيين تختلف الى حد ما عنها عند الغربيين وقد تقل أو تظهر بشكل أوضح فى بيئة عن غيرها(١١) .

(د) نسب الذراعين والساقين

ان التغيرات التى تطرأ على نسب الذراعين والساقين أثناء مراحل العمر المختلفة هى التى تعطى الجسم صورة الجسم البشرى وتبعده عن الصورة الحيوانية . فعند الميلاد يكون ساقا الوليد قصيرين بشكل ظاهر بالنسبة لابعاد اجزاء الجسم المختلفة ، كما أن الذرعين يكونان زائدى الطول ، وتكون اليدان والساقان صغيرين نسبيا . فنحن اذا تصورنا انطباق نفس الوليد على الشخص البالغ فان ساقى الشخص البالغ تبلغان من القصر حدا يجعل مقعديه فى مستوى يعادل مستوى الركبتين أو اعلى قليلا ، وهذا ما يوضح ضرورة اختلاف السرعة التى تنمو بها الأجزاء المختلفة من الجسم .

فالذراعان والساقان تنموان بمقدار ٦٠ الى ٧٥٪ من وقت الميلاد الى ان يصل الطفل الى سنتين من العمر ، وعندما يبلغ الطفل سن الثامنة فان الذراعين يزداد طولهما بمقدار ٥٠٪ على طولهما فى سن الثانية . ونظرا الى قلة سمك الذراعين عادة لدى الطفل بالنسبة لجذعه فان النمو في عضلاتهما فى الشخص العادى لا يكون ملحوظا ، ويكون للذراعين عادة شكل اسطوانى عام في هذه المرحلة . وبعد سن الثامنة ينمو الذراعان نموا بطيئا فى معدله بالنسبة لطولهما ، بينما نموهما فى السمك يزداد بشكل أوضح نظرا لازدياد عضلات الذراع في السمك والامتلاء .

اما الساقان عند المولود حديثا فتكونان قصيرتين متجهتين بطريقة تجعل بطن القدمين يتجهان كل منهما للآخر . وكلما نما الساقان ازدادا انبساطا واستقامة ، فعندما يصل الطفل الى سن السادسة ينبغى ان يكون الساقان والركبتان مستقيمتين لا اعوجاج فيهما ولا تقوس ،

وخلال السنتين الأوليين في حياة الطفل تنمو الساقان بمعدل ٤٠٪ من طولهما الاصلي ، وعندما يصل الى سن الثامنة يزداد طول الساقين بمعدل ٥٠٪ من طولهما الاصلى عندما كان فى سن الثانية ، ومعنى هذا ان الساقين ينموان بمعدل أبطأ من نمو الذراعين في بداية مرحلة الطفولة . واذا طبقنا ما ذكر عن الذراعين فان الساقين تبدوان رفيعتين واسطوانيتين حتى نهاية سن الطفولة ، وفى الوقت نفسه عندما تبطىء سرعة نمو طول الساقين نجد أن الزيادة تتم فى النمو العضلى لهما وينتج عن ذلك تغير ملحوظ فى شكليهما . ونلاحظ أن الاطفال الذين يكون نموهما مبكرا عن الاطفال العاديين يميلون لأن يكون لهم ساقان قصيران مختلفان عند تمام نضجهما ، بينما نلاحظ أن الاطفال الذين يتأخر نموهم عن المعتاد عادة ما يكون لهم ساقان طويلان أسطوانيان .

واذا تعرضنا لليدين والقدمين وجدنا انهما لدى الطفل الرضيع ينموان فى الحجم كما ينموان ايضا في الناحية العضلية قبل أن يتم استخدامهما ، فخلال الطفولة الأولى والطفولة المتوسطة (المرحلة المتوسطة بين سنوات نهاية مرحلة الطفولة الاولى وبداية مرحلة الطفولة المتأخرة) نجد أن الاصابع تكون قصيرة بسبب النمو البطىء للعظام ثم يزداد نموها بعد ذلك حتى يصلا الى حجمهما العادى بعد نهاية الطفولة المتأخرة (حوالى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة) وهذا يحدث أيضا فى القدمين واليدين على حد سواء فى وقت واحد ، ويلاحظ ان الاولاد عادة تكون اقدامهم اكبر من أقدام البنات ، وتصل الى نهاية نموها متأخرة عن البنات ، ومن الطريف ان نعرف بأن البحوث قد دلت على وجود معامل ارتباط موجب بين حجم القدم وطول قامة الفرد (١١) .

(هـ) العظام والعضلات

ينحصر نمو العظام في ازدياد حجمها وفى عددها وفى تكوينها ، وهذه المظاهر كلها تتبع نفس السياق الذى سبق أن أوضحناه في ازدياد حجم الطفل ، ومعنى هذا أن النمو تزداد سرعته خلال السنة الاولى من العمر ، ثم تبطىء هذه السرعة نسبيا بعد ذلك حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة (راجع شكل (٤) من هذا البحث) .

ففى الشهور الاولى بعد الميلاد تكون أنسجة العظام هشة واسفنجية التركيب ، كما أنه تنشأ للوليد غضاريف أو اغشية سميكة فى الأماكن التى تظهر فيها العظام بعد ذلك ، وتكون عظام الوليد محتوية على مقدار أكبر من الماء والموارد الشبيهة بالبروتين ، كما تحتوى على كميات أقل من المحتويات المعدنية عن عظام الشخص الكبير البالغ . كما نجد أن هناك تدفقا أكبر للدم وكمية من الأوعية الدموية وذلك لتزويد الطفل بالمواد اللازمة للنمو وتكون الاغطية الخارجية للطفل سميكة بالقدر الذى يمنع به حدوث الكسور المركبة . وفى ذلك الوقت نفسه تكون العظمة ضعيفة الالتحام ببعضها وعلى عكس ذلك كثيرا ما توجد فجوات بين نهايات العظام .

ويكون نمو العظام كما ذكرنا فى الطول من أطرافها حيث تتحول مواضع الالتحام بين العظام بعضها ببعض الى مناطق عظمية مع تقدم النمو . ومع وصول الطفل الى نهاية الطفولة

المتأخرة وبداية المراهقة تتوقف العظام عن النمو. أما نمو العظام فى العرض فينتج عن اضافة انسجة عظيمة الى حافتها الخارجية فيتضخم السمك وتزداد العظام متانة . وازدياد المتانة والصعوبة لا يحدث الا بعد الميلاد ، ويتدرج من الجزء المتقدم من السنة الاولى حتى نهاية الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة ، وينتج ذلك من تدخل عنصرى الكالسيوم والفسفور وبعض الأملاح المعدنية فى تركيب العظام كلما تقدم النمو .

أماما يتعلق بالعضلات فانها تلعب دورا فعالا في تنظيم نمو الاعضاء الاساسية للجسم كالقلب واعضاء الجهاز الهضمى والغدد ، كما انها المسئولة الاساسية عن قوة الجسم وتآزر النشاط. ففى وقت الميلاد تكون الألياف العضلية فى حالة غير ناضجة ، وهذا ما يجعل الوليد ضعيف القوة وقليل النشاط ، وبالرغم من انه لا تنشأ انسجة عضلية جديدة بعد الميلاد فان الانسجة الموجودة منذ الميلاد تتغير في الحجم والشكل والتركيب ، كما تزداد طولا وعرضا وسمكا وينتج عن ذلك زيادة فى وزنها .

ففى الشخص العادى نجد ان وزن العضلات يزداد من وقت الميلاد الى نهاية النضج ما يقرب من ٤٠ مرة . وحتى سن الخامسة فان نمو العضلات يتم بنفس نسبة وزيادة وزن الجسم عامة ، ومن الخامسة حتى السادسة تزداد سرعة نمو العضلات وفى هذا الوقت تبلغ زيادة وزن الجسم عموما ١٥٪ تقريبا من وزن العضلات فقط . أما بعد هذه المرحلة فان نمو العضلات يصبح بطيئا نسبيا، ولكن يتبعها مرحلة تتميز بسرعة النمو ، كما أنه مما يلاحظ كذلك ان العضلات فى الطفولة المبكرة تكون محتوية على قدر كبير من الماء وقدر قليل من الاجسام الصلبة والبروتينات اكثر مما يتوفر فى عضلات الشخص البالغ نسبيا . وبالاضافة الى ذلك فانها تكون اكثر رقة واقل متانة فى اتصالها بالعظام ويصل سمكها عند تمام النضج الى ما يقرب من خمسة امثال سمكها عند الميلاد .كما أن تكوينها يتحول من ٧٢٪ من الماء و ٢٨٪ مواد صلبة الى ٦٦ ٪ من الماء و ٣٤٪ موادصلبة في البالغ وينتج عن ذلك ان العضلات تصبح اكثر صلابة وثباتا ، فنجد أن الطفل تتولد لديه تدريجيا الدوافع القوية للقيام بالنشاط العضلى . وقد يدفعه ، وهذا مايحدث كثيرا ، الى التحفز وعدم الاستقرار فى الحالات التى يجد نفسه فيها عديم النشاط .

وكأى وظائف عضوية أخرى نجد ان هناك فروقا فردية واسعة فى القدرة العضلية لدى الاطفال ، فالافراد الذين يمتلكون العضلات العريضة السميكة يكتسبون قوة عضلية فائقة كما أن ذوى العضلات الصغيرة يبدون قدرا احسن من التآزر فى أوجه النشاط العضلى وبينما نجد أن بعض الاطفال تتعب عضلاتهم بسرعة نجد ان البعض الآخر لهم عضلات لها قدرة كبيرة على التحمل والمشقة .

وتتوقف حالة عضلات الطفل جزئيا على امكاناته الوراثية وجزئيا على حالته الصحية فى الوقت الراهن وبوجه عام ، ومدى استخدامه لعضلاته ، فحتى فى الطفل الواحد نجد اختلافات فى حالة العضلات ، فهى بعد حالة المرض مثلا غير حالتها قبله ، حيث نجده بعد حالة المرض

سريع الاجهاد والتعب . وبالرغم من أن الفروق بين نمو العضلات في الجنسين لا تكون ظاهرة بالقدرة الكافي فى الطفولة فانها تبدأ فى الظهور بعد ذلك حيث تصبح عضلات الذكر اكبر واقوى من عضلات الانثى منذ المراهقة (١٢) .

(و) الأسنان :

ينمو للطفل نوعان من الاسنان : اللبنية والدائمة ، وهذان النوعان يختلفان من نواح كثيرة .

(١) هناك عشرون فقط من الاسنان اللبنية ، بينما الاسنان الدائمة عددها اثنان وثلاثون .

(٢) يكون حجم الاسنان اللبنية أصغر من الاسنان الدائمة .

(٣) تكون الاسنان الدائمة افضل جودة ونوعا من الاسنان اللبنية ، ولذلك تكون اكثر استدامة ، وتبدأ عملية ظهور الاسنان منذ الشهر الثالث بعد الميلاد وتستمر هذه العملية فترة طويلة حيث تصل اسنان العقل الى نهاية حجمها من سن الواحدة وعشرين الى الخامسة وعشرين ، ويكون ظهور الاسنان اللبنية مصحوبا بآلام قد تسبب للرضيع فقدا للشهية وقد تجعله قليل الاستقرار ظاهر العصبية ، بينما الاسنان الدائمة قد تبرز من اللثة دون أن تصاحبها اية آلام .

وفي المعتاد تظهر اولى الاسنان اللبنية بين الشهر السادس والثامن ولكن سن الظهور هذا يختلف من طفل لآخر ويتوقف على الصحة والاستعدادات الوراثية والتغذية قبل وبعد الميلاد . كما أن للجنسية والجنس وبعض العوامل الاخرى اثرها فى ذلك . وقد اتضح من الملاحظات العلمية أن الطفل العادى عندما يصل الى الشهر التاسع تكون ثلاثة من الاسنان اللبنية قد ظهرت له ، كما اتضح أيضا أن الاناث كقاعدة عامة يظهر السن الاول لديهن قبل الذكور ، ولكن بين الشهر التاسع والسنة الثانية فان الذكور يسبقون الاناث في ذلك .

أما ما يتعلق بالاسنان الدائمة فان الطفل العادى عندما يصل الى سن السادسة يكون لديه سن واحد أو اثنان ، ويزداد عددها الى ١٠ أو ١١ سنا عند الثامنة ، ثم من ١٤ الى ١٦ سنا فى سن العاشرة ، وفى الثانية عشرة قد تصل الى ٢٤ أو ٢٦ سنا ثم الى ٢٨ سنا حوالى سن الثالثة عشرة ، أما الاسنان الاربعة الاخيرة فهى أضراس العقل التى تظهر بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين وقد لا تظهر اطلاقا .

وقد تظهر حالات تسوس الاسنان حتى قبل ان يكتمل نمو الاسنان الدائمة ، وهذه الظاهرة تظهر بنوع خاص أثناء النمو السريع للطفل حيث تكون مطالب التغذية أكثر الحاحا ، وتكون اغذية الطفل من أصناف ينقصها التنوع المتزن ولذا تظهر كثيرا فى مرحلة المراهقة .

والمرحلة التى تفصل بين ازالة الاسنان اللبنية وظهور الاسنان الدائمة تمثل فترة تظهر فيها صعوبات فى نطق بعض الحروف ، حيث يوجد عادة فراغ فى مقدمة الفكين يسبب صعوبة فى نطق بعض الحروف ويظهر ذلك من حديث الطفل ، ولهذا فان معظم الاطفال يتعجلون ظهور الاسنان

الدائمة علاوة علىما يحدثه ظهور الاسنان الدائمةمن آثار نفسية على الطفــل ، فهى دليل على اتجاه النمو نحو الاكتمال(١٣) .

(ز) الجهاز العصبى

ان نمو الجهاز العصبى يكون سريعا قبلالميلاد خلال السنوات الثلاث أو الاربعة الاولى. وينحصر نمو الجهاز العصبى فى فترة ما قبــلالميلاد فى ازدياد عــدد وحجم الخلايا العصبية بينا ينحصر النمو بعد ذلك فى تطور ونضجالخلاياالتى لم تكن قد نضجت بعد عند الميلاد . وبعد سن الثالثة أو الرابعة يسير نمو الجهاز العصبيبسرعة بطيئة نسبيا .

اما ما يتعلق بنمو المخ فان دراسته دراسةمباشرة تصبح مستحيلة ، ولكن يمكن دراسته بطريقة غير مباشرة ، وتكون الدراسة تقديريةوليست دقيقة ، ويتم ذلك عن طريق فحص مخ الافــراد بعد الممات أو عن طــريق قياس ابعاد الجمجمة في حالة الحياة .

وتدل هذه الدراسات على أن نمو المخ يكونسريعا جدا من الميلاد الى نهاية السنة الرابعة، وتبطىء سرعة نموه بين الرابعــة والثامنــة منالعمر ، ثم يستمر النمو اكثر بطئا حتى حوالى سن الســادسة عشرة أى بعد مرحلة الطفولةالمتاخرة بكثير ، وعند ذلك يكون حجم المخ قــد وصل الى نهايته ، ونظرا لأن عظام الجمجمةتكون مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا غير وثيق عن طريق الاغشية خلال الشهور القليلة الاولى منالحياة فان فراغا كبيرا فى حجم الجمجمة يترك لنمو المخ .

ومن حيث وزن المخ فان وزن المخ يبلغ فيالمتوسط ٣٥٠ جراما ، بينما يتراوح وزن مخ البالغ الكبير من ١٢٦٠ — ١٤٠٠ جراما ، ولعلالنمو السريع فى حجم المخ خلال السنوات الاولى من الحيــاة هو أحد الأســـباب التى تؤدى الىاعطاء الجمجمــة وزنها الثقيل نسبيا وحجمهــا غير المتناسب .

ومهما كانت العلاقة بين نمو الاجزاء المختلفةمن المخ والنمو العقلى للطفل فان ملاحظة سلوك الاطفال تدل على انهم يكونون قادرين على التذكر وترابط المعانى بين الاشــياء والاشخاص ، وعلى القيام ببعض الاشكال البسيطة من الاستدلال . وكلما ارتقى النمو سنة بعد سنة تزداد هذه القدرات العقلية تطورا واكتمالا . وليس المجالفى هذا البحث متعلقا بربط النمو الجسمى بالنمو العقلى فهو موضوع آخر يخرج عن نطاق هذاالبحث (١٤) .

● ● ●

عرضنا فى الجزء السابق بعضاً من أهممظاهر النمو الجسمى فى الطفل من وقت ميلاده حتى نهاية مرحلة الطفولة المتاخرة وقد راينــا(كما سبق ايضاحه) أن نورد النمو فى هــذه الفترة التى يمكن تقسيمها الىعدةفترات واحدةواحدة في كل مظهر من مظاهر النمو الجسمى حتى يسهل تتبعه وملاحظة سياق التطور دونقطع الدراسة بطريقة مصطنعة الى أجزاء تحدها هذه المراحل التفصيلية .

ويهمنا الآن بعد ان اوضحنا هذا النموالجسمى في هذه الفترة ان ننتقل من الجانب البنائى Structural الى الجانب الوظيفى Functional فنتتبع النمو الحركى عارضين فى هذا النمو ما يحدث من تطور فى اهمالمهارات الحركية التى تظهر لدى الطفل خلال هذه الفترة . ويمكن تلخيص اهمية النشاطالحركى فى الجوانب الآتية :

(١) ان الصحة الجيدة التى تعتبر حيويةبالنسبة لنمو الطفل وسعادته تتوقف جزئيا على تدريبه على المهارات الحركية ، فاذا كانتناسقه الحركى ضعيفا كان أداؤه غالبا اقل من زملائه ، ولا يشعر الطفل بارتياح يذكر في قيامهبالنشاط الحركى ، ويقل بذلك دافعه للاشتراك فيه .

(٢) ان النشاط الحركى يخلص الطفلعادة من الطاقة الزائدة التى يزود بها ويجعله مقبلا على النشاط الذى يزيد من قوة عضلاتهويحسن صحته بوجه عام .

(٣) يعتبر النشاط الحركى اسلوبا مناساليب التغيير والترويح على الطفل ، فنشاط الطفل فى اللعب بأدواته اللعب في الصغر يساعدهعلى تركيز انتباهه واستخدام وظائفه العقلية ، ومن ثم يساعد على احداث التغيير والمتعة فيحياته .

(٤) كما أن النشاط الحركى يعطى الطفلفرصة للتفاعل الاجتماعى ، فالنشاط الحركى فى الاطفال عادة لا يتم حينما يكون الطفل منفردابل يؤدى الى الاتصال بغيره والتعامل معه .

(٥) يساعد النشاط الحركي الطفل علىتنمية مفهوم الذات عنده ، فنجاح ادائه ايا كان يزيد من مشاعره بالأمن تجاه البيئة التىيتفاعل معها .

وسنتناول فيما يلى النمو الحركى فىالاجزاء الآتية من الجسم :

(أ) منطقة الراس .

(ب) الجذع .

(جـ) الأطراف .

(أ) منطقة الراس .

تبدأ فى هذه المنطقة بتآزر العين الذى يكونضعيفا خلال الساعات الاولى من الميلاد ، ولكن ذلك يتحسن بسرعة ، لدرجة ان الوليد العادىفى نهاية الشهر الرابع يكون قادرا على اغلب الحركات اللازمة في عينيه ، فهو في نهاية الشهرالثانى يستطيع أن يركز عينه على شيء ثابت وبعد شهر يستطيع ان يتتبع عادة شيئا متحركا. ولكن التناسق اللازم فى حركة العين لا يكتمل عادة بشكل يمكنه من القراءة دون اجهاد للعينقبل ان يصل الطفل الى سن السادسة .

ومن الملاحظ انانعكاسات الابتسام استجابةللمثيرات اللمسية والحركية تظهر على الوليد من نهاية الاسبوع الاول من حياته ، اما الابتسامة(الاجتماعية) لشخص أو استجابة لابتسامة

اخرى لا تحدث حتى الشهر الثالث من العمر . ويرى بعض الباحثين ان هذه الظاهرة تعتبر أولى الاستجابات الاجتماعية للطفل .

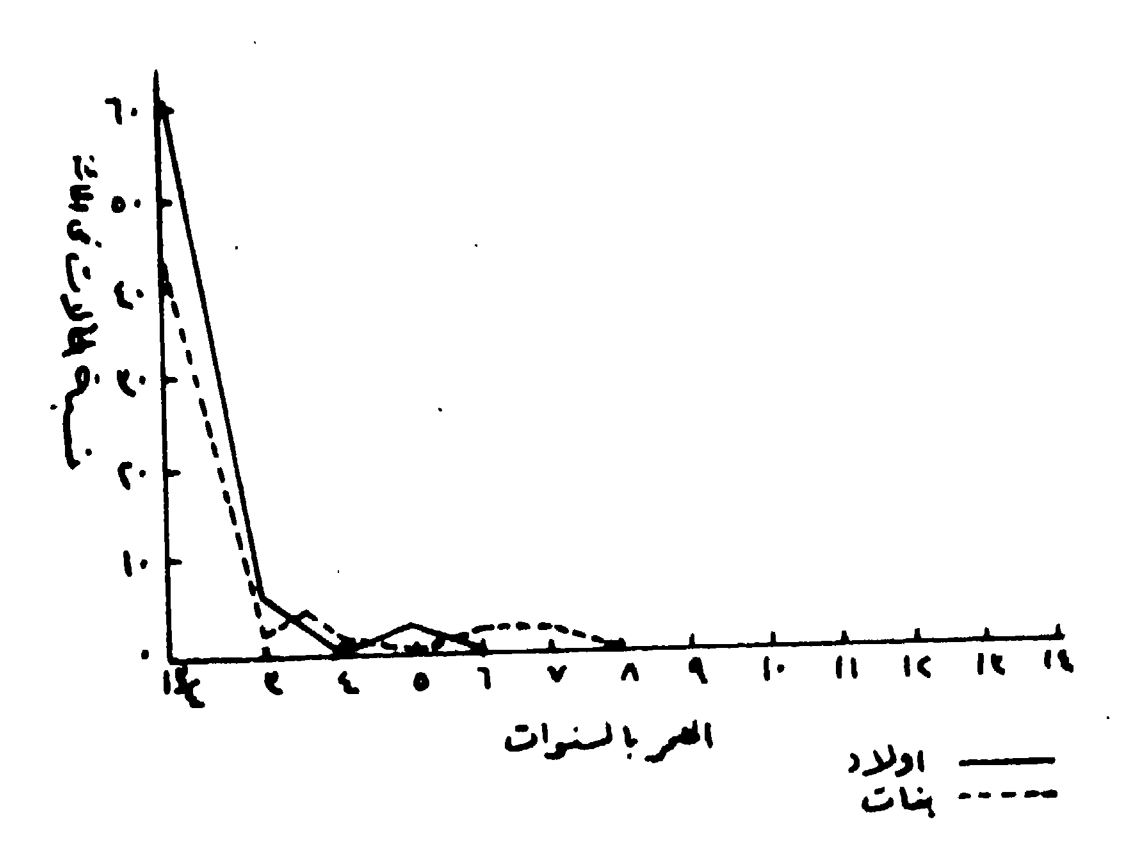
كما نلاحظ أيضا أن أغلب الاطفال الذين ولدوا حديثا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم لحظات قصيرة ، فالوليد فى الشهر الاول قد يحتفظ برأسه أفقية مستقيمة مع جسمه اذا حمل أفقيا ، وبعد شهرين يستطيع أن يرفع رأسه مائلة على الافقى بحوالى ٣٠ درجة وكلما تقدمت الشهور يستطيع أن يرتفع برأسه وصدره أثناء نومه . ثم يستطيع بعد ذلك أن يدير رأسه بادارة كتفيه واستخدام عضلات الجزء الاعلى من الجذع ، ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ برأسه راسية عندما يجلس دون مساعدة الا عند نهاية الشهر السادس ، وبتقدمه فى العمر تطول المدة التى يستطيع فيها الاحتفاظ برأسه على هذا الوضع(١٥) .

(ب) الجذع

ان دوران الجسم من جانب لآخر أثناء النوم لا يتوفر للطفل المولود ، ولكن عندما ينتهى الشهر الثانى فان الوليد يستطيع أن يتنقل من النوم على جانبه الى ان يصير نائما على ظهره وفى نهاية الشهر السادس يستطيع الرضيع أن يدير جسمه دورة كاملة . وقد لا يتم له ذلك دفعة واحدة ، بل يتم على مراحل ، وفي دورانه عادة يبدأ بمنطقة الرأس ثم الاكتاف ثم الجزء الأسفل من الجسم ، وعن طريق الدفع بالساقين يستطيع الرضيع أن يدير كل جسمه .

ويصبح جذعه تحت سيطرته قبل أن يتمكن من الجلوس بنفسه فهو عندما يصل الى الاسبوع العشرين يستطيع ان يجلس بمساعدة محتفظا بجسمه معتدلا . وبين الشهر التاسع والعاشر فان الوليد العادى يستطيع الجلوس دون مساعدة لدقائق معدودة، وفي بداية تعلمه الجلوس يميل بجسمه قليلا الى الامام ليحتفظ بتوازنه ،كما ان ذراعيه يكونان ممتدين على جانبى جسمه وكما يكون ساقاه مقوسين بقدميه متقابلين ليعطيه هذا الوضع حيزا كبيرا للاتزان .

ومن بين عضلات منطقة الجذع تكون أعضاء الاخراج وتأخر قدرة الطفل للسيطرة عليها وذلك لحاجتها الى عضلات دقيقة ، فالتحكم فى الاخراج معناه كف العمليات التى كانت بطبيعتها لا ارادية . وهذا التحكم لن يتم الا اذا أصبحت عضلاته قوية ومتآزرة ، حتى يستطيع أن يمنع بذلك الفضلات التى تعمل على الخروج من الجسم . وبالرغم من ان هناك فروقا فردية بين الاطفال فى القدرة على هذا التحكم الا أن هذا يبدأ عادة عندما يتم الرضيع شهره السادس بينما التحكم فى المثانة قد يتأخر حتى الشهر الخامس عشر او السادس عشر حتى السنتين أو السنتين والنصف ، مع حدوث هفوات فى حالة مرض الطفل أو اجهاده أو قلقه الانفعالى. أما الامتناع عن التبول ليلا فانه يحتاج الى سنة أخرى من النمو . وبوجه عام فان الطفل عند دخوله المدرسة ينبغي أن يكون قد اكتسب عادة التحكم فى البول حتى فى حالات الاجهاد والقلق الانفعالى والاستثارة(١٦) .



شكل (٧) نمو عادات النظافة فى الطفل (التحكم فى التبول) ماخوذة من (١)

(ج) الأطراف

من أول ما يظهر فى أشكال الحركات المتآزرةفي الدراعين ينحصر فى الحركات الدفاعية . وتبدو هذه من الايام الاولى من الحياة . وتكونفى بداية الامر حركات ضعيفة التآزر والتنسيق ولكنها فى نهاية الأسبوع الثانى بعد الولادة تكتسبقدرا كبيرا من التآزر ــ أما الوصول الى الأشياء والقبض على الاشياء ، ما عدا فى الحالاتالتي تلمس اليد الشيء صدفة ، فانها تحتاج الى قدر من التآزر بين العين واليد . حيث يجب أنتعمل العينان معا ، ويرتبط عملهما بحركة اليدين. وفي المراحل الاولى من التآزر بين العين واليدينظر الى الشيء الذى امامه دون أن يصل بيديه اليه . وخلال الشهر الرابع يبدأ بالقبضعلى الاشياء ولكن بشكل بطيء وغير منتظم ، ويتحسن ذلك بعد شهرين . وبعد عدة شهوريستطيع الرضيع الوصول الى الشيء بيديه والقبض عليه ثم يحوله مباشرة الى فمه .

وفي انعكاس القبض على الاشياء Grasping Reflex الذى يظهر عند الميلاد أو بعد ذلك بقليل يقوم الابهام والاصابع مقام الخطاف ،ويتمذلك قبل انيستخدمالرضيع يده لاغراض اخرى وفى هذه الحالة فان الابهام يعمل فى اتجاه مخالفللاصابع ، ومعنى هذا انه يعمل كوحدة منفصلة.

وانفصال الابهام عن باقى الاصابع يتم عادة بين الشهر الثالث والرابع ، أما اخذ الاشياء فانه يتاخر حتى الشهر الثامن أو التاسع . كما أن القدرة على القبض على أكثر من شيء واحد أو اخذها معا يظهر فى شهور متأخرة . فالطفل العادى فى الشهر الخامس ينبغى أن يكون قادرا على أن يقبض على شيء يقدم له ، بينما فى الشهر السابع يستطيع أن يقبض على شيئين ، وفى الشهر العاشر على ثلاثة أشياء (١٧) .

ولنبدأ الآن بالنمو الحركى في الساقين والقدمين : نلاحظ أن الحركات اللازمة للمشى تبدأ عند الميلاد أو حتى قبل ذلك . فالطفل المولود حديثا يقوم بحركات بقدمية تشبه الركلات أو تشبه الخطو ، وكنتيجة لامتداد الساق والركلات فان الوليد يتعلم التآزر بين عضلات ساقيه وجذعه ، ثم يتعلم بعد ذلك احراز الاتزان بين اجزاء جسمه ، وهذا كله اساسى لعملية المشى ولا يمكن تحقيقه فى فترة زمنية بسيطة ، وكثير من الرضع يكون لديهم استعداد للمشى بين الشهر التاسع والخامس عشر ، فعظام وعضلات واعصاب الساق والجذع تكون معدة لذلك ، ولكن الرضيع يلزمه الاستثارة والمعاونة من الكبار قبل أن يستطيع المشى .

ونشاهد أن الرضيع في نهاية الاسبوع الثانى يستطيع عن طريق حركات ساقيه ان يحرك جسمه عن موضعه ، كما أن أول مظهر للانتقال يتم فى الرضيع عن طريق الرفس ثم الحبو الذى يبدأ فى حوالى الشهر الرابع ، ويصل الى قمة اتقانه بين الشهرين السابع والتاسع . وبعض الرضع لا يمرون فى هذه المراحل وينتقلون مباشرة الى المشى ، بينما نجد الآخرين يبقون فى مرحلة من هذه المراحل فترة قد لا تطول ثم ينتقلون الى المشى .

وفي المراحل المتقدمة من الحركة التى تسبق المشى نجد أن الرضيع يقوم بحركات زائدة فى انحاء جسمه ، وبالتدريب ينتقل التآزر من الراس حتى منطقة الساقين ، ويظهر التآزر جيدا ومتقنا فى مرحلة الزحف ، وبتقدم هذه المهارات تزداد سرعة الطفل فى الانتقال .

ويسبق المشى عادة القدرة على الوقوف ويحدث غالبا أن الوقوف مع المساعدة يسير جنبا لجنب مع الزحف ، والسن المعتاد للوقوف مع المساعدة لمدة دقيقة واحدة هو اربعون أسبوعا حتى خمسين أسبوعا . ولكى يحافظ الرضيع على توازنه فانه يقف متباعد الساقين واصابع القدم متجهة للخارج والركبتان متقاربتان ، ويتجه الرأس والجزء العلوى من الجسم الى الامام ، وبالتدرج يقلل الرضيع من الضغط الذى يبذله على من يساعده فى الوقوف الى أن يستطيع الوقوف بمفرده تماما .

ويستطيع بعض الصغار المشى بمجرد وقوفهم بينما يتاخر البعض الآخر قدرا من الوقت حتى يكتسب الثقة فى نفسه ليخطو الخطوة الاولى . ويحدث المشى التدريجى بمساعدة عادة مع الوقوف فى وقت واحد . وفى دراسة لأحد الاطفال وجد أن فترة ٢٥ يوما قد مرت بين الوقوف بمفرده واتخاذ الخطوة الأولى فى المشى .

وفى كل انـواع الانتقال نجد ان الرضـيعيحتفظ براسـه معتدلا حتى يكتشف طريقه ، وفى المشى يكون الجسم معتدلا وتكون الحركة عنطريق تحريك السـاقين وحدهما ، وكمسـاعدة لاحتفاظه بتوازنه فان ذراعى الرضيع تتجهانللخارج ، وتتجه القدمان للخارج ، وتتصلب السـاقان ، وتتجـه العينـان الى الامام دوناهتمام بالنظر الى الارض ، وكثيرا ما يتسـبب عن هذا وقوع الصغير اثناء المشى لغياب ما تحتقدميه عننظره ولصعوبة اتزانه فى البدايةولقيامه بحركات زائدة لا تفيده فى عملية التحرك .

وبنمو الصغير يحدث تغيران فى عملية المشى :

(أ) يتناقص ارتفاع مركز ثقل الساقين

(ب) وتتم بذلك سهولة فى الخطو . فبعدان كانت الساقان ترتفعان الى اعلى مما يجب فى بداية المشى ، وبعد أن كان يبذل جهدا وطاقة كبيرين فى نقل قدميه وتتابع الحركة فيها يقل الجهد تدريجيا وتزداد الخطوة اتساعا ويقـلارتفاع الساقين ويتم ذلك حوالى السنة الثانية او الثالثة من العمر (١٨) .

● ● ●

اكتساب المهارات فى الطفولة

بعد أن يكتسب الطفل القدرة على التحكمفى حركاته الكبيرة يبدأ فى تنمية مهاراته ، ويقصد بذلك مجموعة التـآزرات الدقيقـة التى تلعبالعضلات فيها دورا هاما . ويمكننا ان نصف المهارة بتعبيرات خاصة بها مثل « آلية وسريعةودقيقة ومرنة » وينبغى الا ننظر الى المهارة على أنها عمل مفرد دقيق ، فكل مهارة مهما صـغرت« حتى كتابة حرف من الحروف الهجائية هـو سلسلة من مئات عمليـات التوافق فى خـلاياالجهاز العصبى ، وتصبح الحركة المعتمدة على اية مهارة عملية معقدة للغاية تتضمن عمليـاتمن التكامل والتمايزفى الحركات الدقيقة ومراحل متتابعة من المحاولات وحذف الاخطاء . وتنقسمالمهارات الحركية الى نوعين مختلفين :

(١) المهارات العضـلية الكبيرة Gross Mucular Skills وهذه مثل الجرى والقفز والرفع والتسلق .

(٢) المهارات العضلية الدقيقة Fine Muscular Skills مثل الكتابة والعزف على الادوات الموسيقية الصغيرة ، او القيام بالاعمـال الدقيقةالتى تتطلب مهارة فى الآداء .

ومن خصائص المهارات أن تعلمها يؤدىالى « العادات الحركية » فالنشـاط الذى يتكرر حدوثه بسهولة وارتياح يؤدى هذا التكرار الىاكتساب العادات التى تسهل من ادائه وتتابع الحركات فيـه وتقليل الانتباه عند القيام به ،فتكرار الصغير لعملية الخطو والمشى يسـهل من اداء حركاته وتتابعها بعد ذلك ، ويصبح المشىعادة حركية لا تحتاج الى تركيز الانتباه عنـد الطفل الكبيركما كانت تحتاج عند الطفل الصغير .

والمهارات لا يكفى مجرد النضج Maturation في ارتقائها بالرغم من أن الاســاس فى القيام بها فسيولوجى الطبيعة ، اذ يتطلب نضج الاعصاب والعضلات ومناطق المخ المتصلة بعمليــات هذه المهارات ، والتحكم فى أوجه النشاط الارادى المتــآزر .

فبالاضافة الــى النضج فــان المهــارات تتطلب تدريبا ، ولكن الاهم فى التدريب هــو كميته ونوعه ودقته ، فبالرغم أن المهارة تكتسب وتزداد اتقانا مع تكرار المرات المتتابعة ، الا أن نوع التدريب لهذه المهارات له أكبر الاثــر في اتقانها وسهولة اداء حركاتها بعد ذلك ، وكمــا سبق أن أوضحنا في الجزء الخاص بالنضــج والتدريب فان اهمية التدريب وما ينتجه من محصول وقيمة لا يحصل عليها الطفل الا اذا جاء فى الوقت المناســب الذى يرتبــط ارتباطا مباشرا بمرحلة النضج الخاصة بالعمليات التي تتضمنها المهارة المطلوبة . ويمكننا أن نفصل ذلك فنوضح العوامل التى يتوقف عليها اتقان الطفل لمهارة معينة :

١ ــ التدريب فى السن المناسب .

٢ ــ التوجيه والارشاد بدلا من ترك الطفل ليعتمد على المحاولة والخطأ فى أثناء العمليات اللازمة ، وقد يحدث الارشاد حتميا عن طريق تقليد الطفل لحركات أحد والديه ، وحتى فى هذه الحالة يحتاج الطفل الى توجيهه ليحدث التقليد بأسلوب متقن بعيد عن الخطأ .

٣ ــ الدافع لاتقان المهارة وقــد ينتــج الدافع عن طريق تحقيق الطفل للهدف الذى يصرف من اجله الوقت والجهــد . فالطفــل الصغير حين يبذل جهده فى عملية المشى عنــد تعلمها ، ويجد أنه قد حقق بذلك احراز الانتقال من مكانه والوصول الى الاشياء التى لم يكــن يستطيع الوصول اليها في وضعه الثابت فانما يصاحب ذلك من ارتياح نفسي ومشاعــر الانتصار تساعد الصغير على مواصلة بذل الجهد وتكرار العمليات اللازمــة التــي تــؤدى الــى الوصول الى الهدف .

• • •

وبعد ، فتلك عجالة عن تتبع النمو خلال مرحلتي الطفولة ، وقد قدمنا لها بمرحلة مــا قبل الميلاد ، وادمجنا بهــا الفترات القصيرة التي بها يبدأ نمو الطفل ، وبذلك جعلنا الدراسة تتضمن الطفل مــن وقت ميلاده الــى نهايــة طفولته ، اى خلال ما يقرب من اثنى عشر عاما . وقد تتبعنا خلال هذه الفترة النمو الجسمي والنمو الحركى ، وحاولنا بقدر الامكان بيــان الاعمار التى تظهر فيها مراحل التغير فى كل جزء من الاجزاء الهامة من جسم الطفل ، وفى كــل مظهر من مظاهــر نمــوه وكل مهــارة حــركية يكتسبها .

المراجــع

(1) Hurlockb, E. : **Child development.** Mc Craw-Hill., 1964.

(2) Havighurst, R. T. : Leisure and life-style., **Amer. J. Sociology,** 1959.

(3) Shinn, M. W. : **The biography of a baby.** New York : Macmillan, 1900.

(4) Geseell, A.: Maturation and the patterning of behavior. in C. Murchisorn (Ed). **A handbook of child Psychology.** Worecester : Clark University press., 1933.

(5) Meredith, H. V.: Adiscriptive concept of physical development., In D. R. Harris (Ed.) **The concept of development : an issue in the study of human behavior.** Minneapolis : University of Minnesota press, 1957.

(6) Duggins, O. H., and M. Trotter: Age changes in head hair from birth to maturity. **Amer. J. phys. Anthrop.,** 1950.

(7) BAYLEY, N. : Some Psychological correlates of somatic androgyny. **Child Develpm.,** 1951.

(8) Garn, S. M.: Fat thickness and growth process during infancy **Num. Biol.,** 1948.

(9) Allen, I.: Facial growth in children five to eight years of age. **Hum. Biol.,** 1948.

(10) Meredith, H. V.: A time series Analysis of growth in nose hight during childhood. **Child Developm.,** 1958.

(11) Thompson, H. : Physical growth. In L. carmichael (Ed.) Manual of Child Psychology, New York : Wiley 1954.

(12) Walker, R. N.: Body build and behavior in young children, **child developm.** 1962.

(13) Massler, M., and B. S. Savara : Natal and neonatal teeth. **J. Pediat.,** 1950.

(14) Fiavell. J. H. : **The developmental Psychology of Jean piaget.** Princeton : van Nostrand, 1963.

(15) Breckenridge, M. E., and E. L. Vincent : Child Developsment philadelphia saunders, 1960.

(16) Spits, R. A. : Purposing grasping. Personality, 1951.

(17) E. L. Vincent, and P. C. Narin : **Human psychological development,** Ronald, 1961.

(18) Carmichael L. : **Manual of child psychology,** 1954.

(19) Lipsitt, L. P. and N. Levy : Electrotactual threshold in the **child Develpm,** 1959.

سيد محمد غنيم

النمو النفسي من الطفل إلى الراشد

مقدمة

يلقى علم نفس الطفل اهتماما كبيرا من جمهرة المشتغلين بعلم النفس . وقد يكون مرجع هذا الاهتمام هو الطفل ذاته ، نظرا لما للطفولة من جاذبية شديدة نحسها نحن الكبار تجاه الاطفال . وليس من شك ان غالبية الآباء في الأزمنة القديمة كانوا يحبون ابناءهم ويهتمون بتربيتهم ، كما نحبهم نحن اليوم ونهتم بتربيتهم ، مع اختلاف وجهات النظر الى الطفل والطفولة . لقد اشار فيليب اريس فى استعراضه « للطفولة عبر القرون » (١٩٦٢) الى أن أطفال القرون الوسطى كانوا ابتداء من سن الثالثة او الرابعة وما بعدها يشاركون فى كثير من انشطة الكبار . ولم تكن للاطفال شخصياتهم المستقلة كأطفال . وقد تطلب الامر مرور مئات السنين فى الازمنة الحديثة ، قبل أن تتغير نظرتنا الى الأطفال عامة باعتبار أن لهم شخصياتهم المتميزة عن شخصيات الراشدين . وقد سار المجتمع الحديث خطوات واضحة في فصل عالم الأطفال عن عالم الكبار .

والاهتمام الكبير بعلم نفس الطفل أمر تمليه ضرورة فهم الطفل الذى نتعامل معه . فقد أصبح لزاما على الآباء والمربين أن يفهموا الاطفال من أجل أن يتوافقوا معهم ومع مشكلاتهم التى يواجهونها ، وأن يساعدوهم على حل هذه المشكلات بما يهيىء المجال أمام نمو نفسي سليم. فمن خلال الدراسة المنظمة لعملية النمو النفسي والاجتماعي للطفل يمكن ان نقف على ما هو عادى وما هو شاذ فى سن معينة ، وأن نعرف الكثير من جوانب شخصيته ، وأن نوجهه التوجيه السليم الذى يتوافق مع مرحلة نموه والظروف التى يعيش فيها . وقد يكون هذا الاتجاه من نتاج الأفكار الحديثة ، اذ لم تكن ثمة حاجة قديما ، لفهم الطفل ولا حتى معرفة خصائص المرحلة النمائية التى يمر بها ، كما كانت تسود علاقته بالكبار بعض الافكار التى أثرت فى نظرتهم اليه وأسلوب معاملتهم معه ، فهو مثلا يرى ولا يسمع ، ومن ثم لسنا فى حاجة لمعرفة ما يجرى فى عقله من أفكار أو ما يتكون لديه من ميول واتجاهات . ولقد حدث تغير ملحوظ في تفكيرنا عندما بدانا ننظر الى التربية كشيء ضرورى بالنسبة للطفل ، وكان هذا التغير نتيجة لما طرأ على العالم من تغير اجتماعي ومن ثورة صناعية ، وما نجم عن ذلك من تغير فى اقتصاديات هذا العالم ، والأدوار الوظيفية المعقدة التى ظهرت والتى لايمكن اكتسابها عن طريق التقليد أو النموذج على نحو ما كانت تسير عليه التربية القديمة .

واذا كان النظام التربوى القديم يتسم بالشدة والصرامة فى معاملة الطفل ، الا ان عقلاء المفكرين والمربين سرعان ما أدركوا اهمية الدافعية وان « الحصان الذى يقاد الى الماء قسرا لايشرب بالضرورة حتى لو ضرب » ، كما أدركوا اهمية الفروق الفردية بين الاطفال فى النواحى الجسمية والعقلية والانفعالية وفى الشخصية . ومن هنا ظهرت الحاجة الماسة الى ضرورة ادخال تعديلات على مناهج الدراسة كى تتلاءم ومستويات نضج الطفل . واذا كان الالتحاق بالمدارس الى عهد قريب قاصرا على طبقات معينة يمكنها الانفاق على العملية التعليمية ، فقد أصبح اليوم عاما واجباريا . واذا كان الوقت الذى يقضيه الطفل فى المدرسة قليلا في البداية ، فقد اصبح في الغالبية العظمى من أنظمة التعليم فى العالم اليوم ، يمثل جانبا كبيرا من ساعات نهار الطفل ، هذا بالاضافة الى انشغاله بعد عودته من المدرسة ، بالكثير من الواجبات المدرسية . وقد تطلب هذا الامر وجود قدر كبير من المهارات والقدرات لمواجهة هذه الواجبات ، مما دعا المدرسين الى الاستعانة بعلماء نفس الطفل للاجابة على كثير من المشكلات التي تواجههم فى العملية التعليمية .

غير أن المشكلات التى تواجه المدرسين ليست شيئا بالقياس لتلك التى تواجه الآباء فى تربيتهم للابناء ، فحين يصبح الآباء اكثر تعلما وتثقفا وادراكا ووعيا ، فانهم يبدأون فى اثارة الكثير من الشكوك حول الرغبة فى الالتجاء الى أسلوب التربية او النظام الذى تربوا هم أنفسهم عليه . فربما كانت هناك الرغبة الشعورية أو اللاشعورية في أن يكون أسلوب تربيتنا لأبنائنا أفضل بكثير من أسلوب تربية آبائنا لنا . ومن ثم اصبح أسلوب « التعقل والفهم » هو الاسلوب السائد اليوم ، اما الالتجاء الى توقيع العقاب والضرب ، فانه ــ اذا حدث ــ يكون لذنب وقع

فيه الطفل ، أو يكون نتيجة احساس شخص بالفشل . والواقع أن معظم الاسر اليوم تتخذ أسلوب الفهم والتعقل فى معالجة مشكلات أبنائها ، كما تغيرت الكثير من المفاهيم والافكار عن الطفل . فهو اليوم يرى ويسمع ، بل ويؤثر الى حد ما فى قرارات الأسرة ،وخاصة اذا ما حفزناه الى القيام بمثل هذه المشاركة .والحقيقة ان هذا التغير هو نتيجة لرغبتنا في ان نصبح اكثر ديموقراطية فى أسلوب معاملتنا مع الآخرين. ففي المجتمعات الاكثر تقليدية ، تقاس قيمة الفرد الى حد كبير بمركزه ووضعه فى البناء الاجتماعي .ولما كانت مثل هذه المجتمعات متجهة نحو الكبار ونحو سيطرة الرجال ، فان مركز الطفل ،والمرأة كان فيها وضيعا ومغبونا أو مهملا ، ونادرا ما كانت تسمع آراؤهم كأفراد .

وثمة سبب آخر للاهتمام الموجه نحو دراسة علم نفس الطفل فى السنوات الاخيرة يتلخص فى الرغبة فى فهم انفسنا كراشدين .فاحد الاساليب الهامة لفهم الذات او اكتشافها يكمن فى دراستنا لسيكولوجية الطفل . فمن خلال دراستنا للطفل ، يمكن ان نعثر على بعض المفاتيح لمعرفة غموض انفسنا ومعرفة من نحن .اننا جميعا ندرك أننا الآن وبالتأكيد اكثر مما كنا عليه في طفولتنا ، وان اكتشافنا للاحداث والخبرات التى مرت بطفولتنا من شأنه ان يملأ الفراغ القائم بين انفسنا فى الطفولة وانفسنا اليوم . فنحن ندرس تقارير هذه الاحداث والخبرات التي مرت بنا فى الطفولة ، بحثا عن انفسنا ، وعن تفسيرات لنجاحنا أو فشلنا ، وعن نواحى الكف والاعاقة التى تعرضنا لها ،واثرها فى سلوكنا وقدراتنا وامكانياتنا . وكما يقول **كونجر وموسن وكيجان** ان دراسة سيكولوجية الطفولة تزودنا بالاساس الذى لا بد منه لكى نفهم سلوك الراشدين فهما اكثر دقة .فالبيانات الاكلينيكية المستمدة من تواريخ الحالات الخاصة بالمجرمين والمرضى في العيادات والمستشفيات العقلية تكشف لنا عن أن سوء التوافق الشخصى والاجتماعى الذى يشيع بين الكبار يعود بصفة دائمة تقريبا الى الخبرات التي يقيمها الفرد فى حياته المبكرة . ولقد كان لسيجموند فرويد ، أبى التحليل النفسى ، الفضل فى ان اظهر بقوة ما لأحداث الطفولة من اهمية ، كما استطاع بتحليلاته النفاذة للمرضى الذين كان يعمل معهم ان يوضح صدق قول الشاعر « الطفل ابو الرجل » (**الترجمة العربية ١٩٧٠**) .

● ● ●

● المجالات والطرق والنظريات :

ويهمنا الآن أن نلقى نظرة على مجالات دراسة الطفل وتطورها ،والطرق التي استخدمت في هذا المجال بما يسمح لنا بالقاء المزيد من الضوء على النظريات التى عالجت النمو النفسي للفرد فى طفولته ورشده ..

ولنبدأ الآن بمجال دراسة الطفل :

ارتبطت دراسة الطفل – كمجال من مجالات الاهتمام – بغيرها من المجالات الكبرى . اذ تمتد أصولها القديمة الى الفلسفة والتربية والتاريخ الطبيعي ، كما ترتبط حديثا بمصادر

كثيرة مثل علم النفس التجريبي وعلم النفس الاكلينيكي ،والطب النفسي والفسيولوجيا وطب الاطفال وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا واللغويات . ورغم اختلاط أصوله ، فمن الممكن النظر اليه باعتباره مجالا شبه مستقل . ومع ذلك فحدوده لاتزال غير محددة ، كما ان اهدافه واهتماماته متنوعة . ومن الممكن ان نشير الى ثلاثة مجالات ينقسم كل منها الى قسمين ، تعتبر بمثابة اطار لجميع الوان النشاط التي تجرى في هذا الميدان .

فالدراسة قد تتجه اولا : اما الى ناحية البحث أو الى ناحية التطبيق ، اى اما الى الكشف عن كيف يعمل الطفل ، وكيف ينمو ، أو الى القيام بعمل اشياء للطفل ومن اجل الطفل . ومجالات التطبيق المتصلة بالطفل كثيرة ومتعددة تتجلى فى مجالات العيادات النفسية ، وعيادات الطب النفسي ، وفى التوجيه المدرسي ، ومحاكم الاحداث ،وفى برامج توجيه الآباء والابناء .

وقد تتجه الدراسة ثانيا : اما الى الطفل العادى أو الى الطفل الشاذ . اعنى اما الى النمو الذى يسير سيره الطبيعي أو الى النمو الذى يشذ عن الطريق العادى او الطبيعي .

وقد يتجه مجال الاهتمام ثالثا : اما الى الطفل نفسه وما يجرى به داخليا من عمليات عقلية ،ونفسية وما يعتريه من انفعالات ، أو الى البيئة المحيطة به وكيف تؤثر فى سلوكه ونموه من خلال عملية التطبيع الاجتماعى التى تأخذ بها الطفل منذ وقت مبكر في عملية نموه .

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن ناحية الاهتمام ، فان الهدف هو معرفة شيء أو الكشف عن شيء يتصل بالطفل . ولقد تعددت النواحي التى يركز الباحثون عليها دراستهم للاطفال . فالبعض يهتم بالأطفال كأطفال ، أى باعتبارهم مجموعة فرعية مستقلة عن الكبار ، وبالطرق المميزة التى يسلك بها الاطفال جميعا أو الاطفال فى سن معينة أو الاطفال من نوع خاص أو الاطفال الذين يعيشون تحت ظروف بيئية معينة على نحو ما يتضح فى دراسات **وودكوك (١٩٤١) ، وبايير وميرفي (١٩٤٢)** وكذلك فى دراسات **جيزل** المستعرضة التى اجراها على أعمار خاصة .

أما البعض الآخر فقد ركز الاهتمام على كيف يتغير الطفل اكثر مما ركزه على كيف يسلك فى وقت معين . وهذا الاهتمام بالتغيرات النمائية قد يتركز على التغيرات الجسمية ، أو على النمو العقلى أو على النمو الانفعالى أو على النمو عامة . والامثلة في هذا الصدد لا حصر لها ويكفى الرجوع الى ما كتبته اليزابيث هرلوك وشارلوت بهلر وارنولد جيزل وجان بياجيه ،وجوردون البورت وغيرهم كثيرون .

وثمة جماعة ثالثة ركزت اهتمامها على عملية النمو ذاتها مستقلة الى حد كبير أو صغير عن الشيء النامى ، طفلا كان أم حيوانا أم حضارة . وهذا الاتجاه يتضح على وجه الخصوص فى كتاب هاينز فرنر حيث تساءل في مقدمة كتابه « علم النفس المقارن للنمو العقلى » عن ما هو علم النفس النمائى وما مشكلاته ؟ ورد على ذلك بقوله : ان مفهوم علم النفس النمائى يتضح تماما اذا فهمنا أنه يعنى العلم الذى يختص بدراسة نمو الحياة العقلية والذى يتخذ منهجا محددا ، ونعنى به منهج ملاحظة الظواهر السيكولوجية من وجهة نظر نمائية .

وهناك جماعة رابعة تهتم بدراسة اطفال مفردين ، وكيف يؤدون وظائفهم ، وكيف ينمون وذلك اما بقصد التشخيص الاكلينيكى ، أوبقصد البحث فى نواحى الشخصية أو نمو الشخصية وديناميا تها على نحو ما يتضح فى دراسات ميرفى عن المهارات والمصادر التى يستعملونها مع البيئة .

واخيرا يمكن أن نشير الى الدراسات التى تجرى بطريقة عرضية على الاطفال والتى يستخدم فيها الاطفال كموضوعات للدراسة التجريبية ، لا لان الباحث يهتم بمعرفة شىء عن الاطفال ، ولكن لأن الاطفال هم الاشخاص الذين فى متناول يده ، ويمكنه ان يجرى عليهم ابحاثه وتجاربه باعتبارهم عينات للجنس البشرى عامة . ومن اهم دراسات هذا النوع تلك التى تتصل بأبحاث التعليم ، سواء اجريت في المعمل أو فى الفصل ، والتى تحاول أن تحدد الظروف الخارجية للتعليم ، والتى يمكن فيها ان يستخدم الكبار او الفيران مكان الاطفال . ومع ذلك يمكن القول انه حتى فى هذا النوع من الدراسات التى لا تخبرنا بشىء عن الاطفال من حيث هم كذلك ، فقد يكون لها اهمية تطبيقية بالنسبة للمدرسين أو للآباء .

وهكذا يتبين لنا ان دراسة الطفل تمثل لنا أشياء كثيرة مختلفة يمكن ان يقوم بها اناس كثيرون مختلفون .

• • •

● طرق البحث فى دراسة النمو

ليس الهدف هنا تقديم عرض تفصيلى لمناهج البحث ، بقدر الاشارة الى بعض الطرق الاساسية والافكار المنهجية التى ظهرت كأدوات خاصة فى دراسة النمو . وقد وصلت الينا هذه الادوات من مجالات متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة في دراسة الطفل . ولذا يحسن النظر اليها فى ضوء المشكلات والفروض التى أوجدتها ، اعنى في ضوء نظرة تاريخية نربط فيها بين الادوات والحقب الزمنية أو التاريخية التى ظهرت فيها ، بشكل يلقى لنا الضوء على تطور استخدام هذه الادوات في دراسة الطفل .

ومن الممكن أن نتتبع بالدراسة أربعة أنواع من الادوات الرئيسية هى : طرق الملاحظة ، والطرق المعملية ، والاختبارات والمقاييس ، والطرق الاكلينيكية . وكل طريقة منها تقابل حقبة زمنية ظهرت فيها . وهذه الحقب الزمنية الاربع هى الحقبة الطبيعية Naturalist Era والتى بدات فى القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها فى منتصف القرن التاسع عشر ، وحقبة علم النفس التجريبى القديم ، والتى بلغت ذروتها فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، ثم حقبة الفروق الفردية والتى سادت الثلث الاول من القرن العشرين ، ثم حقبة دراسة الشخصية والتى بلغت ذروتها فى السنوات العشرين الاخيرة من هذا القرن . وهذا التقسيم التاريخى يقوم على المفهوم المتغير للفرد على نحو ما سوف يتضح من خلال المناقشة التالية لها .

أولا : **الحقبة الطبيعية :** مــن المعروف لنا أن الاهتمام بدراســة الطفل ليس وليد العصر الحديث ، بل يمتد الى عهود قديمة . فقد وردفى الكتب الســماوية ما يشير الى تربية الصغار وتقويمهم ، وكذلك فى النظريات التى نادى بها أفلاطون في الجمهورية ، وفى كتابات المحدثين من الفلاســفة من أمثــال جون لوك ، وجان جاك روســو ،وغيرهما عن تنشية الطفل . لقد كان جون لوك (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) من أوائل المفكرين الذين مهدوا لهذه الحقبة ، فناقش الكثير من الافكار القديمة التى تتصل بتربية الطفل ونشر سنة ١٦٩٣ مقالتــه « بعض الافكار المتصــلة بالتربية » نصح فيها المربين بترك الحرية للطفل كى يعبر عن مشاعره ، والا نقيد حريته الا قليلا. ولم يكن يتفق والآراء التى تذهــب الى تدريب الطفل على الصبينة ، أو تأجيرهم للعمل ، لان من واجب الآباء ان يهتموا بتربية أبنائهم وأن يبقوا الى جوارهم ما أمكنهم ذلك . وكون الآباء نماذج طيبة أمام الابناء هو أحسن نمط يمكن التأثير به في شخصية الابناء . ولقد كان لوك احد المفكرين الاقوياء من أصحاب التأثير فى تنمية الاســلوب العلمى . فرفض الاعتقاد بأن المعرفة فطــرية ، وأكد أن كثيرا من معرفتنا انما مبعثه الاحتكاك بالبيئة ، وان هذه النتائج يجب أن تدعم من خلال الطرق التجريبية . وتعتبر اعمال لوك في الادراك الحسى والتذكر وتداعى الافكار والانفعالات ونمو اللغة من الاعمال التى ساهمت فيما بعــد فى ارساء قواعد علم النفس التجريبى .

وثمة مفكر آخــر كان له تأثير عظيم على الاتجاهات نحو الاطفال ونعنى به **جان جاك رسو (١٧١٢ ــ ١٧٧٨)** والذى رفض ــ شأنه شأن لوك ــ الكثير من الافكار التى كانت ســائدة في العصور الوسطى عن الاطفال . **أن ما نخرج به من قراءتنا لروسو هــو الاحترام الكبير للاطفال كأفراد .** فمثلا يجب الا يصر الآباء على اعتذار الطفل لانه لا يهدف بطبعه الى القيام بالخطيئة. أنه مخلوق طيب بطبعه ، وان ما يفرضه مجتمع الكبار عليه من قيود وتحريات هو الذى يعرقله ويضطره الى أن يكون شخصا أقل نبالة وفضيلة،وقد كانت نظرته تخالف ما تواضع عليه المجتمع فدعا الى تشجيع الطفل على أن يعبر تعبيرا حرا غــير مقيد عــن نوازعه الاصيلــة التى هــى فى جوهرها وأصلها نوازع نبيلة .

لقــد بدأت لحقبة الطبيعية فى أواخر القرن القرن الثامن عشر حين اخــذ نفر من الباحثين فى دراســة الاطفال باســتخدام منهج الملاحظة الفعلية . من ذلك ما قام به المربى السويسرى **جوهان هاينريش بستالوتزى** (١٧٤٦ ــ ١٨٢٧)من نشر مذكرات تقوم على الملاحظة الدقيقة التى قام بها لنمو ابنه الذى يبلغ من العمر الثالثــة والنصف . وقد أعلن هو الآخر اهمية فهم الاطفال وسلوكهم . وقد نظر الى الام باعتبارها أول ،واهم مرب للطفل ، وحفزها على أن تصدق مشاعرها نحو الطفل ، وان تفتح امامه آفاق هذا العالم وتعــده لاســتخدام حواســه وتقوية ملاحظته .

وفى القرن التاسع عشر بدأت تظهر سلسلة متتابعــة من تــراجم حيــاة الاطفــال . فقــد قــدم العالم المشــهور تشارلس دارون (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢) من بين أعماله العــديدة ، مقالة أورد فيها ملاحظاته عن طفله الاول . كما قدم العالم الفســيولوجى **ولهلم تــيرى براير** Preyer ملاحظاته الدقيقــة عن النمو العقلى لطفله خلال السنوات الاربع الاولى من حياته .

لقد لاحظ نمو الانعكاسات منذ الولادة ، كمالاحظ اثر الخبرة والتعلم . ويعد كتابه « **عقل الطفل** The Mind of the Child وهو خلاصة ملاحظاته أحد أمهات الكتب القديمة فى علم نفس الطفل .

فالمنهج الطبيعى فى دراسة الطفل ــ شأنهشأن المنهج الطبيعى فى علم البيولوجيا ــ يقوم اساسا على الملاحظة والتسجيل الدقيقين لمايقوم به الطفل فى موقف طبيعى وفي مجالنشاطه اليومى . فلم يكن الاهتمام موجها اذن بوجهعام نحو تحليل أو معالجة التغيرات في الموقف بقصد دراسة الانواع الخاصة للاستجابات أوالتأثير على النمو .

وثمة مظهر آخر لمنهج الطبيعين ونعنى بهالدراسة الطولية Longitudinal والتى تقوم على تكرار الملاحظات على نفس الفرد فى فتراتمتعاقبة (وهذه الطريقة الطولية تختلف عن الطريقة المستعرضة Cross-Sectional حيثندرس النمو بمقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة) .

والحقيقةان الكثير من ملاحظات الطبيعيينالقدامى تبدو لنا اليوم بسيطة وساذجة . فهى ملاحظات غير منهجية ، وتتم على فترات غيرمنتظمة . وطالما انها كانت تفتقر الى المقارنات بين الاطفال وبين المواقف والظروف المختلفةللنمو بين الملاحظين ، فانها كانت اذن دراسات غير مضبوطة تماما . هذا بالاضافة الى انالملاحظين فى الاغلب كانوا لا يحجمون عن اقحام مشاعرهم الذاتية وتفسيراتهم الشخصية علىما يرونه من سلوك الطفل ، والذى هو في الاغلب ابنه أو أحد اقاربه . ومع ذلك ، ورغم كل هذهالانتقادات ، فلا تزال مثل هذه التراجم الاولى مصدر ثروة للمادة العارضة في نمو الطفل . كماانها تعد بمثابة دراسة للفردية بالمعنى الحديث فالباحثون القدامى كانوا يوجهون اهتمامهم الىدراسة سلوك الطفل « بعامة » اكثر من اهتمامهم بدراسة النواحى التى يختلف فيها طفل عنالآخر .

وبطبيعة الحال استمر المنهج الطبيعىفى خلال الحقبة الثانية وهى حقبة علم النفس التجريبي القديم ، ولكن بصورة معدله وحتىوقتنا الحاضر . فالباحثون القدامى الذين اهتموا بدراسة الطفل كانوا اساسا طبيعيين فىاتجاهاتهم ولكنهم بداوا فى تكييف مناهجهم القديمة مع الاتجاه التجريبى الجديد . ومن ثمنجد **سير ستانلى هول (١٨٤٦ — ١٩٢٤)** والذى كان مهتما ببحث « محتويات عقول الاطفال »يلجأ الى استخدام منهج جديد للبحث هو منهج الاستخبار questionaire والذى يتألفمن سلسلة من الاسئلة وضعت للحصول على المعلومات عن سلوكالطفل والمراهق ، واتجاهاتهماواهتماماتهما ،كما كان يجمع الاستجابات المكتوبة على هذه الاستخبارات من كل من الاطفال وآبائهمعلى السواء . ويمكن القول أن عمل «هوك»الذى استمر فى القرن العشرين يحدد بداية الدراسةالمنظمة لعلم نفس الطفل . لقد بدأ يركز الانتباه على جوانب معينة من نشاط الطفل ، كما انهيعد من الناحية المنهجية اكثر موضوعية من المناهج الفلسفية وتراجم الحياة ، هذا بالاضافةالى مكان معالجة نتائج هذه الاستخبارات في صورة كمية .

ثانيا : حقبة علم النفس التجريبي القديم: وعلى خلاف الطبيعيين الذين اهتموا بالتركيز على الوظائف الكلية للطفل ــ والطفل دائما ــ فان التجريبيين الاول قد ركزوا اهتمامهم على دراسة الوظائف الجزئية كعمليات التفكير والتذكر والادراك والتصور وما اشبه . ولكنهم كانوا يشبهون الطبيعيين في ناحية البحث عن القوانين العامة أو الصور الكلية لهذه الوظائف المجردة النقية . ومن أجل البحث وراء العمومية والنقاء ، تركوا المجال الطبيعي ودخلوا المعمل حيث يمكن تجنب الكثير من تعقيدات الحياة اليومية وتعقد الظروف فيها . وفي المعمل يمكن استخدام الطرق السيكوفيزيقية وتغيير الظروف بشكل منتظم واستخدام كل ظرف على حدة . ولجعل الظروف نقية تماما لجأ بعضهم الى تخليص المثيرات ، قدر الامكان ، من جميع المعاني على نحو ما فعل ابنجهوس في تجاربه المشهورة على التذكر ، والتي استخدم فيها مقاطع صماء عديمة المعنى ، كما أنهم في بحثهم عن العمومية نظروا الى الفروق الفردية التي توجد بين الافراد في الاستجابة للمثيرات المختلفة باعتبارها شوائب تجريبية او اخطاء في القياس ، ولجاوا الى تكرار الاقيسة من أجل الحصول على متوسطاتها . وبالمثل لم يكن يرحب هؤلاء بالتغيرات اوالاختلافات في الفروق النمائية . فالتجريبيون الاول كانوا مهتمين اساسا بالوظائف الجزئية عند الكبار ودراستها في ظروف نقية قدر الامكان ، بقصد الوصول الى القوانين العامة التي تخضع لها . ولذا كان نصيب التجريب العملي على الاطفال في هذه الحقبة السيكوفيزيقية المبكرة ضئيلا .

ولكن بعد ذلك ، أخذ علماء النفس المعملي يوجهون اهتمامهم نحو التغيرات النهائية، واجريت دراسات على التغير مع السن في مظاهر السلوك المختلفة مثل زمن الرجع ، وفترات التذكر والنسيان وحل المشكلات وغيرها .

يضاف الى ذلك أن المناهج التجريبية في المعمل اصبحت قابلة للتطبيق على عدد كبير من المشكلات خارج جدران المعمل حيث يمكن دراسة الآثار المباشرة والبعيدة المدى لظروف اكثر تعقيدا ، مثل دراسة القيادة التسلطية ضد القيادة الديموقراطية ضد القيادة المطلقة ، أو دراسة منهج تعليم القراءة عن طريق السمع في مقابل البصر . والواقع ان المنهج الاساسي للتجريب والذي استعير من السيكوفيزيقا يتطلب فقط ضبط الظروف والمقارنة بينها .

ثالثا : حقيقة الفروق الفردية ثم ظهر مجال جديد من مجالات الاهتمام في علم النفس العلمي في السنوات الاولى من القرن العشرين . لقد أخذ هذا الاتجاه الجديد مظهرين : الاول النظر الى الناس على اساس وجود سمات متعددة لديهم . والثاني كيفية توزيع هذه السمات على المجموع العام من الناس . فمجال الاهتمام والتركيز في هذه الحقبة لم يكن منصبا على طبيعة الوظائف العقلية أو العمليات العقلية المفردة ــ كما كان في الحقبة السابقة ، بل على مقدار وجودها وتوزيعها بين الناس .

والفكرة الاساسية التي يقوم عليها هذا الاتجاه ، هي تلك العبارة التي دوى صداها في تلك الايام والتي تعزى الى **ثورنديك** حيث يقول « **ان كل ما يوجد ، يوجد بمقدار ، وكل**

ما يوجد بمقدار يمكن قياسه » . وفي هذه الحقبة ، كانت الاختبارات كأداة ، هي موضع اهتمام بالغ لدى علماء النفس . فمع بداية الحرب العالمية الاولى ظهرت الحاجة ماسة الى اجراء الاختبارات السيكولوجية على نطاق واسع على المجندين الجدد في الجيش . ومن ثم ظهر العديد من اختبارات الذكاء . وكان من نتيجة ذلك أيضا أن ظهرت الاختبارات الجمعية التى يمكن أن تطبق على عدد كبير من الافراد في وقت واحد . وبعد الحرب استخدمت الاختبارات العقلية على نطاق واسع في مجال المدرسة وميدان التعليم . ومن قياس الذكاء انتشرت الاستخدامات المختلفة للاختبارات ، فاستخدمت فى قياس القدرات الخاصة عند الفرد كالقدرة اللغوية أو الرياضية أو الميكانيكية أو الموسيقية ، كما استخدمت ايضا فى قياس الشخصية .

ومن ائمة حركة القياس نذكر **جالتون وجيمس ماكيدكاتل وثورنديك وترستون وترمان وسبيرمان** وغيرهم كثيرون **ممن اتى بعدهم** . وكانت حركة القياس والتى تعرف الآن باسم « السيكومترية » ظاهرة من ظواهر علم النفس الامريكى ، وان كانت هذه الحركة قد بدأت أولا فى فرنسا على يد طبيب فرنسى مشهور هو « الفرد بينيه » ويعتبر بينيه أحد الرواد الاول فى قياس الذكاء ، حيث وضع اختباره المشهور هو وزميله سيمون والذى عرف فيما بعد باسم «مقياس استنفورد ــ بينيه ــ للذكاء » ــ والذى خرجنا منه بفكرة هامة في قياس الذكاء هى فكرة العمر العقلى . وكانت هذه الفكرة هى بداية كثير من الافكار التى من هذا النوع والتى استخدمت على نطاق واسع بعد ذلك فى دراسة الطفل : كالعمر التحصيلي والعمر التعليمى والعمر القرائى الخ . . ومن المهم أن نلاحظ أن قياس السمات على أساس العمر أو اى مقاييس اخرى هو دائما نسبى بالنسبة للمجموع العام من الناس . ومع ذلك فقد عولجت في الاغلب كما لو كانت مقاييس مطلقة تعبر عن المقدار الفعلى للذكاء أو اى سمة اخرى لدى الفرد .

ويجدر بنا أن نشير الى أن اهتمام السيكومتريين الاول بالفروق الفردية كان فى الحقيقة موجها الى اختلاف الجماعات فى سمة ما فى وقت واحد ، وليس الى الطريقة التى بها يختلف فرد عن آخر . ومع ذلك ، فقد طبقت المقاييس العقلية على الافراد بقصد التصنيف التربوى أو المهنى . واستخدام اختبار بينيه أساسا كوسيلة تساعد على تقدير قدرة الفرد على التعليم ، وفي التمييز بين العاديين وغير العاديين .

ولقد حاول نفر من **السيكومتريين** بعد ذلك الوصول الى تقدير شامل للفرد بتحديد درجته فى مجموعة من الاختبارات توضع لقياس سمات مختلفة . ورغم ان هذه الطريقة مكنت المختبر من وضع عدد من الاحكام المستقلة المنفصلة عن الفرد موضع الدراسة ، الا انها لم تبين لنا كيف ترتبط هذه السمات بعضها ببعض .

وغالبا ما يركز السيكومتريون على وسائل القياس ذاتها ، وعلى الانماط العامة لتغير الجماعة في حدود منحنى التوزيع الاعتدالى ، واغفال الافراد موضوع الدراسة (أو حتى السمات) . وعلى الرغم من استخدام الاطفال كأفراد عند تطبيق الاختبارات ، الا أن الاهتمام

الرئيسى لحركة القياس لم يكن موجها الى دراسةطبيعة الطفل كطفل . ولكن حديثا ، أصبح المختبرون أكثر مرونة في تفسير نتائج القياس ،واصبحت الاختبارات وسيلة ضرورية وهامة فى دراسة الطفل .

ولكن كى تكون النتائج التى نحصل عليهامن استخدام الوسائل السيكومترية مفيدة ونافعة ، يلزم أن تتوفر فكرتان أساسيتان فىنفس القياس ونعنى بهما الثبات والصدق .

اما الثبات فمعناه أن المقياس يعطى أساسانفس التقدير عند اعادة تطبيقه على الافراد .

أما **الصدق** فمعناه أن الاختبار يقيسما وضع لقياسه . والاختبار الجيد يمكننا من التنبؤ بما سيكون عليه سلوك الطفل او الفردبوجه عام . فمثلا اختبار الذكاء يمكننا منالتنبؤ بمدى تحسن التلميذ أو الطفل فى المدرسة ،ومدى استعداده للدراسة فى مستقبل ايامه . ولكن الاحكام الخاصة بأداء الطفل فى المدرسةليست ثابتة تماما ، حيث تتأثر بعدد كبير من العوامل الاخرى غير الذكاء . وعلى العموم ،فنتائج اختبار الذكاء ترتبط ارتباطا عاليا بالتحصيل ، أعنى أن الذين يحصلون علىتقديرات عالية فى اختبار الذكاء ، يحتمل ان يكون تحصيلهم الدراسى عاليا ، كذلك والعكسلكن تحدث استثناءات فردية يمكن أن ترجع الى خطأ في أحكام المدرسين أنفسهم أو الىعمل عدة عوامل أخرى تتدخل الى جانب الذكاء أو الى الاختبارات ذاتها .

ويجب الا يظن القارىء أن الاختباراتكانتهىوحدها الادوات الجديدة التىاستخدمت فى هذه الحقبة الخاصة بالاقيسة العقلية . ذلكان مناهج الملاحظة التى اتبعت فى الحقبةالطبيعية قد عدلت وأخذت هى الاخرى صورة كمية .فقد ظهرت لدينا طريقتان جديدتان انتشرتا انتشارا واسعا ، ونعنى بهما مقاييس التقدير rating scale ,والعينة الزمنية time sample وهذه الاخيرة بالذات وضعت للاستعمال معالاطفال ، وعلى العموم فقد استخدمت كلا منهما استخداما واسعا فى دراسة الطفل .

وطريقة مقياس التقدير طريقة يحدد فيهاالحكم Judge درجة الفرد بالنسبة لسمة أو مجموعة من السماتكالأمانة والتعاون ,والخضوعاو السيطرة . ويمكن أن يكون هذا التقدير نسبيا اى بالنسبة لاعضاء نفس الجماعة التى ينتمىاليها الطفل في ضوء قوائم وضعية توضع لذلك، أو قد يكون تقديرا تقريبيا كميا يقوم علىأساسالاحساس الذاتى للحكم . وتقوم التقديرات فى هذه الحالة على أساس الملاحظات الخاصة التىيقوم بها الحكم للسلوك الخاص للطفل ، او المواقف الخاصة أو على أساس المعرفة الطويلةالأمد بالطفل على نحو ما هو الحال في تقدير الآباء والمدرسين للطفل . وبمقارنة تقديرات نفسالطفل على نفس السمة في أوقات مختلفة ، او بالنسبة لتقديرات حكام مختلفين يمكن أن نصلالى **معرفة لمدى ثبات هذه التقديرات . وعندما** تتوفر للتقديرات درجة ثبات عالية ، فانالتقديرات تسمح لنا فى هذه الحالة باجراء مقارنات بين الافراد ، وبين الجماعات او بينالظروف ــ على نحو ما يحدث بالنسبة لمناهج التدريس ــ التى تؤثر فى الافراد أو الجماعات .ويمكن أنتطبق التقديرات على الاشياء كماتطبق

على الاشخاص ، على نحو ما تستخدم مثلا فى الحكم على رسومات الاطفال تحت ظروف مختلفة . **وتعتبر تقديرات الذكاء احدى الوسائل الهامة** التى تستخدم فى تقدير صدق اختبارات الذكاء ، رغم أن الاختبارات يقصد منها فى الحقيقة أن تحل محل هذه النتائج الذاتية . والمشكلة الرئيسية فى مقاييس التقدير هى في الواقع تحديد السمات المراد تقديرها بحيث يمكن ان تطبق بطريقة مفهومة على جميع الافراد.

اما النوع الثانى ونقصد به العينة الزمنية فهى طريقة من طرق الملاحظة يتركز فيها انتباه الملاحظ على حدوث أو عدم حدوث أنواع من السلوك تحدد سلفا ، وتعتبر ممثلة للسمة المراد دراستها. وتجرى الملاحظات على عدد محدود من الاطفال فى فترات زمنية ، وتحدد من قبل وتعطى عينة من نشاط الطفل بصرف النظر عن التأثيرات العارضة ، كالحالة المزاجية للطفل أو الاحداث الخاصة وما شابه . فمثلا استخدمت طريقة العينة الزمنية فى دراسة العلاقة بين كون الطفل لديه عدد قليل أو كثير من اللعب ، وبين تكرار انفجارات أو ثورات الغضب والعدوان لديه ، وظهور أو انتشار سمات معينة كالعصبية والاتجاهات الاجتماعية فى أعمار مختلفة أو تحت ظروف مختلفة .

وهناك اتجاه آخر ظهر فى الحقبة السيكومترية يلقى الضوء على الاهتمام بالفردية في الحقبة التى تلى ذلك ، ونعنى به ظهور عدد من **الدراسات الطولية** . ولكن ابتداء من أعمال ستانلى هول **تحولت معظم دراسات نمو الطفل** الى دراسات مستعرضة ، اى مقارنة أطفال مختلفين في اعمار مختلفة . وهذه الطريقة المستعرضة أثارت مشكلة منهجية خطيرة وهى هل وصف عمليات النمو التى تقوم على أساس مادة مستمدة من أفراد مختلفين فى أعمار مختلفة ، يمكن أن تعتبر حقا دراسة أو وصفا للنمو؟ وكانت الدراسات الطولية التى اجريت للاجابة عن هذا السؤال هى تخطيط النمو بالنسبة لنفس الافراد منذ الولادة وما بعدها ، وقد أوضحت بالطبع أن منحنيات نمو الافراد تختلف اختلافا دالا عن المنحنيات التى تجرى لها تسويات والتى تقوم على أساس متوسطات الجماعات . ونحن ندين للدراسات الطولية بمعرفة فترات **الكمون والطفرات فى النمو ، والمسالك النمطية** للنمو والتى يسير فيها الافراد المختلفون . ورغم تركيز الباحثين على النمو الفردى ، فان دراسات النمو قد نظر اليها داخل اطار الاقيسة ، كما ركزت على الطرق السيكومترية أو مقاييس السمات الجسمية .

رابعا : **حقبة دراسة الشخصية :** ان علم النفس يهتم أساسا بمعرفة كيف يسلك الناس . والسيكولوجيون العلميون الاول وكذلك السيكومتريون ، كانوا مع ذلك مهتمين أساسا بالمشكلة الفنية ، وهى كيف يمكن فصل العمل الانسانى من أجل الدراسة السهلة . ولكن ابتداء من منتصف الثلاثينات كان هناك احساس متزايد بالشكوى من مصادر متعددة من أن دراسة الانسان انتهت الى أن تصبح دراسة اجزاء متعددة ، وأن الوقت قد حان الى النظر اليه ككل ، وتجمع هذه الاجزاء فى كل متكامل . لانه اذا نظر للكائن الحى جزءا جزءا ، فان الخصائص الانسانية المميزة التى تنتمى الى هذا الكل النامى تميل الى الاختفاء : مشاعره واحساساته واهدافه واسلوبه الشخصى .

فالفرد ليس حزمة بسيطة من السمات التى يمتلكها بمقادير تتفاوت فى الكبر والصغر. فسماته المتعددة انما تخضع ـ وظيفيا فى نمط منظم ـ الى اهتماماته الانسانية الخاصة، وانه مهما كانت لديه سمات مشتركة بينه وبين الاشخاص الآخرين، فان هذه السمات تأخذ معناها الفردى الخاص بالنسبة للمحتوى العام الذى يتميز به سلوك الفرد. والحقيقة أنه تحت تأثير مدرسة الجشتلت ومدرسة التحليل النفسى، أصبح علماء النفس أكثر اهتماما بمفهوم الشخصية ودراستها وطبيعة الفردية، وكيف ينتظم الناس مع هذه الطبيعة. واذا كان السيكوفيزيقيون الاول بحثوا قياس الوظائف النقية «مستقلة عن المعنى»، واذا كان السيكومتريون الاول بحثوا قياس الذكاء الخالص مستقلا عن الخبرة السابقة والسمات الاخرى كالانفعالية، فان هذا الجيل الجديد من الباحثين أراد أن يعطى لكل هذه الامور دورها الكامل، وأن يرى الانسان ككل يتفاعل مع بيئته الحقيقية. وبهذا المعنى، فان هذه الحقبة الجديدة تعتبر عودا الى الحقبة الطبيعية، ولكنها تختلف عنها من حيث اهتمامها بالفرد وبوحدة الشخصية وبالاختلافات والعموميات على حد سواء.

وقد عادت بعض الطرق التى ظهرت فى الحقبة الطبيعية الى الظهور ثانية ولكن بصورة معدلة. فالتقارير اليومية استخدمت بشكل اكثر دقة، وامكن تدريب الملاحظين لسلوك الاطفال من اجل أن تكون التقارير اكثر ثباتا ودقة، كما درب الملاحظ أيضا كيف يبقى بعيدا فى نفس الوقت الذى يلاحظ فيه سلوك الاطفال، بمعنى الا تصبح مشاعره مختلفة بما يقوم بملاحظته من سلوك الطفل، اعنى بعبارة أبسط درب الملاحظ على أن يكون موضوعيا فى ملاحظته. كما عادت الى الظهور الدراسات الميدانية. فأبحاث ليفين عن القيادة حاولت أن تهيىء تجريبيا، بيئة طبيعية بدرجة كبيرة أو صغيرة لجميع الاشخاص، كما استخدمت طرق ملاحظة المجال.

غير أن الطرق الحقيقية التى تنتمى الى هذه الحقبة، فهى تلك التى اطلق عليها «جوردون البورت» اسم المنحى الناموسى **nomothetic** الذى يهدف الى الكشف عن القوانين العامة والمنحى المتفرد أو الاكلينيكى الفردى **idiographic** الذى يهدف الى الكشف عن الوحدة المتفردة للكائن الحى. ذلك أن من عادة العلماء ان يتجه اهتمامهم الى الكشف عن القانون العام أو القاعدة السائدة فى السلوك الانسانى، والى وضع المبادىء العامة والكشف عن العلاقات والتفاعلات بين المتغيرات، أو الى استخراج معايير النمو. وهم يستعينون من اجل تحقيق ذلك بدراسة مجموعات كبيرة من الافراد يقومون بدراستهم أو يطبقون عليهم اختباراتهم وملاحظاتهم بقصد معرفة القانون العام الذى تخضع له هذه الظاهرة موضوع الدراسة. حقيقة، هناك خصائص عامة مشتركة بين أفراد الجنس الواحد، وقوانين عامة تنطبق عليهم، ولكننا مع ذلك لا نجد اثنين من البشر متطابقين تمام التطابق. فالناس فى تفردهم أشبه ببصمات الاصابع، ومن المستحيل ان نجد بصمتين متشابهتين لشخصين مختلفين. كما أن عالم النفس والمربى كثيرا ما يضطر الواحد منهما الى أن يركز انتباهه على فرد معين بالذات

ليحاول فهمه فهما دقيقا شاملا ، ومن ثم يجدنفسه مضطرا الا يقتصر على مجرد فهم المبادىء العامة للنمو والتطور والقوانين العامة التى تحكم سلوك الفرد ، بل يركز اهتمامه على الفرد ككل . فالخاصية المميزة للانسان هى فرديته ، أعنى اعتباره مخلوقا فريدا في الطبيعة وانه مستقل مكانيا عن غيره من الافراد ،ولا يشبه تماما اى فرد آخر ، وان يسلك فى مجاله الخاص فى الحياة وعلى طريقته الخاصة .

وفي بداية الثلاثينات شاعت بعض الطرق التى تعنى بالمنحى المتفرد والتى من أهمها تلك المسماة بالطرق الاسقاطية ، وهذه التسمية اطلقها عليها لورانس فرانك سنة ١٩٣٩ .

وهذه الطرق تواجه الفرد بموقف أو مادة غير محدودة ،وغير متشكلة وغامضة الى حد ما ليستجيب اليها كما يشاء وكما يحب . والدلالات الخاصة التى يعزوها للموقف تعتبر ذات أهمية بالنسبة له ولطريقة ادراكه لهذا العالم . ومن أشهر الاختبارات الاسقاطية المعروفة والواسعة الانتشار والتى تستخدم على نطاق واسع في دراسة الشخصية اختبار بقع الحبر لهرمان رور شاخ حيث يفسر المفحوص طفلا كان أم كبيرا ، عددا من بقع الحبر غير المتشكلة . وكذلك اختبار تفهم الموضوع لهنرى مورى حيث يكون الفرد قصة عن كل صورة من الصور التى تعرض عليه ، يكشف فيها عن مشاعره واتجاهاته نحو الموضوعات الرئيسية التى تتضمنها الصورة . وهناك اختبار تداعى الكلمات لـ « كارل يونج » حيث يستجيب المفحوص لقائمة من الكلمات التى تعرض عليه شفاهة كلمة كلمة ، ويسجل زمن الرجع والاستجابة التى يذكرها المفحوص، والذى بواسطته يمكن الكشف عن مجالات الضغوط فى حياة الفرد . واذا كانت هذه الاختبارات قد ،وضعت للصغار والكبار على السواء ، فان هناك عددا آخر قد وضع خصيصا للاطفال كاختبار اللعب (لويزا ديز) واختبار تفهم الموضوع للاطفال . وعلى العموم يمكن القول بأن ليس هناك استجابات صحيحة وأخرى خاطئة للاختبارات الاسقاطية ، وان مايراه كل فرد انما يتشكل وفق ادراكاته وحالته الانفعالية واتجاهاته وميوله وقيمه . وهذه الاختبارات الاسقاطية يمكنها ان تكشف عن التنظيم الداخلى للفرد دون ان يشعر الفرد بذلك ، أو دون أن توجه اليه الاسئلة بطريقة مباشرة على نحو ما نجده مثلا فى الاستخبارات التى يحاول المفحوص أحيانا الا يجيب عنها بصراحة أو دقة متناهية.

وفى خلال هذه الحقبة ايضا كان هناك اهتمام متزايد « بالتجربة الطبيعية » هذا المنهج الذى استخدم فى ميادين مختلفة كالفلك والإجتماع والطب ، أو حيث تكون الظروف التي نقوم بدراستها خارج قدرة الباحث ويصعب عليه اخضاعها للتجريب وعوامل الضبط (اما لأسباب خلقية أو لأسباب عملية) . ولذا فليس على الباحث الا ان ينتظر حتى تتفضل الظاهرة بالمثول بطريقة طبيعية لملاحظتها ،ودراستها . والدراسات التي أجريت على أثر اصابات المخ في الانسان تدخل بالضرورة تحت هذا النوع . وبالمثل أيضا الدراسات التي قام بها **شبتز Spitz** عن أثر الحرمان المبكر على الاطفال ، وكذلك دراسات آنا فرويد والمجلس القومى للبحوث فى أمريكا عن الآثار النفسية للكوارث . وبالمثل فان اى باحث يهتم

بدراسة النمو الشاذ ، نجده مضطرا للتعامل مع مثل هذه الحالات التي يقابلها . وبالطبع يمكن اجراء الدراسة على الحيوان حيث يكون الباحث أكثر قدرة على اجراء التجارب واعداد الظروف التى يستحيل اجراؤها على الانسان. والجدير بالذكر ان جانبا كبيرا من الافكار فى سيكولوجية النمو ، يأتي من دراسات اجريت على الحيوانات ويمكن ان نشير الى دراسات ليدل Liddell وغيره على الماعز والخراف ، في علاقة الصغار بالام ، وعلى العصاب التجريبى . ولذلك تعتبر التجربة الطبيعية هى منهج السيكولوجى الاكلينيكى او الطبيب النفسي ، الذى يريد دراسة شخص فرد نتيجة اهتمامه بآثار ظروف خاصة ، او البحث عن فروق في الشخصية او في المناهج العلاجية .

تلك هى المناهج الاربعة الرئيسية في دراسة النمو ـ الملاحظة والتجربة والاختبارات والمقاييس الاكلينيكية . وقد ظهرت بالتتابع نتيجة اهتمامات واتجاهات مختلفة لدى الباحثين ، ولكنها جميعها اثبتت نفعها لعديد من الاغراض فى دراستنا للكائن الحى الانسانى .

● ● ●

● نظرة الى دراسات النمو النفسى

اعتاد غالبية علماء نفس الطفل عند دراستهم لعملية النمو ، النظر الى التغيرات المختلفة التى تطرا على الكائن الحى منذ اللحظة الاولى التي تبدا فيها الحياة جنينا في بطن الام ثم تعقبه بالدراسة حتى الرشد . وقد اخذ هؤلاء بفكرة تقسيم النمو الى مراحل زمنية يمر بها الكائن الحى . **فهناك مرحلة ما قبل الولادة والطفولة المبكرة والمتاخرة والمراهقة . وعادة يتتبع الباحث داخل كل مرحلة دراسة مظاهر النمو المختلفة وتطورها . فهناك النمو الجسمى والعقلى والاجتماعي والانفعالى** . وقد يأخذ الباحث مرحلة بعينها ويعالج فيها جوانب النمو المختلفة ثم ينتقل الى التي تليها وهكذا ، او قد يأخذ مظهرا بعينه من مظاهر النمو ويتتبعه بالدراسة فى جميع المراحل ثم ينتقل الى مظهر آخر وهكذا . والنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين وان اختلف الاسلوب الذى يتبعه الباحث ، ولو اطلعنا على الكثير من كتب علم نفس النمو ، سواء ما كتب منها بالعربية او باللغات الاجنبية ، نجدانها قد سلكت سبيل هذه الدراسة الوضعية او الشكلية . **ومن امهات الكتب فى هذا المجال ما قدمته اليزابيث هرلوك فى مجموعتها الثلاثية الهامة** .

(١) **Developmental Psychology**

و (٢) **Child Development**

و (٣) **Adolescent Development,** وما قدمه ارنولد جيزل وآخرون في تلك السلسلة الرائعة من كتب النمو والتي تعد دراسة تطورية هامة من الطفولة المبكرة حتى الشباب والتي وردت بكتبهم .

Infant and child in the culture of today (١)

و (٢) Child from five to ten

و (٣) Youth والتي ترجمت كلها الى اللغة العربية ، وكذلك كتاب آرثر جيرسلد وآخرون Child psychology . ولا يمكن حصر الكتب التي سارت على هذا النحو في هذا المجال .

غير أن ثمة اتجاها آخر ركز على الكائن الحي ككل واهتم بالاطار النظرى العام لعملية النمو واقتربت الدراسة فيه من دراسة لنمو الشخصية . والنظرة هنا فى شمولها نظرة دينامية اكثر منها وصفية . فقد ركزت معظم النظريات التى اتبعت هذا المنحى الاخير على دراسة العوامل المؤثرة فى نمو الشخصية ابتداء من الطفل حتى الرشد ، وكيف اثرت هذه العوامل او المحددات في بناء الشخصية وفى نوع النمو الناتج عنها . وكان من الطبيعي ان تتعدد أيضا النظريات التى سلكت هذا السبيل . ذلك ان أبنية الشخصية وعملياتها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ،وانما يتطلب الامر الاستدلال عليها من النمط للاستجابات التي يقوم بها الفرد داخل اطار موقفى معين . ولذا فليس مما يثير الدهشة اذن ان تختلف نظرة الباحثين لنمو الشخصية او بمعنى اوسع النمو النفسي للفرد . فاذا كان فرويد مثلا يؤكد في تحليله للنمو النفسي على تطور الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحياة ، فان كتابا آخرين من أصحاب الاتجاه النمائى من أمثال هاينز فرنر ،وجان بياجيه لايلقون اهتماما بالكلية الى نمو الدوافع أو الانماط الانفعالية ، بل يوجهون اهتمامهم باكمله الى النمو العرفى ، والتفكير التكيفى ، على حين يتمسك آخرون بالنظرية الفرويدية ولكنهم يدخلون عليها بعض التعديلات والاضافات على نحو ما فعل اريكسون .

واذا كانت النظريات التي كتبت في هذا الاتجاه الثانى كثيرة ومتعددة ، فان ضيق المجال لا يسمح لنا بالتعرض لها جميعها . ولذا سوف يخص الباحث هنا بالذكر نظريات اربعة لها اهميتها وهي نظرية النمو النفسي ــ الجنسي لفرويد ، ثم نظرية النمو النفسي ــ الاجتماعى لأريكسون ، والتي تعد تعديلا للاولى واضافة عليها ، ثم نظرية نمو الذات عند جوردون البورت ، واخيرا نظرية النمو العقلى المعرفى عند جان بياجيه . ،وسوف نشير الى كل نظرية منها بشيء من الافاضة .

أولا : النظرية النفسية ــ الجنسية لفرويد :

ان مادة التحليل النفسي وكتاباته لاحصر لها . ومن المستحيل فى مثل هذا المجال ان نقدم عرضا وافيا لمثل هذه النظرية الضخمة . ولذا سوف نقصر انفسنا هنا على الجوانب التي من شأنها ان تساعدنا فى التعرف على النمو النفسي عند اصحاب نظرية التحليل النفسي . ويحسن قبل ان نتعرض لمراحل النمو النفسي الجنسي فى نظرية فرويد ان نلقى الضوء على ديناميات الشخصية وبنائها ثم نعرض لمراحل النمو .

ديناميات الشخصية :

● ان نظرية التحليل النفسي ـ ككل النظريات الدينامية ـ تدور حول القوى أو الحوافز ، فهى أساسا نظرية دافعية . والظواهر العقلية ينظر اليها على انها نتيجة قوى متفاعلة يمكن ان تفهم من وجهة نظر تاريخية . وبعبارة أبسط ان فرويد ينظر الى الاحداث الراهنة باعتبارها نتاج نمو سابق تمتد جذوره الى الماضى .

والمصطلح الذى استخدمه فرويد للدلالة على الطاقات او القوى التى تستثير النشاط الانساني هو المصطلح الالمانى Trieb والذى ترجم الى اللغة الانجليزية ، بالمصطلح Instinct والذى يعرف فى اللغة العربية بالفريزة . ولكن هذه الترجمة للمصطلح الالمانى ادت الى الخلط فى فهم هذا المصطلح . ذلك ان Trieb كما استعمله فرويد ، لا يتضمن معنى النمط الثابت غير القابل للتغير ، والذى يعنيه المصطلح Instinct . فتحت الظروف والتأثيرات البيئية ، يمكن للغريزة بمعانيها فى المصطلح الالماني ، ان تغير من اهدافها وموضوعاتها .

ومفهوم الفريزة من المفاهيم الاساسية فى كتاب فرويد وتفكيره . ومعظم كتابات فرويد تمليها فكرته وهى ان الانسان ولد مزودا بغرائز معينة . ولقد صادق فرويد على وجود نوعين من الحوافز الانسانية أو الغرائز وكلاهما بيولوجى فى طبيعته . اما النوع الاول فيتكون من الحاجات الجسمية البسيطة كالجوع والعطش والاخراج والتنفس ، هذه الحوافز أو الدوافع تستثيرها التغيرات البدنية التى تحدث داخل الكائن الحى العضوى . وشباع هذه الحوافز أو الحاجات الاساسية أمر حيوى لبقاء الانسان ، كما ان أهدافها لا يمكن تغييرها أو تعديلها . ولذا ، فان الاختلاف بين الافراد بالنسبة لهذه الحاجات قليل للغاية ومن ثم فانها تعد قليلة الاهمية نسبيا لعالم النفس .

أما المجموعة الثانية من الحوافز فهي تلك التى وصل اليها فرويد من دراساته للمرضى النفسيين . وهذه يمكن تقسيمها الى قسمين : غريزة الحياة وغريزة الموت . الاولى تخدم غرض الحفاظ على الحياة وتكاثر الجنس ، ويطلق فرويد على القوة الحيوية الدافعة لها اسم « الليبيدو » وهو هذا الجزء من تركيب «الهو» الذى يبحث عن اشباعه من الحوافز الجنسية . ومعنى الجنس عند فرويد أوسع بكثير من مفهومه الدارج فى حياتنا اليومية وفي لغتنا الدارجة . فهو يتضمن بالاضافة الى معناه المتصل بالحوافز الجنسية عند الكبار ـ كل ما يؤدى الى الشعور باللذة من خلال استثارة المناطق الشبقية للجسم ، وهى المناطق التى لها قدرة على اثارة الاحساس السار أو الشعور باللذة عند الفرد . وهى غالبا المناطق الحساسة في جسم الانسان كالشفاه والتجويف الفمى والمنطقة الشرجية واعضاء التناسل . والغريزة الثانية وهى غريزة الموت فهى تخدم أغراض الهدم والتدمير .

وتتميز الغريزة عند فرويد باربع خصائص وظيفية اساسية هى : المصدر والهدف والموضوع والقوة الدافعة . ولتوضيح هذه الخصائص لنفرض أن انسانا ما يحس بألم فى

اسنانه ، فان نتيجةهذا الاحساس تدفعه منخلالمبدأ التوازن الداخلى الى خفض التوتر على النحو التالى :

المصدر Source : وهو الحالة البدنيـةللشخص وهو هنا الالم الذى يحسه الفرد في اسنانه .

الهـدف Aim : وهـو التخلص منالاستثارة أو التهيج البدنى . وهو هنا ازالة الالم الناتج عن تسوسالسن والعودة الى حالة الارتياح التى كان يحس بها قبل حدوث الالم .

الموضوع Object : وهو يشير الىضروبالنشاط التى تقع بين ظهور الحاجة وتحقيقها . فهـو لا يشـير الـىشيء بعينه أو حالـة تشبعالحاجةفحسب ،بلانه يتضمن كذلككل أشكالالسلوك الذى يحدث مستهدفا الحصـول على الشيء أو الحالة اللازمة. وهو فى هذا المثال ترتيب موعد مع الطبيب والذهاب اليه والجلوسعلى الكرسى .

القوة الدافعة Impetus : ويقصـد بهـاقوة أو شدة الحاجة المحركة . فالم الاسنان حين تخف حدته أثناءالنهار تقل قيمة المثير الى حد ما ، ولكن حين يصبح الالم غير محتملخلال الساعات الاولى من الليل تزداد قوة المثير بشكل واضح وتصبحالقوة الدافعة اكثر شدة فيزداد اصرار الشخص على ضرورة الذهاب الىالطبيب .

ويرى فرويد أن مصدر الفريزة وهدفهـايظلان ثابتين طوال الحياة ، مالم يتغير المصدر او يزول نتيجة النضج الفيزيقى . اما الموضوعأو الوسيلة التى يحاول بها الفرد اشباع الحاجة فهى تتباين تباينا ملموسـا خلال حياة الفرد ،وذلك نتيجة قابلية الطاقة النفسية للازاحـة من موضوع لآخر . واذا كان هذا الابـدال اوهذه الازاحة ممكنة بالنسبة للموضوع فهى غير ممكنة بالنسبة لمصدر الفريزة أو هدفها .

• • •

*** بناء الشخصية :**

وتتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية:الهو ، والانا ، والانا الاعلى . ورغم أن لكل جزء منها وظائفه وخصائصـه ومكوناته ومبـادئهوديناميائه وميكانزماته التى يعمل وفقا لها ، الا انها جميعا تتفاعلمعا تفاعلاوثيقا بحيث يستحيلفصل تأثير كل منها عن الآخر وتقـدير وزنه النسبى فى سـلوك الانسان . فالسـلوك ، فىالاغلب ، هو محصلة تفاعل هذه الانظمة الثلاثة. ونادرا ما ينفرد احداها بالعمل دون الآخرين.وسوف نوضح فيما يلى كل واحدة منها على حدة وباختصار .

الهو : لقد كتب الكثير عن هذا المصطلح الذى وضعه فرويد . و « الهو » هو النظام الاصلى للشخصية والذى يعتبر أساسا لكل حياة انسانية . فهو يوجد مع الانسان منذ لحظة ولادته ، ويظل معه طول حياته . هو ذلك الجزء من النفس الذى يحوى كل ما هو موروث أو غريزى ، كما يحوى العمليات العقلية المكبوتة التى فصلتها القاومة عن الحياة النفسية الشعورية . فالهو مستودع الطاقة النفسية كما انه يزود العمليات التى يقوم بها النظامان الآخران بطاقاتهما .

ويخضع **الهو** لمبدأ اللذة فقط ولا يهتم بأى شىء آخر . انه هذا الجزء الخام ، غير المرتب ، غير المهذب ، الباحث عن اللذة . انه الزاد الاساسى الذى يحرك الانسان خلال حياته، انه لايعرف القوانين ولا يخضع لقواعد ويبحث فقط عن شهواته . انه القوة المحركة لوجود الانسان . وعلى الرغم من أنه وثيق الصلة بالعمليات الجسمية التى يستمد منها طاقته ، فان « الهو » نظام نفسى حقيقى ، وليس له مكان محسوس فى جسم الانسان ، كالقلب أو المخ مثلا .

ولا يمكننا ابدا أن ندرك الهو فى صورته الخام . وربما كانت أقرب صورة للهو ، ما يبدو لنا في دراسة الطفل الصغير أو فى سلوك الذهانى (المريض عقليا) . فالطفل الصغير يسلك سلوكا انانيا تماما ، يهدف الى اشباع رغباته وتحقيق لذاته دون مراعاة لحاجات الاخرين ، فهو يخضع لمبدأ اللذة فحسب . وكذلك الذهانى الذى يسلك كيفما يحب ويعجبه ، فسلوك الطفل والذهانى أقرب الى ما يعنيه فرويد بمفهوم « الهو » .

الأنا : ومن المفترض أن الهو فى صورته الخام ، اذا ترك لاساليبه الخاصة فقد يحطم نفسه . فهو في حاجة الى ما يضبط طاقته ويوجهها نحو اكبر اشباع وبقدر ما تسمح به مطالب الحياة ودون أن يهدم نفسه أو يحطمها . ويذهب فرويد الى أن الانا تحقق هذه الوظائف وتحققها جيدا . فالانا تتبع مبدأ الواقع وتعمل وفق العمليات الثانوية . فاذا كان الهو يعمل وفق مبدأ اللذة ويستخدم العملية الاولية وتفريغ التوتر بتكوين صورة لموضوع من شأنه أن يزيل التوتر ، الا أن الكائن الحى يتطلب معاملات مناسبة واشباعا واقعيا ، ومن ثم يفرق الانا بين الاشياء التى توجد فى العقل والاشياء التى توجد فى العالم الخارجي . ومن هنا تطيع الانا مبدأ الواقع الذى يعمل على الحيلولة دون تفريغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لاشباع الحاجة . فمبدأ الواقع يرجىء مبدأ اللذة مؤقتا ، لان مبدأ اللذة هو الذى سوف يخدم فى نهاية الامر عندما يوجد الموضوع المرغوب فيه ، ومن ثم يخفض التوتر .

فالأنا اذن امتداد للهو وغير مستقل عنه أبدا . والانا هو الجزء المنظم وهو الذى يبحث فقط عن ايجاد مخارج تخدم أغراض الهو ، دون أن يترتب على ذلك تحطيمه . أن الانا يستمتع بكل الاشباعات التى يسمح للهو أن يستمتع بها أيضا ، ولكنه يستمتع بها بذكاء وبتعقل في ضبط واختيار وتقرير ما يشبع وكيف يشبع . فالانا اذن يخضع لمبدأ الواقع ، يفكر تفكيرا موضوعيا ومعتدلا ومتمشيا مع الاوضاع الاجتماعية المتعارف عليها . أما وظيفته

فهى الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقهامع البيئة وحل الصراع بين الكائن الحى والواقع أو بين الحاجات المتعارضة للكائن الحى .

الأنا الاعلى : وهـذا هو المكـون الثالثلشخصية الفرد ، وهو مكون يقع فى الطـرف الآخر من الهو ، والانا الاعلى هو الاخير فى عمليةالنمو النفسى لهذه الابعاد الثلاثة للشخصيـة . انه الممثل الداخلى للقيم التقليـدية للمجتمع ،وهو شيء موجود داخل الفرد وليس خارجه . أنه مكون داخـلى وليس مجموعـة من القوانينالحاكمة ، وعندما ينمى الفرد « أنا أعلى » داخل نفسه ، يكون حينئذ قد أصبح شخصية ناضجة . فالانا الاعلى هو هذا الجانب الخلقى للشخصية، انه مثالى وليس واقعيا ، هدفه الكمال وليساللذة . أنه هو الذى يقرر ما اذا كان نشـاط ما حسـنا أم سـيئا وفق معايير المجتمع التىيتقبلها ، والقوانين الاجتماعية لا تعنى شـيئا بالنسبة اليه ما لم يتقبلها ويتوحد معها .

ويمكن تلخيص الوظائف الاسـاسية للاناالاعلى فيما يلى :

١ ــ كف دفعـات الهو وبخاصـة تلكالدفعات ذات الطابع الجنسى أو العـدوانى ، حيث أن هذه الدفعات هى التى يقابل التعبيرعنها من المجتمع بأشـد صور الادانة والرفض.

٢ ــ اقناع الانا باحلال الاهداف الاخلاقيةمحل الاهـداف الواقعية .

٣ ــ العمل على بلوغ الكمال ، اى أن الاناالأعلى يميل الى معارضة الهو والانا معا ، والى تشكيل العالم على صـورته . الا أنه يشـبه« الهو » فى انه غير خلقى ، ويشبه الانا فىمحاولته ممارسـة التحكم فى الغرائز ، ويختلف « الاناالاعلى » عن « الانا » فى أنه لا يحـاول ارجـاء الاشباع الغـريزى فحسب ، بل انه يحـاولالحيلولة دونه على الدوام .

تلك هى ديناميات الشـخصية وبنـاؤهافى نظرية التحليـل النفسى . وفي ضـوئها قام فرويد بتفسير أساليب السلوك المختلفة والمراحلالنمائية التى تمر بها ابتـداء من الطفولة حتى الرشـد . ويمثل هذا الانتقال من مرحلة الىمرحلة النمو النفسى الجنسى للفرد ، والذى قد يتخذ صورة سوية أو غير سـوية نتيجةالمؤثراتالمختلفة التى يتعرض لها الفرد . وسوف نشير باختصار الى هذه المراحل المختلفة التى يمر بهاالفرد فى نموه النفسى من الطفولة حتى الرشد .

• • •

*** مراحل النمو :**

ولفظ مراحل يشير الى تتبع نمو الانسانوشخصيته ابتـداء من الولادة حتى الكبر . فالطفل قد يمر عبر سلسلة من المراحل المحددةتكوينيا ، ومالم يتعرض هذا النمو في سـيره الى تدخل ظروف شاذة أو معوقة ، فمنالمتوقعله أن يسير على نحو طبيعى،وعلى شاكلة مانجده عند الغالبية العظمى من الناس .

ان فكرة بناء الشخصية ونموها عندفرويد أشبه ما يكون بالطريقة التى يقوم بها البناء حائطا من الطوب حيث توضع طوبة طوبة ،ويسير البناء من أسفل الى أعلى ، وترتبطقمة البناء بأساسه أو أصله . فشكل البناء وسمكهوجميع خصائصه ترسي قواعده في الاساس الذى يقام عليه . وتغيير شكل البناء تغييراملحوظا قد يترتب عليه هدم البناء باكمله . والشخصية بالمثل ـ في نموها ـ ترسى قواعدهافى السنوات الاولى من حياة الكائن الحى . وهذا الاساس غير قابل للتغير وهو يحدد ما يمكنان يقام عليه بعد ذلك . فان كان الاساس ضعيفا مهزوزا وغير مستقر ، نشأت الشخصيةوتطورت بشكل ضعيف مهزوز غير مستقر كذلك . ومن هنا جاء قول فرويد أن « الطفلأبو الرجل » ، وأن الاساس الذى يوضع في الطفولة هو الذى يحدد ما سيكون عليه الفردفى الكبر . ولكن ليس معنى ذلك انه حين ينمو البناء لا يمكن تغييره . ان من الممكن احداثتغييرات طفيفة ، ولكنها لا تتجاوز أبدا حدود ما يتحمله الاساس أو الشكل الذى اتخذه . فانحدث هذا التجاوز انهار البناء (على نحو مانجد فى الشخصياتء الذهانية والعصابية) . وفىالعادة يتغير الكثيرون منا مع النمو ، ولكن احساسا منا بخطر الانهيار ، وخوفا على انفسنامن اهتزاز البناء ، فاننا نحذر الابتعاد كثيرا عما يمكن أن يتحمله بناء شخصياتنا .

وعلى هذا النحو ، نجد فرويد يعطى اهميةكبرى لعملية البناء طوبة طوبة من أجل بناء شخصية الفرد فى المستقبل ، كما يعطى اهميةكبرى للسنوات الخمس الاولى من حياتنا ، باعتبارها أهم سنى العمر والاساس الذى يقامعليه كل بناء .

ومن حسن الحظ أن عوامل البناء تتوافرللغالبية العظمى من الناس . فاغلبنا ينشأ فى أحضان أبوين يتكاتفان معا على تربيته وتنشئتهبشكل يجعل الرحلة الطويلة للحياة تسير فىخطى وئيدة مطمئنة متعاقبة . فاكبر العوامل ذاتالاثر في نمونا النفسى السوي وصحتنا العقلية فى الرشد ، توضع خلال السنوات الاولى منالحياة .

ان الوليد عندما يرى النور لاول مرةتتركز اهتماماته على اشباع حاجاته الاساسية التى يولد مزودا بها ، وأهمها حاجته الى الطعام الذى يحصل عليه عن طريق الفم ، وقرابة نهاية السنة الاولى تبدأ عمليات ضبط الاخراجوالتدريبعلى العادات المتعلقة به ، ومن ثم يتركز اهتمامه حول هذه العمليات وتصبح محوروالتركيز من الناحية الجسمية . وفى حوالى سن الثالثة يبدأ الطفل فى استطلاع غوامض تشريحأعضائه التناسلية أو أعضاء المحيطين به . هذا ما يحدث لكل فرد . فكل طفل يمر بثلاث مراحلنمائية رئيسية تقع كلها فى السنوات الاربع الاولى من حياته ، ويهتم كل منها بجزء خاصمن تشريحات جسمه يكون مؤقتا موضع الاهتمام الاول بالنسبة للطفل . فهناك الفم ثم الشرجثم الجهاز التناسلى . وهذه لا تصبح فقط موضوعات الاهتمام الخاص عند الطفل ، بل انالخبراتء التى ترتبط بها تصبح الطرق التى تؤدى الى الحصول على الاشباع وتؤدى الىالاحباطات أيضا .

فالطفل الصغير يركز اهتمامه أساساطوال السنة الاولى تقريبا في المنطقة الفمية ، ثم ينتقل هذا التركيز بعد ذلك طوال السنةالثانية والثالثة تقريبا حول منطقة الشرج ، ثم يتركز الاهتمام أخيرا حول المنطقة التناسلية ،وذلك بعد سن الثالثة الى سن السادسة . وطبيعى أن ليست هناك قواعد ثابتة محددةلمجرد الزمن الذى يتحول فيه الطفل من خبرة الى أخرى ، لان ذلك يتوقف الى حد كبير علىأسلوب المعاملة الاسرية ، كما أن ليس هناك بالتأكيد فواصل مميزة دقيقة بين كل مرحلةواخرى .

« لقد لقد سمى فرويد هذه المراحل باسم «مراحل النمو النفسى الجنسى » وهذا هو التعبير الذى لا زالت تعرف به . . أن هذا التعبير يعنىان الطفل على طول تطوره النفسى ، يمر بعلامات مميزة ومحددة لمراحل النمو النفسى الخاصةكلما كانت القوى والدوافع الداخلية فى هذا الشخص الجديدتحاول أن تصله بالناس المحيطين به ، وان تجد الطرائق التى تعطيه الاشباع من هذا الاتصال » .

وسوف نوضح مراحل النمو النفسى الجنسى هذه دون الاضافة في ذلك :

(أ) **المرحلة الفمية :** ترتبط أول مرحلةمن مراحل النمو فى تكوين شخصيةالفردبالمنطقة الشبقية الفمية وعلى وجه الخصوص بالشفتين. فالطفل يبدأ عقب الولادة بقليل استخدام الشفتين فى الحصول على الطعام ، ويصبحفم الطفل وسيلة الاتصال الهامة بالعالم ، وهو لا يستعمله للحصول على هذا الطعام الشهياللذيذ الذى من شأنه أن يخفف من حدة التوتر الذى يشعر به فى احشائه فحسب ،بل وايضا ليستمتع بحنان الام التى تضمه الى صدرها وقت اشباع هذه الحاجة . ويتكررهذا الحدث الهام فى حياة الطفل كل ثلاث أو أربع ساعات ، كما يكتسب الشخص الذىيحتضنه وهو يطعمه من الثدى أو الزجاجة بمرور الزمن نفس أهمية الطعام .

وليس ثمة شك أن هذا الطعام الذىيحصل عليه الطفل يعتبر مصدر اشباع ولذة . فهو طعام شهى ولذيذ (وهذا هو مبدأ اللذة). وسواء كان يحصل عليه عن طريق الثدى أوعن طريق الزجاجة ، فان الوليد فى شهره الاولسرعان ما يتعلم (عن طريق مبدأ اجبار التكرار) أن التجويف الفمى واللسان والشفتين عندماتمس هذه الاشياء تصبح مصدر لذة وسعادة بالنسبة له (منطقة شبقية) . ومن الطبيعىأن يتعلم الطفل استخدام الشفاه كلما اراد الحصول على هذا الاحساس السار أو اللذة ،فهو عندما يحس ثانية بالجوع ، تقوم المنطقة الفمية بدورها وتؤدى به الى الشعور باللذة. ولما كان الطفل فى هذه المراحل الاولى منحياته يعتمد كثيراً على العادات التى يكونها ، فانه يلجأالى استخدام الشفاه في الحصول على اللذة أيا كانت حالة الجوع التى يكون عليها . وتبعاًلذلك ، وبعد أن يكون قد دربت الشفاه على احداث اللذة ، فقد يلجأ الى استخدام الاصابعأو اى مثير آخر (كأصابع القدم مثلا) من أجل الحصول على اللذة سواء كان جائعا أم غير جائع(خفض التوتر) . وهكذا تصبح الشفاه من الآن فصاعدا مصدراً للحصول على اللذة .

ولما كانت الاشياء التى تظهر أولا فى نظامما ، تكون آخر ما يترك هذا النظام ، فانالمرحلة الفمية والمنطقة الشبقية الفميــة تكونان علىهذا الاساس اطول واقــوى مراحــل حيــاة الانسان . فهو دائما يبحثعن لذة المنطقة الفمية ،وهو يقوم بذلك حتى اذا كان مثل هذا النشاط غير مجد فى حل المشكلة أو في خفض التوتر .

(ب) **المرحلة الشرجية :** والمجموعة التاليةمن الخبرات ذات الاهمية البالغة فى تشــكيل طباعنا وعلاقاتنا بالناس هى التدريب على عمليةالاخراج وعاداته . وكما كان الحال خلال المرحلة السابقة لا يتركز الانتباه فقط على جزء معين منتشريح الجسم ، ولكن على وظيفة هامة ترتبط به . وتختلف الاتجاهات التى تتكون في هــذهالمرحلة اختلافات بينة ، الامر الذى يتوقف على ما يظنه الآباء أحسن مران ونظام للتدريب يمكناستعماله » .

وحين يتجمع قدر كاف من فضلات الطعاملدى الطفل ، فان ذلك يسبب له توترا فىالامعاء يؤدى الى الشعور بعدم الارتياح أو الالم . وطردالفضلات واخراجها يزيل عنه مصــدر القلق ، ويحدث له الشــعور بالراحة . وعند بدايةالتدريب على النظافة ــ وهذا ما يحدث عادة في السنة الثانية منالعمر ــ يلتقى الطفل بأول خبرةحاسمة له مع التنظيم الخارجي لدفعة غريزية. فعليه أن يتعلم ارجــاء اللذة التى يحققهــا لهتخلصه من توتره الشرجى ، أى عليه ان يتعلم الخضــوع لمبــدأ الواقع ، وان يقوم بعمليةالاخراج حين تصل هذه الضغوط الى حد معين، وان يقوم بها فى أماكن معينة وليس فى اى مكانيشاء . وتتوقف نتائج هذا التدريب على الاسلوب الذى تتبعه الام فى تدريبه على ضبط عمليــةالاخراج . فان كان اسلوبا شــديدا صــارما ، فقد يقبض الطفل علىفضلاته ويصاب بالامساك. وحين يعمم هذا الاسلوب فى الاســتجابة الى مجالات من السلوك فيما بعد ، فقد ينمو لدىالفرد خلق قابض ويصبح عنيدا شحيحا ... أما اذا كانت الام من النوع الذى يتودد الى الطفلليخرج فضلاته وتسرففىمديحه عندما يستجيب لذلك ، فان الطفل تتكون لديه فكرة قوامهــا انالنشاط الاخراجى باكمله أمر بالغ الاهمية .

وقد تكونهذهالفكرة أساسالخلقوالانتاج . وعلى العموم ، يقال ان العديد من الســمات الاخرى ترجع جذورها الى المرحلة الشرجيــة(هول ولندزى ص ٧٦) .

وبالتأكيد يستطيع الطفــل ان يحس بأنعملية التدريب على الاخراج هامة جدا بالنســبة لأمه وأبيه ، والا فلماذا كل هذه الضجة التىتثار حولها . انه يتعلم فى وقت مبكر أن ما يقوم به من عمل او مال يؤديــه يكون له اثره علــىالمحيطين به . وليس من شك في ان الخبرات التى ترتبط بالتدريب على الاخراج ، وما ينتجعن ذلك من اتجاهات الاطفال نحو الآباء ، تضع اللبنات الاولى لكثير من الاتجاهات والاعمال التىيقوم بها الفرد فى مســتقبل حياته . انها أول عهده بالتأديب والنظافة ، وربما قد يتعلم منهاأشياء اخرى كثيرة . فقد يتعلم من هذه العملية « ان يثابر على العمل حتى ينتهى من العمليــةالاخراجية » ، وهذه بلا شك خبرة لها علاقة بالمثابرة والاصرار فيما بعد ذلك من أيام الحياةفي اى عمل نقوم به،كما قد تغذى عندهالاحساس بالقوة اذ يمكنه التحدى والعناد ومنع الاخراج،وليس هناك من يجبره على القيام بذلك اذا اراد الامتناع عن القيام به .

(جـ) **المرحلة الجنسية** وتتفجر فى حياة كل كائن بشرى في حوالى سن الثالثة أو الرابعة رغبة فى استطلاع امور الجنس ، ويرتبط بهذه الرغبة قدر معين من الاستثارة الجنسية . والمنطقة الشبقية الثالثة التى تلى المنطقتين السابقتين هى الاعضاء التناسلية . ولا شك ان الطفل يستمد لذة من العبث بهذه الاعضاء. وتكون حياة الطفل الانفعالية اى علاقته الوجدانية بأفراد الوسط المحيط به في هذه الفترة ، أشبه بالحياة العاطفية للكبار . وفى خلال هذه الفترة (من سن ٣ ــ ٥) تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد اخذت تنمو وتتعقد وتهيىء السبيل لظهور عقدة أوديب . وتستمد عقدة أوديب اسمها من أساطير الاغريق حيث كان أوديب طفلا لاحد الملوك ، وتكهن المنجمون أنه سوف يقتل أباه حين يكبر ، فنبذه الملك فى العراء . ولما كبر أوديب التقى بالملك وتنازعا على امر ما ، فقتل أوديب الملك دون أن يعرف انه أبوه ، ثم دخل المدينة وتزوج ملكتها ، وهى أمه ، دون أن يعرف أنها أمه . وقد اتخذ فرويد من هذه الاسطورة صورة لما يعانيه الطفل الانسانى ابان طفولته المبكرة فى صلته بوالديه والتى تسمى باسم « الصراع الاوديبى » .

ذلك ان أول موضوع يمر بخبرة الطفل ــ عدا نفسه ــ هى أمه . انها أول انسان يطعمه ويلبسه ويحبه ويجيب كل مطالبه وحاجاته . والطفل يعتمد على الام فى هذه المرحلة الاولى من حياته اعتمادا كليا . ومن هذا الاعتماد من أجل الحياة والتوحد معها ، ينمو الاحساس بالحب للام .

ثم أن الطفل بالاضافة الى حبه لأمه واكتشافه لجسمه وأعضاءه التناسلية يصبح أيضا على معرفة بالدور الذى يقوم به الاب فى حياته . فالاب انسان أكبر واقوى منه بكثير ، وانه أقل وجودا معه فى البيت ، وأنه يشبهه فى الجنس ، ثم انه يشاركه فى حب الام ويحظى باهتمامها .

وفى الحقيقة يبدو أن له بعض الاولوية فى وقت الام ومحبتها ، وتكون النتيجة الطبيعية لهذا هو الاحساس بمنافسة خفية وغيرة مصاحبة . وفى المراحل الاولى لهذه المعرفة ، لا يفعل الطفل الذكر شيئا لكبح احساسه بالغيرة . ومع ذلك يبدأ الكبت فى الظهور مع استمرار النمو . ثم هو يلاحظ أيضا انه من الناحية الجسمية ، اقرب شبها بأبيه منه بامه ، وهى حقيقة تؤدى به الى التوحيد مع الاب مثلما توحد مع الام . وينشأ التناقض الوجداني (مبدأ الازدواج أو الثنائية) عن هذه الشحنة الوجدانية نحو شخصين مختلفين كلاهما يعتبر ضروريا وهاما لسعادته وراحته . فهو من ناحية يحب أن يشارك الاب فى حب الام ، تلك المشاركة التى لا يحبها نظرا لرغبته في الاستئثار بحبها ، ولكنه من ناحية اخرى اكثر شبها بالاب منه بالام ، وهو احساس بالتوحيد يجلب له السرور والرضا. وطالما أنه مع استمرار النمو ينمو أيضا مبدأ الواقع ، فانه قد يتوقع نوعا من العقاب يوقعه به الاب ، اعنى عقاب الاب له على مشاركته فى حب الام . ولما كانت معرفته بالعالم لا تزال قاصرة ، ولما كانت تربيته لا تزال تدور حول المناطق الفمية والشرجية والجنسية ، فان اى عقاب يمكن ان يوقعه به الاب ، سوف يتصل بهذه المناطق الشبقية . ولما كانت الصفة الجسمية الوحيدة التي تميزه عن الام هى عضوه

الذكرى ، اذن ، فان هذا العضو هو الذى يمكن ان يوجه اليه الثأر والانتقام من جهة الاب ، حتى يجعله اقرب شبها بالانثى ويبعد عنه فى الوقت نفسه صفته الذكرية الوحيدة . ويشبه ذلك من حيث الاهمية أيضا أن عضو التذكير هو عضو التحريم الذى يجب أن يزال من أجل استبعاد اى احتمال لمجرد التفكير فى قيام أية علاقة محرمة مع الام . وهذا الخوف الشديد هو الذى أشار اليه فرويد باسم عقدة « الخصاء » . فالطفل الذكر يخاف من ازالة هذا العضو الذى يجعل منه ذكرا شبيها بالاب مما يترتب عليه فقد التوحد مع الاب ، كما يخاف أيضا من منافسته المستمرة للاب فى حب الام وجذب اهتمامها . ومبدأ الثنائية هذا يترتب عليه ظهور القلق عند الطفل بشكل يعجز معه عن احداث التوافق الى ان يدخل مبدأ الواقع ميكانزم الدفاع عن الانا ونعنى به ميكانزم الكبت . وبذلك يجد الطفل طريقا لحل مشكلته .

وتعتبر الفترة من الثالثة حتى الخامسة او السادسة من اقوى فترات النضال العنيف لدى الطفل . ومع ذلك فهى تستمر كعامل حيوى خلال حياة الفرد ، كما يكون لها أثر فى اتجاه المراهق نحو الجنس الآخر ونحو مصادر السلطة وفي علاقته بزوجته واطفاله .

هذا فيما يتصل بالولد الذكر . أما عن البنت ، فان عقدتها تسمى باسم **« عقدة الكترا »** . وتتطور علاقتها بأبيها تطورا اكثر تعقيدا ، يتأثر بما تستشعره البنت من احساس بالغيرة من الام لمشاركتها فى حب الاب . وما تستشعره من وجودها بغير هذا العضو الذكرى واعتبارها أمها مسئولة عن ذلك . والى جانب اتهامها لامها بانها المسئولة عن حالة الفقد هذه ، فانها تتوحد بقوة مع الأب ، لانه يمتلك هذا العضو الذى تحسده عليه ، ويظهر حسدها واضحا فى المقارنة مع أبيها الذي يمتلك شيئا تفتقده هى .

ومرة أخرى تظهر الثنائية عند الفتاة . ذلك ان مشاركتها لأمها من حيث افتقارهما الى شيء ما ، يقوى توحدها الأول والأصلى مع الام ، ويحدث التناقض الوجدانى حالة قلق انفعالى عند الفتاة . وقد اطلق فرويد على حالة القلق هذه اسم « حسد القضيب » . ولاتصل البنت بسهولة الى حل هذا التناقض الوجدانى مع وجود فروق سيكولوجية عديدة بين الذكر والانثى . ويستمر هذا الحسد لدى الفتاة فترة اطول ، كما تصبح اكثر تمردا على الام مع المراهقة ، وتعدل اتجاهها تدريجيا حتى توفق هى الاخرى في الحصول على شريك حياتها بالزواج . ومرة اخرى تكشف ــ كأم ــ عن تناقضها الوجدانى نحو الجنس وذلك فى دورها كأم لاولاد وبنات ودورها كزوجة لرجل .

(د) فترة الكمون :

ويدخل الطفل فى مرحلة كمون جنسي تبدأ في حوالى سن السادسة أو السابعة او الثامنة . وفى هذا الوقت يصبح الطفل اكثر اهتماما بالعديد من الأمور الاخرى غير الجنس ، اذ يخصص لمثل هذه الامور وقتا اطول مما كان يخصصه لها من قبل . ولكن لا يحتمل ان تفوته فرصة استطلاع امور الجنس فى اى مجال من المجالات التي تتاح له فيها فرصة القيام بذلك . وغالبا ما يحصل الطفل فى هذه المرحلة على المتعة من اللعب

والعمل المدرسي ويمكن القول بوجه عام انالكثير من صراعات الطفل القديمة عن الجنس تكون قد تقدمت قليلا فى ناحية الاتضاح ، وانالموضوع كله قد اصبح مفهوما بصورة افضل .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الاطفال فى هذهالمرحلة يبدأون فى استغلال بعض اهتمامهم وميولهم في غيرهم من الناس كأصدقائهموزملائهمفى المدرسة ، بدلا من أن يكونوا منطوين على انفسهم . وفى هذا الوقت تتاح لهم أول فرصةلتنمية مشاعر الحب والمتعة والتعلق بالرفقاء في عالمهم الذى بدأ يتسع بعض الشيء ، ولو أنهلازال صغيرا ومعروفا ـ عالم زملاء اللعب والمعلمين والابطال ،والنجوم من الذكور والاناث .

(هـ) المرحلة التناسلية : والمراحل الثلاثالسابقة على مرحلة الكمون ـ وهى الفمية والشرجية والقضيبية ـ تعرف **باسم المراحلقبل التناسلية** . وتتميز شحناتها بأنها ذات طابع نرجسي حيث يحصل الفرد على اللذة منتنبيه مناطق معينة من جسمه ، وان شحناته تستهدف الآخرين لانهم يتيحون له أشكالاضافية من اللذة الجسمية فحسب . ومع المراهقة يبدأ بعض هذا الحب يتلمس طرقاتقوده الى اختيارات موضوع حقيقي ، ويشرع المراهق فى حب الآخرين ، تحدوه دوافع الايثاروليس مجرد أسباب نرجسية . فالجاذبية الجنسية والتنشئة الاجتماعية والنشاطالجماعى والتخطيط المهنى والاستعداد للزواج وتكوين الاسرة تبدأ جميعها فى التعبير عن نفسهابصورة واضحة . وفي نهاية المراهقة تصبح الشحنات الانفعالية الاجتماعية الغيرية اكثرثباتا ، ويتحول الفرد من النرجسية او البحث عن اللذة الذاتية الى راشد تسيره الحقيقةالواقعية والمجتمع (هول ولندزى ص ٨٠) .

واخيرا ، يحسن ان نشير الى أنه علىالرغم من أن فرويد قد ميزبين مراحل أربع من النمو النفسي الجنسي ، الا ان هذه المراحلليست منفصلة بعضها عن بعض ، أو ان الانتقال يكون فجائيا من مرحلة الى اخرى . وبذلكيكون التنظيم النهائي للشخصية هو نتيجة اسهامات هذه المراحل الاربع .

● ● ●

ثانيا : نظرية اريكسون :

لقد ادخل أريك اريكسون تعديلات علىنظرية فرويد فى النمو النفسي الجنسي في ناحيتين اساسيتين : الاولى : التوكيد علىالتفاعل المتبادل ـ وربما بصورة اكثر مما عند فرويد ـ بين المحتوى الاجتماعى والمراحلالبيولوجية المعينة التي يمر بها الكائن الحى . **والثانية :** التوسع فى المراحل . فبعد ان كانتهذه المراحل أربع عند فرويد (الفمية ـالشرجية ـ القضيبية ـ التناسلية) ، اصبحت ثمانيةعند اريكسون .

وسوف نعرض نظرية اريكسون بشيء منالاختصار مستعينين فى ذلك بما قدمه فى كتابيه **« الطفولة والمجتمع » طبعة ١٩٧٠ (١٧) ،« والهوية : الشباب والازمات » طبعة ١٩٦٨ (١٨) .**

وقد اشار اريكسون فى بداية حديثه عن نمو الشخصية الى أن هناك صورا كثيرة لخصائص الشخصية السوية واخذ بتعريف **ماري جاهودا** Marie Jahooda التى تذهب الى أن الشخصية السوية هي « تلك التي تسيطر على البيئة بنشاط ، وتكشف عن وحدة معينة ، ولديها القدرة على ادراك العالم وادراك نفسها على نحو سليم » . ومن الواضح ان هذه المعايير تعد نسبية اذا نظرنا اليها من ناحية النمو المعرفي والاجتماعي للطفل . فالطفولة تتميز في الحقيقة بالغياب المبدئي لهذه المعايير ، وبنموها التدريجي بعد ذلك فى خطوات معقدة من التمايز المطرد . ومن هنا ، يرى اريكسون أن من المفيد ان نبين الطريق الاساسى لنمو الشخصية وخصائصها السوية .

ويذهب اريكسون الى انه عند محاولة فهم عملية النمو ، يحسن ان نتذكر جيدا مبدأ « **التخلق المتعاقب** » (*) Epigenetic Principle والذى نستمده من نمو الكائن الحى العضوى داخل الرحم . وبتعميم هذا المبدأ نوعا ما ، يمكن القول بأن اى شيء ينمو ، انما يكون له منذ البداية ، خطة اساسية ينمو وفقا لها . ومن هذه الخطة الاساسية تقوم الاجزاء ، ويكون لكل جزء وقت محدد لظهوره ، حتى يكتمل ظهور الاجزاء جميعا ، فتكون كلا وظيفيا . هذا ما يصدق بشكل واضح على نمو الجنين ، حيث يكون لكل جزء من أجزائه وقت محدد لظهوره ، والا تعرض للتلف أو نقص التكوين . وعند الولادة يتخلى الطفل عن التبادل الكيميائي الذى كان يتم داخل الرحم ، كى يفسح المجال امام نظام جديد من التبادل الاجتماعى مع مجتمعه الذى سيحيا فيه ، وحيث تتعرض قدراته وامكانياته المتزايدة بالتدريج لكثير من فرص النمو ومن الاحباطات التى تظهر داخل الاطار الثقافى الذى يعيش فيه . أما كيف يستمر الكائن الحى النامى في نموه ، لا عن طريق نمو أعضاء جديدة ، ولكن عن طريق التتابع المحدد لظهور القدرات الحسية والحركية والاجتماعية ، فهذا ما تمتليء به كتب النمو . لقد امدنا التحليل النفسي بالكثير من المعلومات التى تتصل بالخبرات المزاجية ، وعلى وجه الخصوص بالصراعات الداخلية التى تكشف عن الطريقة التى بها يصبح الفرد شخصية متميزة ، ولكن من المهم ايضا ان نتحقق من أن الطفل السوى فى تتابع خبراته الشخصية يمكنه ، اذا منح قدرا معقولا من التوجيه السليم ، أن يخضع لقوانين النمو الداخلية ، تلك القوانين التى تسمح بتتابع ظهور الامكانيات فى تفاعلها الهام مع الشخصيات والمؤسسات الاجتماعية التي يتفاعل معها . واذا كان هذا التفاعل يختلف من ثقافة لأخرى ، الا انه يجب ان يظل داخل اطار « المعدل الطبيعى للسرعة والتتابع السرى » الذى يحكم كل تخلق متعاقب . وعلى ذلك ، يمكن القول بان الشخصية تنمو وفقا لخطوات محددة سلفا في استعداد الكائن الحى العضوى ، من اجل ان يعرف ويتفاعل ويتجه نحو مجال أوسع من الاشخاص والمؤسسات ذات الاهمية بالنسبة له .. ولذا يستخدم أريكسون عند عرضه لمراحل نمو الشخصية تصورا لهذا التخلق المتعاقب في النمو النفسي ابتداء من الطفولة الاولى حتى الرشد .

---

* Epigenesis : التخلق المتعاقب : نظرية تقول بان الجنين يتكون بسلسلة من التشكلات المتعاقبة (وهي تناقض التخلق السبقى القائلة بان جميع اعضاء الجنين موجودة وجودا سبقيا فى الجرثومة) .

ومن الطبيعي انيواجه الطفل فى كلمرحلةمن مراحل نموه مشكلة أساسية عليه ان يحلها بصورة مؤقتة على الأقل ، اذا اراد ان يتقدم فىحيوية وثقة الى المرحلة التالية .وهذه المشكلات او هذه الصراعات بين المشاعر وبين الرغبات لاتحل باكملها على الاطلاق ، فكل تغير فى الخبرة والبيئة من شانه أن يظهر هذه الصراعات فىصورة جديدة . على ان من المعتقد ان كل نوع من هذه الصراعات يبدوفى أنقى صورة واوضحهافى مرحلة معينة من مراحل نمو الطفل ، ومتى حلَّ هذا الصراع أو هذه المشكلة حلا طيبا فى ذلكالوقت ، تم وضع اساس التقدم الى المرحلة التالية .

ونقدم فيما يلي وصفا للمراحل النمائيةالثمان عند أريكسون .

١ ــ الاحساس بالثقة الاساسية فى مقابلعدم الثقة الاساسية : وعند وصف مجموعة الاتجاهات الاساسية المتعاقبة للنمو ، استخدمأريكسون مصطلح « الاحساس بـ» sense of ومع ذلك ، يجب أن يكون من الواضح بشكلمباشر أن مثل هذه الاحساسات ، كالاحساس بالصحة أو الحيوية أو الاحساس بالافتقار الىكليهما ، تنطبق على جميع الاشياء التى تنتشر ظاهرة على السطح أو توجد فى الاعماق . فهىتنطبق على الحالات الشعورية وما قبل الشعورية واللاشعورية . فالثقة ، كخبرة شعورية يمكنأن تخضع للاستيطان ، ولكنها هى أيضا وسيلة للسلوك تقبل الملاحظة من الآخرين ، ثم بأنها أخيراحالة داخلية يمكن أن تتحقق فقط عن طريق الفحص والتفسير بالتحليل النفسى . وكل هذهالأبعاد الثلاثة يمكن الاستدلال عليها حين نتحدث عن « الاحساس بـ » .

وأول مكون للشخصية السليمة هو« الاحساس بالثقة » . وهذا الاحساس يظهر عادة خلال السنة الاولى من حياة الطفل ، وهوكغيره من مكونات الشخصية لا ينمو مستقلا عن غيره من مظاهر النمو الاخرى . والشعور بالثقةلايعنى أن الطفل قد اصبح قادرا على استخدام جسمه في حركة هادفة ، وانه قادر على التعرفعلى من حوله من الناس والاشياء فحسب ، بل وأيضا يستعمل كتعبير موجز عن خاصية مميزةلكل خبرات الطفل المشبعة فى هذا السن المبكر .

وأول مظهر منمظاهر الثقة الاجتماعية لدىالطفل فى هذه المرحلة هو ما يتجلى في سهولة الحصول على الغذاء ، وعمق النوم ، والشعوربالارتياح عقب القيام بعملية الاخراج . وتساعد خبرة التنظيم المتبادل بين قدراته المستقبلة .واساليب الام التى تزوده تدريجيا باحتياجاته المختلفة ، على احداث التوازن لمشاعر عدمالارتياح . ومع ازدياد ساعات اليقظة ، يجد الطفل أن الخبرات الحسية المتزايدة من شانهاان تثير لديه الاحساس بالالفة والتوافق مع مشاعر الارتياح الداخلية ، وتصبح أشكالالارتياح ، وكذلك الناس والاشياء المحيطة به ، أمورا مألوفة لديه .

ويستمد الطفل من الثقافة التى يعيشفيها بعض الاساليب الاساسية . ومن ابسطها وأسرعها ظهورا ، أسلوب « الاخذ » ، لا بمعنى« أن يذهب وياخذ » ، ولكن بمعنى أن «يستقبل ويتقبل ما يقدم له » وهذه العملية تبدوسهلة وبسيطة ، ومع ذلك فان أى اضطراب

فيها من شأنه أن يكشف عن مدى تعقد هذه العملية . فهذا الطفل الصغير يتعلم كيف ينظم استعداده « للاخذ » مع اساليب الام التى تسمح بدورها للطفل أن ينسق وسائله ، عندما تنمى هى وسائلها فى العطاء . ونتيجة لهذا كله ينمى الطفل ايضا التوحد مع الام ، ويصبح اخيرا معطيا على نحو ما كانت الام .

وقد يظهر لدى بعض الاطفال الحساسين على وجه الخصوص أو الذين لا تعوض احباطاتهم المبكرة ، قدر من الضعف فى احداث مثل هذا التنظيم المتبادل المبكر ، الامر الذى يسبب اضطراب العلاقة مع العالم الخارجى بعامة ، ومع الاشخاص المهمين بخاصة . غير أن هناك بالطبع طرقا اخرى لتوكيد هذا التبادل من خلال مواقف اخرى غير المواقف الفمية المستقبلة . فهناك احساس الطفل بالسرور عندما تضمه الام الى صدرها أو عندما تبتسم له أو تتحدث اليه أو تدلله . والى جانب مثل هذا التعويض « الافقى » (الذى يحدث خلال نفس مرحلة النمو) وهناك ايضا التعويضات « الطولية » فى الحياة والتى تظهر خلال المراحل التالية من دورة حياة الفرد .

وخلال المرحلة الفمية الثانية ، تنمو لدى الطفل بعض القدرات للحصول على اللذة باتخاذ اساليب اكثر ايجابية واكثر ادماجا ، وبشكل مباشر . ففي هذه المرحلة تبزغ الاسنان ، ومع بزوغها يظهر السرور من القيام بالقضم على الاشياء أو عضها . ويتصف هذا الاسلوب الادماجى النشط بعديد من الانشطة الاخرى . فالعين التى كانت من قبل سلبية فى استقبالها للانطباعات التى تحدث ، تتعلم الآن التركيز على الاشياء وفصلها وادراكها على أرضيتها الغامضة وتتبعها . وبالمثل تتعلم أعضاء السمع أن تميز الاصوات الهامة والتركيز عليها وادارة الرأس وراءها ، وتتعلم الاذرع الوصول الى الاشياء والقبض عليها باليدين بشكل محدد .

ومن الصعب تقدير أزمة هذه المرحلة الفمية نظرا لانها تتالف من الاتفاق الزمنى لنمايات ثلاثة : (أ) حافز قوى الادماج وأفراده وملاحظة التوتر المصحوب بعدم الارتياح نتيجة بزوغ السن وغيرها من التغيرات فى الجهاز الفمى (ب) المعرفة المتزايدة للطفل بنفسه كشخص متميز . (جـ) التحول التدريجى للام بعيدا عن الطفل ، وتجاه أمور كانت قد تخلت عنها الى حد ما خلال فترات الحمل الاخيرة ، أو المدة الاولى للرعاية ، أو ربما لاستقبال طفل جديد .

وعندما تستمر الام فى تقديم الثدى خلال مرحلة العض ، فان من الضرورى اذن أن يتعلم الطفل كيف يستمر في الرضاعة من غير عض ، وحتى لا يترتب على ذلك أن تسحب الام الثدى فى غضب أو الم . ويشير العمل الاكلينيكى الى أن هذه المرحلة المبكرة فى تاريخ حياة الطفل تزوده ببعض الاحساس بفقدان الثقة ، وتترك انطباعا لديه بأن وحدته مع الام قد تحطمت مرة واحدة والى الابد . وهذا الفقدان المفاجىء لحب الام الذى اعتاده الطفل ــ ودون أن يكون هناك بديل مناسب في هذا الوقت المبكر يعوضه هذا الحب ــ من شأنه ان يحدث اكتئابا شديدا لدى الطفل ، أو على احسن الظروف احساسا بالانقسام الداخلى وحنينا غامضا للجنة المفقودة . وازاء هذا التجمع القوى للاحساس بالحرمان والشعور بالانقسام والفقدان يجب أن تؤكد الثقة الاساسية ذاتها خلال حياة الفرد .

ويتضح فقدان الثقة الاساسية فى حالات المرض النفسى ولدى حالات الفصام الطفلى ، كما تتضح مظاهر الفقدان الكامن الطويل الامد لهذه الثقة فى شخصيات الراشدين الذين يتسمون بالانسحاب الشديد والبعد عن الناس وبالاكتئاب . وقد وجد بالنسبة لمثل هذه الحالات ، ان اعادة بناء الثقة بالنفس هو المطلب الاساسى للعلاج ، لأنه أيا كانت الظروف التى احدثت الاضطراب الذهانى ، فان الشذوذ أو الانسحاب الذى يظهر فى سلوك الكثيرين من المرضى ، انما يخفى وراءه محاولة لاستعادة التبادل الاجتماعى واعادة الثقة مرة أخرى .

وأول عمل للأنا هو اقامة انماط متينة ثابتة لحل الصراع الرئيسى للثقة مقابل فقدان الثقة ، وهذا بلا شك واجب من واجبات الرعاية التى تقوم بها الام . ويجب أن نوضح هنا ، أن مقدار الثقة المستمد من الخبرة الطفيلية المبكرة ، لا يتوقف على الكميات أو المقادير المطلقة للطعام أو على اظهار المحبة للطفل فحسب ، وانما يتوقف أيضا على نوع العلاقة بين الطفل والام . فالامهات يخلقن الاحساس بالثقة فى ابنائهن عن طريق هذا النوع من المعالجة الذى يتضمن الرعاية الحساسة لحاجات الطفل ، وعن طريق هذا الاحساس العميق بأنه جدير بالثقة الشخصية داخل اطار الثقة فى أسلوب حياة المجتمع والثقافة التى يحيا فيها . ومن شأن هذا أن يشكل لدى الطفل أساس الاحساس بالهوية ، والذى سوف ينضم فيما بعد الى الاحساس بأن الامور « تسير على ما يرام » ، وأنه « هوهو » ، وأنه « جدير بثقة الاخرين به » . حقيقة قد يواجه الطفل ، سواء فى هذه المرحلة أو المراحل التالية عليها ، مجموعة من الاحباطات التى لا يمكن للطفل النامى تحملها أحيانا ، ولذا يجب الا يعتمد الآباء فى أسلوب تربيتهم للطفل على وسائل معينة للتوجيه عن طريق المنع أو المنح فحسب ، بل يجب أن يكون لديهم أيضا القدرة على الاقناع العميق للطفل بأن ثمة معان تكمن وراء ما يقدمونه له من أشياء ومن أوامر ونواه . ان الطفل لا يصبح فى النهاية عصابيا نتيجة ما يتعرض له من احباطات ، وانما لفقدانه المعنى الاجتماعى لهذه الاحباطات .

٢ ـ الاحساس بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك وبعد أن توضع بنود الاحساس بالثقة على أساس متين ، يبدأ الانتقال الى المكون الثانى من مكونات الشخصية السليمة ، وذلك فى الفترة ما بين سن الاثنى عشر والخمسة عشر شهرا . وتنصرف معظم طاقة الطفل فى هذه المرحلة الى توكيد ذاته من خلال الافعال التى يقوم بها من حيث انه انسان له عقل وله ارادة خاصة .

وهناك أساس فسيولوجى للسلوك المتميز فى هذه المرحلة . ذلك أن نضج الجهاز العضلى وما يترتب عليه من تآزر وتوافق بين عدد من الانماط المتصارعة للحركة والفعل ، يهيىء المسرح أمام تجربة مجموعتين من الاساليب الاجتماعية فى وقت واحد : القبض والاسترخاء ، الامساك والاخراج . وكما هو الامر بالنسبة لكثير من الحالات ، يمكن أن تؤدى صراعاتها الاساسية في النهاية اما الى العدوان أو الى توقعات واتجاهات لطيفة معتدلة . فالقبض أو الامساك يمكن أن يصبح احتجازا قاسيا أومدمرا ، كما يمكن ان يصبح نمطا من الرعاية ، بمعنى انه يمتلك ويحتفظ بما يمتلك . وبالمثل قد يصبح الاخراج أو الاسترخاء وسيلة لاخراج عدوانى لقوى مدمرة ، كما يمكن أن يصبح استرخاء بمعنى « دع الامور تمر وتنتهى » .

وفى هذه المرحلة يجب ان يكون الضبط الخارجى من النوع الذى يعيد الطمأنينة مع قدر من الحزم . فالطفل يجب أن يشعر أن الثقة الاساسية في الوجود ، والتى استمر محتفظا بها رغم ثورات المرحلة السابقة وازماتها سوف لا تتعرض للخطر نتيجة هذا التغير الكامل المفاجىء ، وهذه الرغبة العنيفة المفاجئة للقيام بالاختيار بين ان يحتفظ بعناية او أن يخرج بعناد . فالحزم فى هذه المرحلة أمر ضرورى لأنه يجب أن يحميه من الفوضى التى يمكن أن يتردى فيها نتيجة لاحساسه غير المدرب على التمييز والتفضيل ، وعدم قدرته على القبض والاخراج دون تحفظ وحذر . فينبغى على الام والبيئة المحيطة به اذن ، أن تعضد الطفل وتشجعه على « الوقوف على قدميه » والاستقلال بنفسه، وان تحميه ضد الخبرات القاسية والعديمة المعنى والتى يسيطر عليها الخجل والشك .

فالبيئة اذن يجب أن توجهه التوجيه الحكيم ، وان تجنبه مشاعر الخجل والشك فى قيمته كشخص ، وان تسلك ازاءه بحزم وتسامح ، بحيث يستطيع ان يتمتع بكونه شخصا مستقلا ، وان يمنح الاستقلال للآخرين .

ويذهب اريكسون الى أن الخجل انفعال لم يدرس بعد بما فيه الكفاية ، لانه فى مجتمعاتنا الحديثة ، سرعان ما تمتصه الخطيئة بسهولة . ويفترض الخجل ان الفرد قد تعرى تماما ، كما يفترض ايضا الشعور بأن الآخرين قد اطلعوا عليه ونظروا اليه . فهو واع بذاته او خجل من نفسه . لقد رؤي وهو على غير استعداد لأن يراه احد . ولعل هذا هو السبب فى اننا نحلم أحيانا بالخجل فى موقف يشعر فيه الفرد أن الآخرين يتفرسون فيه وهو فى حالة من العرى الكامل او وهو في ملابس الليل « وبدون سروال». وكان يعبر عن الخجل كدافع يدفع الفرد « أن يدفن وجهه بين يديه » أو « أن يتمنى أن تبتلعه الارض هنا أو هناك » . ويعتبر أريكسون الخجل أساسا بمثابة ثورة موجهة ضد الذات . فهذا الذى يشعر بالخجل يود لو أجبر العالم ألا ينظر اليه وألا يلاحظ ثورته ، يود لو يحطم أعين العالم ، ثم هو بالاضافة الى ذلك يود أن يصبح هو ذاته غير مرئى .

والشك قرين الخجل . واذا كان الخجل يتوقف على الشعور بالتعرى والانكشاف أمام الناس ، فان الشك ـ حسب ما أوصلته الملاحظة الاكلينيكية الى الاعتقاد ـ يتصل بالشعور بأن للفرد « قبل ودبر » (اى أمام وخلف) وخاصة الدبر ، لان هذه المنطقة الخلفية من الجسم مع تركيزها العدوانى والليبيدى على العضلات العاصرة والارداف ، لا يمكن أن يراها الطفل ، ومع ذلك يمكن ان تخضع لارادة الغير . «فالدبر» هى تلك المنطقة من الجسم التى يمكن أن يسيطر عليها أو يكتسحها ـ بالخيال أو بالفعل ـ هؤلاء الذين يمكنهم مهاجمة قدرة الفرد على الاستقلال، أو الذين قد يصفون ما تخرجه الامعاء بانه خطأ أو عيب فى الوقت الذى يشعر فيه الطفل بالارتياح وقت اخراجها . وهذا الاحساس الرئيسي بالشك فيما يخلفه الفرد وراءه ، يشكل قوام الصور الاخيرة واللفظية للشك القهرى ، والذى يعبر عنه في الرشد فى خوف المصاب بالهذاء من المضطهدين المختفين ، ومن الاضطهادات الخفية السرية التى تدبر من الخلف .

وتعتبر هذه المرحلة من مراحل النموالنفسى الحاسمة فى تكوين الفرد نظرا لما يوجد فيها من صراع بين الحب والكراهية ، بين التعاون والعناد ، بين حرية التعبير عن الذات وقمع الذات . فمن الاحساس بضبط النفس دون فقدان التقدير للذات ، ينتج احساس مستمر ودائم بالارادة والاستقلال والزهو ، على حين ينتج عن الاحساس بعدم القدرة على ضبط النفس ، وان التحكم مصدره خارجى ، احساس مستمر ودائم بالشك والخجل .

ويجدر بنا أن نشير الى أن هذه النتائج المتصلة بالاحساس بالاستقلال والخجل والشك ليست أمورا مبالغ فيها نتيجة الاهتمام الزائد بالمشكلات الاكلينيكية ، وانما هى أمور نجدها متمثلة « حتى لدى الراشدين الناضجين وغير العصابيين . فهؤلاء غالبا ما يكشفون عن حساسية تتصل « بالفقدان المخجل لماء الوجه » . وعن « خوف من أن يهاجم من الخلف » ومعظم هذه الاحساسات هى بقايا لمراحل النمو المبكرة التى يمر بها الفرد من طفولته ، والتى يتغلب على معظمها وهو في طريقه الى الانتقال الى المراحل التالية .

٣ ـ الاحساس بالمبادأة مقابل الاحساس بالذنب وفى كل مرحلة جديدة تظهر معجزة أخرى تتكشف للعيان .وتمثل أملا جديدا ومسئولية جديدة للجميع . ومعجزة هذه المرحلة هى الاحساس بالمبادأة . ونحن الآن نقترب من نهاية السنة الثالثة حيث تصبح عملية المشى سهلة وميسورة لدى الطفل . حقيقة ان كتب النمو تشير الى أن الطفل يمكنه ان يمشى قبل هذا السن بكثير ، ولكن المشى والجرى يصبحان جزءا هاما من اساليب سيطرة الطفل على البيئة المحيطة به . انه يريد ان يكتشف المجال الحيوى الذى يعيش فيه . فالطفل في هذه المرحلة شغوف بعقد مقارنات بين الاشياء والاشخاص ، ولديه القدرة على الاستطلاع المستمر للفروق فى الحجم والنوع بعامة ، والفروق فى الجنس والسن بخاصة . انه يحاول أن يفهم الادوار المستقبلة والادوار الجديرة بأن يتخيلها ، أنه يريد ان يكتشف اى نوع من الاشخاص يمكن أن يكونه . وهو يحس فجأة بأنه قد نما وكبر سواء فى جسمه أو فى نفسه ، وانه قد اصبح أكثر نشاطا وحيوية وأكثر لمعانا وذكاء فى أحكامه وانه يمتلك مزيدا من الطاقة والنشاط اللذين يسمحان له بأن ينسى الفشل بسرعة ، وان يقترب مما هو مرغوب (حتى ولو بدا هذا المرغوب غير مؤكد أو خطرا) فالمرحلة مرحلة تعلم نشط عنيف ، تعلم يقود الطفل من نواحى قصوره وضعفه الى امكانات مستقبلة وجديدة ، مرحلة اندفاع فى المكان عن طريق الحركة العنيفة النشطة ، مرحلة غزو للمجهول يدفعه اليه حب استطلاع شديد . ثم هو في هذه المرحلة يستطيع أن يرتبط وبشكل مباشر برفاقه من نفس سنه ، ويمكنه بتوجيه الاطفال الاكبر منه سنا ، أو بتوجيه الكبار من حوله ، ان يتعلم سياسة التعامل مع هؤلاء الرفاق ، سواء فى المدرسة أو فى الشارع أو المجتمع الخارجى .

وهكذا تضيف المبادأة الى الاستقلال صفة مباشرة العمل ومواجهته وتخطيطه من أجل ان يصبح نشطا ومتحركا . ويرى أريكسون أن مصطلح المبادأة ــ رغم ما يحمله من مدلول امريكى ذى صبغة اقتصادية ــ يعد جزءا ضروريا بالنسبة لكل عمل . فالانسان يحتاج الى

الاحساس بالمباداة بالنسبة لكل نشاط يقوم به ، وكل عمل يتعلمه أو يؤديه ابتداء من جمع المحصول في الحقل الى القيام بتنفيذ مشروع هندسى .

ويرى أريكسون أن تعلم الطفل فى هذه المرحلة هو الى حد بعيد من النوع الاقتحامى والعنيف . انه يبعد الطفل عن نواحى قصوره وضعفه ، ويقربه في ذات الوقت من امكاناته المستقبلة .

وأسلوب الاقحام الذى يسيطر على كثير من مظاهر سلوك هذه المرحلة قد يتخذ العديد من الانشطة والتخيلات المتشابهة . وتتضمن هذه :

(١) اقتحام المكان بحركة نشطة وعنيفة .

(٢) اقحام الطفل بنفسه فيما لا يعنيه من أمور عن طريق حب الاستطلاع .

(٣) اقحام نفسه فى آذان الاخرين وعقولهم عن طريق صراخه العدوانى .

(٤) اقحام نفسه على أجسام الاخرين بالهجوم المادى عليهم .

(٥) وأخيرا باقحام عضو التذكير ـ بالتفكير أو التخييل ـ في جسم انثى . وهذه المرحلة هى نفسها المرحلة القضيبية فى نظرية الجنسية الطفيلية عند فرويد . انها مرحلة حب استطلاع طفلى واستثارة جنسية واهتمام زائد وانشغال بأمور الجنس كافتقار البنت الى عضو التذكير .

ومرحلة التجول ـ والتى هى مرحلة لعب وجنسية طفلية ـ تضيف الى الاساليب الاجتماعية الاساسية أسلوبا جديدا لدى الجنسين هو أسلوب « الاحداث أو الصنع making » وهو بالمعنى الطفلي أسلوب « الفوز بشيء » وهذه العبارة توحى بالاستمتاع بالمنافسة والاصرار على بلوغ الهدف واللذة فى الفوز والسيطرة ، وينصب التركيز عند الولد الذكر على الاساليب « القضيبية ـ الاقحامية » ، على حين تتحول عند الفتاة الى أساليب المسلك المفاجيء والاختطاف العدوانى أو ـ فى الحالات المعتدلة ـ اتخاذ أساليب تجعلها جميلة وجذابة . وبذلك ينمى الطفل متطلبات المباداة الذكرية والانثوية وبعض صور الذات الجنسية التى سوف تصبح مقوما اساسيا من مقومات المظاهر الموجبة والسالبة لهويته المستقبلة ، كما تزداد تخيلات الطفل . فالولد ينغمس فى تخيلات قوامها أنه أصبح هائلا أو أسدا ، ولكن أحلامه تدور حول مخاوف تتصل بالحياة وبالاطراف . فهى مرحلة « عقدة الخصاء » والخوف العميق من الفقد . أما البنت فلديها اقتناع بأنها قد فقدت العضو الذكرى عقابا لها عن تخيلات وافعال سرية خفية .

وفى هذه السن يكون الضمير قد نما وأصبح أعظم حاكم للمباداة . فالطفل لم يعد موجها بأناس من الخارج فحسب ، بل اصبح أيضا يسمع « الصوت الداخلى » لملاحظة الذات وتوجيهها وعقابها ، هذا الصوت الذى يعلق على افعاله ويحذره ويهدده ، وتلك هى بداية

نشوء الاخلاق عند الطفل . غير أن تزمت الكباروتحميلهم للطفل أكثر مما يطيق ، سوف يجعل الامر صعبا وخطيرا بالنسبة للروح والاخلاقمعا . ذلك أن ضمير الطفل يكون بدائيا وقاسيا وغير متسامح ، وقد ينتج عن ذلك نوع منالحصر الشديد . فاذا كان من الممنوع أنيفعل كذا ، فمن الخطورة بمكان ان يفكر حتى مجردالتفكير فيه ، وقد يدفع الى هذا القرار غيرة وحسد ومرارة واتجاه نفسى شرير تجاهالعالم . ومثل هذه المشاعر تجبر الطفل على تقييد ذاته ، وقد يصبح هذا التقييد لا شعورياويكون جزءا من الشخصية يقوم بوظيفته ويؤثر في سلوكها . ولعل أحد الصراعات العميقة فىالحياة هو ذلك الصراع الذى يتكون نتيجة كراهية الاب الذى يكون فى بداية الامر نموذجاللضمير ، ولكنه في النهاية يرتكب الخطايا التى لا يتحمل ضمير الطفل اتيانها . وهنا يصلالطفل الى الشعور بأن المسألة ليست مسألة اخلاق عامة ، بل هى قوة قسرية وتعسفيةتفرض عليه .

وهذه المرحلة النمائية لها مزايا ومخاطر. فالطفل فى هذه المرحلة يكون أكثر استعدادا للتعلم بسرعة وقوة ومشاركة الالتزاماتوالاعمال التى يقوم بها الغير ، منه في أية مرحلة أخرى ، فهو شغوف لان يتعلم ، ومشوق وقادرفى نفس الوقت على القيام بالاعمال التى يشارك ويتعاون فيها مع الاطفال الاخرين من أجلالتصميم والبناء ، كما يرحب بالاستفادة من المدرسة ، وأن يضاهي النماذج الاصلية التىيراها . انه يظل بالطبع متوحدا مع الاب من نفس الجنس ، ولكنه في الوقت نفسه يبحثعن فرص يتيح له فيها التوحد مع العمل ، مجالا للمباداة دون حدوث صراع طفلي ، اوشعور أوديبي بالذنب ، وكذلك البحث عن توحد اكثر واقعية يقوم على روح المساواة التيخبرها من العمل مع الآخرين . واذا استطاع الطفل فى هذه المرحلة ان يفهم جزئيا بعضالادوار والوظائف التي يستطيع القيام بها كشخص راشد ، فانه سوف يكون مستعداللانتقال فى نمو سليم الى المرحلة التالية .

٤ ــ **الاحساس بالعمل مقابل الشعوربالنقص :** واذا كان طفل المرحلة السابقة مستعدا لان يتعلم فى شغف وسرعة وأن يصبحكبيرا ، وان يشارك فى الالتزامات والنظام والعمل ، وأن يعملويشارك فىالبناء والتصميم فان اطفال هذه المرحلة يصبحون اكثر ارتباطا بالمدرسين وآباء الأطفال الآخرين ، واكثر ميلاالى ملاحظة وتقليد أعمال بعض الناس الذين يمكنهم ادراكها كرجل الشرطة ورجل المطافىءوالبستاني . وهذه المرحلة تبدو كلها وكأنها تمهد السبيل للدخول فى الحياة . واقصدبالحياة هنا حياة الدرس ، سواء تم ذلك فى الحقل او المعسكر او الفصل ، والطفل فىهذه المرحلة ينسى الكثير من الآمال والرغبات السابقة وينصرف الى الاعمال الحقيقية . ذلكان الفرد قبل ان يصبح أبا من الناحية البيولوجية ، عليه ان يعمل أولا ليرعى اسرته ،ومع الدخول في مرحلة الكمون ينسى الطفل المتقدم بشكل طبيعي نحو النضج أو يعلي الرغبةفى أن يوجد انسا او ان يصبح ابا أو تصبح أما . انه يتعلم الآن ان يكتسب المعرفة عنطريق انتاج الاشياء .

واذا كان جميع الاطفال محتاجين في بعض الأوقات الى ان يتركوا يلعبون وحدهم او ان يتركوا ـ فيما بعد ـ فى صحبة الكتب او الراديو او السينما او التلفزيون ، واذا كان جميع الاطفال يحتاجون في بعض الاوقات الى القيام ببعض الالعاب الايهامية ، فانهم ، ان عاجلا او آجلا . سوف يحسون بالاستياء والسخط اذا لم يوجد لديهم الاحساس بالقدرة على القيام بعمل شيء ما أو عمله جيدا وباتقان . وهذا الاحساس بالقدرة على العمل هو ما اطلق عليه اريكسون اسم «الاحساس بالانجاز» أو « الاحساس بالصناعة » ، فبدونه يشعر الطفل بالضياع . فبالعمل يعرف الفرد ويعرف مجتمعه انه قد أصبح من الناحية النفسية مؤهلا لان يكون ابا ، حيث يلزمه العمل لرعاية الاسرة من الناحية الاجتماعية ، قبل أن يصبح أبا من الناحية البيولوجية .

وتقول « **ايفس هندريك** » ان مبدا العمل يعلم الفرد لذة اتمام العمل وانجازه ، وذلك نتيجة الانتباه المستمر والاجتهاد المتواصل . والاطفال فى جميع الثقافات يتلقون خلال هذه المرحلة بعض نواحى التعليم المنظم والذى يأخذ عادة صورة تعليم مدرسي حيث يتجمع الاطفال حول مدرسين مؤهلين جيدا للقيام بعملية التعليم . وفي المجتمعات البدائية ، حيث لا تعلم منظم ، يقوم الكبار بدور تعليم الصغار الذين يلتقطون المهن من الكبار . ويغلب الميل لدى الطفل فى مثل هذه الحالات حين يقبل على تعلم صنعة ما . وعلى ذلك ، فان أساسيات التكنولوجيا تنمو عندما يصبح الطفل قادرا على معالجة الادوات والعدد والسهام التي يستخدمها الكبار من حوله . وحيث يتطلب الامر ان يصبح المتعلم على قدر من التخصص المهنى ، فان واجب المدرسة فى هذه الحالة هو ان تزود الطفل بأكبر قدر من التعليم الاساسي لاتقان تخصصه . ومن الملاحظ انه كلما اصبح دور التعليم اكثر تخصصا ، واصبحت المواد الدراسية اكثر عمقا ، قل دور الآباء فى العملية التعليمية واصبح اكثر تحديدا . ومن هنا ، تصبح المدرسة هى المصدر الاساسي للثقافة بما لها من قدرة وامكانات على تحقيق اهداف المجتمع التربوية .

والخطر الاساسي فى هذه المرحلة يكمن فى احساس الطفل بعدم الكفاية والنقص . وقد يرجع ذلك الى فشل الطفل فى تنمية الشعور بالمبادأة في المرحلة السابقة ، أو ان وضعه بين أقرانه الذين يشاركونه العمل أو الدراسة يشعره بالعجز فى التوحد معهم ، أو ان مكان التعليم والعمل لا يوفر له من الخبرات والمثيرات ما يتحدى قدراته الكامنة . ومن هنا يصبح النجاح في المدرسة أحد عوامل الصحة النفسية للطفل ، وكما يقولون النجاح يولد النجاح . ومن شأن ذلك ان يجعل النمو النفسي للطفل سويا وطبيعيا الى حد بعيد . والمدرس الناجح هو الذى يعرف كيف يساعد التلميذ على أن يشق طريقه فى المدرسة ، ويعينه على التغلب على مشكلاته المدرسية وعلى العوائق التي تعترض سبيله . انه يعرف جيدا كيف يجعل الطفل يتناول اللعب والعمل . انه يعرف كيف يقدم الجهود الخاصة وكيف يشجع الاطفال على بذل المزيد من الجهد ، وكيف يعالج هؤلاء الذين لا ينظرون باهتمام الى المدرسة ويعتبرونها سجنا . ولكن من واجب الآباء ايضا أن يجعلوا أبناءهم يحبون مدرسيهم

ويحسون بالثقة فيهم ، لأن الطفل محتاج الىالتوحد مع مدرسه مثلماهو محتاج الى التوحد مع أبيه .

٥ ـ **الاحساس بالهوية مقابل اضطرابالدور** وباقامة صلات مبدئية حسنة مع عالم المهارات والادوات ، ومع الدخول في مرحلةالمراهقة ، تنتهي فترة الطفولة الحقة ، وتبدأ مرحلة الشباب . وتعود المشكلات مرة اخرىالى الظهور بسبب التغيرات الجسمية والفسيولوجية السريعة ، والتي تعادل فىسرعتها سرعة النمو في مراحل الطفولة المبكرة ، وكذلك بسبب الاضافات الجديدة للنموالجنسي . ويصبح الشاب النامى الذى يواجه بمثل هذه التغيرات اكثر انشغالا بمظهره امامالآخرين ، اكثر مما هو عليه فى الحقيقة .

والمشكلة الرئيسية فى هذه المرحلةبالنسبة للمراهق هي مشكلة تكوين الاحساس بالهوية ، اى معرفة من هو ، وما دوره فى هذاالمجتمع ، وهل هو طفل ـ على نحو ما كان ينظر اليه من قبل ـ أم راشد ـ على نحو ماهو صائر اليه الآن ، وهل لديه القدرة التى تجعل منه انسانا له كيانه وقيمته فى هذاالمجتمع . ومثل هذه المشكلاتتحتل مكاناهاما من تفكير المراهق واهتماماته ، كما يصبح اكثر انشغالا واهتمامابالتوفيق بين ما تعلمه من مهارات وادوار فى مراحل نموه السابقة ، وبين ما هو مقبولاجتماعيا الآن . وهو فى بحثه عن احساس جديد بالهوية والاستمرار ، عليه ان يخوضالكثير من المعارك التي سبق ان خاضها من قبل .

ويرى اريكسون ان التكامل الذى يحدثالآن في صورة هوية الذات ، اكبر من مجموع توحدات الطفولة . انه نتيجة الخبرة الناميةلقدرة الانا على احداث تكاملبين كل التوحدات السابقة وتقلبات الليبيدو والقدرات المنبثقةعن المواهب ، والفرص التي تقدمها له الادوار الاجتماعية . فكل هذه المتغيراتهي التي تعملعلى احداث التكامل الجديد فى صورة هوية الذات لدى المراهق .

ويتمثل خطر هذه المرحلة النمائية فياضطراب الدور role confusion وارتباكه . ولتوضيح معنى هذا المفهوم اشار اريكسونالى عبارة وردت فى رواية آرثر ميللرDeath of a Salesman على لسان احد المراهقين فيسياق حديثه مع امه « انى لا استطيع ان امسك بشيء يا أمى ، انى لا استطيع اناستحوذ على اى نوع من انواع الحياة » . فاذا التغيرات الجسمية السريعة التى تحدثللمراهق سواء من حيث الشكل أو الحجم ، وازاء نضجه الجنسي ، ونظرة المجتمع اليه ،والتغيرات المختلفة التي تطرا على ادواره الاجتماعية ، لا يملك المراهقالا الاحساس بهذاالاضطراب فى الهوية .

وسواء سيطر المراهق على اضطرابالهوية ، او اصبح نتيجة لذلك جانحا او عصابيا او ذهانيا ، فان هذا يتوقف علىخبرات الماضي وعلى الشكوك القوية السابقة التي مرت به . فان تم تشخيص هذه الاحداثوعلاجها بشكل سليم ، فسوف يحدث تكامل جديد لدى الفرد ، ويرى طريقه في الحياة .وفى بعض حالات المراهقة ، يكون عدم القدرة

على الاستمرار او الاستقرار فى عمل ما أو فى وظيفة واحدة احد الاسباب التي تؤدى الى اضطراب الهوية عند المراهق .

ويجد المراهقون راحة نفسية فى التواجدمعا ، فهم يميلون الى تكوين الشلل . ومن اجل الابقاء على وحدة الجماعة او الشلة ، يتوحد المراهق ، ولو وقتيا والى الحد الذى يصل فيه أحيانا الى الفقد الظاهر لهويته ، مع ابطال الشلة . وهذه هى بداية « الوقوع فى الحب » والذى ليس اساسا أو كلية ، حبا جنسيا . فحب المراهقة هو الى حد بعيد محاولة للوصول الى التعريف بهوية الفرد عن طريق اسقاط صورة الذات المختلطة على الغير ورؤيتها هكذا معكوسة وواضحة بالتدريج . ولعل هذا هو السبب فى أن معظم حب صغار الشباب هو حب كلام وحديث .

وصغار الشباب يتعصبون أحيانا بشكل ملحوظ لبني جنسهم ويسلكون بقسوة وعدم تسامح تجاه من يختلف عنهم فى اللون أو الاساس الثقافي او حتى فى بعض المظاهر البسيطة كالزى والشارات وغيرها من الامور التي ينظر اليها مؤقتا بأنها علامات تشير الى من ينتمى الى جماعته ومن هو خارج عنها . ومن المهم أن نعرف ان مثل هذا التصلب وعدم القدرة على التسامح يمكن ان يكون اسلوبا دفاعيا ضد الاحساس باضطراب الهوية وتشوشها . فهم يساعدون بعضهم البعض بقوة وحرارة عند الوقوع فى مشكلات مع السلطة ويختبرون بصورة حمقاء أحيانا قدرة بعضهم البعض ، ومدى انتمائهم الى هذه الجماعات من أجل ضمان الولاء لها . واستعداد الشباب للقيام بمثل هذه الاختبارات القاسية وتحملها أحيانا ، يفسر لنا مدى مالبعض المذاهب السياسية الدكتاتورية او بعض الجماعات المتطرفة من اغراء على عقول امثال هؤلاء الشبان . ففى مثل هذه الاحوال يفقد الفرد هويته نتيجة التشوش والاضطراب فى التفكير ، حيث لا يفكر الا بعقلية الجماعة التي تدفعه الى تحقيق اهدافها . وامثال هؤلاء الشباب يتعرضون للانفصال والانعزال عن حياة غالبية المجتمع الذى يعيشون فيه ، كما يفقدون الثقة بانفسهم وبقدرتهم على توجيه دفة حياتهم بسلام .

ومع أن « الاحساس بالهوية صعب التحقق ، الا انه يحفظ الفرد ويقيه من فوضى الدوافع البيولوجية ، ويمكنه من المحافظة على المبادىء والقوانين ، والوقوف امام ضمير مستبد قاس شكاك . اما فقدان الهوية أو فقدان الشعور بأن هناك قدرا من « التماثل » والاستمرار ، فانه يعرض الفرد لصراعاته الطفلية ، ويؤدى الى اضطرابات انفعالية » .

٦ ـ الاحساس بالود والتآلف مقابل العزلة والقوة المكتسبة في أية مرحلة يمكن اختبارها بقدرة الفرد على تجاوزها بطريقة تسمح له بالحصول على فرص اكبر فى المرحلة التالية ، لم تكن متاحة له في المرحلة السابقة . فالراشد ـ الذى يخرج من البحث عن الهوية ـ يكون مشوقا ومرحبا أن يدمج هويته بهوية الآخرين . فهو على استعداد للاحساس بالود والتالف مع أشخاص من نفس الجنس او من الجنس الآخر أو مع نفسه . فتكون لديه القدرة على أن يسلم نفسه للانتماءات والمشاركات المحسوسة مع الغير ، وان ينمى

لديه القوة الاخلاقية التى تمكنه من ان يفي بتعهداته حتى لو اقتضى الامر القيام بتضحيات ووعود هامة .

وفى مقابل الالفة والود نجد الابتعاد ، اعنى الاستعداد للعزلة ، واذا لزم الأمر ، هدم القوى والاشخاص الذين يبدو فى وجودهم خطر يهدد الذات وتعدد على العلاقات الوثيقة التى تربط الفرد بالآخرين .

واذا تحرينا الدقة ، فان هذه المرحلة هي مرحلة النمو الكامل للتناسلية الحقيقية True Genitality . ذلك ان غالبية حياة الجنس السابقة كانت من نوع البحث عن الهوية او خاضعة للشهوات القضيبية أو الفرجية التي تجعل حياة الجنس نوعا من الصراع التناسلي. اما التناسلية الحقيقية ، فهي من الناحية الأخرى حالة دائمة من السعادة الجنسية المتبادلة . لقد سئل فرويد مرة عما يظن أن الشخص السوى قادر أكثر على فعله . فأجاب « أن يحب وان يعمل » to love and to work . وهذه العبارة البسيطة تدعو الى التأمل العميق ، لانه عندما قال فرويد « أن يحب » كان يعني الحب التناسلي . وعندما قال « يحب ويعمل » فانه كان يعنى العمل المنتج عامة ، والذى لا يشغل الفرد الى الحد الذى يفقد الفرد او ينسى حقه أو قدرته على أن يصبح كائنا محبا ومتناسلا .

واذا كان التحليل النفسي قد قطع شوطا بعيدا فى التوكيد على التناسلية كعلاج عام للمجتمع ، وقدم بذلك بضاعة جديدة لكثير ممن يرغبون تفسير تعاليمه على هذا النمو ، الا انه لم يوضح دائما ــ فى نظر اريكسون ــ كل الاهداف التي يجب ان تتضمنها التناسلية بالفعل . فمن اجل ان يصبح لهذه التناسلية قيمة اجتماعية مستديمة ، **فان الصورة المثلى للتناسلية يجب ان تتضمن : ١ ــ تبادلية الشبق الجنسي ٢ ــ ومع شريك يحبه ٣ ــ ومن الجنس الآخر ٤ ــ وان يكون مستعدا ومرحبا ان يشاركه الثقة المتبادلة ٥ ــ وان يكون مستعدا ومرحبا ان ينظم معه دورات (أ) العمل (ب) والانجاب (ج) والترويح ٦ ــ وبذلك يضمن للنتاج او الصغار جميع مراحل النمو السوى .**

وخطر هذه المرحلة هو العزلة ، اعنى تجنب العلاقات التى تسلم الى الود والمحبة والتآلف ، وقد يؤدى هذا الاضطراب وهذه العزلة الى حدوث مشكلات خطيرة فى الشخصية .

(٧) الانتاجية مقابل الجمود . لقد كان التركيز فيما سبق منصبا على الطفولة والمراهقة . ولكن مع التقدم فى السن والوصول الى الرشد واكتمال النضج يبدأ الاحساس الابوى . والاحساس الابوى يتضمن النمو التطورى الذى جعل الانسان هو الكائن الحى المعلم والمتعلم على حد سواء . واصرارنا المستمر على تصوير الاطفال والنظر اليهم باعتبارهم معتمدين ومتكلين دائما على الكبار ، يجعلنا ننسى أيضا اعتماد الجيل الاكبر والمتقدم فى السن على الجيل الاصغر منه . أن الشخص الناضج يحتاج دائما الى الشعور بأن هناك من يحتاج اليه ، والنضج يحتاج الى توجيه مثلما يحتاج الى تشجيع ممن يقدم اليه ونرعاه .

والابوة ، اســاسا ، هى الاهتمام بتربيةالجيل الجديد الناتج وتوجيهه ، وان كان هناك آباء ـ اما بسبب ســوء الخط أو عوامل نفسيةخاصة ، لا يقومون بهذا العمل نحو اولادهم . وقد يتسع مفهوم الابوة أيضا فيشمل مترادفاتأكثر الفة كالانتاج والخلق .

أما الاخفاق فى انماء هذا المكون من مكوناتالشخصية السوية ، فكثيرا ما يؤدى الى نوع من الانغماس في الذات والاحساس العام بالجمودوالفقر الشخصى . فيبدأ الفرد غالبا في امتاع ذاته واشباع رغباتها كما لو كان هو الشــخصالوحيد أو الطفل الوحيد ، ويتساهل مع نفسه وينتظر من الآخرين التساهل معه ، أى يسلكبطريقة طفلية غير ناضجة » .

وثمة حقيقة هامة تتلخص فى أن مجــردالطفل أو حتى الرغبة في انجابه ، لا ترتفع الى ضرورة الاحساس بالابوة . فبعض صغار الآباءيعانون فيما يبدو من تأخر فى القدرة على تنمية الرعاية الحقة لابنائهم ، ويمكن أن ترجع اسبابهذا الاخفــاق الى الانطباعات غير الســارة في الطفولة المبكرة وفى التوحدات الخاطئة معالآباء،وفى الحب الزائد عن الحد للذات ، وفى الافتقار الى الثقة فى الاطفــال أو الرغبــة فى الشــعوربالاســتقلال وعدم الارتباط بالغير ، والاحساس بالعزلة . وقد يحدث هذا عند بعض الاشخاصنقصا فى الاحساس بتكامل الانا .

(٨) تكامل الانا مقابل اليأس : Ego Integrity vs Despair وتظهر ثمار المراحل السبع السابقة فى هذا الشخص الذى نما على العنايةبالاشياء والاشخاص ، وعلى ملاءمة نفسه مع النجاح والفشل فى هذا العالم ، والذى اوجدالآخرين وولد الاشــياء والافكار . ولم يجــد اريكســون مصطلحا افضل من مصطلح «تكاملالانا » لوصف هذا الشخص . وهذا المصطلح يشير الى أن الفرد قد أصبح قادرا على توكيدنمو الانا في نزعتها نحو النظام والمعنى ، ونحــو التكامل الانفعالى المخلص لحملة صور الماضى ،والاســتعداد لتحمل الزعامة والقيادة فيالحاضر والى تقبل دورة حياة الفرد ، وتقبل ما يتصلبها من اشخاص باعتبارهم ذوى أهمية ومغزى فى هذه المرحلة منتاريخهماداموا قد ادوارسالتهمفي هذا السبيل .

كما يعنى « تكامل الانا » ايضا حبا جديداومختلفا للابوين، حبا خاليا من الرغبة فى ان يكونوا غير ما هم عليه ، أو ان يتخلصوا منعيوبهموان يتقبل حقيقة أن حياة المرء هى مسئوليته وحده . كما يعنى أيضا احساسا بزمالة الرجالوالنساء الذين ساهموا في خلق انظمة واشــياء واقوال تكشف عن كرامة الانسانية . وعلى الرغممن معرفته بنســبية جميع الاساليب المختلفة للحياة والتى أعطت معنى للكفاح الانسانى ، فانالشخص الذىلديه تكاملالانا يكون على استعداد للدفاع عن كرامة اسلوبه فى الحياة « أمام كلما يتعــرض له من تهــديدات مــادية كانت او اقتصادية . فهو يدرك أن حياة الفرد وكرامتهتتوقف على تمسكه بأسلوبه الذى يقوم عليــه شعوره بالتوحد .

والادلة الاكلينيكية والانثروبولوجية توحيان نقص أو فقدان هذا النمو لتكامل الانا يتضح فى ناحيتى الاشمئزاز واليأس . فالقدر أوالمصيرلا يتقبله الفرد كاطار للحياة ، كما انه يخــاف الموت . وهو يعبر عن اليأس فى صورة الشعوربأن الزمن قصير ، وانه أقصر من ان يســمح

للفرد ان يبدأ حياة اخرى من جديد ، أو أن يحاول تجربة طرق اخرى بديلة للتكامل . ومثل هـذا اليأس غالبا ما يختفي وراء مظاهر الاشمئزاز وبغض الجنس البشرى والاستياء المزرى المزمن لمؤسسات معينة وأشخاص معينين ، وهـذا الاشمئزاز وهـذا الاستياء انما يعنيان فقط احتقار الفرد لنفسه وازدرائه لها .

وهكذا يربط اريكسون بين مراحل النمو والتكيف ،ويربط بين اتجاهه التحليلي واتجاهات اخرى انثروبولوجية واجتماعية .

● ● ●

ثالثا ـ نظرية نمو الذات عند جوردون البورت

جوردون البورت من كبار المشتغلين بدراسة الشخصية ، وكتب فى هذا المجال العديد من الكتب . وقد نظر الى الشخصية من حيث هى أسلوب متميز من أساليب التكيف التى يقوم بها الفرد ، لا توجد عند الولادة ، وان كان من الممكن القول بان بذورها توضع مع الولادة ،ان أساليب التكيف المميزة المبكرة والتى على اساسها يمكن أن نفرق بين طفل وآخر تتضح فى شدة نشاطهم التلقائي وتكراره ، وفى تعبيراتهم الانفعالية والمزاجية ، وانه ليس من المحتمل قبل بداية الشهر الرابع أن يكون الطفل قد نضج نضجا كافيا وتعلم تكوين عادات متميزة للتكيف .

ومع بداية النصف الثانى من السنة الاولى تبدأ استجابات الطفل التوافقية المتميزة مع العالم المادى والاجتماعى تظهر بوضوح ، وان الصفات المتميزة التى يمكن ملاحظتها فى وقت مبكر من حياة الطفل تميل الى الاستمرار وبشكل ملحوظ يسمح للملاحظ أن يتنبأ بما ستكون عليه شخصية الفرد فى المستقبل . فالشخصية اذن نامية متطورة تخضع لمظاهر النمو النفسى السوى وغير السوى ،وفقا للمحددات المختلفة التى تؤثر فيها ، ووفقا للظروف التى يمر بها الفرد .

والذات هى لب الشخصية ، بل هى لب كيان الفرد ووجوده . وفكرة الذات تنمو وتتطور وتمر بمراحل متعددة في نموها وتطورها. واذا كنا عرضنا للنمو النفسى الجنسى عند فرويد ، والنمو النفسى الاجتماعى بصورته المتطورة عند اريكسون ، فجدير بنا أن نشير ايضا الى نظرية أخرى تتصل بصميم النمو النفسى للفرد ، وهى نمو ذاته ابتداء من الطفولة المبكرة حتى المراهقة ، وهذه النظرية هي نظرية البورت .

*** مراحل نمو الذات عند البورت :**

أ ـ الطفولة المبكرة : من المؤكد ان الطفل ليست لديه اية معرفة عن نفسه « كذاتة » وهذا ما تكشف عنه الملاحظات العديدة التى قام بها العديد من علماء نفس الطفل من أمثال جان بياجيه وغيره . فالطفل لا يمكنه ان يميز بين ذاته والعالم الخارجي . فهو ينظر الى جسمه كما لو

كان شيئا غريبا عنه ويلعب بأصابع قدميه كمالو كانت دميته ، اى انه ليست لديه اية معرفة عن وجود ذات جسمية أو ذات اجتماعية . فالحدود الفاصلة بين ما هو جزء منه ، وماليس جزءا منه لم تتضح بعد ، ويحسن أن نفرق بين الشعور ، والشعور بالذات ، فهما ليسا مترادفين لا عند الطفل ولا حتى عند الراشد . فالطفل على الرغم من انه يحس ويشعر بما يجرى حوله من حالات وتغيرات نفسية ، الا انه يفتقر فى هذه المرحلة الاولى من عمره الى الشعور بالذات . أما البالغ فلديه الناحيتان معا ، وان كانتا غير متماثلتين : فهو يشعر ، كما انه يشعر بذاته .

والطفل يكتسب الشعور بالذات بشكل تدريجى خلال السنوات الاولى من حياته . وهذه المرحلة الاولى من حياة الطفل والتى تشتمل على السنتين الاوليين يسميهما بياجية باسم « المرحلة الحسية الحركية » وفيهما يستقبل الطفل انطباعات من العالم الخارجى ، ويستجيب لهذه الانطباعات دون أن تكون هناك ذات وسيطة بين هذه الانطباعات وهذه الاستجابات . فهو يحس ويشعر ويستجيب للضغوط الواقعة على سطح الجلد ، ويستجيب للاصوات الهادئة الناعمة الصادرة عن الام ، وردود الافعال الحسية الحركية هذه تدخل فى كل غير « متشكل » أو كل « غير متمايز » من الذات والعالم الخارجى على حد تعبير بياجية .

ومع استمرار النمو يبدأ الطفل يكتشف جسمه . ففى حوالى الشهر الخامس أو السادس يمسك بأصابع اليدين والقدمين ويمسك بالاشياء الصغيرة المحيطة به . ولكن الاشياء والاصابع التى تقبض عليها هى شيء واحد بالنسبة اليه ، شيء واحد لم يتمايز بعد الى مكوناته . وهو عندما يحملق في قدميه ، يحاول أن يمسك بها وان يضع اصبع قدمه فى فمه ، وهو ان أصاب قدمه فهو يتألم دون أن تكون لديه اية فكرة عن انه هو سبب ألمه . وقد تستثيره رؤية صورته في المرآة وهو فى شهره الثامن تقريبا ويحملق فيها ويحاول اللعب معها دون ان يدرك أن هذه الصورة التى يراها هى صورته هو . والجدير بالذكر ان الطفل فى العادة يميز صورة والديه فى المرآة ، قبل أن يستطيع ان يميز صورته هو بوقت طويل .

ثم هو حين يبدأ يتنقل فى ارجاء البيت بالزحف من مكان لآخر ، قد يصطدم بأشياء كثيرة تسبب له الما فيبدأ يدرك بالتدريج أن هناك اشياء خارجية جامدة ، وان الاصطدام بها يسبب له الما . اى يبدأ يدرك أن هناك اشياء خارجية عنه . وهو يصل الى فكرة الشيء الخارجى الذى « ليس هو » قبل أن يتمكن من أن يدرك أن له ذاتا متميزة عن هذا العالم الخارجى بوقت طويل . وكما يدرك وجود الاشياء الخارجية قبل ادراكه لذاته ، فكذلك يدرك وجود الآخرين قبل ادراكه لذاته . فهو يتعرف على الوجوه المألوفة فى البيت من الابوين والاخوة ، كما يتعرف على الغرباء عن البيت . وهذا التعرف على « الغير » يسبق أيضا التعرف على الذات.

ويذهب البورت الى أن **أول مظهر** لفكرة الذات فى هذه المرحلة الاولى هو « **الاحساس بأن له جسما** » ، وان هذا الجسم ، جسمه هو . فالطفل يستقبل سيلا من الاحساسات العضوية الداخلية ، كما انه يتأثر أيضا بالكثير من المثيرات العديدة الموجودة فى العالم الخارجي .

وبالطبع لا يكون لهذه الاحســـاسات الجسمية أى أثر فى تكوين الذات مالم تكن متكررة . ومعرفة هذا التكرار للاستجابات البسـيطة المتلاحقـة يتطلب نضجا مناسـبا في اللحاء بشكل يسـمح بالاحتفاظ بآثار الخبرات السابقة . وكما ينمو الاحساس بالذات الجسمية من الاحســاسات العضوية المتكررة التى تترك آثارها في نفس الطفل فانه ينمو أيضا من الاحبـاطات المتكـررة التى تصدر عن العالم الخارجي . فالاحساس بالذات الجسمية هو فى نظر البورت وثيقة وجودنا ، بمعنى أن احساساتنا وحركاتنا تمدنا بمعرفة ثابتة عن وجودنا .

ولكن رغم ما للذات الجسمية من أهميـة ، الا انها ليست كل شيء في تكوين فكرة الذات عند الطفل فى هذه المرحـلة الاولى من الحياة ، فهناك افكار اخرى لها اهميتها .

هناك ثانيا : هوية الذات واستمرارها : فانت هو نفس الانسان الذى كنت عليه وانت فى سن الثالثة او الرابعة من عمرك ، رغم أن كل شيء يتصل بك ، حتى خلايا جسمك والبيئـة المحيطة بك قد مرت بها تغيرات عديدة جدا . ثم ان كل فرد منا يتعرف على ذاته . فأنا أتذكر بعض الافكار والاحداث التى مرت بذهنى بالامس ، وفي الغد سـوف أتذكر بعض ما مر بى من افكار واحداث فى يومى وامسي . وانا على ثقة أيضا من أن هذه الافكار والاحداث تتصل بشـخص واحد هو أنا . ففكرة هوية الذات تعتبر بالغـة الاهمية طالمـا ان التغير هو مع ذلك القاعـدة الاساسية للنمو . فرغم ما يطرأ على أفعـالنا وافكارنا من تغير ، الا أن الذات تبقى هي هي مسـتمرة ومتصلة .

وتلعب اللغة دورا هاما فى هذا الصـدد . فعندما يبدأ الطفل التحدث والتعبير عن رغباته يستخدم من الالفـاظ ما يشـير الى حاجـاته ورغباته ، وانه ، يعنى « هو » ، يريد أن يأكل أو أن يشرب او أن يحصل على لعبة ما : فلفظ « انا » أو ما يشير اليه يعتبر عاملا واضحـا فى علاقته بالعالم الخارجى . ثم أن اسم الطفـل الذى يتردد على سمعه فى اليوم الواحد مرات عديدة ، قد يسـاعده أيضا على ان يدرك ذاته كشيء متميز ومستقل . وهذا الاسم يكتسب معنى ودلالة بالنسبة للطفل فى عامه الثانى . ومع الاسم تأتى المعرفة بالوضع المسـتقل ، وان له وجودا مسـتقلا عن وجود الآخرين يتمثل فى هذه الذات الجسمية التى بدأ يحس بوجودها . والى جانب الاسم هناك أشياء اخرى يمكن ان تعد بمثابة نقط ارتكاز هامة للتعرف على الذات كالملابس والاشياء الخاصة . فبعض الاطفال فى سن الثانية أو الثالثة ، قد يكشفون عن احساس بالهوية حين ينظرون الى بعض ممتلكاتهم الخاصة كالحذاء الجديد او شريط الراس او الفسـتان الذى ترتديه .

والى جانب الذات الجسمية وهوية الذات واستمرارها ، هناك ناحية ثالثة تلعب دورا هاما في هذه المرحلة من تكوين فكرة الذات هى **رغبة الطفل في اثبات وجوده أو تقديره لذاته .** ففى سن الثانية او الثالثة يحاول الطفل القيام ببعض الاشياء بنفسـه ، كدفع المشاية بنفسه أو تناول بعض الاشـياء واللعب بها بنفسه ، وينتقـل فى ارجاء البيت يستكشف ما فيه . ويجد لذة كبيرة في القيام بمثل هذه الالوان من السـلوك والتى — أن أعيقت من جانب الكبار — يشعر الطفل كأنها ضربة موجهة لتقديره لذاته . بمعنى ان الذات قد احبطت او اعيقت ، ونتج عن ذلك

شعور بالضعف أو احساس بالغضب . ويحس الطفل بذاته ويكون واعيا بها لدرجة كبيرة . ويكون هذا السلوك واضحا لدى طفل هذه المرحلة حتى أن البعض يسميه الحاجة الى « الاستقلال الذاتي » . وهي سمة ملحوظة وبارزة في فكرة الذاتية عند طفل الثانية أو الثالثة . وهذا ما يتجلى في ثورة المعارضة التي يتميز بها طفل هذه الفترة بالنسبة للطعام والملبس واطاعة الاوامر وكل ما يريده الآباء عادة . فهو ينظر الى أوامر الكبار كما لو كانت تهديدا يهدد تكامله . ولذلك تتضح عنده ظاهرة الرفض ، كما لو كان الرفض بقوله «لا» وسيلة لحماية الذات من كل ما يؤدي الى تحقيرها . ولمثل هذه الفكرة ذهب اريكسون في دراسته للنمو النفسي عند الطفل في حديثه عن المرحلة الثانية من مراحل النمو النفسي للطفل والتى سماها باسم الاستقلال الذاتي ، كماسمى الخطر الذى تتعرض له هذه المرحلة باسم الخجل والشك . والفكرتان ـ تلكما اللتان أوردهما البورت واريكسون ـ قريبتان الى حد بعيد .

وعلى ذلك ، فالمظاهر المميزة لنمو فكرة الذات في السنوات الاولى من حياة الطفل عند البورت هي :

١ ـ المظهر الاول : الاحساس بالذات الجسمية .

٢ ـ المظهر الثانى : هوية الذات واستمرارها .

٣ ـ المظهر الثالث : تقدير الذات .

ب ـ مرحلة ما قبل المدرسة :

لكن مرحلة ما قبل المدرسة ـ وهي الفترة ما بين الرابعة والسادسة ـ سرعان ما يفقد الطفل فيها هويته ويختلط عنده الوهم بالحقيقة ، ويسيطر على العابه النوع المعروف باسم «اللعب الايهامى » الذى يتوهم الطفل نفسه فيه فارسا أو شرطيا مثلا ، ويخلق له من الوهم والخيال أصدقاء : اطفالا كانوا أم حيوانات . وفكرة الذات الجسمية تكون عنده اكثر وضوحا ، فجميع أعضاء جسمه هي ملك خاص به وحده .

كما أن طفل هذه المرحلة يكون « ذاتي المركز » الى حد بعيد . فالاطار الرجعي لتفكيره هو ذاته . فالقمر يتبعه في كل مكان وحيثما سار ، والله موجود ليحفظه ويحميه ، كما أن وجهة نظره تعتبر مطلقة . فالآخرون يفكرون على نحو ما يفكر هو ، ولذا فهو ليس في حاجة لان يعبر عن وجهة نظره أو يفسر أقواله وعباراته للآخرين . ولكن مركزية الذات هنا ليست قائمة على معرفة بالذات أو انها تدور حول الذات ، وانما هى تصدر عن الطبيعة الشخصية لتفكير الطفل في هذه المرحلة فحسب .

ومن ثم فان هذه المرحلة تتميز في نظر البورت بمظهرين جديدين ، بالاضافة الى المظاهر الثلاثة السابقة التى تتميز بها السنوات الثلاث الاولى . وهذان المظهران هما :

٤ ـ المظهر الرابع : امتداد الذات واتساعها .

٥ ـ المظهر الخامس : صورة الذات .

فالذات تتسع لتشمل أشـياء كثيرة ، كمايلعب الاحساس بالملكيـة في نفس الوقت دورا هاما . فهذه الكرة كرتى ، وهذه الدراجةدراجتىوهذه امى وهذا اخى وهذا بيتى .. الخ . وكلها تصبح امتدادا للذات وتشير ايضا الى اتساعهالتشمل العديد من الاشياء . وبطبيعة الحـال لا تتسع ذات الصغير في هذه المرحلة لتشـملكل ما يحيط به فى دائرة عالمه الكبير على نحو ما نجد مثلا بالنسبة للكبار ، وانما أساس هذاالاتساع الكبير الذى سـوف يحدث فيما بعد يتم وضع بذوره في هذه المرحلة حينمـا يحسالطفل بتملك أشياء كثيرة .

وبالاضافة الى امتداد الذات واتساعها ،تأخذ صورة الذات فى الاتضاح اكثر واكثر . فمن طريق التفاعل المتبادل مع الكبار والوالدينيمكنهأن يقارن بين سلوكه الواقعى وما هو متوقع منه . فهو ولد مشاغب ، ووالداه يريدانه ولداهادئا مطيعا لطيفا . ولكن صورة الذات هنـا ليست نامية على نحو ما هى فى المراهقة . وعلىالعموم فبذور فكرة الذات كما هى وكما يريد أن تكون عليه ، تكون موجودة فى هذه المرحلة .

جـ ـ مرحلة الطفولة المتاخرة : ومعدخولالطفل المدرسـة الابتدائية اى فى الفترة ما بين سن السادسـة والثانيـة عشرة ، يزداد احساسالطفل بهويته وبصورة ذاته وبقدرته على امتداد الذات . وسرعان ما يتعلم الطفل أن ماهو متوقعمنه خارج المنزل يختلف الى حدكبير عما هومتوقع منه داخل المنزل . فمستويات الرفاق فى اللعبوالمشى والكلام والملبس شيء جديد عليه . ثم هو يحاول أن يدمج نفسه مع جماعات الرفاقوأن يندمج مع الشلة وفى عالم الواقع ، كما يقل لعبه الايهامى ، ويزداد احساسه بذاته الواقعية. ولذلك نجده يرتبط بالمعايير الخلقيـة واحكام اللعب وقواعـدها ويتبعها بكل دقة . ويكونراضيا عن نفسهاذا هو تكيف مع الواقع الخارجى والاحكام الخارجية وامتزج مع الشـلة ونمتصورة ذاته .

وهذه الفترة هى ايضا فترة نمو عقلى . وهى فترة تتميز بالمزيد من الرغبة فى المعـرفة وحب الاستطلاع وكثرة الاسئلة والاستفسارات . وهذه هى بداية الاحساس بمظهر جديد من مظاهر نمو الذات . وهو المظهر السادس عنـدالبورت .

٦ ـــ المظهر السـادس : الذات منطقيـةعاقلة ووظيفة الذات هنا كوظيفة « الانا » عنـد فرويد التى تحاول أن تجد حـلا ومخـرجاللمشـكلات التى تخلقها النـزاعات الفريزية والنزعات المكبوتة « الهو » ثم الواقع أو البيئةالخارجية ، ثم الاوامر والنواهى التى تصدر عن الوالدين والمجتمع (الانا الاعلى) . فوظيفة الذاتالعاقلة هى محاولة تجنب المشكلات والصعوبات التى تثيرها هذه النواحى الثلاث ، ولكنها بالطبعليست دائما عاقلة تماما ، بل تكون أحيانا مجرد ذات دفاعية تحاول خلق المعاذير والتبريرات كىلا تجرح الذات . فهى تنكر العوائق الموجـودة القائمـة وتتلمس وسـائل الهـروب ووضـعالخطط التى هى مجرد حلول مزيفة لمشـكلات الحياة .

د ــ مرحلة المراهقة :

واخيرا تأتى مرحلة المراهقة وفيها يبحث المراهق من جديد عن ذاته . فهو فى طفولته المبكرة قد احس بهويته ولكنه فقدها ان شئنا القول فى الاسرة وفى الشلة وفى الولاء لهما . والآن تصبح مشكلة المراهق هى البحث من جديد عن هويته .

وكثيرا ما تواجه المراهق في هذه الناحية صعوبات جمة تزيد من مشكلاته في هذه المرحلة . فأسلوب معاملة الوالدين له مرة كطفل ، ومرة كرجل ، من أسباب مشكلاته وعدم استقراره . فسلوكه وتصرفاته تكون احيانا كسلوك الاطفال وتصرفاتهم ، ولكنه مع ذلك قد بلغ من الناحية الجسمية والجنسية مبلغ النضج الذى يكفى للنظر اليه كرجل .

وصورة المراهق عن ذاته تتوقف على الآخرين وتقبلهم أو نبذهم له . وثورة المراهق وتمرده على السلطة لهما علاقة هامة ببحثه عن هويته وذاته . أنها محاولته الاخيرة للاستقلال الذاتى . وقد يلجأ المراهق الى أساليب تكشف عن قلقه وعن بحثه عن شىء لم يصل اليه بعد . فألوان الزى التى يرتديها . وتصفيف شعره بالصورة التى يقوم بها ، وتقليده للابطال المختلفين ، كل ذلك تعبير عن القلق وعدم الاستقرار . وعادة ماينظر الآباء الى مثل هذا السلوك وهذه الخبرات نظرة بعيدة عن الاحترام والتقدير للمراهق . ولذلك فهو يقوم به فى الاغلب خارج البيت وفي صحبة الزملاء .

ويكون الصراع حول الحاجات الجنسية واضحا ، وتتناقض وجداناته وعواطفه ويتذبذب احيانا بين الايمان والالحاد . وقد يجد كثير من المراهقين فى الدين حلا لمشكلاتهم ، كما تظهر أهداف المستقبل واضحة جلية ، ويحتل التفكير فى المهنة التى يعد نفسه لها فى المستقبل جزءا كبيرا من تفكيره . كما أنه يرسم للمستقبل خطة موضوعة . وهو بهذا يدخل بعدا جديدا على ذاته لم يكن موجودا من قبل في الطفولة . وغالبا ما تكون آمال الشاب بعيدة ومستويات طموحه عالية جدا . ولكن مع تقدم السن سرعان ما يتكشف البعض أن ما لديهم من قدرات واستعدادات أقل مما لديهم من آمال وأحلام ، فيعدل من صورة ذاته ومن مستويات طموحه بما يتفق وقدراته واستعداداته . وهذا دليل على مستوى عال من النضج ، وعلى هذا النمو يضيف البورث البعد السابع فى تكوين الذات ونموها وهو :

٧ ــ المظهر السابع : الجوهر المميز .

وهذا المظهر الاخير يتميز بالاتجاه والقصد المعرفى مما يساعد على تحديد أهداف الفرد . وليس من الضرورى أن تكون الاهداف جامدة وثابتة ، ولكن يوجد هدف رئيسى يهدف الفرد الى تحقيقه فقط . وهذا المظهر الهام فى نمو الذات لم يكن موجودا من قبل . فالطفل الصغير الذى يريد أن يكون طيارا او طبيبا ليس لديه الاتجاه المتصل والجهد المتكامل لبلوغ ذلك وتحقيقه . اما الشاب فهو يرسم ويخطط ويحس بالهدف وينشط الى تحقيقه . وبالطبع يحتاج هذا كله الى قدر من النضج فى الشخصية قد لا تجده عند جميع المراهقين . فالبعض قد

يصل الى مرحلة المراهقة دون أن يكون لديه احساس واضح بالهدف . وهؤلاء فى الاغلب لا تكون شخصياتهم ناضجة ، ولذا ، فاحساسهم بالذات لا يزال فجا أوليا .

ولكن هذه المظاهر المختلفة للذات ليست متباعدة . فهى جميعا حالات تكشف عن الذات على نحو ما نحسها ونشعر بها . وكل واحدة منها مرحلة من مراحل نمو الذات ويمكن أن نربطها بعضها ببعض تحت اسم واحد . وقد اختار البورت لها اسم الذات المتدة المميزة Proprium . وقد أشار البورت الى أنه لم يسمها الذات وكفى ، لان معظم الكتاب يطلقون اسم الذات أو الانا على مظهر واحد أو مظهرين من المظاهر السابقة . ولهذا فهو يفضل أن يضع لها تسمية جديدة تضم هذه المظاهر المتعددة للذات .

٨ ـ المظهر الثامن : الذات العارفة

وبعد أن حدد البورت الوظائف الموحدة المميزة المتنوعة ، والتى تعتبر موجودة لدينا كلها يتساءل عما اذا كانت لدينا ، بالاضافة الى ما سبق ، ذات عارفة يمكن أن تضاف وظيفتها الى كل الوظائف الاخرى للذات الممتدة المميزة وتتعداها وتدركها ؟ لقد ذهب وليم جيمس الى انه لا توجد لدينا مثل هذه الذات العارفة . فهى لا توجد كشىء له كيان يمكن تمييزه عن المجموع الكلى للخبرات ، أو يمكن انتزاعه من مجرى هذه الخبرات . فكل لحظة شعورية ترتبط باللحظة السابقة ، وعلى هذا فالذات العارفة توجد مضمحلة على نحو ما ، فى قوله « الافكار نفسها هى الذات المفكرة » .

أما معارضو جيمس فيقولون أن مجرد سلسلة من الخبرات لا يمكن أن تتحول هى ذاتها الى شعور أو وعى بهذه السلسلة كوحدة ، كما أن الافكار الماضية لا يمكن أن تؤخذ بذاتها على أنها هامة أو مثيرة للاهتمام ، مالم تكن هناك ذات تثير اهتمامها أو تكون هامة بالنسبة اليها . فالذات العارفة هى المحك النهائى ، وهى التى تنبثق كمُسَلَّمٍ نهائي لا مفر منه .

وسواء اخذنا برأى جيمس أو برأى معارضيه ، فمن الملاحظ أن هناك اتفاقا بينهم في ناحية أن الوظيفة المعرفية ضرورية وحيوية بالنسبة لنمو الذات . فنحن لا نعرف أشياء فحسب ، بل اننا نعرف ونتعرف على الملامح التجريبية لذاتنا الموحدة المميزة ، اننى أنا الذى لدى احساسات جسمية ، وانا الذى الاحظ هويتى من يوم الى آخر ، وانا الذى الاحظ وأفكر فى توكيد ذاتى وامتدادها ، وفيما أبدية من تبريرات ، كما أراقب اهتماماتى وكفاحى وهكذا . أفكر فى وظائفى الخاصة الموحدة المميزة ، واكاد ادرك وحدتها الاساسية ، واشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها » .

ومع ذلك يتدارك البورت الامر ويرى خطورة هذا القول اذا التزمنا بوجهة النظر العلمية ، فاذا صرحنا بأن الذات «عامل مستقل» داخل الشخصية هى التى تعرف وتريد وتهدف الخ ، السنا في خطر اذن من خلق شخصية داخل الشخصية ؟ فاذا تساءلنا مثلا لماذا يعمل هذا الشخص بجد ، فاننا لا نفسر شيئا اذا قلنا لأن ذاته تريد بذلك . فقولنا أن الذات

تفعل هذا أو اذك ، وتريد هذا أو ذاك ، وترغب في هذا أو ذاك ، انما يثير مجموعة من المشكلات الصعبة التى هى اقرب الى الفلسفة منها الى العلم . ولذا يذهب البورت الى أنه فى بناء الشخصية ـ اذا فهم فهما صحيحا بما فى ذلك البناء الموحد المميز ـ سوف نجد التفسيرات التى نبحث عنها . فليس من الحكمة أن يتخلى عالم النفس عن مسئولياته فى تفسير مظاهر السلوك المختلفة ويعزو مشكلاتنا الى وسائط داخلية أو الى عامل خفى يحرك الخيوط على حد تعبيره. واذا كان من الممكن ـ لاغراض فلسفية معينة ـ ان ننظر الى الذات كوحدة متصلة ثابتة او ان نهبها الخلود مثلا ، فاننا فى علم النفس يجب ان نتجنب الفصل القاطع بين الذات « كعامل » ووظائف الانظمة الموحدة المميزة داخل الشخصية .

تلك هى المراحل الثمان التى يمر بها « نموالذات » منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة عند البورت ، وليس من العسير علينا أن نجد الكثير من اوجه التشابه بينها وبين مراحل النمو النفسى عند اريكسون ، وان كانت الاسس النظرية التى يستند اليها كل منهما مختلفة الى حد ما .

• • •

رابعا ـ نظرية النمو عند جان بياجيه :

وكما هو الحال بالنسبة لفرويد ، فان جان بياجيه اهتم أيضا بدراسة المراحل العامة التى يمر خلالها الفرد فى نموه النفسى العقلى . فنظريته نظرية شكلية تهدف الى وصف المراحل المختلفة للنمو . ولكنه ـ على عكس فرويد الذى أكد نمو العمليات الدافعية والانفعالية كالدوافع الجنسية والمشاعر المتصلة بها ، فان بياجيه ركز اهتمامه كله على النمو المعرفى ، اعنى العمليات الفعلية المميزة للنمو من الطفولة حتى المراهقة والرشد . وبالاضافة الى ذلك ، فان اسلوب الدراسة والملاحظة الذى استخدمه كل من فرويد وبياجيه كان مختلفا ، مثلما اختلفت مفاهيمهما فى البحث . لقد درس فرويد النمو النفسى فى الطفولة اساسا من خلال وصف الراشدين لحياتهم الوجدانية أثناء فترة الطفولة، وذلك خلال جلسة العلاج النفسى ، اما بياجيه فقد قام بالملاحظة الدقيقة لما يقوم به الطفل من سلوك ودون تدخل مباشر من جانبه . كان يعطى الاطفال مشكلات لحلها ويفحص الطرق التى يتبعونها فى حل هذه المشكلات فى اعمار زمنية مختلفة . وجزء كبير من اعمال بياجيه الاولى ، والتى نشرت سنة ١٩٢٦ في كتابه الاول « اللغة والفكر عند الطفل » كانت بمثابة تقرير للملاحظات الدقيقة التى قام بها على السلوك اللغوى التلقائى للطفل . كما أن كثيرا من مظاهر السلوك التى أوردها في دراساته الاولى والتى امتلأت بها ملاحظاته العديدة التى وردت في كتابه « ميلاد الذكاء عند الطفل » لم تكن نتيجة تدخل مباشر من جانبه كمجرب وباحث . ومع ذلك فقد تضمنت معظم دراساته واحدة أو اكثر من صور التدخل التجريبى البسيطة ، والتى تتلخص فى ادخال نوع من المثيرات فى وقت معين خلال النشاط التلقائى للطفل . ومن هنا كانت معظم دراساته تحمل الطابع الشكلى للتجارب الدقيقة ، بمعنى

ان السلوك موضوع الدراسة منذ البداية بمثيراتمعينة يدخلها المجرب . ومن الممكن ان نميز أنواعا مختلفة من الاساليب التى اتبعها على ضوء اهمية المثيرات والاستجابات اللفظية فى الموقف الاختبارى .

ولقد كانت وجهة نظر بياجية ــ كما هوالحال بالنسبة لفرويد ــ متسقة مع اتجاه داروين فى التكيف . فهو ينظر الى السلوك كعملية تكيفمع الحياة ، عن طريقها يؤكد الفرد حالة التوازن بين نفسه والبيئة . فالتغيرات التى تحدث فىالبيئة تؤدى باستمرار الى اضطراب هذا التوازن، ومن الممكن أن يعود الفرد الى حالة التكيف فقطمن خلال تغيير الفرد لنفسه (أى الملاءمة مع البيئة) أو معالجة البيئة (التمثيل) وينمو التفكيرالعقلى من خلال عملية التغير التكيفى المستمر بين الفرد والبيئة .

دراسة تطور النمو المعرفي عند بياجيه :

الهدف من هذه الدراسة هو وصف النموالعقلى عند الطفل من الميلاد حتى النضج . لقد قسم بياجيه النمو العقلى عند الطفل الى اربعمراحل اساسية periods ، مشيرا بذلك الى الحقب النمائية الكبرى ، ثم قسم كل مرحلة منهاالى مراحل فرعية stages ، مشيرا بذلك الى التقسيمات الفرعية الصغرى لكل مرحلة منالمراحل الكبرى . فالمرحلة الحسية مثلا تنقسم الى ست مراحل فرعية لكل منها مميزاتهاالخاصة . وسوف نقدم في دراستنا لهذاالموضوع تلخيصا موجزا للمراحل الاربع . ولمن يريدالتوسع فى هذا المجال ، عليه الاطلاع على الكتب العديدة التى كتبها بياجيه وتلاميذه فى هذاالصدد .

المرحلة الاولى : المرحلة الحسية الحركية ــمن الميلاد حتى الثانية Sensorimotor Period

والمرحلة الحسية الحركية للنمو تقابل منحيث الزمن الفترة المحددة للطفولة المبكرة التى تشمل السنتين الاوليين منحياة الطفل . والسمةالبارزة لهذه الفترة ، كما يراها بياجيه ، هى أن الطفل فيها يكتسب المهارات والتوافقات البسيطةالتى من النوع السلوكى . والصور الاجمالية العامة فى هذه المرحلة المبكرة صور حسية حركية. فهى تنظم المعرفة الحسية وتؤدى الى السلوك التكيفى ، ولكنها لا تكون مصحوبة بأى نوع منالتصورات المعرفية او الذهنية للسلوك أوالبيئة الخارجية . والطفل فى خلال هذه المرحلة ينتقلمن مجرد وليد يعمل على مستوى الفعل المنعكس والمستوى المركز حول الذات الى مستوى متسقنسبيا من الافعال الحسية الحركية ازاء بيئته المباشرة التى يحيا فيها . ولكن التنظيم في هذهالمرحلة تنظيم « عملى » بمعنى انه يتضمن القيام بالتوافقات الادراكية والحركية مع الاشياء ، اكثرمما يتضمن المعالجات الرمزية لهذه الاشياء .

وفي اثناء هذه المرحلة يكتسب الطفل القدرةعلى احداث التناسق بين المعلومات الصادرة عن الاجهزة الحسية العديدة ، وكأنها مصادر مختلفةللمعلومات عن الشيء الواحد اكثر مما هي مصادر غير مترابطة . فالطفل يصبح قادرا على النظرالى الشىء الذى يستمع اليه ، كما أن قبضه على الاشياء وسيره توجهه الادلة السمعية والبصريةواللمسية .

وثمة مظهر آخر لاكتساب الطفل في هـذهالمرحلة الحسية الحركيـة يتضح فى قدرته على العمل كما لو كان العالم الخارجي مكانا ثابتـا ،وليس شيئا يتوقف ,وجـوده على ادراكه له . فالطفل يصبح قادرا على البحث عن الاشياء التىاختفت من امامـه ، ويبحث عنها على اسـاس معرفته بالمكان الذى ذهبت اليه أو اختفت فيه .كما أن من الممكن أن يتخذ طريقا ــ فى بحثه عن الشىء ــ غير الذى اخذه الشىء وكأن لديه معرفةبالمجال المحيط تسمح له باتخاذ طرق عدة توصله لنفس المكان . كما ان فى استطاعته ايضا ان يعودالى النقطة التى بدأ منها ، وربما اخذ طريقايختلف عن الطريق الذى اتخذه أول الامر .

ثم انه يقـدر على القيام بسلوك موجه نحوهدف ومحكوم منذ البداية بشىء من القصد . فمن الممكن ان ينظم معا عملين أو ثلاثة بقصـدالوصول الى نقطة النهاية فى سلسلة ما . كمايمكنه ــ قرب نهاية المرحلة ــ أن يقوم بأعمال جـديدةلم يحاول القيام بها من قبل للوصـول الى اهداف لم يكن فى اسـتطاعته الوصول اليها . وبعبـارةابسط يكون فى مقدوره ان يجرب أشـياء جديدة ويختبر صوره الاجماليـة العامة الواحـدة تلوالاخرى،كما لو كان يبحث عن الامكانيات السلوكية للشىء ففى امكانه أن يغير افعاله تلقائيا ومختارا .

وتعد كتبه الثلاثة الآتية المصادر الرئيسيةلهذه المرحلة . **الكتاب الاول « ميلاد الذكاء عنـد الطفل »** حيث قدم فيه ملاحظاته عن نمو السلوكالتكيفى عند الطفل،كما اشار الى النمو التدريجى للصور الاجمالية الحسية الحركية خـلال فترةالطفولة المبكـرة . ,وقد تركزت أبحاثه في هـذا الكتاب على الملاحظات الدقيقـة والمتعمقة والتىاسـتخدم فيها اساليب التجريب البسيط على اطفاله الثلاثة « جاكلين ولوسين ولوران » خلالفترة طفولتهم المبكرة منذ اكثر من اربعين عاما . **اما الكتاب الثانى فهو « تركيب الواقع عندالطفل»**والذى قام فيه بتحليل معرفة الطفل وكيفيعكس سلوكه الافتراضات العديدة عن طبيعة الاشياءوالزمان والمكان والسببية . وفى **الكتاب الثـالث « اللعب والاحلام والتقليد »** ففيه يصفنمو اللعبوالتقليد خلال فترة النمو الحسى الحركى . وفى صورة موجزة للغاية يمكن ان نقدم الملامحالرئيسيةللمراحل الستة الفرعية التى تشتمل عليها المرحلة الحسية الحركية :

المرحلة الفرعية الاولى (من صفر الى شهر): لا يظهـر فيها شىء كثـير الى جانب الافعال المنعكسة التى يولد الطفل مزودا بها .

المرحلة الفرعية الثانية (منشهرالى٤شهور) : ,وفيها تبدا الانشطة المنعكسة العديدة تخضع لتعديلات مستقلة نتيجةالتجربة والخبرة وتناسقبعضها مع بعض بطرق متعددة .

المرحلة الفرعية الثالثة : (من ٤ ــ ٨ شهور) : وفيها يبدأ الطفل القيام بأعمال موجهة نحو الاشياء والاحداث خارج حدود جسمه بصورةأكثر تحديدا . فهو فى محاولاته اعادة ظهور الآثار البيئية التى حققها عفوا وعن غير قصـد من قبل، يكشف عن نوع من التبشير بالقصد او الاتجاه نحو هدف .

المرحلة الفرعية الرابعة :(من٨ ــ ١٢ شهرا) : وفيها يتضح القصد بشكل ملحوظ محدد على نحو ما يتجلى فى الوسائل والغايات الاولى .

المرحلة الفرعية الخامسة : (من ١٢ ــ ١٨شهرا) : واذا كان الطفل في المرحلة الرابعة يقنع بأنماط السلوك العادى والمألوف ويستخدمهاكوسائل في المواقف الجديدة ، فانه في هذه المرحلة يجرب ليكتشف وسائل جديدة .

المرحلة الفرعية السادسة : (من ١٨ شهراالى سنتين) : وفيها يبدأ الطفل القيام بتصورات داخلية رمزية للمشكلات الحسية الحركية ،مخترعا الحلول عن طريق سلوك المحاولة والخطأ الضمنى ، اكثر منه عن طريق السلوك الصريح .وبحدوث هذه التصورات الاولى المبدئية يكون الطفل قد تجاوز أساسا مرحلة النمو الحسىالحركى ليدخل فى مرحلة ما قبل العمليات .

ويكشف الطفل قرب نهاية هذه المرحلةالاولى من المراحل الكبرى ، عن استبصار وفهم ملحوظ بالبيئة التى يعيش فيها . ففى امكانهاستخدام الاداة للوصول الى الاشياء . كما يمكنه التنبؤ بالنتائج المباشرة نسبيا لما يحدث منافعال ، وان يدرك اسباب الاحداث التى تحدث . ويمكنه ايضا انيستخدم الآخرين كعوامل مساعدةلتحقيق النتائج التى يريدها . وهذه القدرات كلها قدرات محدودة . ولكن مجرد كونها موجودةيعتبر فى حد ذاته انجازا فى هذه المرحلة . ولتحقيق هذه الانجازات يجب مواجهة بعضالمتطلبات الهامة التى منها :

أ ــ اكتساب صور اجمالية عامة (سكيما)تكون مضبوطة داخليا وقابلة للانتقال . فالطفل يجب أن يكتسب ذخيرة من الصور الاجماليةالعامة التى تعمل بهدوء خلال قدر من الضبط الداخلى ، كما يجب ان تكون قادرة على الانتقالايضا . فكل صورة اجمالية يجب ان تكون مترابطة داخليا باتساق وانتظام . فالسلوك هوتتابع افعال حركية يؤدى كل فعل منها وبهدوء الى الفعل الذى يليه . وهذه السهولة فى اداءالوظيفة تتضمن ما أسميناه بجودة الضبط الداخلى . اما قابلية الصور الاجمالية للانتقالوالحركة فتتضمن قابليتها للتكيف بالنسبةلمجموعة من المواقف والاشياء . فطفل الثانية يمكنه انيلتقط الاشياء بشىء من الدقة ، ويمسك كل شىء بدقة وسهولة وبلا تردد ، وان كان القبض علىالاشياء يتغير ويتكيف تبعا للظروف المختلفة .

ب ــ مفهوم الواقع : وبالاضافة الى مايجبان يكون لدى الطفل من ذخيرة الصور الاجمالية العامة ، فمن الضرورى ان يميز الخصائصالرئيسية لبيئته . ففى طفولته الاولى يفترض ان الاشياء الخارجية لها صفة الدوام والاستمرارالنسبى ، وانها تستمر فى الوجود حتى ولو لم تصبح موضوعا لادراك مباشر . فالمعرفة الحسيةتتغير تغيرا جوهريا حين يغلق الطفل عينيه أو يدير رأسه أو عندما تتحرك الاشياء ذاتها فىالبيئةأو تغير شكلها . ويسمى بياجيه هذا الافتراض بهوية الاشياء الدائمة باسم « مفهوم الشىء » .فعندما ينظر الطفل بعيدا عن الشىء ، أو عندما يختفى الشىء عن نظره ، يجب ان يكون الطفلقادرا على الرجوع اليه والبحث عنه وتوقعظهوره ثانية . والمادة الاولية لهذه السمة من سماتالنمو هى استجابة الطفللاختفاء الاشياء من مجال

ادراكه . ومع ذلك ، فليس يكفى مجرد أن يعرف الطفل أن الشيء المختفى لا يزال موجودا ، بل يجب أن يكون قادرا على تنظيم معرفته عنه حتى يكون بحثه وتنقيبه مناسبا . ومعنى ذلك ، انه يجب أن يفهم او يدرك أن الاشياء والافعال مستقرة في مكان وزمان متصلين ، وان هذا المكان الذى يوجد فيه يحوى الاشياء كما يحوى جسمه أيضا. والحقيقة انه يعمل كما لو كان جسمه شيئا فى المكان شبيها ببقية الاشياء الاخرى .

ج ــ **التعرف على السبب والنتيجة** : وبالاضافة الى مالديه من ذخيرة الصور الاجمالية وفكرته عن المكان الخارجى ، فمن الضرورى أن يكون قادرا على معالجة مشكلات تتضمن السبب والنتيجة . ومرة أخرى ، قد يبدو الامر بالغ الصعوبة عندما نحاول تحديده . ذلك ان العلاقة العلية بين حادثتين يتم ادراكها فقط خلال ادلة معينة مثل التجاور والتقارب المكانى فى تتابع الاحداث الوسيطة . ولكن واحدة من هذه ليست مؤكدة تماما . فالطفل قد يرفس قدمه فى الهواء ، وقد ينجم عن ذلك حركة كرة موجودة الى جوار قدمه . ومع ذلك فليس من الضرورى أن يؤدى نفس الفعل الى نفس النتيجة . الا أنه اذا أمكن للطفل أن يحدث مرات عديدة نفس النتيجة ، فقد يسلك على نحو كما لو كان يعتقد أن رفس القدم يحدث بطريقة آلية حركة الكرة . ومن الملاحظ انه قرب نهاية هذه المرحلة يصبح الطفل اكثر وعيا ومعرفة بالاحداث الوسيطة ، كما يحدث تقدم ملحوظ فى التعرف على العوامل الخارجية المتضمنة في التتابع العلي .

المرحلة الثانية : مرحلة التفكير التصورى ــ من الثانية حتى السابعة Preoperational Period ويلى المرحلة الحسية الحركية مرحلة أخرى تستغرق عدة سنوات تنمو خلالها بالتدريج الصورة المعرفية الداخلية للطفل عن العالم الخارجي وقوانينه وعلاقاته الكثيرة . وتسير هذه المرحلة بطريقة تدريجية : فالصورة الاجمالية التصورية الاولى هى مجرد نسخة داخلية للصور الاجمالية الحسية الحركية . ومع ذلك وبالتدريج ، تنتظم الصور الاجمالية التصورية في أنظمة مترابطة يسميها بياجيه ادائية أو اجرائية operational . وهذا معناه أن الافعال الداخلية التى هى عناصر النظام تخضع لقوانين عقلية معينة كالمجموعات والتجميعات . وحين يحدث ذلك فان الطفل يكون قد وصل الى مرحلة العمليات العيانية Concrete operations .

ومرحلة ما قبل العمليات هى اساسا مرحلة انتقالية لا تتميز بحدوث اى توازن أو اثبات . فنهاية المرحلة الحسية الحركية تمثل نوعا من التوازن على المستوى السلوكى ، كما أن مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية (المرحلة الثالثة) تمثل توازنا جديدا على مستوى اعلى ، بينما هذه المرحلة الثانية هى انتقال بين المرحلتين الاولى والثالثة . واذا توخينا الدقة ، يمكن القول بأن بياجيه قد قصر نفسه على مراحل ثلاث فقط من مراحل النمو الفكرى . وهو بالفعل فعل ذلك فى بعض كتبه ، وهي : المرحلة الحسية الحركية التي تنتهي بالسنة الثانية ، ومرحلة العمليات

المحسوسة او العيانية والتى تنتهى عادةباكتساب قوانين التجميع والمجموعات المختلفة ، ثم مرحلة العمليات الشكلية والتى تبدأ عادة من الحادية عشرة أو الثانية عشرة . وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث السابق الاشارة اليها تتميز ببلوغ حالة من التوازن والثبات . يميزها عن غيرها من المراحل .

وان كنا من أجل التوضيح سنأخذ بفكرة جعل « مرحلة ما قبل العمليات » مرحلة قائمة بذاتها رغم كونها انتقالية .

وفى هذه المرحلة نلاحظ وقوع الطفل فى اخطاء ظاهرة واضحة فى مجال تفكيره التصورى او العقلى . فهو يقع فى تناقضات ظاهرة احيانا . فقد يذكر فى لحظة ما ان الشيء (أ) أكبر من الشيء (ب) ، ثم يعود بعد ذلك ، فيقول ان الشيء (ب) أكبر من الشيء (أ) دون أن يدرك التناقض الظاهر بين هذين القولين .

وفى هذه المرحلة ايضا يقوم الطفل بمحاولاته الاولى غير المنظمة نسبيا فى الاتصال بعالم الرموز ، هذا العالم الجديد الغريب بالنسبة اليه . **ويميز بياجيه احيانا مراحل فرعية ثلاثا داخل هذه المرحلة الثانية الكبرى وهى :**

أ ــ بدايات التفكير التصورى (من ٢ ــ ٤ سنوات) .

ب ــ التصورات أو الحدوس البسيطة (من ٤ ــ ١/٢ ٥ سنة) .

جـ ــ التصورات أو الحدوس المفصلة (من ١/٢ ٥ ــ ٧ سنوات) .

واذا نظرنا بدقة الى طبيعة التصورات ، نجد ان اساس عملية التصور هى القدرة على التمييز بين الدال Signifiant و « المدلول عليه » Signifie .

ومن ثم القدرة على استدعاء احدهما والاستدلال عليه بمجرد ظهور الآخر او اثارته. وقد اطلق بياجيه على هذه العملية اسم «الوظيفة الرمزية La fonction symbolique . وعلى الرغم من ادراكه ان الطفل فى المرحلة الحسية الحركية يكشف عن نوع من الاستدلال البسيط ، كاتخاذ الدليل الادراكى علامة على ان شيئا ما على وشك الظهور ــ الا انه لا يمكنه القيام بالتمييز بين الدال والمدلول عليه ، هذا التمييز الذى يحدد لنا امتلاك الطفل للوظيفة الرمزية والتى تسمح له بالانتقال بين الذكاء الحسى الحركى والذكاء التصورى . فطفل المرحلة الحسية الحركية لا يمكنه ان يستدعى ذهنيا الدال (سواء كان كلمة او صورة) . وابتداء من سن السنة والنصف وظهور اللغة عند الطفل ، نلاحظ تمايزا تدريجيا بين الدال والمدلول عليه . فالطفل يمكنه ان يستدعى صورة الشيء الغائب بواسطة شيء آخر (اى بالتصور) . وهذا التمايز بين الدال والمدلول عليه هو اساس ظهور الرمز . والرمز هو الذى يسمح لنا بالقيام بعملية التصور . فعن طريق قطعة الخشب يتصور الطفل وجود سيارة يتمثل فيها لعبته .

وليس ثمة شك ان الذكاء التصورى بامتلاكه الوظيفة التصورية يختلف اختلافا واضحا عن الذكاء الحسى الحركى الذى يفتقر اليها . ويمكن ان نوجز هذه الفروق فى النقاط التالية :

أولا : ان الذكاء الحسى الحركى يصدر عن الافعال أو الادراكات المتتابعة التى يدركها الطفل الواحدة تلو الاخرى. اما التفكير التصورى فلديه القدرة من خلال وظيفته الرمزية هذه على ادراك مجموعة من الاحداث المنفصلة فى صورة واحدة . فهو وسيلة أسرع وأكثر مرونة ، يمكنه استدعاء الماضى وتمثل الحاضر والتنبؤ بالمستقبل في فعل واحد منظم ومختصر زمنيا .

ثانيا : ان الذكاء الحسى الحركى يستند اساسا الى المكان القريب ، اى المكان الذى يمكن للطفل ادراكه في المحيط الذى يوجد فيه . فهو لا يستجيب اذن للمكان البعيد (كالجبال والنجوم باستثناء القمر) وبالمثل يستند الذكاء الحسى الحركى الى الزمان الحاضر . فليس هناك توقع سوى لمستقبل مباشر قريب، كما أن ليس هناك استجابة ، سوى لماض قريب حيث يواصل القيام بعمل ما تركه منذ لحظة وجيزة . اما التفكير التصورى ففيه يمد الطفل مجال المعرفة الى مكان بعيد ، والى زمان يتجاوز الماضى والمستقبل القريبين ، اى انه يتميز بالامتداد فى الزمان والمكان .

ثالثا : لما كان الذكاء الحسى الحركى ذكاء فعليا أو ذكاء عمليا ، فانه يقتصر على تتبع الاهداف المحسوسة للفعل اكثر من طلب المعرفة والبحث من حيث هما كذلك . أما التفكير التصورى فهو بطبيعته يهتم بتنظيم افعاله من حيث هى قائمة على اشياء ، أكثر من اهتمامه بتسجيل « النجاح أو الفشل التجريبيين » . فالتفكير التصورى يهتم اذن بتأمل الفعل اكثر من اهتمامه بالفعل نفسه .

رابعا : وبواسطة قدرته على الخروج من نطاق الحاضر المباشر ، فان التفكير التصورى يمكنه ان يمد مجاله الى خارج نطاق الافعال المحسوسة الواقعية للذات ، وخارج مجال الموضوعات الواقعية المحسوسة في البيئة . وهدف هذا التحرر من الواقع المحسوس هو المعالجة الرمزية لاحداث غير محسوسة (على نحو ما يحدث فيما بعد فى التفكير العلمى والرياضى عند الكبار) .

خامسا : لما كان الذكاء الحسى الحركى قاصرا على الافعال الحسية الحركية اكثر من تصور الواقع ، فهو بالضرورة حادث خاص أو مسألة فردية . اما الذكاء التصورى فهو من ناحية اخرى يمكنه ان يصبح ـ بل هو يصبح بالفعل ـ اجتماعيا عن طريق مجموعة الرموز المتعارف عليها والتى يشارك فيها افراد الجماعة كلها .

وعلى ذلك ، فظهور الوظيفة الرمزية ـ اى القدرة على التمييز بين الدال والمدلول عليه ـ والقيام بعملية الاستدلال بينهما ، يؤدى الى صورة عقلية ذات امكانيات ابعد مدى بكثير من اية صورة من صور الذكاء الحسى الحركى .

وفى ضوء ما تقدم يمكن أن نقدم باختصارأهم الخصائص المميزة لمرحلة التفكير التصورى:

١ ـ **مركزية الذات :** فطفل مرحلة التفكيرالتصورى أو مرحلة ما قبل العمليات ، يكون ـ بالنسبة للتصورات ـ مركزى الذات ، تمامامثلما كان طفل المرحلة السابقة بالنسبة للافعال الحسية الحركية . ولصفة التمركز الذاتى فىمرحلة ما قبل العمليات ، نتائج كثيرة اهمها : أن الطفل يكشف باستمرار عن عجز نسبى فىالاخذ بعين الاعتبار بوجهة نظر الغير كأحد الاحتمالات الممكنة ، وان يحاول ان ينسقوجهةنظره مع وجهات نظر الغير .

ويمكن أن نوضح ذلك بمثال بسيط منالخبرات التى تمر بنا فى طفولتنا وتتعدل مع تقدم السن بالفرد . ان من يركب منا سيارةمثلا فى ليلة مقمرة ، يبدو له القمر كما لو كان يسير معه ويتبعه . ونحن جميعا نعلم بطريقةاو باخرى ان هذا مجرد خداع ، وان من بين المبررات التى تدفعنا الى عدم الاخذ بمثل هذاالاعتقاد الذى يلازمنا فى طفولتنا المبكرة ، ان نفترض مثلا أن هناك شخصين يركبان سيارتينتسيران فى اتجاهين متضادين . فاذا اصر كل منهما على ان القمر يتبعه ويسير في اتجاهه هو،كان معنى ذلك ان القمر يسير في نفس الوقت فى اتجاهين متضادين . وفى هذا بالطبع تناقضواضح . ومثل هذه النظرة تتطلب من الفرد فصل المظهر عن الحقيقة . فالقمر ثابت ونحنالذين نسير ونتحرك . ومثل هذا الفصل بين المظهر والحقيقة يتطلبمن الفرد الاخذ بعين الاعتبار لوجهات نظر الغير ، الامر الذي لم يصل اليه الطفل فى تصوراته بعد ، وشبيه بهذا ايضا مانجده لدى الطفل فى مجالاللغة والاتصال حيث يبدو انه يقوم بجهد قليل حقا لتكييف لغتهوحديثه لحاجات المستمع .

ونتيجة لافتقار الطفل الى الاخذ بوجهةنظر الغير ، نجده لا يحس بالحاجة الى تبرير افكاره للاخرين أو البحث عن التناقصاتالممكنة التي تكمن فى افكاره ومنطقة . فهو حين ينقل فكرة او افكارا الى اطفال آخرين ينقلهاكما لو كان الآخرون يفهمون افكاره ووجهة نظره . ويعتقد بياجيه اعتقادا جازما أن الطفليصبح على معرفة بنفسه ويصبح قادرا على تبرير أفكاره والارتباط بالمعايير المنطقيةوالاجتماعية من خلال التفاعلات المتكررة مع الآخرين ، وبخاصة تلك التي يجد فيها الطفلنفسه مضطرا المرة تلو المرة أن يعرف دور الآخرين ، وان يستمع لوجهة نظرهم وانيدخلها فى اعتباره . ومن هنا ، فان التفاعل الاجتماعى هو الذى يحطم مركزية الذات عندالطفل . ومع ذلك ، فهذا التمركز حول الذات طور من اطوار النمو لابد أن يمر به طفل هذهالمرحلة .

٢ ـ **فكرة الثبات** ومن الفروق الهامة بينالادراك الحسى والتفكير التصورى ان التفكير يربط الماضى بالحاضر مما يساعد تفسيرالمشكلة التي تواجه الفرد ،بينما الادراك يتحدد بالمادة التي تقع تحت حواس الفرد بشكلمباشر . وهذه السمة للتفكير تعتبر ذات أهمية

فى نظر بياجيه ، وتكوين المفهوم يعتبر امرآهاما بالنسبة لتفكير الطفل فى هذه المرحلة . واحدى المشكلات الكبرى بالنسبة لطفل هذه المرحلة قد تكون عدم قدرته على ادماج المادة التي يستمدها من خبراته الماضية من أجل الوصول الى احكام صحيحة يستحيل الوصول اليها بدونها . ولقد عالج بياجيه موضوع الثبات فى مجالات متعددة فدرس فكرة الثبات المكانى وثبات الكم المتصل وثبات الكم المنفصل، ويكفى أن نشير الى مثال واحد وليكن ثبات الكم المتصل من اجل أن نعرف الى أى حد يجد الطفل صعوبة فى الوصول الى هذه الفكرة .

« اعطيت قطعتان من الصلصال من نفس الشكل وبنفس الحجم ونفس الكم . شكلت احداهما على هيئة قرص مستدير والاخرى على هيئة اسطوانة مستطيلة . ثم وجه السؤال الى الطفل : هل نفس كمية الصلصال واحدة في الاثنتين (ثبات المادة) ؟ وهل لدينا نفس الوزن ؟ هل لدينا نفس الحجم ؟ ... وقد وجد ان الطفل في بعض الاحيان لا يقول بالثبات . فيقول مثلا : ان هذه اكبر لانها طويلة ورفيعة ، وفي مرحلة ما قبل العمليات ، لا نجد ثباتا . اما فى سن السابعة فان الطفل يصل الى فكرة ثبات الكم . وفى سن ٩ — ١١ سنة ، نجده يصل الى فكرة ثبات الوزن . امافكرة ثبات الحجم فانه يصل اليها فى حوالى سن ١١ ـ ١٢ سنة .

المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية : من السابعة حتى الحادية عشرة . Concrete Operations

وفى حوالي سن السابعة يكتسب التنظيم الفكرى للطفل عن البيئة المحيطة به ، صفة الثبات والتماسك بفضل تكوين مجموعة من التراكيب العرفية . وفى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى أن يبدو معقولا ومنظما فى توافقاته مع البيئة ، بمعنى انه يبدو أن لديه اطارا فكريا ثابتا ومنظما يستخدمه فى تعامله مع عالم الاشياء المحيطة به . ففي استطاعته ان يرتب مجموعة من الاشياء حسب حجمها ويدخل أشياء جديدة داخل المجموعة . وفى امكانه ان يفهم أن عدد الاشياء في مجموعة ما ، لايتغير بمجرد اعادة الترتيب المكانى لهذه الاشياء . ومن الممكن ايضا ان يفهم الكثير من العلاقات البسيطة بين أصناف او انواع الاشياء . فمثلا يمكنه أن يدرك ان صنفا ما لا يمكن ان يحتوى على أعداد أقل مما يحتوى عليه أى من الاصناف الفرعية الداخلة تحته . وباختصار يكتسب الطفل في هذه المرحلة مفهوما بدائيا عن الزمان والمكان والعدد والمنطق . وهذه المفاهيم التي في ضوئها تنتظم فكرتنا عن الاحداث والاشياء.

واذا كنا قد أوضحنا ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية (المرحلة الثانية) يختلف تفكيره عن طفل « المرحلة الحسية الحركية » من حيث انه يعمل على مستوى التصور الذهني فى مقابل مستوى الفعل المباشر فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية والتي نحن بصددها يختلف فى تفكيره عن طفل المرحلتين الاولى والثانية . فهو يختلف

عن طفل المرحلة الحسية الحركية من حيث انه يعمل على مستوى العمليات ، أى الاداء العقلى غير المحدد ، وليس على مستوى الفعل المباشر ، كما انه يختلف عن طفل المرحلة التصورية من حيث انه يعمل وفق نظام أو نسق معرفى متكامل ، به ينظم العالم من حوله . فاذا كان تفكير طفل المرحلة التصورية يفتقر الى الثبات والتنظيم الذى يجعله يسلك احيانا بطريقة منطقية واحيانا يفشل فى مواصلة القيام بنسق منطقي بسيط فى الظاهر ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية — والمرحلة الشكلية التي تليها — يكون تفكيره ثابتا ومستقرا ، ينتج عن تنظيم « الافكار الادائية او الاجرائية فى انظمة مترابطة تمكن الطفل ان يسلك بثبات وبصورة منطقية ، وان يستخرج من افكاره ما تتضمنه من نتائج . ولذا يقول بياجيه « ان طفل مرحلة العمليات المحسوسة او العيانية يسلك فى مجموعة متنوعة من الافعال ، كما لو كان لديه تنظم تمثيلي غنى متكامل يعمل فى حالة توازن مع عمليات الملاءمة . وهذا هو جوهر الخلاف بين هذه المرحلة والمرحلة السابقة عليها . والحقيقة أن معظم ما يتجلى فى المرحلة التصورية يمكن ان يفيد فى مرحلة العمليات المحسوسة .

وحين تبلغ الاعمال المعرفية العقلية هذا المستوى الخاص من الثبات والتنظيم ، اى حين تنتظم فى وحدات تامة متماسكة وتركيب محدد قوى ، هنا يطلق عليها بياجيه اسم « العمليات العقلية » . ومن هنا جاءت التسميات العديدة للمرحلة الثانية وهذه المرحلة الثالثة ثم المرحلة الرابعة ، فقد سميت هذه المراحل على التوالى باسم « مرحلة ما قبل العمليات العقلية » ومرحلة « العمليات المحسوسة او العيانية » ومرحلة « عمليات التفكير الشكلى او المنطقى » . ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية لديه بالطبع افعال تصورية . ولكن هذه الافعال التصورية التى تسمى أحيانا باسم «الحدس» انما هى تعبيرات معرفية منفصلة ومتفرقة ولا تتجمع في كليات متماسكة . ومن هنا يمكن القول بأن « العمليات على نحو ما حددها بياجيه هى الملكة الخاصة بمرحلة الطفولة والمتاخرة ومرحلة المراهقة .

اما ما نوع الاداء الذى يسميه بياجيه باسم العمليات operations ، فان أى عمل تصورى ذهنى يكون جزءا متكاملا من شبكة اعمال مترابطة ، يعتبر اساسا « عملية » .
ولقد أشار بياجيه الى العديد من هذه العمليات . فهناك عمليات الاضافة المنطقية (الجمع) ، وعمليات الطرح والضرب والقسمة ، سواء فيما يتصل بالانواع او العلاقات . وهناك العمليات العقلية العددية المختلفة الانواع ، والتى اطلق عليها اسم العمليات المنطقية الاخص Infralogical Operations وتتضمن الكم والزمان والمكان وغيرها . وهناك أيضا العمليات التى تتصل بنظام القيم والتفاعل المتبادل بين الافراد . ولعل الاشارة الى العديد من هذه العمليات ، ما يجعل القارىء على الفة بها . من ذلك مثلا : عملية الاستجابة لمجموعة من الاشياء المتشابهة فى ناحية معينة وتكوين نوع من الانواع ، وعملية ضم الانواع معا (الجمع

المنطقى للانواع) وتكوين فرع اشمل واعم يضم هذه الانواع جميعا كضم نوع النباتات ونوع الحيوانات لتكوين نوع الكائنات الحية ،ثم هناك عملية العود ثانية الى الانواع الاصلية عن طريق الطرح المنطقى،اى فصلها ,واستخراجهاثانية من النوع الذى يضم الانواع الى آخر هذه العمليات المتعددة التى اشار اليها بياجيه فى هذهالمرحلة والتى ليس هنا مجال التوسع فى شرحها .

ومن الممكن ان نلخص اهم منجزات مرحلةالعمليات المحسوسة او العيانية بقولنا ان تفكير طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكشف عنتقدمملحوظ اذا قورن بتفكير طفل مرحلة ما قبل العمليات المنطقية اى المرحلة التصورية . ولعلاهم منجزات هذه المرحلة هى أن تراكيبها المعرفية تتألف من أنظمة تكون فى حالة توازن ،اعنى تتألف من كليات متماسكة من العمليات القابلة للانعكاس ، والتى تمكنه من ايجادالتنظيموالثبات بين الاشياء والاحداث فى العالم المحيط به ، بشكل كان يستحيل على طفل مرحلة ماقبلالعمليات ان يقوم به . فاذا كان طفل مرحلة « ما قبل العمليات » يميل الى العمل فقط فىضوء الواقع الظاهرى الذى يقع أمام ناظرية ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يبدأ بمدتفكيره من الواقع الى الممكن . ,وهذا النمو هو نتيجة طبيعية لتكوين التراكيب المحسوسة .فلو اخذنا متسلسلة مكونة من عناصر ثلاثة محسوسة ولتكن ا ، ب ، ج (الواقع) فان طفلمرحلة العمليات المحسوسة يكون اكثر استعدادا من طفل مرحلة ما قبل العمليات للتنبؤ بامكانتطبيق هذه العلاقة على عناصر جديدة مثل د ، هـ (أى الممكن) . وهذه الخطوة تعتبر مناهم الخطوات تمهيدا للانتقال الى المرحلة الرابعة والاخيرة .

المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكليةـ ابتداء من سن الحادية عشرة Formal operations

وتبدأ هذه المرحلة من حوالى سن ١١ ـ١٢ سنة وتصل الى حالة توازن فى حوالى سن ١٤ ـ ١٥ سنة . وهى مرحلة بداية التفكيرالمنطقى عند الكبار . فالمراهق فى هذه المرحلة يمكنه أن يتعامل بنجاح ليس فقط مع عالمالواقع المحسوس (على نحو ما كان فى المرحلة السابقة)،بل ,وأيضا مع عالم المجردات والقضاياالمنطقية . فهو يفهم المبادىء الاساسية للتفكير العلمي والتجريب العملى ، ويستطيع القيامبتجارب ، واستخلاص التضمنات الصحيحة على الاقل في بعض الحالات .

وتعتبر مرحلة العمليات المنطقية اوالشكليةتتويجا للنمو العقلى . فهي بمثابة حالة التوازن النهائى التى يسير نحوها التطور العقلى المعرفيمنذ بدايته الاولى.لقد عالج بياجيه هذاالموضوع في مؤلفات عديدة أهمها كتابه الذى الفه معانهلدير عام ١٩٥٥ ,والذى ترجم الى اللغة الانجليزية عام ١٩٥٨ تحت عنوان « نمو التفكيرالمنطقى من الطفل حتى الرشد » والخاصية

الميزة للتفكير الشكلى ترجع بلا شك للدور الذىيقوم به « الممكن Possible » فى علاقته بالواقع « Réal »فالتفكير الشكلى ـ اذا قورن بالتفكيرفى مرحلة العمليات المحسوسة ـ يكون بذلك صورة جديدة من صور التوازن التى يسيرنحوها هذا التطور العقلى . ولعل مما يلقى الضوء على هذه العمليات الشكلية أن نربطبينها وبين العمليات المحسوسة السابقة عليها والتى صدرت عنها . **فطفل المرحلة المحسوسةاو العيانية تواجهه صعوبات منها :**

١ ـ أن العمليات المحسوسة عيانية ، اىمحسوسة وغير مجردة ، بمعنى ان تركيبها ونشاطها التنظيمى يتجه نحو الاشياء والاحداثالمحسوسة الموجودة فى الواقع المباشر . حقيقة أن تكوين الانظمة المحسوسة يسمح ببعضالانتقال والسير نحو الممكن او غير الموجود ، الا ان هذا السير او هذه الحركة يكون نطاقهامحدودا ويتالفغالبامن تعميمات بسيطةالتراكيب موجودة على محتوى جديد (على نحو ما سبقان اشرنا فى معرفة الطفل امكان نقل العلاقة ا ، ب ، ج ، وتطبيقها على د ، هـ) ، كما ان نقطةالبدء بالنسبة للعمليات المحسوسة ـ كما هو الحال ايضا بالنسبة لما قبل العمليات ـ هىدائما ـ « الواقع اكثر منه الممكن » . فطفل المرحلة من ٧ ـ ١١ يعمل كما لو كان واجبهالاساسى هو تنظيم وترتيب ما هو موجود أمامه مباشرة . اما الانتقال البسيط المحدود للتنظيموالترتيب على اشياء ممكنة ، فهو أمر يقوم به عند الضرورة . ولذا فهو ينظر اليه كحالةخاصة من النشاط . اما مالا يستطيع طفل مرحلة العمليات المحسوسة ان يفعله ، ويستطيعالراشد القيام به ، فهو يمثل جميع الاحتمالات الممكنة منذ البداية ومحاولة الكشف عن اىهذه الاحتمالات يوجد فعلا فى المادة الراهنة. وبهذا الاسلوب الاخير يصبح الواقع حالة خاصةمن الممكن .وهذه هى احدى خصائص العمليات الشكلية المنطقية .

٢ ـ وكون طفل مرحلةالعمليات المحسوسةلا يزال مقيدا ـ نسبيا ـ بالظواهر الخارجية، فهذا من شانه ان يخلق صعوبةاخرى . أن عليه ان يتغلب على الخصائص المتعددة للاشياء والاحداث (كالكتلة،والوزن والطول والزمن ...الخ)واحدة واحدة، لأن وسائله المعرفية ليست « شكلية » بدرجةكافية ، ولا منفصلة او مستقلة بدرجة كافية عن الموضوع الذى تحمل عليه من اجل أن تسمحبتمايز الشكل عن المحتوى . فالطفل بعد أن يصل الى فكرة ثبات الكم ، يظل لفترة غيرقصيرة ، عاجزا عن بلوغ فكرة الثبات بالنسبة للوزن والحجم .

٣ ـ اما الصعوبة الثالثة فهى ان انظمةالعمليات المحسوسة المتعددة ، تعتبر بمثابة نقط تنظيم اكثر واقل انفصالا من ٧ ـ ١١ سنة، فهى لا تترابط فيما بينها لتكوين نظام متكامل بسيط ، نظام يمكن للطفل ان ينتقل من تركيبفرعى الى تركيب فرعى آخر بالنسبة لمشكلة واحدة . فبينما يوجد لدى طفل مرحلة من ٧ـ١١سنة نوعا عمليات القابلية للانعكاس (وهما

النفى والتبادل) ، فانه لا يوجد لديه مع ذلك نظام كلى شامل يسمح له بتنسيق الاثنين معا ، وحل المشكلات ذات المتغيرات المتعددة والتى تتطلب هذا التنسيق . فالتراكيب المعرفية تعجز اذن عن الترابط فيما بينها فى نظام كلى موحد لازم للقيام ببعض العمليات المعقدة .

وفى ضوء هذه الصعوبات التى نجدها فى مرحلة العمليات المحسوسة ، يمكن ان ننتقل الى دراسة أهم خصائص التفكير الشكلى الذى يتميز به تفكير الراشد . وكثير من خصائص تفكير هذه المرحلة ليست مترابطة بسهولة احداها بالاخرى بطريقة ذهنية واضحة ، ولكنها تعتبر مهمة فى نمو قدرة الفرد على حل المشكلة .

خصائص التفكير الشكلى :

الخاصية الاولى : تتصل بالتطور أو بالنمو لقدرة الطفل على فهم العلاقات المنطقية بين الانواع . فاذا كان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يمكنه فهم العلاقات المنطقية بين الانواع التى تعرض او تقدم اليه ، فان الراشد في مرحلة العمليات الشكلية عليه ان يدرك بوضوح أو ان يتحقق من العلاقات الممكنة ، بحيث يمكنه تصميم مواقف تزوده بالمعلومات أو المعرفة التى يحتاج اليها .

الخاصية الثانية : هى ان جزءا من قدرة الطفل على ادراك جميع الامكانيات يتمثل في سهولة وقدرة الطفل على التفكير التوافقى أو الترابطى . وبعبارة اخرى يتمثل في قدرته على مراجعة كل الاختيارات بطريقة منتظمة تسمح بالانتقال خلالها تتابعيا اذا لزم الامر ، ويعرف انه استنفدها جميعا . وقد وصفت العلاقات الممكنة المختلفة بين الانواع فى نظرية المنطق الشكلى . ويكون طفل مرحلة العمليات الشكلية قادرا ـ بطريقة حدسية ـ على استعمال النسق الكامل للمنطق الشكلى من أجل الحصول على المعرفة التى يريدها .

الخاصة الثالثة : هى التغير الذى طرأ على العلاقة بين الواقع والممكن . وهى اهم الخصائص جميعا ومنها استمد بياجيه بقية الخصائص الاخرى . فبدلا من ظهور « الممكن » فى صورة امتداد محدود وبسيط للواقع أو للافعال التى تجرى فى هذا الواقع ، فان العكس هو الذى يحدث اذ يصبح الواقع تابعا للمكن . فالراشد على عكس طفل مرحلة من ٧ ـ ١١ سنة ـ يبدأ نظرته الى المشكلة موضوع البحث بمحاولة النظر فى جميع الاحتمالات والعلاقات الممكنة التى تصدق على المادة . ومن ثم يحاول خلال الجمع بين التجريب والتحليل المنطقى ان يصل الى معرفة اى هذه العلاقات الممكنة تصدق فى الحقيقة على هذه المادة . فالواقع أصبح ينظر اليه كمجموعة فرعية داخل وحدة تامة من الاشياء التى تسمح المدة بظهورها كفروض . فهو ينظر الى «الواقع» كجزء موجود داخل وحدة « ممكنة » .

فنحن اذن بازاء خطوة فى غاية الاهمية من خطوات النمو الفكرى ونعنى بها التحرر من عبودية الملاءمة للواقع المباشر على نحو ما وجدنا فى المرحلتين السابقتين . وهذا التحرر يأخذ شكلا جديدا فى المراهقة والرشد يتمثل فى قلب دور الواقع الى ممكن . وليس هذا بالامر اليسير ، اذ هو بمثابة اعادة توجيه اساسى نحو المشكلات المعرفية . فالراشد لم يعد يشغل نفسه بثبات وتنظيم الاشياء المحسوسة وهى التى تتصل اتصالا مباشرا بالحواس ، وانما تظهر لديه خلال الاعادة الجديدة للتوجيه ، القدرة على تصور كل ما يمكن وجوده .

ان التفكير الشكلى هو فى أساسه تفكير« افتراضى ــ قياسى Hypothetico déductive والقياس لا يقوم هنا مباشرة على حقائق مدركة فى العالم الخارجى ، وانما على منطوقات افتراضية ، أى على قضايا تقوم على فروض ، أن يضع المعطيات من حيث هى معطيات بسيطة مستقلة عن حقائقها الواقعية الخارجية . فالقياس يتألف اذن من ربط هذه المعطيات أو الفروض فيما بينها واستخلاص النتائج الضرورية المترتبة على ذلك ، حتى ولو لم تتجاوز حقيقتها التجريبية حدود الممكن . فهذا القلب لدور كل من الممكن والواقع ــ اكثر من اية خاصية اخرى ــ هو الذى يحدد التفكير الشكلى . وقد أوضح بالارد Ballard هذه الحقيقة فى قوله : ان الاستدلال لا يقوم على الاعتقادات وانما على فروض . فاذا سلمنا بالافتراضات : كذا ، وكذا ، فانه يتبع اذن ان نصل الى كذا وكذا من النتائج . وطفل المرحلة من ٧ ــ ١١ سنة يقيم استدلالات لا على أساس معطيات المشكلة وفروضها ، بل على اساس الواقع والحقيقة . أما الراشد ، فانه يستدل على اساس التسليم بصدق أو كذب الافتراضات التى يبدأ منها استدلالاته .

تلك هى المراحل الاربع للنمو المعرفى ابتداء من الطفولة المبكرة حتى الرشد ، اى ابتداء من النمو الحسى الحركى حتى التفكير المنطقى . وليس ثمة شك ان وراء هذا النمو هدف . لقد كشف لنا هذا النمو عن تقدم مستمر ومتصل نحو حالة من التوازن Equilibre يسير نحوها الذكاء . لقد كان هذا الذكاء فى بداية الامر امتدادا للمجال الادراكى الذى يفتقر الى وجود القابلية للانعكاس ، ثم مع بداية ظهور العمليات اصبح المجال اكثر اتساعا واكثر قدرة على القيام بالعمليات العقلية المختلفة ، واكثر تحررا من الاشياء الواقعية والمحسوسات ، كما اصبح ايضا اكثر ثباتا وانتظاما على نحو ما يتضح لنا بشكل ظاهر فى المرحلة الرابعة والاخيرة من مراحل النمو العقلى وهى مرحلة التفكير الشكلى . فنمو الذكاء يتحدد اساسا فى نظرية بياجيه باعتباره تقدما نحو التوازن .

وليس من شك ان ثمة عوامل أساسية هى التى تفسر لنا هذا السير نحو التوازن . والنضج هو احد هذه العوامل ، وهو التفتح الطبيعى الذى يطرأ على الكائن الحى ، ثم الخبرة وهى العامل الثانى . فالتعلم عملية هامة تفسر اكتساب الانسان لكثير من الخبرات التى تمر به

فى الحياة . ولا يمكننا بحال من الاحوال ان ننكرأثر التعليم أو أثر تراكم الخبرات المكتسبة من البيئة التى نعيش فيها . ثم هناك ثالثا الوسطالاجتماعى . فقد لا يكتسب الطفل مثـلا فكرة الشىء (كفكرة الثبات) من البيئة المادية وتفاعلهمعها ، وانما قد يلقن هذه المفاهيم والافكار عن طريق الوالدين والمدرسـين أو المحيطين به .غير أن كل واحـد من هذه العـوامل لا يكفى لتفسير التنظيمات المعرفية ، ولذا ينتهى بياجيهالى تقديم نظريته التى تقوم أساسا على فكرة التوازن . فبسبب احتواء الانظمة العقلية المنسقةعلى تناقضات ذاتية ، وبسبب ما تحدثه لدى الطفل من صراعات ، فان الطفل يجـد نفسـهمدفوعا بقوة لاحداث التناسق بين أفكاره واعادة تنظيمها فى كل منسق متوازن . وهذه هى عمليةاحداث التوازن عند بياجيه .

● ● ●

وبعد ، فقد استعرضنا أربع نظريات مننظريات النمو النفسى ، يمثل كـل منها اتجاهـا من الاتجاهات الهامة فى نظريات النمو النفسى .فهناك نظرية النمو النفسى الجنسى عندفرويد، ونظرية النمو النفسى الاجتماعى عند اريكسونوالتى أدخلت بعض التعديلات والاضافات على النظرية الاولى ، ثم هناك نظرية نمو الذات عندالبورت ، واخيرا نظرية النمو العقلى المعرفى عند بياجيه . واذا أمعنا النظـر فى هـذه النظرياتالنمائية الاربع ، نجد تقاربا واضحا بينها حاول الباحث بيانه في التخطيط التالى :

★ ★ ★

تخطيط للعلاقة بين النظريات النمائية لكل من
فرويد - اريكسون - البورت - بياجيه

المرحلة العمرية	المراحل النفسية الجنسية عند فرويد	المراحل النفسية / الاجتماعية عند اريكسون	مراحل نمو الذات عند البورت	مراحل النمو العقلى عند بياجيه
من صفر الى ٢	الفمية	الاحساس بالثقة مقابل عدم الثقة	الاحساس بالذات الجسمية	المرحلة الحسية الحركية
من ٢ الى ٣	الشرجية	الاحساس بالاستقلال مقابل الشك والخجل	هوية الذات تقدير الذات	المرحلة التصورية أو مرحلة ما قبل العمليات العقلية
من ٣ الى ٦ (ما قبل المدرسة)	القضيبية (الاوديبية)	الاحساس بالمبادأة مقابل الشعور بالذنب	امتداد الذات صورة الذات	
من ٦ - ١١ (المدرسة الابتدائية)	الكمون	الاحساس بالانجاز والاتمام (الصناعة والعمل مقابل النقص)	الذات منطقية عاقلة	مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية
من ١٢ - ١٧ (المدرسة الثانوية ثم الرشد واكتمال النضج	التناسلية	الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الهوية . والاحساس بالود والتآلف مقابل العزلة . الانتاجية مقابل الجمود . تكامل الانا مقابل اليأس	الجوهرة المميز الذات العارفة	مرحلة التفكير الشكلى أو المنطقى

المراجـع

اولا : المراجع العربية :

١ ـ جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشعبينى : النمو النفسى والتكيف الاجتماعى ـ القاهرة ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٦٢ .

٢ ـ جون كونجر وبول موسن وجيروم كيجان سيكولوجية الطفولة والشخصية .
ترجمة احمد عبد العزيز سلامه وجابر عبد الحميدجابر . القاهرة ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٧٠ .

٣ ـ سيد محمد غنيم : اللغة والفكر عند الطفل .الكويت . عالم الفكر . المجلد الثانى ـ العدد الاول ـ ابريل / يونيو ١٩٧١

٤ ـ سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فى نظرية جان بياجيه (الجزء الاول) القاهرة ـ حوليات كلية الاداب بجامعة عين شمس ـ ١٩٧٢ ـ العدد ١٢ .

٥ ـ سيد محمد غنيم : النمو العقلى عند الطفل فىنظرية جان بياجيه (الجزء الثانى) القاهرة ـ المطبعة العالمية ـ ١٩٧٣ .

٦ ـ سيد محمد غنيم : سيكولوجية الشخصية :محدداتها ، قياسها ، نظرياتها ـ القاهرة ـ دار النهضة العربية ـ ١٩٧٥ .

٧ ـ هول . ك لندزي ج : نظريات الشخصية ، ترجمةفرج احمد فرج وآخرين ـ الهيئة المصرية للتاليف والنشر القاهرة ـ ١٩٧١ .

ثانيا : المراجع الافرنجية :

7. Allport G. : Personality. **A Psychological Interpretation.** New York, Holt Richart and Winston, 1937.

8. Allport G. : **Becoming : Basic considerations for a Psychology of Personality.** New Haven. Conn. Yale Univer. Press 1955.

9. Allport G. : **Personality and Social Encounter.** Boston. Becon Press 1960.

10. Allport G. : **Pattern and Growth in Personality.** New York, Holt, Rinchart and Winston 1961.

11. Aires P. : **Centuries of Childhood.** New York, Knopf. 1962.

12. Bandura A. & Walter R. H. : **Social Learning and Personality development.** New York, Holt Rinchart & Winston 1963.

13. Barker R., Kounin J. & Wright H. : **Child Behavior and Development.** New York, McGraw Hill Book Company, 1943.

14. Bishchof L. J. : **Interpreting Personality Theories.** New York. Harper and Row, 1964.

15. Carmichael L. (ed.): **Manual of Child Psychology,** 2nd ed. New York, Wiley, 1954.

16. Cashdan A. & Whitehead J. (eds). **Personality Growth and Learning.** London, Longman Group Ltd. 1971.

17. Erikson E. H. : **Childhood and Society.** Penguin Books 1970.

18. Erickson E. H. Identity : **Youth and Crisis.** New York. W. W. Norton & Comp. 1968.

19. Flavell J. H. : **The Developmental Psychology of Jean Piaget.** Princeton Von Nostrand 1963.

20. Freud S. : **New Introductory Lectures on Psychoanalysis.** New York, Norton 1935.

21. Freud S. : **The Ego and the Id** (1923). Hogarth, 1947.

22. Freud S. : **Beyond the Pleasure Principle,** New York, Liveright 1950.

23. Gesell A. & Ilg. F. L. : **Child Development,** 2nd ed,. New York Harper 1949.

24. Hurlock E. B. : **Developmental Psychology.** New York. McGraw-Hill Book Comp., 1953.

25. Hurlock E. B.: **Adolescent Development,** (2nd ed.) New York, McGraw Hill Book Comp., 1955.

26. Hurlock E. B. : **Child Development,** (5th ed.) New York, McGraw Hill Book Company 1972.

27. Inhelder B. et Piaget J.: **De la logique de l'Enfant a la logique de l'Adolescent.** Paris. Presses. Univer. France, 1955.

28. Jersild A. T., Tefford C. W. & Sawrey J. M. **Child Psychology** (7th ed.) New Jersey, Prentice Hall Inc. 1975.

29. Kegan J. & Moss H. A. : **Birth to Maturity: A Study in Psychological Development.** New York. Wiley 1962.

30. Medinnus, G. R. & Johnson R.: **Child & Adolescent Psychology.** New York. John Wiley & Sons Inc. 1969.

31. Mussen P. H., Conger J. J. & Kegan J. **Child Development and Personality.** New York, Harper and Row 1963.

32. Piaget, J. : **La génese du nombre chez l'Enfant.** Delachaux et Niestle Neuchâtel, 1941.

33. Piaget J. : **La Naissance de l'Intelligence chez l'Enfant.** Delachaux et Niestle Nechatel, 1948.

34. Piaget, J. : Play, **Dreams and Imitation in Childhood,** New York, Norton, 1951.

35. Piaget, J. : **Essai sur les Trnasformations des opérations logiques,** Paris, Presses Univer. France, 1952.

36. Piaget J. : « La formation des connaissances.'' **Bull. Psychol.** Paris 1955—1956, pp. 148-156, 268-495, 701-727.

37. Piaget J. : «Les relations entre la perception et l'intelligence dans les development de l'enfant.'' **Bull. Psychol.** Paris, 1956-1957. 10, 376-381, 751-760.

38. Pichon E. : Le Development **Psychique de l'Enfant et de l'Adolescent.** 2 ieme ed. Paris Masson & Cie (Ed). 1947.

39. Rayner E. : **Human Development; an Introduction to the Psychodynamics of growth,** maturity and ageing. London. George Allen & Unwin Ltd. 1971.

40. Reese H. W. & Lipsitt L.P.: **Experimental Child Psychology.** New York Academic Press 1970.

41. Riegel, K. F. : „History as a Nomothetic Science. Some Generalizations from Theories and Research in Developmental Psychology," **J. of social issues** 1969 Vol. XXV No. 4.

42. Riegel K. F. **The Changing Individual in the changing society.** New York, Academic Press 1972.

43. Riegel K. F.: «Influence of Economic and Political Ideologies on the development of Developmental Psychology," **Psychol. Bulletin,** 1972, Vol. 7 No. 2 129-141.

44. Ruch F. & Zimbardo P. **Psychology of Life** 8th ed. London Scott, Foresman and Company 1971.

45. Stone F. & Church J. **Childhood and Adolescence. A pscychology of growing Person,** 7th ed. New York. Random house 1957.

46. Watson R. I. & Lindgren H. C. **Psychology of the Child,** New York, John Wiley & Sons Inc. 1973.

★ ★ ★

محمّد جواد رضا *

الانفصال عن العالم والرحيل إلى الاعماق

الواح ملونة من ازمات الطفولة والشباب في المجتمع المعاصر

اللوح الأول

العالم الكئيب

« يتهامسون معا ...
هادئون بلا معنى ...
كالريح فى الأعشاب ...
أو أقدام الفئران على الحصاد الهشيم ...
فى مخزننا الجاف ...
صور بلا هيولى ... ظلال بلا الوان ...
قوى مشلولة ... ايماءات بلا حراك ...

(*) عميد كلية الآداب والتربية فى جامعة الكويت واستاذ التربية المقارنة فيها . له العديد من الكتب والبحوث المنشورة منها (فلسفة التربية واثرها فى تفكير معلمى المستقبل)، (التربية والتبدل الاجتماعى فى الكويت والخليج العربى) ، (التربية والصراع الاجتماعى) ، (التعليم الثانوى)و (ظاهرة العنف فى المجتمعات المعاصرة ـ تفسير سايكو سوسيولوجى) .

الرجال الجوف ...
سقط القناع ...
يتسـاندون ...
خوذا مملوءة قشـا ...

تى . اس . ايليوت
((الرجال الجوف))
مجموعة قصائد
١٩٠٩ ــ ١٩٣٥

●●●

« أرى أفقـا بنجيـع الدمـاءْ
تنـوّر واختفـت الأنجـمُ
وجبـلا مـن الارض يُرمـى بـه
كمـا قـذف الصـاعدَ السُلّمُ
اذا مـدّ كفّـا لـه ناكـثٌ
تصـدّى ليقطعهـا مـبرمُ
تكـوّر مـن جثـثٍ حولـهُ
ضخـامٍ وامجادُهـا اضخـمُ
وكفـاً تُمـدّ وراءَ الحجـابِ
فترسِـمُ فى الأفـق ما ترسِـمُ
وجيـلا يـروح وجيـلا يجـئ
ونـارا ازاءهمـا تضـرَمُ
ويـا ويح خانقـةٍ مـن غـدٍ
اذا نفّسَ الغـدُ مايكظـمُ »

محمد مهدى الجواهرى
١٩٤٩

●●●

« سمعت صوت بنادق . شعرت بالذعر . كانوا يطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم فى الليل ولم استطع النوم . كنت مُرَوَّعة وفزعة من انهم قد يشرعون بنادقهم على نوافذ غرفتى ويطلقون النار علي . نمت ليلتئذ مع امى فى فراش واحد . كان هناك مخزن قريب من بيتنا تلتهمه النيران . كانوا يوقدون النار فى كل شيء . خيل لى يومئذان العالم كله يحترق ... »

من اعترافات طفلة بنت اربع سنوات
أيام العنف الأسود فى واتس ــ لوس انجلوس
١٩٦٥

« ... لقد استمرت الحـرب الفيتنامية طويلا حتى لم يعد يوجد الآن فرد واحد فى فيتنام يملك أية فكرة عـن كيف كانت الاحوال قبـل الحرب . ان اطفالنا يجهلون بمعنى السلام ، واذا تخيلوه فانهم يتصورونه مكانا جميلا واوقاتا مرحة خلوا من المشاكل والأزمات والمسؤولية ، نوعا من انواع الجنة على الارض ... »

« من رسالة لعالم نفسي فيتنامي موجهة الى الاستاذ موريس فريزر وقد نشرها فى صدر كتابه :

Children in Conflict, Penguin Books, 1974.

● ● ●

اللوح الثاني

السقوط النفسي

منذ أربعين عاما تقريبا كتب رئيس جامعة ييل Yale الدكتور آنجل J. R. Angell يقـول : ان مابين ١٠٪ ــ ١٥٪ مـن طلبتنـا الجامعيين يعانون من امراض نفسية معاناة حقيقية تهـدد بتدمـير فاعليتهم وسـعادتهم . وفى الاجتمـاع السنوى للجمعية الطبية الملكية البريطانية عام ١٩٦٠ أشارت التقارير الى أن ١٤٪ من طلبـة الجامعات البريطانية يعانون من أمراض نفسيـة على درجة غير يسيرة من الشدة . وفى المؤتمـر العالمي الأول حول الصحة العقلية لطلبة الجامعات المنعقد فى جامعة برنستون فى نفس الوقت تقريبا أكدت البحوث المقدمة فى المؤتمـر ماذهب اليـه الرئيس آنجل عام ١٩٣٦ مع التنبيه الى زيادة النسبة وبروز ظاهرة الانتحار بين الطلبة (١) . فى سنة ١٩٦٦ **كتب نيكولاس موليسن** Nicholas Malleson يقول أن مايقارب ٢٠٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من اضطرابات نفسيـة معوقة لتقدمهم العلمى على درجات متباينة من القـوة . (٢) وفى سـنة ١٩٧٠ **نشر انتوني رايل** Anthony Ryle المأمـور الطبى فى جامعـة سسكس Sussex فى كتابه **« الضحايا الطلابية »** ان حوالى الثلث من طلبة الجامعات البريطانيـة معرضون للاصابة باضطرابات نفسيـة على درجات متباينة من الشدة . (٣) وفى سنة ١٩٧٦ نشر كل من **ميلر وميلر** ان فى جامعة صغيرة مثل جامعـة سوانسي هناك مابين ٣٠٠٠ ــ ٤٥٠٠ طالبا وطالبة يعانون من امراض نفسية جدية ، وان مستشفيات الجامعة وعياداتها النفسية تواجه وضعا صعبا للغاية فى تلبية الحاجات العلاجية لهؤلاء الطلبة . ومن الدراسات التحليلية التى قـام بها هذان

---

(١) Davy, B. W. ; **The Source and Prevention of mental ill health in University Students,** proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

(٢) Malleson, N.B. ; **A Handbook of British Student Health Services,** London, Pitman, 1966.

(٣) Ryle, A. ; **Student Casualties,** Pelican Books, 1970.

الباحثان تبين أن ١٤ ٪ من الطلبة الجامعيين يشكون من التعاسة في علاقاتهم الشخصية ، ١٠ ٪ يقاسون من احاسيس الكآبة و ٧ ٪ كانت مشاكلهم تنجم عن مصاعب دراسية . (٤)

في المؤتمر الدولي السابع للمائدة المستديرة لتقدم الارشاد النفسي المنعقد بين الحادى عشر والخامس عشر من شهر ابريل ١٩٧٦ في جامعة فيرزبورج في المانيا الاتحادية وجه الاستاذ آرنولد W. Arnolp رئيس جامعة فيرزبورج السابق ورئيس قسم علم النفس فيها ، وجه الانتباه الى ما أسماه « الاخلاقيات النفسية الجديدة » New Psychological Ethics في معرض التحذير منها . قال **الاستاذ ارنولد :**

« يجب التذكير بحالات مأسوية ومرضية في المجتمع الحديث . في جلسات الارشاد النفسي غالبا مايسمع الواحد منا عبارات تصدر عن الاطفال الصغار .. ان أمي لم تكن ترغب في مجيئى الى هذا العالم وهي حتى الآن تعبر عن ضيقها بوجودى معها .. »

ثم يعقب الاستاذ آرنولد على هذا بقوله :

« .. ان هذه الصرخة الانسانية تعلن عن قلق وجودى ، وهي دعوة للبحث عمن يمكن الوثوق به ، انها التماس للشفقة والحب ولامكانية الاعتماد على شخص ما . ان كل الاخلاقيات النفسية القديمة قد تلاشت من الوجود الاجتماعي تقريبا . كثيرون يشعرون بأنهم وحيدون ومهجورون . واذا كان الاطفال والشباب يحسبون انهم مرفوضون وغير مرغوب فيهم من قبل اولياء أمورهم ومن أمهاتهم على وجه التخصيص فانهم يقفون على ارض بوار ، في حالة من القنوط الكامل من أى رجاء ... » (٥) .

• • •

اللوح الثالث

الضحايا

بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٧١ كتب احد الاطباء العموميين في مدينة « لندن برى » يقول معقبا على ضحايا الحرب **الاهلية** في ايرلندا : ـ

« انى أحب أن أناشد أولئك المشتغلين في الاقناع السياسي والعاملين في منطقتى كريكان وبوك سايد شيئا من الحلم والتبصر في عواقب مايفعلون . خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية

---

(٤) Miller, P. — Miller, T. ; **Student Problems, Remedies and Satisfactions,** British Psychiatry, Sep. 1973.

من المهم ان نلاحظ هنا ان الجامعات العربية لاتنشر ولا تملك معلومات مماثلة عن الاوضاع النفسية والعقلية لطلابها ، ولذا تبقى مشاكلهم النفسية ومعاناتهم مقصورة عليهم وغير محسوس بها في العالم الخارجي .

(٥) Arnold, W. ; **Counselling Activities in Modern Society,** Proceedings of Seventh International Conference for the advancement of counselling, 11-15, April, 1976, Würzburg.

دعيت لمعالجة بعض ضحاياهم . أحد هؤلاءالضحايا حاول الانتحار منذ ذلك الحين أكثر من مرة . وأحدهم الآخر تطلب علاجا عاجلا فى حالةالقلق العنيف الذى سيطر عليه . ان عددا كبيرا من الناس الطيبين يسقطون يوميا فريسة الخوفمما يحمله الاقتتال اليهم وهم لهذا يعتمدون اعتمادا متمادياعلى المهدئاتالطبية كي يستطيعوامواصلة حياتهم اليومية . ان عواقب هذا الاتكال المكثف على هذه المهدئات الطبية هى أوخم منأن يستطيع أحد التنبؤ بها » (٦) .

فى وقت قريب من هذا الوقت كتب باحثآخر فى **آثار الحرب الاهلية فى ايرلندا** علىالاوضاع النفسية والعقلية للأطفال والشباب يقول انالتعرض لتجربة تفجير القنابل والاثارات النفسية والاستفزازات يوما بعد يوم صارت تضاعفحالات الكآبة والمعاناة العصابية ، حتى صار يمر علي كل يوم موكب طويل من المراجعين فى العيادةيروون قصصا مخيفة عن معاناتهم من الخوف والمعاناة الممزقة لشخصياتهم ولهذا أجدنى ملزماان أصف لهم كميات كبيرة من المهدئات الطبية والمسكنات . ولأول مرة فى حياتى المهنية أجدنىمضطرا لاعطاء الحبوب المنومة بمقادير كبيرة نسبيا للأطفال لأساعدهم على النوم ، ولتمكينهم منمواصلة ادائهم لواجباتهم المدرسية . ولأول مرة فى حياتى المهنية ايضا بدات أخاف على سكانمدينتي – ديرى – من أنهم لن يستطيعوا اجتياز مرحلة الاضطرابات العنيفة هذه من دون تعرضنظام حياتهم الاجتماعية للانهيار التام . (٧)

لقد ترتب على حياة العنف والقتل والدمارالتى عاشتها بلفاست والمدن الايرلندية الاخرى منذ اندلاع الحرب الاهلية فى سنة ١٩٦٩ ظهورنوعين من الامراض النفسية بين سكان هذه المدن وخاصة الصغار منهم .

أولا : كانت هناك الهزات النفسية الشديدةالتى كان يبتلى بها الافراد الذين كانوا يتعرضون بصورة مباشرة الى المظاهرات والاشتباكاتالدموية فى الشوارع . وغالبا ما كان يمكن معالجة الآثار المترتبة على هذه التجارب ، وذلك بالمهدئاتالطبية او دخول المريض الى مراكز العلاج النفسي والعصبي لفترات قصيرة .

ثانيا : زادت نسبة الابتلاء بالامراضالنفسية ذات الطبيعة التعجيزية للمصابين بها ، والتى تتطلب علاجا اكثر تعقيدا ، كاحالة المرضىالى المعالجين النفسانيين ، او الزامهم بدخول مستشفيات الامراض العقلية لفترات طويلة . ومن الملفت للنظر ان هذا النوع الثانى من الامراض النفسية ظهر على نطاق أوسع فى المناطق المجاورةلمناطق الصراع الدموى الفعلى . ان هذه الظاهرة تتفق مع الاستنتاجات العامة المستخلصة من أيامالحرب العالمية الثانية ، والتى اثبتت انه فى **زمن الاضطرابات والحروب تزداد ظواهر الانهيارالعصبي والأمراض العقلية فى المناطق التى « يتوقع » فيها الناس اشتعال الاضطرابات اكثرمن تلك الاماكن التى تصبح مسرحا فعليا للصراع،** وهذا ماصار الاطباء النفسانيون يطلقون عليه اسم« عقدة الغزو » The Invasion Complex (٨)

---

(٦) **Belfast Telegraph,** Sept. 7, 1971.

(٧) Sinclair, F., **Belfast Telegraph,** Sept. 16, 1971.

(٨) Fraser, M., **Children in Conflict,** pp. 81-82, Penguin Books, 1974.

لقد خرج الاستاذ فريزر من دراساته التيأجراها على آثار النزاع الدموى الايرلندى على الاوضاع النفسية للاطفال ، خرج بنتيجة كبيرةوهى انه ليس هناك اى طفل ممن يعيشــون فى ظروف الاضطرابات وقد نجا من الوقوع فينوعمن انواع القلق المبهض واضطراب النوم، والخوف من الاضطرار للانفصال عن أبويه وعائلته ، او منرفض المدرسة لقبوله فيها ، أو من فقدان الشهية والاضطرابات المعوية والتفوطية والبولية ومـنانواع الصداع .

لقد تجمعت لدى الدكتور فريزر اعـدادكبيرة من عينات ضحايا الامراض النفسية الناجمة عن أهوال القتـال أليومي فى شـوارع بلفاستوغيرها من مسارح القتال فى المـدن الايرلندية ، وكلها حالات مأسوية بالقياس الى صفر اعمـارالضحـايا وما سيترتب عليهـا بالنسـبة لقابل حياتهم . **والحالتان التاليتان يمكن ان تكونا مثلينمنبئين عن آثار هذا الخراب النفسي المبكر .**

● **مارجريت ،** طفلـة فى الثالثـة عشرةراجعت الاطباء بسببنوبات اغماء متكررةواعراض قلق شديد جراء ماشهدته من مناظر الاقتتـالالدموى فى شوارع بلفاست . اضطرت عائلتها الى تغيير سكنها بعد اندلاع الاضطرابات عام ١٩٦٩وعندما احرقت جميع المنازل حول بيتها . وعلى الرغم من أن منزل العائلة لم يدمر تدميرا كاملاالا ان العائلـة تعرضـت للاسـتفزاز والابتزاز وتعرضت ممتلكاتها للنهب . وبعد فتـرة مـنالاستقرار فى سكن مؤقت اشترت العائلة منزلا جديدا فى مكان آمن سرعان ما أصبح هو الآخـرواحدا من أسوأ نقاط الاضطرابات . انفجرت المظاهرات والاشتباكات بعد خمسة أسابيع مننزول العائلة فى منزلها الجديد . ولعـدة ليـال اصبحت شوارع الحي الجديد ميـدان معركـةحربية حقيقية بين الفرقاء المتقاتلين من جهة ، وبينهم وبين رجال الجيش والأمن من جهة اخرى،وكثيرا ما وقع الصدام فى حديقة المنزل الجديد الذى نزلته عائلة مارجريت .

عندما وقع هـذا للمـرة الأولى ، راحتمارجريت تصرخ وتزعق وخرت مغشيا عليها وكان لابد من نقلها الى المستشفى حيث جاءت نتائج كلالفحوص البدنية سلبية . اخرجت مارجريت من المستشفى ولكنها ــ وعلى الرغم مـن تمتعمنطقتها السكنية ، بعد ذلك بهدوء نسبي ــ ظلت تتعرض لنوبات الاغماء سواء فى المدرسة أم فىالبيت ، واضطرب اكلها وبدأ وزنها فى الهبوط .

كانت مارجريت ثانى طفل فى عائلة مكونةمن سبعة اطفال . كان ابوها عاطلا مزمنا ، وكان هو وأمها يعانيان من توتر عصبي مزمن وسرعةانفجـار عاطفي منـذ أن بـدات الاضطرابات فى بلفاست . لم يكـن فى تاريخ طفولـة مارجريتمايثير الانتباه . كانت دائما خجولة مترددة ولكن مشاكلها مع اترابها بدات بالازدياد منذ انفجـارالاضطرابات السياسية فى اغسطس ١٩٦٩ . منذ ذلك الوقت بدات مارجريت تعانى مـن فقدانالقدرة على النوم توهما ان دارها ستحرق وانها ستحترق معها . كذلك صـار الخوف الشديديعتريها من ظواهر اخـرى ، مثـل الضوضاء والضجيج والصراخ الجماهيرى فى الشـوارع ،الامر الذى تحول الى خوف من الذهـاب الـى المدرسة،فأخذت تقصر فى أداء واجباتها المدرسية،وهذا ادى بدوره الى انحطاط مستواها المدرسي.

ظلت ظاهرة الاغماء تتكرر عند مارجريت لأشهر عدة وبخاصة كلما شاهدت تجمعات من الناس حتى حين لم يكونوا فى حالة تظاهر ، وكذلك عند سماع الاشارات العابرة الى حوادث الاشتباكات الدمويه او اخبار الصراع السياسي من أبويها او من جيرانها . ولقد حاول الاطباء الذين تولوا علاجها فى مستشفى الامراض العقلية ان يوضحوا لها العلاقة بين ظاهرة الاغماء المتكررة عندها وبين التجارب القاسية التى مرت بها ، وان الثانية هى سبب الأولى وان ليس هناك اى سبب تشريحى او عضوى أو فسيولوجي للاغماء. وقد أحرزت بعض التحسن بعد لأي ، الا أن مستواها العلمى استمر فى الهبوط ، الامر الذى اوجب نقلها الى صفوف ضعاف المتعلمين .

●● **مارى ،** كانت فى العاشرة من عمرها حين جيء بها الى العيادة لأول مرة بسبب تعرضها لنوبة صرع ناجمة عن حالة من القلق الشديد . وكانت مارى أصغر أربعة اطفال فى عائلتها ، وكانت العائلة تعيش فى واحدة من اسوأ مناطق بلفاست اضطرابا واكثرها اقتتالا .

اختفى أبو مارى دون أن يعثر له على أثر لمدة ثمانية اشهر قبل جلبها الى المستشفى ، والمعتقد انه كانت هناك اسباب سياسية وراء رحيله . وقد تعرضت والدتها لحالات من الكآبة الشديدة بسبب الحوادث الدموية الاخيرة فى بلفاست . كانت مارى قد تعرضت لحالات صرع ثانوية قبل ١٩٦٩ ، غير انها كانت نوبات عابرة وقليلة صارت تتكرر بعدد أكبر وبدرجات اعلى من الحدة بعد انفجار الصراع السياسي . وقد قصّت مارى بدايات انهيارها النفسى على طبيبها على الوجه التالى :

« فى أحد أيام اغسطس ١٩٦٩ جاءت مجموعة من رجال الشرطة الخاصة الى الشارع الذى نقطن فيه وبدأوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين اثر احراق معمل صغير يقع فى الشارع الذى كنا نقيم فيه . وطلبت مني امي الصعود الى الطابق الاعلى من الدار ووضعتنى فى احدى حجر النوم وتركتنى وحدى ولكنها نسيت ان تسحب ستائر الحجرة التى وضعتنى فيها . وجلست عند حافة الشباك انظر الى مايجرى فى الشارع كما لو كنت فى حالة شلل كلي . لم اكن خائفة فى تلك اللحظات وانما المنظر كان يبدو كما لو كان فيلما سينمائيا . بعد يومين من ذلك الحادث كنت ورفيقاتى فى طريقنا الى المدرسة ، وكنا نركض لاننا كنا متأخرات وفجأة عاودتنى صورة الناس يتراكضون فى الشارع ومن ورائهم رجال الشرطة الخاصة ببنادقهم ورشاشاتهم . بغتة احسست ان ساقى يعتريها ضعف شديد ثم سقطت الى الارض ولم افق الا فى المستشفى حيث اخبرنى الشرطي اني تعرضت لحالة اغماء .

ذات مرة قالت لي امى أوقدى طباخ الغاز . وفجأة تذكرت قنابل الغاز التى كان رجال الشرطة يطلقونها على المتظاهرين فبدأت أشهق شهيقا سريعا ، واخذت يداى ترتعشان ثم تهاويت الى الارض ولم افق الا فى المستشفى . فى اليوم التالى . . فى المدرسة . . كنا فى درس اللغة وكان الموضوع الاصوات التى تخرجها الاشياء المختلفة . سألتنا المعلمة ماهي الآلة التي تخرج الصوت . . تنكاليك . . تنكاليك . . فتذكرت من دون اى شيء آخر صوت سيارة الاطفاء وأحسست بيدى ترتجفان ، ولم افق الا وانا ساقطة على الارض فى حالة اغماء اخرى . . . »

استمرت مارى معوقة بهذه النوبات التىكان يسبقها ارتفاع مفاجىء فى حدة التنفس . وكانت أشياء كثيرة تسبب تعرضها للاغماء ، مثل انين جرس المدرسة او رؤية الشرارات الكهربائية حتى رؤية الاطفال يركضون وهم يخرجون من المدارس .

اعيد ادخالها الى مستشفى الامراض النفسية ثم أحيلت الى عيادة نفسية للاطفال وهناك وجد من الضرورى حجب الاخبار التلفزيونية عنها ، وحيل بينها وبين سماع الاحاديث عن القتال او المظاهرات نظرا لاتضاح العلاقة بين القلق وسرعة التنفس الذى اصبح النمط الذى يقود الى ظاهرة الاغماء لديها . لقد اوشكت ذات مرة أن تتعرض للاغماء بسبب رؤيتها لعبة عند أحد أصدقائها على شكل دبابة نفاثة للهب فما كان من المسؤولين عن علاجها الا ان ابعدوا اللعبة عنها لانقاذها . (٩)

• • •

على أن ضحايا الطفولة والشباب لايقتنصهم رصاص الحروب العقائدية المشتجرة وحدها . فقد يكون فى الحرب الصامتة المعلنة عليهم من الآباء والامهات أحيانا ماهو أشد نكالا بهم وأكثر تخريبا لأوضاعهم النفسية والعقلية ، وذلك بسبب مايسقطه هؤلاء الآباء والامهات احيانا من آثامهم الماضية على أولادهم وبناتهم ، وبمايقتضونه من اولادهم وبناتهم من تعويضات نفسية عن فشل قديم عانوه ، أو مرارة نفسية قاسوها فى طفولتهم وظل جرحها يكبر معهم حتى اذا كبر أولادهم وبناتهم ورشدوا ظنوهم المثابة التي توفى لهم فيها ديونهم القديمة على آبائهم وامهاتهم . ولنجتزىء هنا بمثلين اثنين .

● **المستر ميلر** مواطن من مدينة نيويورك وهو يعيل من الاطفال سبعة يضاف اليهم زوجه وامه وهكذا يستوى عدد افراد الاسرة عشرة . والمستر ميلر ليس من ذوى الدخول الواسعة ، وكبرى بناته هى دوروثي فى المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية . ودوروثي ترغب ان تظهر من المظاهر باجملها ، وهى كأية شابة فى عمرها تستهويها مفاتن الشباب من عطر وحلي وملابس وحفلات وغير ذلك . وهي تدرك ان موارد العائلة المالية لا تكفي لنوالها ما تريد . وهي فى ذات الوقت حريصة على كرامتها واسم عائلتها . والمدارس فى الولايات المتحدة تدرك حاجات الشباب ، وتعي ان كثيرا من الاسر قد تعجز عن الوفاء لابنائها وبناتها بما يريدون . ولذلك فهي ـ اى المدارس ـ تضم الى أجهزتها الادارية أجهزة متخصصة بتشغيل الطلاب فى العطل الصيفية الطويلة فى المصانع أو منتجعات الاصطياف والاستجمام وتضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ، فهى اذ تريح الاسرة المعسرة أو المضيق عليها فى الرزق من قدر من تكاليف المدرسة فانها في الوقت ذاته تنيل الاولاد والبنات فرصة الخبرة العملية ، وتعلم الاعتماد على النفس واحترام الكد من أجل العيش بكرامة ، ثم تعيد الاولاد والبنات فى آخر الصيف الى منازلهم بجيوب مملوءة بمقادير محترمة

---

(٩) Fraser . . . op.cit., p . 84-88.

من المال تضمن لهم ما يشتهون من متع الشباب . وكانت مدرسة دوروثي تقدم هذه الخدمات لطلابها شأنها شان المدارس الاخرى . وتقدمت دوروثي الى مكتب تشغيل الطلاب تلتمس عملا خلال الصيف ، ووفرت لها المدرسة عملا مربحا فى احد المصايف الجميلة . فلما أشعرت دوروثي اهلها بالترتيب الصيفي انفجر الاب مغضبا من اقدام ابنته على ذلك ثم راجع المدرسة ناقما ومعترضا ومحتجا . ويعجب اولو الامر فى المدرسة من نقمة الرجل واعتراضة على حين كانوا يظنون انهم قد احسنوا اليه والى ابنته ، فيناقشونه فى الامر ، ويتذرع الرجل في البداية بأن الامر يتنافى وحبه لابنته ، فهو لا يريد لها أن تتحمل متاعب العمل فى هذه السن المبكرة . فاذا نوقش فى ان البنت هي الراغبة فى العمل وهي الساعية اليه قال ان كرامته تأبي عليه ان يرسل ابنته للعمل فى الفنادق . فاذا انبىء بان اسرا اكبر من اسرته دخلا وانبه في المجتمع ذكرا ترسل بناتها للعمل دون أن تجد فى الامر حرجا قال انه يخشى على ابنته من ذئاب الرجال فى تلك الاماكن ، الامر الذى يثير دهشة المسؤولين لان أيا من البنات اللواتي سبق لهن العمل فى الماضى لم تتعرض لمكروه فما الذى خوف المستر ميلر من مثل هذه المحاذير ؟ هنا أجاب ميلر انه متأكد من ذلك .

ـ وكيف تأكدت من ذلك ؟

ـ ان هذا شأني الخاص ...

ـ ولكنه شأن المدرسة ايضا ؟ فالمدرسة ليست اقل حرصا على شرف بناتها من اولياء امورهن ؟

ـ اني اعلم مالا تعلمون .

ـ وأني لك هذا العلم الذى لانعلم يا مستر ميلر ؟

ـ ان القضية بسيطة ... يأتى الرجل المصطاف الموسر الى هذه الاماكن هربا من زوجته او من عمله .. فتتصل به الفتاة عن طريق خدمته على المائدة ، فتستهويه فيشتهيها فيترك لها فى اليوم نصف دولار على المائدة ، ثم يصير نصف الدولار دولارا فى اليوم الثانى .. ثم يتجاوز الامر الدولار الى دعوة لرقصة على ساحل البحيرة تحت ضوء القمر .. ثم الى هدية صغيرة ثم هدية اكبر .. وهكذا تبدأ الفتاة تنجر الى الشرك المنصوب لها حتى تكتشف فى نهاية الطريق انها دفعت الكثير لقاء ثمن بخس .

كان المستر ميلر يقول هذا بكل اخلاص للمسؤول عن تشغيل الطلبة ، ويتذرع به للحيلولة دون ارسال ابنته للعمل والمسؤول فاغر فاه عجبا ودهشة مما يقول هذا الاب الغيور . فلما اتم المستر ميلر حديثه قال له المسؤول : ـ

ـ انك ياسيدى تثير عجبنا الى حد الخوف .. فهل لك ان تعطينا واقعة واحدة مصداقا لما تقول وعلى ما تلقيه من التهم ؟

فما كان من المستر الا ان يبلغ به الغضب مداه فينفجر صارخا فى وجه المسؤول ...

ــ اية بينة تريد ... ؟ كل الرجال يفعلون هذا ... لقد كنت انا نفسي أفعله ردحا طويلا من الزمن .

بعد ذلك تهاوى ميلر على مقعده كمن القى عن كاهله ثقلا كبيرا واستراح . ورفع الحجاب امام مسؤولى المدرسة . اذن كان المستر ميلر يصارع آثامه هو واخطاءه هو وضحاياه هو من خلال اعتراض على عمل ابنته . كانت الآثام والاخطاء والضحايا تئز فى صدره أن الرجال كلهم على شاكلته ، وان ابنته لن تكون شيئا مختلفا عن اللواتى سقطن فى شباك ابيها . واذن لم يكن هناك حب ابوى ولا كرامة شخصية يأبيان على الرجل ارسال ابنته للعمل وانما كان هناك الخوف ... الخوف من ان تدفع ابنته ثمن حرمات بنات الآخرين التى استباحها في شبابه ... لان الآباء الذين ياكلون اعنابا لم تنضج تضرس اسنان ابنائهم ، كما يقول الانجيل .

●● **الآن تيودور** شاب فى التاسعة عشرة من عمره ، وهو مخفق فى عمله الجامعى نتيجة احساس عميق بالعجز فى المساهمة فى رسم مستقبله وتخطيط حياته القابلة وهو يعانى من القلق وضآلة الشعور بالرضا عن نفسه وعن الحياة . لقد كان طفلا وحيدا لأبويه اللذين كانا يتمتعان بمركز اجتماعى محترم وقد حرصا منذ البداية على حمايته من حقائق الحياة المؤذية . وكان كلما سأل أبويه بعض الاسئلة اجيب من قبلهما « انتظر حتى تكبر » . وكلما حاول ان يقوم ببعض الاعمال على مسؤوليته الخاصة ساله ابواه « أو تظنك قادرا على القيام بذلك ؟ » . وكلما حاول ان يناقش مستقبله المهنى معهما قالا له « ان امامك الكثير من الوقت لتفكر فى ذلك ، اما فى الوقت الحاضر فان واجبك الوحيد هو الالتحاق بالجامعة » . وكانت الهواية الوحيدة التي سمح له بممارستها هي لعبة « الجولف » وكانت تلك هى الهواية الوحيدة لأبيه ايضا . وعندما التحق بالجامعة سأل ابويه « ما الغرض من ذهابي الى الجامعة ؟ » وكان الجواب « اننا سنقرر ذلك فيما بعد بطبيعة الحال » . كان الأبوان يفكران فى مستقبله المهنى الا انهما جعلا ذلك سرا مكتوما ليتاكدا من طاعته المطلقة لتوجيهاتهما . اخيرا بدا الشاب يحس بالرهق من هذه الحياة التائهة التي كان يحياها . ثم جاء اليوم الذى كان لا بد ان يجىء فى هذه الحالة وكل حالة اخرى مشابهة لها عند الاطفال المكبوتين وصرح الشاب قائلا « اننى اشعر باننى مثبط . انني لا أدرى الى اين أسير ولا الى اين اذهب . اننى لا احس بأننى اساهم فى تقرير مصيرى . عندما اسأل سؤالا فانى لا أحصل على جواب . حتى حينما ادخل على ابوىّ وهما منشغلان بحديث من الاحاديث فانهما يسكتان فجاة . اننى لم اشعر بأية لذة من حياتى فى السنتين او السنوات الثلاث الاخيرة . انى شديد القلق . انى اعتقد ان الامور تعاكسنى بشكل سيء تماما (١٠) » .

● ● ●

(١٠) English & Pearson, **Emotional Problems of Living**, pp. 273-307, Norton Company, New York, 1950.

اللوح الرابع

الرفض

الاستاذ ــ اريد أن أعرف الفلسفة وراءاطالة الشعر وارساله بهذه الصورة المبعثرة .

الطالب ــ هل يزعجك ذلك ؟

الاستاذ ــ كلا ... ولكنى من جيل متقدمعلى جيلك ولم يكن من الذوق العام فى زماننا ارسال شعور الرجال بالشكل الذى تفعلون انتمالآن .

الطالب ــ اعتقد انها قضية ذوق شخصي .

الاستاذ ــ ولكنها ظاهرة عامة والظواهرالعامة لا يمكن أن تترجم عن اذواق شخصية . ولو كانت قضيةذوق شخصي لاختلف الشباب فيها . واذا كانت ظاهرة اجتماعية عامة ثابتة ــ وهى كذلك فعلا ــ فلا بد لها من فلسفة . انالظواهر الجماعية فى السلوك الانسانى هى قوانين غير مدونة ولكنها فاعلة فى السلوك .

الطالب ــ لم أخبرك الحقيقة ... ولكن ماهو غرضك على وجه التحقيق ؟

الاستاذ ــ حب الاستطلاع ومحاولة فهمالدوافع الانسانية .. انا معنى بمشاكل الانسان ... وانا ادرك ان الظواهر السلوكية لا بد انتكون رموزا لأشياء أعمق جذورا فى النفس البشرية ...

الطالب ــ صدقت ... ان الشعر الطويل المرسلالمشوش والقذر احيانا هو رمز لشيء أعمق منه بكثير .

الاستاذ ــ هو رمز على ماذا ؟

الطالب ــ الرفض .

الاستاذ ــ ولكن رفض ماذا ؟

الطالب ــ قيم المجتمع ؟

الاستاذ ــ اى من قيم المجتمع ؟

الطالب ــ قيمه الاستهلاكية . قيمهالاستحواذية . ان روح الاقتناء والاستزادة والانفراد بالاشياء والتكثر منها والتنافس عليهابدات تدمر الأسس الانسانية للمجتمع . الناس يتنافسون على اقتناء البيوت الفخمة والاثاثالفخم وامتلاك اكثر من سيارة واحدة واكثر من جهازتلفزيون.حتى الكلاب والقطط اصبحت ممايتنافس فيها الناس . بهذا صرف النظر عن الانسان نفسه الذى يفترض ان يكون الغاية العليامن الحياة كلها ، من الوجود . لقد وضع الانسان فى خدمة الاشياء بدلا من أن تكون الاشياء فىخدمته . أليس ذلك شيئا مأسويا ؟ .

الاستاذ ــ نعم .. هو مأسوى بالفعل ..ولكن ما علاقة ذلك كله بالشعر الطويل المنثور . الانسان صاحب العقيدة يكافح من أجل افكاره بشعر ومن دون شعر . . وهل يعنى كون بعض الرؤوس صلعاء أن أصحابها ليسوا من أصحاب الافكار الانسانية العالية ؟

الطالب ــ انت الآن تمزح ...

الاستاذ ــ بل أنا جاد .

الطالب ــ حسنا اذن . لنبدأ من هذه النقطة . لوعدنا الى الوراء قرنين أو ثلاثة قرون سنجد ان الشعر الطويل للرجال كان ظاهرة عامة . حتى الانبياء .. عيسى وموسى عليهما السلام مثلا ... تجدهما مصورين او منحوتين بجدائل طويلة مرسلة على اكتافهما وذوائب اطول مدلاة على جباههما . طف كنائس الدنيا كلها فلن تجد المسيح مصورا فى تمثال واحد من دون جدائله وذوائبه . هذا هو الاصل الثقافى للشعر الطويل المرسل عند الرجل . رجال الصحراء العرب الى اليوم يتزينون بشعور طويلة تحت كوفياتهم المهفهفة فى الهواء . ان لهذا التعلق بالشعر الطويل سببا بطبيعة الحال . ان الشعر اكثر من اى شيء آخر يعطى الرجل شخصيته المتفردة المتميزة وعندما تجزّ فروة راسه يتغير شكله كليا وربما اضطربت اوضاعه النفسية .

الاستاذ ــ ولكن هل تحتمل هذه القضية كل هذه المضامين ؟ الا ترى انك تحمل الاشياء فوق طاقتها ؟

الطالب ــ عموما ... ليست هذه « هى » القضية ...

الاستاذ ــ ما « هى » القضية اذن ؟

الطالب ــ الانسان « هو » القضية .. ان حضارتكم الراهنة تمجد الابداع الانسانى ولكنها تدمر الكائن المبدع نفسه . هذا من صنع البورجوازيين .

• • •

اللوح الخامس

القنوط

الاستاذ ــ ولكن من أين جئت بفكرة تدمير « المبدع » ؟

الطالب ــ **ان الاعتداء على الانسان يبدأ مبكرا . منذ الطفولة المبكرة . انهم يحاولون صبك فى قوالبهم الموروثة ، يجب ان تكون صورة أخرى مكررة عن ملايين صور الرجال الجوف .** الم تسمع بكتاب « اندريه جيد » ، أيتها العائلات .. انى اكرهك » ؟

الاستاذ ــ بلى سمعت به .

الطالب ـ لقد كان جئيرا ضد معاملة الاطفال على أنهم راشدون صغار . لقد كرر سارتر الشكوى ذاتها والاحتجاج ذاته فى كتابه « الكلمات »(١٩٦٣) وقد حاول سارتر فى هذا الكتاب التنبيه الى ان خير طريقة لتفادى جعل الناس نوريين هي توفير تربية ديموقراطية اصيلة لهم .

الاستاذ ـ ولكن البورجوازيين الذين هاجمتهم قبل قليل لم يبنوا مجدهم ونفوذهم على هذه التربية الديموقراطية الاصيلة ؟

الطالب ـ ان البورجوازى يفسر وجوده على هذه الارض بانه نوع من أنواع الحق الآلهى . اما البروليتارى فلا يملك مثل هذا اليقين ، لانه لايتمتع بنفس الضمانات التى يتمتع بها الطرف الآخر .

الاستاذ ـ ما الذى يمنعه من ذلك ؟

الطالب ـ لان الصناعة كما يقول « اندريه مالرو » دمرت صورة الله فى الضمير الانسانى وبهذا محت من امام الانسان كل مايعترض طريقه، وعندما وصل نهاية اتعابه لم يجد الا الموت كما وجده **رانسى** امام جسد حبيبته . (١١)

الاستاذ ـ ولكن الا ترى أنك تتخذ موقفا مفرقا فى التشاؤم من العالم ؟

الطالب ـ أبدا .. انه عالم عبثى قائم على الخديعة .

الاستاذ ـ الخديعة ؟

الطالب ـ نعم الخديعة .. انها فى المركز من المأساة الانسانية المعاصرة .. أو لم تسمع بمحنة « هنرى مارتان » التى هى رمز لأزمات كل الشباب المخدوع فى هذا العالم ؟

الاستاذ ـ بلى سمعت به اليس هو صاحب « سارتر » الذى ...

الطالب ـ بلى انه هو . لقد انضم مارتان الى المقاومة الشعبية الفرنسية سنة ١٩٤٥ وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وأبلى بلاءا حسنا ، ثم نقل الى البحرية الفرنسية بعد الحرب ، وارسل الى الهند الصينية حيث اوحى اليه انه ارسل للمشاركة فى تحرير شعوب المنطقة من الاحتلال اليابانى . غير انه سرعان ما اكتشف انه كان متوقعا منه ان يسهم فى ابقاء تلك الشعوب تحت السيطرة الفرنسية الاستعمارية ، فأحس بالخيانة وحاول ثلاث مرات شراء حريته من الجندية واخفق فيها كلها فما كان منه عام ١٩٤٩ الا أن قام بتوزيع منشورات مناهضة للحرب فى قاعدة طولون العسكرية انتهت به الى السجن خمس سنوات .

الاستاذ ـ هل كان فى مقدوره ان يغير العالم وحده ؟

الطالب ـ كلا .. وتلك كانت خطيئته المهلكة .. انه أراد ان يعلن حربا على النظام العالمى الفاسد ، وأن يقودها ويخوضها وحده ، على حين أن المخدوعين فى العالم كثير كثير ، افرادا كانوا أم جماعات .

---

(١١) رانسى مصلح دينى فرنسى عاش بين ١٦٢٦ ـ ١٧٠٠ ـ وانتهى عاشقا مات بين يدى عشيقته . لقد طرح مالرو افكاره هذه فى رواية « الفاتحون ١٩٢٨ » و « الامل ١٩٣٧ » .

الاستاذ ـ وكيف تخدع الجماعات ؟

الطالب ـ ان خديعة الجماعات لا تختلف عن خديعة الافراد الا بالدرجة فقط . الم تقرأ ما كتبه « توينبي » عن خديعة الرجل الاسود في الولايات المتحدة .

الاستاذ ـ وماذا قال توينبي ؟

الطالب ـ قال توينبي ان « الزنجي الامريكي » وعد أولا بأن تحريره من الرق ، ومن ثم توحده مع الرجل الابيض سيضعان حدا لضعة مركزه الاجتماعي ومستواه المعاشي . ولكن في كل مرة كانت آمال الزنوج تخيب . وكان من نتيجة ذلك وتبعا له ان اصبح الزنجي حائرا ضائعا شاكا تأكل المرارة قلبه ، وقد دفع ذلك فيما دفع اليه الى ان تتجه قطاعات من المجتمع الزنجي الامريكي الى الايمان بحياة جديدة قائمة على الانفصال الكلي عن الرجل الابيض ، انفصال قائم هذه المرة على اختيار السود ومن صنعهم يجري تحقيقه بوسائل العنف (١٢) .

الاستاذ ـ اذا كان العالم يبدو لكم مزاجا عجيبا من العبثية والخديعة والاغترابات ، فانتم لا تبقون على باب من ابواب الرجاء مفتوحا امام مسؤوليات المستقبل .

الطالب ـ نعم هو ذلك . القنوط من الامل هو العقلانية الوحيدة التي تجعل العالم محتملا ، وهي التي تحيل هذه التجربة المبهضة ـ الحياة ـ الى حالة من حالات الوعي . لقد تنبأ صاموئيل بيكيت Samuel Beckett (١٣) لذلك منذ ١٩٣٨ في شخصية مورفي .

الاستاذ ـ وما هي رؤيا بيكيت عن العالم من خلال مورفي ؟

الطالب ـ محض عبث لا مبرر له ولا طائل تحته . فانت تعرف ان مورفي مواطن من مواطني دبلن يعيش في لندن على الصدقات ، وهو وحداني ذاتي سيء العشرة يؤمن بأن عقله عبارة عن « مجال ضحل كبير مغلق انغلاقا تاما بالنسبة للعالم الخارجي . وهو يريد ان يوصد بوابات عقله من دون العالم الذى تبهضه عبثيته وبطلانه وفوضاه ، وهي أمور لا تترك له فرصة للتوافق مع هذا العالم ، ولذا فهو يرى ان المعتكف الوحيد في العالم هو « عقله » الذى هو المكان الاوحد حيث يستطيع ان يجد السلام الداخلي فيه ، وحيث لا يكون الا « هبوة » في ظلام الحرية المطلقة . الطريق التي يسلكها مورفي الى الرحيل الى اعماقه الداخلية هي ان يربط نفسه عاريا الى كرسي هزاز ثم يهتز ويهتز حتى « يحيي عقله » .

ان رحيله بعيدا عن زعزعات العالم الخارجي « عالم الامتداد » وتقدمه الى « كهف النفس » ذلك الكهف الباطني المظلم يتعقد بحبه لعاهرة اسمها سيليا وهي « مخلوق شهواني » تبحث

---

(١٢) Toynbee, A., **Experiences**, p. 248, Oxford University Press, 1969, London.

(١٣) صاموئيل بيكيت كاتب مسرحي ايرلندي ولد عام ١٩٠٦ واختار باريس منذ صدر شبابه مستقرا له حيث نشر اكثر مسرحياته باللغة الفرنسية وبنى مجده الادبي هناك وهو يعد الآن بالاضافة الى برخت ويونسكو اقطاب الحركة المسرحية العالمية في الاربعين سنة الاخيرة . ومن اهم اعماله « مورفي ١٩٣٨ » و « في انتظار جودو ١٩٥٢ » و « نهاية اللعبة ١٩٥٧ » و « كيف الحال ١٩٦١ » .

عن مركز اجتماعي محترم باقترانها بمورفي وحملها اياه على البحث عن عمل . غير ان العمل الذى يحصل عليه مورفي يكون فى مصحة للامراض العقلية . فى هذا المكان يجد مورفي « ملاذه من الدنيا » ويحس بنوع غريب من السعادة بين الملتاثين عقليا ، لانهم ولجوا المنطقة التي يحاول هو الوصول اليها عن طريق كرسيه الهزاز . على أن سعادة مورفي لا تدوم طويلا لانه يحترق ذات يوم هو وكرسيه الهزاز .

يترك مورفي وراءه وصيته يوصي فيها ان تحرق رفاته وان توضع بقاياها في كيس من الورق وان تحمل الى مسرح « آبى » الذى انقضت فيه أسعد ساعات هذه البقايا ، وان تنثر فى مجارى مياه ذلك المسرح دون احتفال اواظهار للحزن . ولكن حتى هذه الأمنية الاخيرة كانت غير ممكنة التحقيق ، ذلك ان الصديق الذى حمل رماد رفات مورفي ـ وقبل ان ينفذ الوصية ـ يدخل فى شجار مع عامل البار فى المسرح فيقذفه بكيس الرماد فى لحظة غضب ويتناثر الرماد على الجدران وارضية البار ويصبح فى التو موضع الدهس والنخس بنعال السكارى ، وهكذا يغدو جسم مورفي وعقله ونفسه مبعثرة على أرض البار . وقبل أن يبزغ فجر اليوم التالى تكون الارض قد كنست من « الرمل والبيرة واعقاب السكاير والزجاج والكبريت والبصاق والقيء » المختلطة ببقايا رفات مورفي .

الاستاذ ـ لا أمل اذن امام الانسان فى شيء من الخير او الرجاء فيه ؟

الطالب ـ لا بل هنالك أمل .. هو اقرب الى البطلان منه الى الحقيقة .. هو الامل فى الأمل ..

الاستاذ ـ لا افهم ؟

الطالب ـ انه وجود المرتقب الذى يرينا بيكيت كيف ان كل الناس تتوقعه ، ولكنه لا يجيء .. ومع هذا فهم يحلمون بمجيئه وهم لا يريدون ان يخسروا هذا الحلم لانه هو الشيء الوحيد المتبقى لهم . (١٤)

● ● ●

---

(١٤) فى مفتتح مسرحية « فى انتظار جودو » نسمع هذا الحوار بين صعلوكين ينتظران جودو على قارعة طريق وقد عضهما الجوع :

استراجون ـ هل انت متاكد ان هذا هو المكان الذى علينا ان ننتظره فيه ؟
فيلاديمير ـ لقد قال بجوار الشجرة . ماذا تريد ان تقول ؟ اننا فى المكان الخطا ؟
استراجون ـ كان يجب ان يكون هنا .
فيلاديمير ـ انه لم يؤكد انه سياتي
استراجون ـ واذا لم يات ؟
فيلاديمير ـ سوف ناتى غدا
استراجون ـ ثم بعد غد
فيلاديمير ـ يحتمل
استراجون ـ المسالة هي ....
فيلاديمير ـ الى ان ياتى .....

اللوح السادس

الضـياع

الأستاذ ـ الا ترى ان بيكيت وامثاله ليسوا ممثلين للعالم ، وان الوضع الانساني ليس بالسوء الذى يصورونه به ؟

الطالب ـ ولكن الكتاب من طبقته هم ضمير العالم .

الاستاذ ـ اليست هناك معايير هادية فى هذه الدنيا غير رؤى هؤلاء الكتاب ، وغير الصراع السياسي والكفاح الدموى ؟

الطالب ـ مثل ماذا ؟

الاستاذ ـ خذ القيم مثلا .. ألم تكن حتى الآن دليلا هاديا للبشرية ؟ الم تكن مصدرا من مصادر الاستقرار النفسي للانسان العادى ؟

الطالب ـ الانسان العادى الذى لا يفكر بطبيعة الحال ... ذلك هو الذى تريد .. أليس كذلك ؟

الاستاذ ـ ابدا .. الانسان المفكر هو الذى يعرف القيم ويميزها ويسترشد بها .

الطالب ـ قد يكون الامر كذلك ولكن المشكلة هي أنه ليست هناك قيم متفق عليها اصلا ، ولذا فاننا لسنا فى وضع أفضل من وضع مورفى فى انفصاله عن العالم .

الاستاذ ـ وكيف ذاك ؟

الطالب ـ القيمة شيء نسبي ، والنسبي قابل للتعليل والتأويل .. وما كان كذلك لايمكن الاعتداد بـه .

الاستاذ ـ ومن أين جاءت نسبية القيم ؟

الطالب ـ جاءت من غياب الاجماع عليها . فهناك من يرى ان القيمة شيء ذاتي ، وانها لا توجد الا كعواطف أو احاسيس بالرغبة أو النفور ، بالحب أو الكره ، بالاحترام أو الازدراء نحو شيء معين أو نحو شخص معين . فالاكل والشرب والاستمتاع بالموسيقى او تأمل غروب الشمس كلها قيم لانها تثير فينا احساسا لذيذا ، وتقديرا ، وتوهجا فى المشاعر . انها تعطينا تجارب شخصية فى طبيعة الاحساسات التي نلذها . وهذا لا تكون القيمة الا اهتماما أو متعة يعطي الاشياء معنى فى نظرنا عندما نرغب فيها او نحس بالحاجة اليها . حتى عندما تكون القيمة فى الشيء فعلا فان الشيء نفسه لا يكتسب من الاهمية الا بمقدار رغبة الانسان فيه او حاجته اليه ، وكما يقول بيرى R. B. Perry فان « اى شيء ـ مهما كان ـ يكتسب قيمة » عندما يحظي

باهتمام الانسان به أيا كانت درجة الاهتمام ،بالضبط كهدف الرامى الذى لا يصبح هدفا الا عندما يقع التصويب عليه من قبل رام معين » . (١٥)

ويوضح **باركر** هذه الحقيقة بشكل ادق فى قوله « ان القيم تنتسب الى العالم الداخلي ، عالم العقل . ان اشباع الرغبة هو القيمة الحقيقية ، أما ما يساعد على تحقيق الرغبة او اشباعها فهو مجرد اداة . القيمة هى دائما خبرة ، وليست شيئا . الأشياء يمكن ان تكون قيمة ولكنها لا يمكن ان تكون قيما على الاطلاق . اننا نعكس القيمة الداخلية على العالم الخارجي ونسبغها على الاشياء التي تحقق الرغبة أو تساعد على تحقيقها . . » (١٦)

الاستاذ ــ اراك تغلو غلوا شديدا فى نفي واقعية القيم الانسانية ، وتنفي عنها صفة الموضوعية والحقيقة ، على حين انى أعلم أن قيم الاشياء فيها وليست فى الانسان . وفى تخميني انه لو لم تكن الاشياء قيمة بذاتها لما قيمها الانسان . الانسان يكتشف قيمة الاشياء فقط . ولا ريب ان هناك ميزة او خاصية أو نظاما للخصائص والمزايا فى « الشىء » تجعل الحكم عليه ضروريا ومعقولا فى وقت معا لانها تثير فينا استجابة تقييمية Appreciative Response . بعبارة اخرى . . ان فيها شيئا مستقلا يلذ العين أو الاذن او الحاسة الخلقية أو الملكة الجمالية فى الانسان . وعلى هذا فان الانسان لا يهتم الا بتلك الاشياء التى تبدو له ذات قيمة أصلا .

الطالب ــ قد يكون هذا حقا . . . ولكن اكتشاف قيمة الشيء لا يتحقق الا من خلال التجربة الفردية ، اى الانفعال بالاشياء ، وهذه قضية ذاتية صرف .

الاستاذ ــ هذا حق ولذا فاننا يجب ان نميز بين أمرين مهمين ، بين التجربة النفسية المصاحبة للحكم على الشيء من جهة ، وبين « الشيء Object » أو « الوضع Situation » الذى نحكم عليه .

الطالب ــ كيف تفصل الانفعال عن موضوعه ؟ الا يبدو ذلك صعبا ان لم يكن مستحيلا ؟

الاستاذ ــ لا استحالة فى الامر . خذ مثلا احكام الناس على الجو من حيث هو حار أو بارد . اننا هنا لا نقول ان احكامهم نفسها حارة او باردة لانها احكام موضوعية من جهة ، ولان ما هو حار او بارد انما هو موجود خارج الانسان . وفى هذه الحالة نستطيع ان نختبر دقة احكامهم بمقاييس الحرارة وسيكون صوابها اوخطأها ــ اى الاحكام ــ مرهونا بمدى توافقها مع ما يشير اليه ميزان الحرارة حتى فى الحديث عن الجمال . . . اننا لا نقول عن شيء انه جميل ما لم يكن فيه ما يبرر هذا الحكم كألوانه مثلا او تناسق ابعاده أوهيئته . قيم الاشياء هي فى الاشياء ذاتها غير ان

---

(١٥) Perry, R. B. ; **General Theory of Value,** pp. 115-116, Longman's Green and Company, New York, 1926.

(١٦) Parker, D.H., **Human Values,** pp. 20-21, Harper & Brothers, New York, 1931.

اكتشافها ليس ميسرا للجميع لأنه رهين بالخبرة والملكة ، فالانسان الذواقة هو الذى يميز الطيب من الخبيث وعندما يعجز الناس عن اكتشاف قيم الاشياء فانهم يبرهنون على عجزهم ليس غير .

الطالب ــ انك لم تزد الامر وضوحا .. كلما فعلت انك خلطت « الشيء » بـ « التجربة » أو « الموضوع » بـ « الانفعال » وجعلتهما شيئا واحدا .

الاستاذ ــ تلك هي بالضبط طبيعة الاشياء . لأن القيمة ــ فى التحليل الاخير للاشياء ــ هي ذات طبيعة علائقية ، بمعنى أن كلا من العوامل الذاتية والموضوعية ضرورية لخلق القيمة ، ذلك ان عملية خلق القيمة أو ايجادها أو احداثها هي علاقة خاصة او معرفة بعلاقة خاصة تتكشف لاشخاص حساسين أو قادرين على التفهم . ان القيمة هى حصيلة تفاعل متغيرين او اكثر فى حالة معينة . وهناك خصائص أو حالات بيئية تثير فى الأجهزة الحسية تلك الاستجابات الفريدة التى نسميها أحكاما اخلاقية . فى مثل هذه الحالات لا يمكن الجواب على السؤال .. » هل الجمال موضوعي أم ذاتي بكلمة نعم أولا . الجواب الصحيح هو ان الجمال صفة او خاصية فى شيء معين تتكون من قدرة ذلك الشيء على احداث اللذة فى ذات متأملة . أن السؤال .. هل الجمال موضوعي ام ذاتي ؟ مشابه منطقا للسؤال .. هل حالة التسمم موضوعية أم ذاتية ؟ ان تجربة اللذة مثل الموت .. انها ليست طاقة ولا قدرة ... انما هى حدث بعض الاشياء قادر على التسبب به فى بعض الناس على حين ان الجمال ــ من الناحية الاخرى ــ هو مثل التسمم ليس حدثا ولا خاصية وانما هو طاقة او قدرة تملكها بعض الاشياء ... لاحداث اللذة فى بعض متأمليها ... » (١٧)

الطالب ــ لقد أعطيت للقضية عمقا عقلانيا جدليا وعزلتها عن ملابساتها الحياتية . ان جيلنا ينظر الى القضايا الاخلاقية على انها مشاكل عملية محمولة فى الرحم الاجتماعي ولا يمكن التماسها فى الجدليات الميتافيزيقية . الفقر والعوز والبطالة واستغلال الانسان للانسان والعبودية الفكرية .. هذه كلها ليست امورا جدلية محضة .. انها من افرازات التركيبة الاجتماعية التي تحتوى الانسان ولا سبيل الى تبديلها الا بتبديل التركيبة الاجتماعية ذاتها . عندما طرحنا قضية القيمة طرحناها على انها أداة استهداء فى الحياة العملية ، أداة للبحث عن الخلاص الانساني .

الاستاذ ــ ومن قال أن مسألة القيمة معزولة او قابلة للعزل عن مشاكل الحياة الانسانية وعن معاناة الانسان ؟ الاخلاق عموما ليست نظاما فى بناء القيم الضابطة للسلوك الانساني فرديا كان أم جماعيا . وهكذا فان الحديث فى القيم أن هو الا المدخل الطبيعي الى مناقشة النظام الاخلاقى الموجه للفعاليات الانسانية والجماعية منها على وجه التخصيص .

الطالب ــ هذا حق .. لولا انك اضفيت على المعالجة درجة عالية من الضبابية اللغوية التي اضاعت المعالم الاساسية للمعضلة الانسانية .. معضلة الاهداف وعبثية الوجود وسقوط

---

(١٧) Ducasse, C. J., Art, The Critics And You, pp. 90-91, Oscar Priest, New York, 1944.

الانسان فى محاولة ابتداع النظم الاجتماعية التيتعطي الوجود الانساني على الارض معنى ، وتعينه على ملء فراغ الزمن الضائع في انتظار جودوالذى يعرف الجميع انه لن يجيء .

الاستاذ ـ القضية هنا تصبح قضيةاختيار ،اختيار التفسير الاتي بالنبوءة والمالىء لفراغ الزمن ، وهذه مسالة اخلاقية صرف .

الطالب ـ ولكن المسألة الاخلاقية ليستاقل ضبابية ولاغبشيةمنمسألةالقيمة،والسقوط فى غياهب الاختيار الاخلاقى ليس أصعب منضياع الطريق امام الباحثين فى معنى القيمة .

الاستاذ ـ ومع هذا فلابد من الاختيار .تريد الحق.. أن المسلكية الاخلاقيةللانسانتبدا بالاختيار أصلا . لقد كان المتدينون الأوائلوالميتافيزيقيون أخلاقيين من الطبقة الاولى رغم ان اخلاقياتهم قد لا تقدم حلا لمعضلات عصرنا .

الطالب ـ هل كان فى غيبياتهم حل حتىلأزمات عصرهم وعبودياتهم هم انفسهم ؟

الاستاذ ـ ربما لم يكن .. ولكن الرؤيةكانت واضحة عندهم وهذا ما منحهم السلام العقلي على الاقل .

الطالب ـ ولكنه كان سلاما مكذوبا . . كانتسليما ولم يكن سلاما .

الاستاذ ـ كانت الطريق امامهم منورة .كانت عقيدتهم هي مجموعة الحدود التي قضت بها القوة العليا ، ارادة الله . ومع تطور المفهومالديني اصبح وجود الانسان كله رهينا بطاعةهذه التعاليم ، كما صارت هذه الطاعة المبرر الوحيدلوجود الانسان على الارض والسبيل الى مثوبته فى الحياة الاخرى ، وقد اكسبه ذلك درجةعاليةمن النبل .

الطالب ـ الطريقة هذه لم تكن عقلانية ،ولهذا حاول الانسان عقلنتها .

الاستاذ ـ قاده هذا الى المثالية الاخلاقية .ابتدات هذه المثالية بأفلاطون وانتهت بـ « كانط Kant » الذى كان واحدا من أبرع الفلاسفةالميتافيزيقيين ومبلور الاخلاقية الميتافيزيقية فى كتابيه (**ميتافيزيقية الاخلاق** Methaphisics of Morals) **ونقد العقل العملى** Critique of Practical Reason . لقد اطلق كانط علىفلسفته الاخلاقية اسم « الاخلاقية الصورية Ethical Formalism » هل قرات كانط ؟

الطالب ـ اجل قراته واعرف قوانينـهالاخلاقية العامة ، واعرف شروطه لاخلاقية الفعل الانساني وهي ثلاثة (أولها) مبدأ الكونية بمعنىأن الفعل الاخلاقى ينبغى أن ينبثق ليس من الرغبة او الميل ولكن من مبادىء يمكن تعميمهاعلىكل الظروف والاحوال وأن تصدق فى كل تلك الظروف والاحوال ايضا . و **(ثانيها)** مبدأالانسانية كغاية فى ذاتها ، بمعنى ان الانسان هو غاية الحياة العليا على هذه الارض ، ولا يجـوزاستعماله اداة لأية غاية أخرى كما فى الرق او البغاء او الاستغلال الاقتصادى . **والمبدأ الثالث**هو مبدأ الاستقلال ، بمعني ان المبادىء الأخلاقية

التي يطيعها الانسان لا ينبغي ان تفرض عليه من الخارج ، بل ينبغي ان يفرضها هو على نفسه ، اى ان يختارها بارادته الحرة ، وهو يملك الوسيلة لذلك متمثلة فى العقل والاحساس الفطرى بالواجب المنبعثين من الداخل ، داخل الانسان ، واللذين هما برهان ذاته العليا .

الاستاذ ـ الست ترى فى هذه المجموعة من القوانين نظاما متكاملا للسلوك السوى وطريقا الى الرفعة الانسانية ؟

الطالب ـ بلى ، لولا أن مثالية كانط اغفلت حرب المصالح الاقتصادية بين الطبقات ورمت نفسها بالعقم . حتى قبل ظهور ماركس والماركسية ظهر الأخلاقيون النفعيون مثل **جيرمي بنثام** J. Bentham (١٧٤٨ ـ ١٨٣٢) **وجـون ستيورات ميل** J. S. Mill اللذين بنيا نظريتهما فى الاخلاق على القول بأن اخلاقية الفعل الانساني مرهونة بنتيجته ، فان كانت النتيجة جيدة أو ممتعة كان الفعل اخلاقيا ، والا فانه غير اخلاقى ، وان يكن ميل قد حاول التقليل من خطر هذه النزعة الفردية بربطه مبدأ « النفع » لا بالفرد وانما بالجماعة او « بمدى صلاحيته فى تحقيق السعادة العظمى » ، اى سعادة المجتمع . لقد قال **ميل فى هذا الصدد** « ... ان سعادة الغالبية من الناس هى المعيار الاخلاقى الوحيد لالتماس الخطأ والصواب فى السلوك الانساني ، وما دمنا نعيش فى مجتمع غير عادل فان البعض منا يجب أن يضحى بنفسه او مصالحه فى سبيل الآخرين ، وهذا هو جوهر الاخلاق ... » .

الاستاذ ـ هل لك من مأخذ على التفسير النفسى للاخلاق ؟

الطالب ـ اكثر من مأخذ واحد . **اولا** ان **ميل** اعترف اننا نعيش فى مجتمع غير عادل ولكنه ربط صلاح هذا المجتمع او اصلاحه بالنزعة الغيرية ، التضحية بالذات فى سبيل سعادة الآخرين ، وهو يعلم جيدا ان هذه دعوة غير مستجابة فى المجتمع التجارى الذى كان يعيش فيه والذى كان يقوم على الربح وعلى الازدياد منه . **ثانيا** ان المجتمعات لا تصلح بالصدقات . لا بد لك من نظام ثابت فى تقرير الحقوق والضمانات للانسان ، ولا بد من وضوح العلاقة وثباتها بين الجهد والمكافأة . ان شر ما يهدد المجتمعات ان تظهر فيها طبقات طفيلية غير منتجة تعيش على جهود الناس المنتجين .

الاستاذ ـ لقد حاول **ديوى** وغيره من « الاخلاقيين التحليليين » ان يطرحوا بديلا عقلانيا عن كل المذاهب المتقدمة . وكان ديوى John Dewey (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) فى كل حياته مثلا للمفكر العلمي الذى يسترشد بالتجربه ويعتمد نتائجها معيارا لتحليل الاوضاع الانسانيه والنظم الاخلاقية . وقد ربط فى كتابه « **الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني** » **Human Nature and Conduct** (١٩٢١) ، ربط الاخلاق الى علم النفس الاجتماعى رافضا بذلك التسليم القديم بوجود « قيم خالدة » تقرر مسبقا ما هو خطأ وما هو صواب ، ومؤمنا بان القيم الاخلاقية الحقيقية يجب ان تمر باستمرار بعمليات تحوير واعادة بناء من خلال التفكير الناقد وعلى ضوء التبدلات فى الوضع الاجتماعى الانساني وتعاظم المعرفة الانسانية . لقد رفض ديوى التسليم بصواب تلك

الاشياء التي يمكن البرهنة نظريا على انها نافعةومرضية فى جميع الاحتمالات المتوقعة ولجميع الاطراف المعنية . ورغم تقدير ديوى للتأكيدالذىوضعه النفعيون علىنتائج الفعل كمعيارلاخلاقيته الا انه لم يوافقهم على ربط المعايير الاخلاقيةباللذة المستخلصة من فعل من الافعال وذلك لانه اعتبر الدوافع والشخصية والذاتجزءا لا يتجزا من السلوك ولا يمكن اهماله . وعلى هذا الاساس رفض التسليمبوجود فضائل محددةومتفق عليها لأن هذه الفضائل غالبا ما ترتبط بالعادة والعرف السائدين فى وضع اجتماعىمعين ،وهما عرضة للتبدل بتبدل ذلك الوضع . (١٨)

الطالب ـ لقد كان ديوى محللا مختبريا للمشاكل الاجتماعية فاضطر الى اغفال دور نظام توزيع القوة الاقتصادية فى صياغة الاهدافالاخلاقية للمجتمع ، وكان عليه ان يولى قوانين الحركية الاجتماعية الواقعية مكانا اكبر من اطارهالنظرى للاخلاق .

• • •

اللوحالسابع

التعليل

خارج اطار العبثية الوجودية وسقوط النظمالاجتماعية فى بلوغ الوضع الانساني الامثل .. **كيف نفسر ازمات الشباب فى المجتمع المعاصر** ؟لا انتمائيته العقلانية أو الدينية ؟

حاول هربرت ماركوزه فى كتابه ((الانسانذو البعد الواحد)) (١٩٦٤) تفسير ذلك بخواء الحياة الانسانية الداخليه الحديثة من تلكالتجارب المنورة باطنيا للوجود الانساني ، تلك التجارب التي كانت تعطي انسان ما قبلالثورة الصناعية ازدهارا باطنيا من خلال الاتحاد مع الله ، أو التوحد مع النظام الطبيعي للكون . فرضية ماركوزة (١٩) الاساسية فى هذا الكتاب هي ((ان التقدم التقنى حين ينسحب على نظامكامل للسيطرة والتنسيق يخلق انماطا منالحياة

---

(١٨) للتوسع فى هذا الجدل الاخلاقي ، راجع كتاب

A History of Modern Philosophy by: Wm. K. Wright, pp. 546-549, Macmillan Book Company, N.Y. 1965..

كذلك راجع كتاب ((فلسفة التربية واثرها فى تفكير معلمىالمستقبل)) للدكتور محمد جواد رضا ص ١٢٣ ـ ص ١٣٢ ، نشر جامعة الكويت ١٩٧٢ .

(١٩) ولد هربرت ماركوزه فى برلين سنة ١٨٩٨ وتلقىدراسته الجامعية فى جامعتي برلين وفرايبورغ حيث نال فى الاخيرة دكتوراه الفلسفة وكان موضوع رسالته ((نظرية هيجل Hegel فى طبيعة الوجود وعلاقتها بفلسفة التاريخ)) . عندما استولى النازيون على السلطة هرب الى سويسرا ،ومنها الى الولايات المتحدة واستقر فى جامعة كولومبيا حيث نقل اليها بالاشتراك مع ماكس هورخايمر ((معهد الابحاثالاجتماعية)) من مدينة فرانكفورت . بين ١٩٥٤ ـ ١٩٦٧ عمل فى التدريس فى جامعة برانديس ، ومنذ ١٩٦٧ وهويدرس فى جامعة كاليفورنيا.من اهم كتبه ((ايروس والحضارة)) ((الانسان ذو البعد الواحد)) ((العقل والثورة)) (الماركسيةالسوفييتية) .

والسلطة التى تمتص قوى المعارضة للنظام القائم ، او تفند اى احتجاج ضده باسم التطلعات التاريخية للتحرر من الكدح والسيطرة . حتى الفكر يتم اخضاعه بحيث لا يعود مصدرا لنقد الحياة الاجتماعية » .

ان ظروف العمل فى المجتمع الصناعى الرعوى تميل الى جعل العامل سلبيا . ذلك ان انسياب الانتاج فى مصنع شبه أوتوماتيكى ودرجة المهارة العالية لدى العامل وزيادة نسبة المستخدمين كل ذلك من شأنه ان يقضى على اى شعور بمعارضة نظام العمل ، وهكذا تهيمن مؤسسات دولة الخدمات Welfare State على حياة الذين ينعمون بنعمها ومزاياها وذلك من خلال سيطرتها على مستوى معيشتهم ، لان زيادة الاستهلاك كفيلة كما يقول ماركوزه باضعاف حوافز تقرير المصير حرصا على التمسك بما هو متوفر لها من نعم الحياة الباطلة ولكن الخلابة .

الى تفسير قريب من هذا التفسير ذهب **ارنولد توينبي** فى تفسير ثورة الشباب وازماته بأن التقدم الصناعى تسبب فى « انعدام الذاتية الفردية وانسحاق الفرد فى آلية الحياة الميكانيكية من جهة ، وفى آلية الحياة الاجتماعية من جهة اخرى . ذلك ان الفردية التنافسية المميزة للمجتمع الراسمالى . . وتعاونية النمل أو النحل الشيوعية والقومية ذات الطبقية القبلية . . . كل واحدة منها تمثل الاخرى وكلها تمثل التكنولوجيا فى . . لا شخصيتها impersonality وان تنظيما اجتماعيا ذا طبيعة لا شخصية يناقض جوهر الطبيعة الانسانية ، ولهذا فهو تنظيم مقدر على الطبيعة الانسانية ان تثور ضده . وعندما يستجاب احتجاج الطبيعة الانسانية المبرر تماما سواء بشكل صورى موروث او بالصمت الخالص فان الكائن البشرى سيجد نفسه مسوقا الى استنتاج انه لا يحمل غير العنف المادى سيكون قادرا على جلب الانتباه له كانسان وسط العلاقات اللاشخصية التي يجد نفسه فيها » . (٢٠)

على أن ماركوزه **H. Marcuse** يضع تأكيدا خاصا على اثر النزعة الاستهلاكية الجديدة فى مطامنة السلوك العقلاني للانسان الحديث . والفرضية الاساسيه هنا هى ان تكنولوجيا المجتمعات الصناعية الراقية قد جعلت فى مستطاع هذه المجتمعات ازالة التناقضات الخارجية وذلك من خلال امتصاص جميع أولئك الذين كانوا فى ظل النظم الاجتماعية السابقة يشكلون اصواتا أو قوى رافضة ومنشقة . والتكنولوجيا تفعل ذلك جزئيا من خلال خلق الكفاية والوفرة المادية وهكذا يتحول التحرر من الحاجة المادية التي اعتبرها ماركس شرطا مسبقا للحريات الاخرى مدخلا لتوليد عبوديات جديدة ، فمن خلال تلبية احتياجات الافراد المادية تزول أسباب الانشقاق والاحتجاج وينقلبون الى ادوات سلبيه بيد النظام الاقتصادى القائم .

ولكن الا يبدو هذا تناقضا ؟ ينفي ماركوزه التناقض باشاراته الى انه عندما يتم اشباع حاجات الفرد الى السلع الماديه على حساب احتياجه واحتياج الآخرين الى الحرية وغيرها

---

(٢٠) Toynbee . . . . op. cit., pp. 325-26.

من القيم يفقد الانسان حرية اختيار مصيره . ويطلق ماركوزه على النوع الاول اسم الاحتياجات الباطلة ، وهو يضمن حكمه هذا ان الناس العاديين ليسوا هم الذين يقررون – فى المدى البعيد – حاجاتهم الحقيقية . بمعنى ان الانماط الحياتية ترسم لهم من قبل الآخرين لانهم ليسوا احرارا فى التفريق بين الباطل والحقيقي من الحاجات . وهكذا يكون للانماط الاستهلاكية فى مجتمع الوفرة تأثير مزودج طبقا لتفسير ماركوزه . فهي اذ تلبي احتياجات الانسان المادية التي قد يقوده الحرمان منها الى الاحتجاج والثورة فانها تحمله من الناحية الاخرى على التكيف لفرائض الوضع القائم والتسليم بها . ذلك انه « اذا كان العامل ورئيسه يتمتعان بنفس البرامج التلفزيونية ويزوران نفس دور اللهو . واذا كانت الموظفة الضاربة على الآلة الطابعة تستطيع ان تتزين بنفس المستوى الذى تتزين به ابنة صاحب العمل الذى تعمل عنده . واذا كان الزنجي يستطيع امتلاك سيارة كاديلاك ، واذا كان هؤلاء جميعا يقراون نفس الصحف ، اذا كان ذلك كله كذلك فانه لا يعنى بالضرورة زوال الطبقات ، بل هو يدل على بعد المدى الذى يذهب اليه المجردون من اسباب الهيمنة الاجتماعية جراء ركضهم وراء الحاجات الباطلة التى تخدم هدفا واحدا هو الحفاظ على الوضع الاجتماعي والاقتصادى القائم . ان تكيف المجردين من اسباب القوة الاجتماعية لقوالب الاستهلاك هذه يعزز وسائل الانتاج واسع النطاق mass production ولكنه لا يخلقه » .

لقد بنى ماركوزه نظريته فى عبودية الانسان الجديد للحاجة المادية على فرضية أبعد عمقا فى الحضارة المعاصرة ، أذ هو يرى أن هذه الحضارة قد فصلت فصلا يكاد يكون مأسويا بين العالمين الداخلى والخارجى للانسان . فى هذه الحضارة ظاهرتان مركزيتان ، الأولى هى انتقالها من فترة اليقين والتوثق بصواب اخلاقياتها ابان ازدهار العهد البورجوازى الى فترة لاحقة اساسها الارتياب والرفض . ففي فترة اليقين نشأ تمييز جلى بين العالم العقلى والروحى من جهة ، والعالم المادى من جهة اخرى . العالم العقلي والروحي يفرض على الفرد متطلبات تتجاوز تلك التى يفرضها العالم المادى . ويفترض فى الفرد فى الاطار الاول ان يطور نفسه داخليا وفق تلك المتطلبات ، ومثل هذا التطوير ممكن من دون حاجة الى اجراء تغيير فى العالم المادى المحيط بالفرد .

هذا التصدع المتعالى يعتبر جزءا من طابع الثقافة البورجوازيه . وكلما ازداد التصدع تعاظمت الحاجة للتعبير عن الذات بمفاهيم العالم الداخلى . وهنا يصبح مفهوم السعادة فى صورتها الرومانتيكية مفهوم ذلك الجزء من الشخصية الذى يكافح لتحقيق رغباته التى خلقتها الضرورة من دون تعبير ولا انجاز . اما القطاعات غير الروحية فهى قطاعات الحياة المادية . ان الروح تنشد جمالا مثاليا وسعادة مثالية غير ممكنة التحقيق . وعندما لا يتمكن البورجوازى من شيء غير الحفاظ على نظامه الاجتماعى والاقتصادى من خلال « تسييس » هذا النظام شيئا فشيئا واخضاع الفرد لمطالب هذا النظام ، عندئذ يكون حتما مهاجمة « العالم الداخلى » للفرد ؛ ذلك العالم الذى يستطيع فيه الفرد ان يحتفظ بقدر ضئيل من الحرية الخاصة المتحررة من المطالب

الخارجية للعالم البورجوازى . ولكن اذا كانتمتطلبات العالم المادى الخارجى تقود بالضرورة الى الاعتـداء على العالم الداخلى ، فان القيـدالموضوع على الحرية يعنى نقضا للسعادة ، وهذه هى الظاهرة الثانية التى يفترضها ماركوزه سببافى ازمات الانسان المعاصر . **ان الحرية والسعادة ـ عند ماركوزه ـ ترتبطـان ببعضـهما ارتباطاشديدا ، والسعادة بوصـفها « تحقيقـا لجميع الطاقات الكامنـة فى الفـرد تفترض الحرية فىوجودها ، بل انها هى الحرية ذاتها »** . ولما كان الفلاسفة الاخلاقيون سواء منهم من عاش فى العالم القديم او فى العصر البورجوازى قد وعوا عجز الانسان امام محيطه الخارجى ، فقد رفضوا اىاحتمال لقبول اية سعادة معتمـدة على ظروف المحيط الخارجى ان تكون هدف الانسان . (٢١)

لقد قادت فكرة الحرية المحدودة فى العصرالبورجوازى وفى الأطر الثقافية البورجوازية الى فكرة أشد تزمتا ومحدودية عن السعادة ، ومـنهنا غـدت فكرة المتعـة فى المجتمع البورجوازى مرتبطة بحرية الفـرد المقيـدة بضرورات العمـلومقتضيات السوق الاستهلاكية . المتعـة هنا تتقيد بفكرة الفراغ وهـذا سـبب تدنى قيمتهانسبيا ، وهذا التدنى يصدق على حرية الجنس بصورة خاصة . فقد كتب « **سبينوزا** » يقول عنالمتع الحسية « اننا نستطيع ان ننغمس فى الملذات على أن يكون ذلك الى الحد الضرورى للحفاظعلى صحتنا » . وكتب « **فيشته** » فى اتجاه مماثل يقول « انه لأمر مغاير للترف والانسانية الاصيلةان تتحول طاقة الانسان عن انجاب النسـل الى وسيلة للمتعة الجسية » (٢٢) . لقد كان الجنسمن جهة نظر سبينوزا وفيشته موضوعا فى خدمة حاجات المجتمع البورجوازى النامى يومئـذ . وعلى الرغم من أن الفصل بين المتعـة وانجـاب الاطفال امر واضح فان الانجاب المتزايد يقـدمللدولة البورجوازية ماتحتاج اليه من العمـال والجنود فى وقت معا . او على الاقل هذا مايذهباليه علماء الاجتماع الاشتراكيون مثل **الاستاذ الكساندر سيزالاى** الـذى ينظـر الـى هـذهالازدواجية او الانشطارية على انها نتيجة طبيعية للازدواج فى الاسـس الاقتصـادية للمجتمـعالبورجوازى ، اى فى ملكية وسائل الانتاج بـين اولئك الذين يعملون ولايملكون .. واولئك الذينيملكون ولا يعملون . يقول **سيزالاى** مدللا على رأيه « ... خذ مثلا على ذلك الازدواج الخلقىللمجتمع البورجوازى الذى يسهم كثيرا فى زيادة التوترات الخطيرة ذات الثمن الباهظ وفى زيادةالحساسية الفردية والخوف وحالات المـرض العقلى . فمن السهل جدا تحت هذه الظروف انيكون الشخص رب عائلة طيبا ، او ان يكون عدوا من أعداء تعذيب الحيوان ، ولكنه فى الوقت نفسهيستسيغ استغلال عماله بلا خجل أو أن يهدم

---

(٢١) للتوسع فى نظرية ماركوزة عن انمـاط السيطرةالجديدة راجع كتابه
One dimensional Man, Sphere Books, London, 1972.
خصوصا ص ١٦ ـ ص ٢٨ .

(٢٢) Russell, B., **History of Western Philosophy**, p. 557, Unwin University Book 1969.

حياة عوائل الآخرين من منافسيه او أن يقوم بترويج الدعاية للحرب . الازدواج الخلقى هو التفسير . ان عبارات مثل .. « التجارة تجارة » .. او .. « حسنا تلك قضية سياسية » .. هذه العبارات وامثالها تكشف عن وجهة نظر مخيبة وداعية للقنوط . ان التهديم القاسي لحياة الناس ، السلوك الذى لا يرتضيه الانسان الشهم ممكن الوقوع جدا فى الدوائر التجارية وفى الحياة السياسية . الازدواج الخلقى مرة أخرى . هل هذه حقا قضية اخلاقية محض ؟ على العكس تماما ففى المجتمع الذى تنقسم فيه العملية الانتاجية بين العاملين والمالكين ، ويميز فيه بين العمل والعامل لا يستغرب ابدا ان يكون الازدواج الخلقى انعكاسا للازدواج فى الاوضاع المادية » (٢٣)

• • •

اللوح الثامن

المخرج

القول بانفصال الشباب عن العالم لا ينبغي ان يؤخذ على اطلاقه . لأن العالم الذى انفصل عنه الشباب ليس عالم الانسان نفسه وانما هو عالم القيم الباطلة التي تحدرت الى هذا الجيل تركة « ثقيلة » وميراثا قبيحا من رواسب الماضى البشرى المثقل بالظلم والاستغلال والازدواجيات الاخلاقية التي افرزتها عصور التخلف والاعتبارات الطبقية الاستغلالية التي زينها فى عيون المتقدمين على هذا الجيل الجهل والحرمان والاسر الاجتماعى . فهو اذن لم يكن انفصالا بقدر ما كان رفضا . وقد وعى هذه الحقيقة اكثر الباحثين فى ازمات هذه الاجيال الرافضة واعتبروا مسؤوليتهم الاخلاقية نحوها هى فى التعمق فى تحليل هذه الازمات وتشخيص مسببات الرفض ، وعدوا ذلك وفاء منهم ببعض ما لهذه الاجيال عليهم .. ، هذه الاجيال التي استطاعت لأول مرة — ربما — فى تاريخ الانسان أن تمتلك الوعى والذكاء والشجاعة لكى تختار حياتها الخاصة وقد كان **جان بول سارتر** أول من حاول تنبيه المجتمع الانسانى المعاصر الى ما فى حركة الرفض الشابة من اخلاقيات صميمية تستحق لا الدراسة والفهم وحسب وانما هى تستحق الاحترام كذلك . ففى مقابلة صحفية اجرتها معه مجلة ال « نوفيل او بزرفاتور » فى ١٩٦٨/١١/٤ واذاعتها اذاعة اللوكسمبورج **قال سارتر معقبا على ثورة الطلبة الفرنسيين : —**

« .. ان العنف هو الوسيلة الوحيدة الباقية امام الطلاب الذين لم يتحولوا بعد الى شريحة من النظام الاجتماعي الذى أقامه آباؤهم للاحتجاج على هذا النظام . ففي مجتمعاتنا الغربية المترهلة صار الطلاب قوة النضال اليسارية الوحيدة . وما العنف اليسارى نفسه الا ردا على العنف الدائم الذى يمارسه المجتمع الراسمالي ضد كل افراده . واذا ما حكمنا — بناء على أكثر التقارير الصحفية حيادا — نجد ان شرطة القمع الفرنسية تصرفت بشكل غريب من الوحشية عند محاولة احتواء ثورة الطلبة فى مايو ١٩٦٨ . ولم يكن ذلك العنف الا نموذجا لما يمكن ان تكون عليه الحرب الطبقية فى فرنسا من عنف وفظاعة ... » .

---

(٢٣) Cantril, H., Editor, **Tensions that cause wars**, p. 35, University of Illinois press, Chicago 1950.

وفي نفس الوقت تقريبا نشر **ماركوزه** دراستهعما اسماه بـ « التسامح القمعي » في المجتمعات الغربية ، وفي تلك الدراسة كشف عن اعجابهبالطابع الجمالي للحركات الطلابية التي أسماها « لغة الروح » ووجد فيها « موقفا جديدا معقولامفترقا عن مفهوم وثقافة السوق » .

والى نتيجة مشابهة توصل الاستاذ **لويس فيور** Lewis Feuer في كتابه الموسوم « **صراع الاجيال** Conflict of Generations » عـام١٩٦٩ . فقد تبين للاستاذ فيور من خلال سلسلة الدراسات التي نظمها حول تمرد الطلبة « ان هناك ميلا ثابتا في سلوك الشباب الى الرغبة في تحطيم هيمنة الآباء على الابناء والتحرر منها ،وذلك من خلال الثورة على القيم الثقافية القائمة على التسليم بهذه الهيمنة اخلاقيا وفعلياً . وهم حينما يقومون بالثورة على الوضع الاجتماعي القائم ، وعندما يحاولون تحطيم قيمه ومؤسساته فكأنهم يقولون لانفسهم ... حسنا . هذه كلها من صنع آبائنا واجدادنا وهي قيودهـم التـي يمسكوننا بها ويفرضـون ارادتهم مـن خـلالها علينا .. ونحن لا نستطيع ان نتحداهم أو نثور عليهم مباشرة ، ولا ان نفلت من قبضتهم عنوة فلا أقل من أن نحطم ما بنوه من قيم ومؤسسات،ونسفه ما التزموا به من مثل وانماط في العيش وبهذا لن نبقى لهم شيئا يسيطرون به علينا . »(٢٤)

حتى الجامعات العريقة في تقاليد التحرر العقلي لم تجد في حركات الرفض الطلابية « نذيرا بمرحلة انهيار جامعي في العالم . وانما وجدت فيها شيئا يستحق الدرس والفهم . بمعنى آخر هي وجدت في هذه الحركـات بابا مـن ابـواب الحقيقة . الجامعة التي لا تبخل بالاموال وطاقات العلماء توفرها لدراسة الاميبا او الدودة الصغيرة ليست اكثر مسؤولية نحو دراسـة الانسـان وفهم مشاكله . لقد جاءت ثورة الطلاب مقترفة بفراغ الجامعة من الظفر بالاعتراف لها بحقهـا المطلق في طلب الحقيقة المادية مع بقاء الحقيقـة الاجتماعية معلقة غير محسوسـة . واذا كـان للبشرية اجوبة حاسمة حول اسباب مرض السل وعلاجه مثلا فهي لا تملك مثل هذا الجواب عـن قضايا الظلم والعدل ، والحرب والسـلام الفقر والغنى ، الانتاج والتوزيع ، التمييز والمساواة . ان هذا كله جزء من الحقيقة التي التزمت الجامعة بالبحث عنها وفيها ، ولن يقلـل من قيمتـه ان الطلاب هم الذين يثيرونه . ولن يقلل من قيمته ان الطلاب قد يخطئون الوسيلة الى اثارته . ان اخطاءهم لا تهون ولا تستطيع أن تهون من حقيقة ان الحرب على الحرب في فيتنام بدات في حرم الجامعات الامريكية ، وان الزكاة لها كان الـدم المطلوب في كلية ولاية كنت Kent State College . لقد كان أول من اخترق الجدار المضروب بـين الشعبين الصيني والامريكي فرق من طلبة الجامعات الامريكية من لاعبي كرة المنضدة . كما ان أقوى الاصوات المرتفعة ضد التمييز العنصري في الغرب هو صوت الطلاب سودا كانوا أم بيضا . وعلى الرغم مما اتهمت به الحركة الطلابية العالمية من طغيان النزعة اللاعقلية Anti Intellectualism عليها فان سلوك الطلاب عموما يتميز باهتمامات اخلاقية من نوع معين ، اهتمامات اخلاقية تقوم على رفض التاريخ الذى لم تجد فيه دليلا أمينا

---

(٢٤) Feuer, L., **Conflict of Generations**, pp. 82-83, Basic Books N.Y. 1971.

الى حل المشاكل التي ترتطم بها ، بل ولعلهـا تعتبره مسؤولا عنها . ان الاهتمامات الاخلاقية عند الشباب الجامعي المعاصر هي من دون أدنى ريب خير مطلق . وعلى الرغم مما يراه منتقصو هذه الحركات الطلابية فان هذا الانشغال الاخلاقي بقضايا الحرب والسلام ، التمييز والمساواة ، الفقر والغنى ، الحرمان والبذخ ، الجهل والتعليم هو خير من اللا مبالاة بها التي ربما كانت البديل المحتمل لهذا الاشـغال الاخلاقي . كمـا أن انشغال الشباب الجامعيين بخفايـا الاوضـاع السياسية يفضل — يقينا — استغراقهم بالازياء والالعاب الرياضية واللذائذ الاخرى . وعلى الرغم مما تتهم به الحركة الطلابية المعاصرة من تميـز بشـعور عظيم بالمباشر immediacy ، المباشرة الزمانية على وجه التحديد وأن اهتمامهم لا يتجاوز الحاضر المباشر ، ولذا فان التاريخ لا يحمل لهم حكمة معينة تمكنهم من رؤية الحاضر فى اطـار واسع من العلاقات ذات المعنى بالنسبة لهـذا الحاضر ، على الرغم من هذا فان الحركة الطلابية لم تغفل العوامل التاريخية التي قادت الى قيام الحاضر المرفوض . حتى لو كانت هذه التهمـة صحيحة — وهي قد تصح — فان المؤسسـات التعليمية التى تولت تربية هؤلاء تحمل مسؤوليـة هذا التقصير ، فلو كانت قد عمقت من رؤيتهم فى حركة التاريخ لمـا ابتلوا بهـذه المبـاشرة فى الرؤية الاجتماعية (٢٥) .

ان الاشارة الى تقصير المؤسسات التربوية فى تعميق الرؤية الاجتماعية عند الشباب تقود بالضرورة الى الدور السلبي الذى لعبته هـذه المؤسسات فى تربية الناشئة اجتماعيا . ذلك ان المدرسة كانت فى الغالب اداة بيد المهيمنين اجتماعيا يستعملونها لتثبيت الاوضاع التي تعوز مصالحهم وامتيازاتهم ، ولذا فان ثورة الطلبة تعني فى بعض ما تعنيه الثورة على المؤسسة التربوية نفسها التي احسوا — حين صدمهم الواقـع — وكأنها قـد خدعتهم عن انفسهم وعن هذا الواقع فى وقـت معا . لقد اكتشف الفرنسيـون مثلا ان سببـا رئيسيا من اسباب هزيمتهم فى الحرب العالمية كان وضع التربية الفرنسية فى أهداف الطبقيـة الاجتماعية الفرنسيـة ، و« أن الهزيمة والظلم ماكانا ليحلا بالامة الفرنسية لولا ضعف الايمان واخطاء وخيانة الفئات المسيطرة فى البحر والجيش .. فى السياسة والاقتصاد .. وفى الصناعة والتجارة .. اولئك الذين كانت دعواهـم أنهم خريجـو احسن معاهدنا العلمية وقمة نظامنا التربوى .. اولئك الذين كان جبنهم فاضحا جدا .. » (٢٦)

واذا كان « **تقرير الجزائر** » اشار اشـارة عابرة « الى دور التربية الفرنسية فى الهزيمـة القومية فان « تقرير لجنة لانجفان Langevin » (١٩٤٧) كان أكثر صراحة فى تحميل التربيـة الفرنسية كفلا كبيرا من مسؤولية الهزيمة القومية لأنها وضعت نفسها فى خدمات الاحتياجات الثقافية للطبقة البورجوازية واهدافها وقيمها الفكرية على حساب احتياجات الاكثرية المطلقة من الشـعب الفرنسى ، فانطبعـت بالاحتكاريـة من جهـة ، وبالتخلف الفكرى والتقنى من جهة أخرى ، حتى اذا جاءت الحرب لم تكن جماهير الشعب معبأة تعبئة كافية لمواجهة الغزو النـازى . وليسـت التربية الفرنسية فى ظروف ما قبل الحرب الكونية الثانية وما اخفاقها الا مثلا نموذجيا للتربيـة

---

(٢٥) من محاضرة الدكتور محمد جواد رضا بعنوان « الجامعة فى مركز الاعصار » القيت فى جامعة الكويت مساء ١٩٧١/١٢/٥ .

(٢٦) تقرير الجزائر ، الصادر عن « اللجنة التربوية لاصلاح التعليم » ١٩٤٤ .

عندما لا تكون فى خدمة الاكثرية الصامتة من ابناءالشعوب . من هنا جاء انفصال الشباب عن العالم ، الذى صنعته لهم وفرضته عليهم النظم الاجتماعية المحتضرة وأدواتها التربوية . ومن هنا ايضا جاء رحيلهم الى الاعماق .. اعماقهم هم .. ضمائرهم وعوالمهم الداخلية التي تنبهوا الى وجوب حمايتها من العدوان الخارجي عليها كما صوره ماركوزه . واذا كان الانفصال عن العالم يعني رفض نظام قيمي عقيم ، فان الرحيل الى الاعماق لم يكن هو الآخر محض هرب من قيم مرفوضة وحسب ، وانما كان جهدا ايجابيا موظفا فى البحث عن نظام قيمى بديل ملائم لوعى الانسان الجديد ، لنفسه وقيمته المكتشفة ، على انه رأس المال الحقيقى فى هذا الكون ، او انه هو القيمة الواقعية العليا على هذه الارض .

• • •

اللوح التاسع

التربية العربية المعاصرة وتطلعات الشباب العربى

لا تختلف تطلعات الشباب العربى فى هذه المرحلة من تاريخ الامة العربية عن تطلعات اترابهم وازماتهم فى انحاء العالم الاخرى ، اللهم الا فى اهمال ايلاء هذه التطلعات والازمات ما هي اهل له من عناية السلوكيين العرب ، وهم ـ أى الشباب ـ ما يزالون قارة عذراء لم ينزل على شواطئها مستكشف حتى الآن ، واقيانوس لم يحاول احد سبر اغواره ولا دراسة عواصفه واعاصيره الا نادرا ، (٢٧) ولذا فان احتمالات اتهامه بالمروق من العرف أو الدين او التقاليد هي أسهل ما تجابه تطلعاته به وهى أغلب ما تقابل معاناته به أيضا . من يدرى ؟ فربما كان الاحساس الطبقى لدى بعض الاكاديميين العرب ازاء الشبيبة العربية مسؤولا عن هذه الغربة الضاربة بينهم وبين من يفترض أنهم يتحملون مسؤولية تربيتهم وقيادتهم الروحية والاخلاقية .

يضاعف من تعقيد هذا الموقف المعقد ان المؤسسات التربوية العربية ـ مدرسة كانت أم جامعة ـ ما تزال أداة مطواعا فى يد القوى المهيمنة فى المجتمعات العربية ، وهي فى الغالب قوى محافظة على قدر ما تكون المحافظة درعا ودريئة لامتيازاتها الاجتماعية ، وهى مهيأة لقبول التقدم والتطور اذا ما اطمانت الى أن التقدم والتطور لن يضيرا تلك الامتيازات بشيء ، وهى تستعمل المؤسسة التربوية لخدمة هذا الوضع استعمالا واقعيا وذكيا ولكن من دون أن تحسب حسابا لافرازاته المستقبلية غير القابلة للتنبؤ .

لقد فرض هذا الوضع على المؤسسة التربوية العربية المعاصرة واجبا ازدواجيا على درجة عالية من التناقض والتعقيد . ففي الوقت الذى يطالب فيه المجتمع مؤسساته التربوية ان تحفظ له موارثه الثقافية وقيمه المنحدرة اليه من ماضيه والتي يعتبرها هويته الخاصة ، والاجوبة الجيدة والصحيحة على كل المشاكل التي تواجهه ، فى هذا الوقت بالذات هو يطالب

---

(٢٧) راجع كتاب (فلسفة التربية وأثرها فى تفكير معلمى المستقبل ـ دراسة تجريبية) جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

هذه المؤسسات التربوية أن تيسر له سبل التقدم من مواقعه التاريخية الموروثه ، وان تعينه على قبول العصر الذى يعيش فيه ومن تقبل روحه العلمانية على وجه التخصيص . **بعبارة أخرى انه يريد من مؤسساته التربويه ان تكون ادوات محافظة وتبديل فى وقت واحد ، وهذا مالا تستطيع مؤسسه اجتماعية الوفاء به ما لم تكن مؤسسة منافقة استرضائية .**

لقد كتب هذا الدور الازدواجي على التربية العربية المعاصرة ان تسقط فى حلقة مفرغة ينظر فيها الى الطلاب على أنهم ـ مادة ـ تربوية من حق النظم التعليمية أن تصوغهم على هواها ـ وحسب اجتهادها ، ومن واجبهم ان يتكيفوا ـ للقوالب المعدة لصبهم فيها . فيما وراء المنهج والكتاب كان الطلاب كما مهملا . لقد ضرب هذا الوقف العقلى بين الطلاب وبين نظمهم التعليمية اكثر من سد ، ودفعهم الى التماس التعبير عن أنفسهم فى الحركات الاجتماعية خارج معاهد العلم ، ولم تعد المدارس ولا الجامعات عندهم الا اماكن تلتمس فيها الشهادة . ولقد كان لهذا معنى واحد هو ان مؤسساتنا التربوية فقدت القدرة على القيادة الاخلاقية لروادها ... (٢٨) .

لقد حمل هذا التنازل معه المبرر الاخلاقى للشباب العربي لأخذ مهمة صناعة مستقبلية فى يديه ، والبحث عن أو الكفاح من أجل دور متميز له فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ أمته مع كل ما يصاحب ذلك او يستتبعه من تهم المروق اوالزندقة الاجتماعية .

لقد كان من واجب الاكاديميين العرب ، والسلوكيين منهم بوجه خاص ، ان يوجهوا فكرهم وبحثهم العلمى الى دراسة هذا القدر الجديد الذى كتب على الشباب العربي ، غير أن شيئا جوهريا لم يحدث فى هذا الصدد ، وظلت ادبيات الحركة الطلابية العربية مهملة اهمالا تاما رغم ما فيها من صدق العفوية وسطوع البراءة ووضوح الالتزام الوطني والقومي . اننا نشك كثيرا ان تكون هذه الادبيات قد حظيت بشيء من القراءة الناقدة أصلا .

أحب أن أقف هنا عند نماذج مختارة من أدبيات الحركة الطلابية العربية ، وان احاول النفاذ من خلالها الى بعض تطلعات شبابنا ، وان أوجه عناية السلوكيين والاجتماعيين وعلماء السياسة والاقتصاد العرب الى ما فيها من محتوى انساني وقومي غني من جهة ، والى ضرورة تكريس اهتمام حقيقي بهذه الظاهرة الاجتماعية العربية الجديدة التى لن ينفعنا فى شيء ان ندير لها ظهورنا ونكتفي بالنظر اليها من عل على أنها لون من المحاولات الطلابية القاصرة ، فقد نكتشف فى وقت متاخر جدا ان القصور كان حيث كنا نظن الكمال ونفترضه .

١ ـ جاء فى نشرة معنونة « دراسات » صادرة عن المكتب الطلابي القومي فى بغداد ما يلي :

« ان الفكر البورجوازى الذى تسيره الدوائر الامبريالية لتحقيق مصالحها يؤكد على مفهوم العلم للعلم ويدفع بالكثير من العلماء لان يعتبروا الوصول الى انجاز اختراعاتهم هدفا بحد ذاته . ان مهمة الانجاز العلمي هى هدف العالم ، اما استعمال هذا الانجاز فى أى مجال فهو من

(٢٨) المرجع السابق ـ ص ١ .

اختصاصات السلطة البوجوازية وحدها . وهكذاتصبح غاية الفني والمهندس والعالم وسيلة للنظام، وبالطريقة نفسها يخدر الفكر البورجوازىضمير العالم بالتفسيرات الذاتيــة والشروح الفردية . فعندما تصبح الحرية الفردية لا حدودلها على شرط ان لا تصطدم بالمصالحالبورجوازية ، وعندمايسمح المجتمع البورجوازى للافـراد انيتحركوا ضمن اختصاصاتهم الفردية على شرط ان يتركوا أمر استعمال انجازاتهم فى يد السلطةيحدث دائما ان يستعمل العلم وانجازاته فىكثير من الاحيان كسلاح لتهديد الانسانية ... » .

٢ ــ جاء فى كلمة « الاتحاد الوطنى العاملطلبة اليمن » التي القيت فى « الندوة الطلابية العالمية المنعقدة فى جمهورية اليمن الديموقراطيةالشعبية من ٢٣ ــ ٢٧ مارس ١٩٧٤ ما يلي :

اننا كاتحاد وطني عام لطلبة اليمن ، كحركةطلابية يمنية ديموقراطية وتقدمية نؤمــن بان نضالات الطلبة من أجل ديموقراطية التعليميجبان ترتبط بنضالات اوسع الجماهير الشعبيـة والكادحة فى بلادهم من اجل التحولات الاجتماعيةوالاقتصادية التقدمية ، من اجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعى لتحقيق غد الاشتراكيةالخالىمن استغلال الانسان لاخيه الانسان . وما لم ترتبط نضالات الطلاب من أجل تعليم ديموقراطىبنضالات اوسع الجماهير الشعبية الكادحة من اجل صنع غدها الانساني المتطور والمزدهر فانالفشل الذريــع سيكون حليفها دومـا وابدا ، وستصطدم فى النهاية بصخرة الواقع التي لا ترحم.. ولن تستطيع الاحـلام والاماني ان تتجاوز تعقيدات الواقع وتكييفها ... » .

٣ ــ جاء في التقرير العام الذى قدمــه« الاتحاد الوطني العام لطلبه اليمن » عن الاوضاع التربوية فى اليمن فى الندوة المذكورة ما يلي :

« تحتل المناهج اهمية خاصة فائقـة فىالعملية التعليمية . فمن خلالها يتحدد محتوى التعليم العام . ان التطور التعليمي فى اى بلدكان لا يقاس بتوسعة الكمى فحسب ، ذلك ان الهدف ليس عدد من يتخرجون من مؤسساتالتعليم وانما المسألة المركزية هي نوعية هؤلاء . لقد عانت بلادنا من المناهج الدراسية الاستعماريةالتي كانت تهدف الى خلق جيل يمنى مغترب عن وطنه . لذا فقد احتلت مسألة تغيير المناهــجالدراسية اهتمام الثورة فى بلادنا منذ الايامالاولى لاستلام السلطة . وكانت أولى المحاولات لتغييرهاهى استبدال المناهج القديمـة الاستعمارية بالمناهج المصرية والعراقية وبعض مناهج الدولالعربية الوطنية الاخرى . كما بذلت محاولات فى ١٩٦٩ من وزارة التربية والتعليم لايجاد منهجوطني . الا ان تلك المحاولة لم تكن لتخرج عــن اطار الباس اثواب يمنية على مناهج الدولالعربيةالشقيقة » .

بعد ذلك يحاول الاتحاد ان يطرح تصورهمن المساقالذى يجب ان تسيرفيه التربية اليمنية الديموقراطيةالشعبيةفيرسم لها الاهدافالتالية :

١ ــ ان تحقق المناهج ربطا بين العلــومالانسانية والطبيعية وافكار الطبقة العاملة ، اى استخدام المنهج الجدلى فىتفسير الظواهرالطبيعية والاجتماعية .

٢ ــ ان تحقق المناهج بناء جيل يمنى متزودبمعارف عن تطور وطنه وشمولية تاريخه ، فعلى المناهج الجديدة ان تركز على ما يتعلق بالوطناليمني سواء فى تاريخه أو جغرافيته او ثرواته الطبيعية ، وكذا علاقة تلك بالدول المختلفة فىالعالم .

٣ ــ على ان يرتكز محتوى المناهج عندمعالجتها للدراسات اليمنية على الجوانب التقدمية . ففي التاريخ مثلا ينبغي التأكيد علىدور الشعب فى صنع التاريخ مغايرة لمناهجنا القديمة المرتكزة على اساس دور الافراد فىصنعالتاريخ . وفى دراسة الجغرافيا ينبغى التركيز على قدرة الشعب بفضل نظامه التقدمي علىاستغلال الثروات الوطنية . وفى جانب الأدب اليمنى ينبغي التركيز على الجانب التقدمي فىتطور الادب اليمني .

٤ ــ تحقيقا لمبدأ ربط المدرسة بالمجتمعوالنظرية بالتطبيق فان المناهج الجديدة ستحوى منهاجا للبوليتيكنيك .. » .

هذه نماذج قليلة من ادبيات الحركةالطلابيةالعربية الشابة . وهى ولا ريب تنضج بالمثالية والقطعية والنهائية فى الاحكام مما قد لا يتفق حتىمع المنطق الجدلى فى تفسير حركة التاريخ . وهى قد تكون بصورة من الصور ممثلة لمجمل هذهالحركة . وليس هناك من يدعو الى تقبل مقولاتها تقبلا عفويا ولا الى شرائها من باعتها المتحمسين .فى تقديرنا ان هذا ربما أضر بالحركة اصلا . ولكن الشيء الخطير هو ان تترك هذه الحركة من دونحفول بها ، ومن دون دراستها دراسة منهجية ، ومن دون تحليل متواصل لتطلعاتها ومقولاتها .وهناك خطر اكبر فى اشعارها بانها لا تعنى شيئا للحلقات الاكاديمية العربية ، وأيسر ما سينجمعن هذا الاغفال او التغافل هو جهل الحركة والاغتراب عن مفاهيمها الاساسية . **ومن هناتاتى القيمة التى لا تحتمل المبالغة لتكريس اهتمام فعلى بافرازات هذه الحركة فكريا وسلوكياوجرها الى دائرة الجذب الأكاديميةالملتزمة بمنطق البحث العلمى وتقويمها تقويما موضوعيا** .فلقد يتاح لنا آنئذ ان ندعى اننا قد وفينا لورثتنا فى الغد القريب او البعيد بعض ما كان لهم فىذممنا من دين ، واننا استطعنا ان نزيد منوضوح الرؤية امامهم ، وان نقلل من احتمالات سقوطهمفى الاجتهادات البتراء .

* * *

مراجع البحث

اولا ـ فى اللغة العربية

١ ـ محمد جواد رضا ـ فلسفة التربية واثرها فى تفكير معلمي المستقبل ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

٢ ـ محمد جواد رضا ـ الجامعة فى مركز الاعصار ،محاضرة القيت في جامعة الكويت بتاريخ ١٩٧١/١٢/٥ .

٣ ـ اللجنة التربوية الفرنسية لاصلاح التعليم ـتقرير الجزائر ـ ١٩٤٤ .

ثانيا ـ فى اللغة الانجليزية

1. Arnold, W., **Counselling Activities in Modern Society**, Proceedings, IRT Conferenec, Würsburg, 1976.

2. Beckett, S., **Murphy**, 1938.

3. Cantril, H., **Tensions that Cause Wars**, University of Illinois Press, Chicago, 1950.

4. Davy, B. W., **The Source and Prevention of Mental Ill Health in University Students.** Proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

5. Ducasse, C. J., Art, **The Critics and you,** Oscar Priest, New York, 1944.

6. English Pearson, **Emotional Problems of Living,** Norton Company, 1960.

7. Feuer, L., **Conflict of Generations,** Basic Books, New York, 1971.

8. Fraser, M., **Children in Conflict,** Penguin Books, London, 1974.

9. Malleson, N. B., A **Handbook of British Student Health Services,** London, Pitman, 1966.

10. Marcuse, H., **One Dimensional Man,** Sphere Books, London, 1972.

11. Miller & Miller, **Student Problems, Remedies and Satisfactions,** British Psychiatry, September 1973.

12. Parker, D. H., **Human Values,** Harper & Brothers, New York, 1944.

13. Perry, R. B., **General Theory of Value,** Longman's Green and Company, New York, 1926.

14. Ryle, A., **Student Casualties,** Pelican Books, 1970, London.

15. Rusell, B., **History of Western Philosophy,** Unwin University Press, 1969.

16. Sinclair, F., **Belfast Telegraph.** Sept. 16, 1971.

17. Toynbee A., **Experiences,** Oxford University Press, 1969.

18. Wright, Wm. K., **History of Modern Philosophy,** Macmillan Book Company, New York, 1965.

عبد الرحمن عيسوي *

النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلتي الطفولة والمراهقة

فى بحثنا فى النمو الروحى وعملية التنشئةالاجتماعية فى مرحلة الطفولة ينبغى أن نؤكد ان الدين لا تقتصر آثاره ووظائفه على مرحلة واحدةمن مراحل العمر ، وانما يشمل أثره كافة مراحل النمو الانسانى ، وان كان هذا التاثير يختلف منمرحلة الى اخرى .

وعلى الرغم من أن القيم الدينية والسلوكالدينى يؤثران بصورة أو بأخرى فى كل جوانب حياة الفرد الا ان تأثيرهما أكبر فى حياة الفـردالانفعالية The Individual's Emotional Life وللدين أهمية كبرى فى مرحلتى الطفولة والمراهقةحيث يمر الطفل بمرحلة تكوين الشخصيةوصقلها وحيث تلعب العوامل الانفعالية دورا هاما فىحياته .

(*) استاذ علم النفس المساعد بجامعة الاسكندريةوجامعة بيروت العربية .

والمعروف ان مرحلة المراهقة ، كما يزعم بعض علماء النفس ، مرحلة شك ونبذ rejection للقيم والمعايير الدينية التى سبق ان تلقاها الطفل عن الكبار ، وقبلها عن طيب خاطر .

وعندما يصل الطفل الى درجة من النضج العقلى تسمح له باعادة النظر فى هذه القيم والمعايير فانه يتناولها بالنقد والفحص والتمحيص ، وتنتهى عملية النقد هذه اما بقبول هذه القيم او رفضها أو تعديلها .

ومن الاهمية بمكان ان تجرى الدراسات والبحوث التى تكشف عن الآثار التى يتركها قبول الدين او نبذه على صحة الطفل النفسية وثباته الانفعالى ، بعبارة أخرى هل يضيف الدين الى التكيف او الى سوء التكيف النفسى ، هل يسهم الدين فى تحقيق الصحة النفسية والثبات الانفعالى ام يؤدى الى مزيد من الشعور بالذنب والى تنمية ضمير حاد وخاز يؤنب صاحبه ويلومه على كل كبيرة وصغيرة ؟

تفسير ظاهرة التدين فى الطفولة والمراهقة

وفى تفسيرنا لظاهرة التدين نستعرض آراء كل من **ف . مرى و ر . مرى** F. Merry and R. Merry حيث يفترضان أن ظاهرة التدين ظاهرة غريزية بمعنى وجود غريزة دينية لدى الفرد (*) a religious instinct . **فتبعا لهذه النظرية يعتبر الطفل طبيعيا متدينا ، واذا أعطى الفرص المناسبة فانه يكون المفاهيم الدينية الملائمة ذات المعنى والدلالة .** ويعتقدان أن الطفل منذ سن مبكرة يعي بطريقة غريزية وجود قوة عليا يلجأ اليها للحماية ، ولديه تجاهها اتجاه غريزى فطرى نحو الاحترام والعبادة (١) .

ويتعارض هذا الراى مع راى آخر يزعم ان الطفل شرير بطبعه أو بالفطرة ، لانه ورث الخطيئة **الاصلية التى ارتكبها آدم فى جنة عدن . ولذا** كان لابد من ان نستخدم أكثر الاساليب صرامة فى تأديب الطفل وقمع هذه الطبيعة الشريرة وجذبه الى حظيرة الدين والصواب . ولكن كثيرا من علماء الدين المحدثين يرفضون الزعم بأن طبيعة الطفل طبيعة شريرة بالوراثة ويعتقدون ان الاطفال يولدون وهم لا طيبون ولا اشرار ، ولكن يولدون باستعدادات أو امكانيات عامة هي التى يوجهها المجتمع فيما بعد اما الى القنوات الصالحة أو الشريرة .

ويؤيد سكنر C. Skinner هذا الراى بالقول بأن الكائن البشرى يولد بحالة حيادية حيال الدين . فالرضيع مثلا ليس متدينا ولا هو ضد الدين بل انه يمتلك الاستعدادات Potentialities للتكيف ، والتى تجعل النمو ممكنا نحو التدين أو نحو معارضة الدين .

(*) لم يعد يستخدم اصطلاح الغريزة فى علم النفس واصبحت هناك اصطلاحات أخرى كالدافع والباعث والحافز وكلها تجريدات لفظية عقلية للدلالة على بعض انماط السلوك علما بان السلوك وحده هو الذى نلاحظه .

(١) Merry, F. and Merry, R., The First two decades of life, Harpers and Brothers, N.Y. 1950. P. 482.

متى يبدأ الشعور الدينى لدى الطفل ؟

واذا ما تساءلنا عن السن التى يبدأ فيهاالطفل فى الشعور بالخبرة الدينية فاننا لا نجد(٢) اتفاقا كاملا بين الباحثين حول هذه السن، فمنهم من يرى بعض المظاهر الدينية فى سلوك الأطفال الصغار ، ومنهم من يرى ان الطفل لا يقوى على ادراك المفاهيم الدينية الا بعد الوصول الى مرحلة متقدمة من النضج العقلى .

فطبقا لراى **الج** F. Ilg يستطيع الطفل التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين الردىء والحسن فى سن السابعة ، أما فيما قبل سن الرابعة فهو غير قادر على فهم الآراء الدينية ، وعندما يبلغ الطفل سن الأربع سنوات يبدأ فى توجيه مثل هذه الاسئلة ذات الطابع الدينى والفلسفى :

١ ـ من الذى صنعك ؟

٢ ـ من الذى صنع هذه الاشجار ؟

٣ ـ من هو الله ؟

٤ ـ ما الذى يشبهه ؟

٥ ـ هل الله رجل طيب ظريف ؟

٦ ـ هل هو يحب الحلوى ؟

٧ ـ هل يشبه الله أبى ؟

٨ ـ اين يقيم الله ؟

٩ ـ وهل يرانا الآن ؟

١٠ ـ هل يرتدى جلبابا فضفاضا ؟

ولذلك فلا عجب أن نجد طفلة صغيرة (سن أربع سنوات) كانت تسير فى يوم مطير وكانت تمشى مع أمها فنظرت الى أعلى السماء وقالت :(شكرا لك يا الهى لجعل الطريق جافا فى بعض الاماكن انك ترى اننى أرتدى حذائى الجديد)(٣)

وخلافا لهذا الراى يذهب **فالنتين** Valentine الى القول أن الطفل لايستطيع ان يدرك معانى المصطلحات The abstract terms كمعنى الشفقة والله والعدالة والاحسان ... الخ ،قبل سن الثالثة أو الرابعة عشرة . (٤)

---

(٢) Skinner, C., Child Psychology, the Macmillan Co. N.Y. 1949, P. 276.

(٣) Ilg, F., **Child Behaviour,** Hamish Hamilton, London, 1955, P. 292-303.

(٤) Valentine, C., **The Normal child and some of his abnormalities,** A Pelican Book, 1962 P. 271—275.

ومهما يكن فان الاطفال ولاشك لديهم بعض الافكار الدينية التى توصف بأنها أفكار مشخصة ومجسدة وشخصية وحسية .

ومنذ وقت مبكر (١٨٨٠) طلب ستانلى هول G. Stanelly Hall من مجموعة من الاطفال الصغار ان يصفوا تصوراتهم عن الله ،وفيما يلى بعضا من استجابتهم ؟

(الله رجل كبير ربما لونه أزرق يرى غالباجدا فى السماء أو فى السحب أو فى الكنيسة بل حتى فى الشارع . انه يصبع اللمبات والاطفال والكلاب والاشجار والنقود .. الخ ، ويعمل الملائكة لحسابه . . . الخ .

وعندما يموت الناس انهم فقط يذهبون او يوضعون فى جحر او فى صندوق أو فى عربة نقل سوداء ، ويذهبون الى الجنة او يصعدون الى السماء او يغرقون أو يعلقون فى السماء حيث يمسك الله بهم . . . وعندما يذهب الاطفال الى الجنة تقدم لهم الحلوى والبنادق واللعب وكل ما يوجد فى محلات لعب الاطفال ، والكتب المصورة وأوراق اللعب ، وتقدم لهم الملابس الأنيقة والساعات الذهبية والمثلجات ، ولا توجد هناك مدارس ويلعبون البلى والورق) .

وفى دراسة اخرى على مجموعة من أطفال المدرسة الابتدائية اظهروا خلطا بين مفهوم الله ومفهوم « السيد المسيح » وعبروا عن مفاهيم وصفات مشخصة عن الذات الالهية ، وغيرها من المفاهيم الدينية ، فهم يصفون الجنة بأنها تشبه الدخان أو الماء أو الهواء ، ويعتبرون السيد المسيح كحامى حمى الناس ، **فهو يأخذك الى الجنة اذا كنت طيبيا ، ويشفيك اذا كنت مريضا . ويدرك طفل** فى سن ٦ سنوات وظيفة الله بالقول بأن « الله شخص ما فى السماء أو فى الجنة يعتنى بكل شيء ويرعاه ويعالج كل شيء حتى لا يعترى الناس اى مشاعر رديئة أو تسود بينهم » ، ولكن أطفال هذا السن يعانون من خلط ازاء فكرة (ان الله خلق كل شيء من لا شيء) ويرجع سوء الفهم هذا الى نزعة الاطفال لارجاع كل الافكار المعنوية الى معان مشخصة مجسمة تقع فى اطار خبراتهم .

ولقد عبر عدد كبير من الاطفال الصغار (٤٦٤٠ طفلا) من أطفال الصف الرابع الابتدائى فى المجتمع الامريكى عن فكرة يوم الحساب The Judgment Day حيث وافقت نسبة ٣١ ٪ من مجموعهم على القضية الآتية :

يحتفظ الله بسجل كبير يسجل فيه أفعالنا السيئة .

بينما أقر ٤٣ ٪ منهم أنه تعالى لا يفعل ذلك و ٢١ ٪ كانوا فى حالة شك وتردد ، بينما وافق نحو ٥٠ ٪ منهم « بأننا اذا صلينا بجدية كافية من أجل سطوع الشمس أو هطول الامطار فان الله سوف يغير الطقس من أجلنا » (٥)

• • •

(٥) Sully, J. Studies of childhood, Longmans — Green and Co. 1896, p. 279.

خصائص الفكر والشعور الدينى فى الطفولةوالمراهقة

يعبر الاطفال فى الغالب عن خيال حر وغير تقليدى فى افكارهم عن الدين. ولقد حلل هارمس Harms سنة ١٩٤٤ بضعةآلاف من رسوم الاطفال الصغار من (٣ ـ ٦ سنوات) التى تمثل افكارهم عن الله ، ووجد أن معظم الصور المرسومة تعبرعن الله كنوع من شخصية الاساطير ، يرتدى الملابس الفضفاضة (٦) ولقد افترض هارمس ثلاثةمراحل للنمو الدينى فى الطفولة هى :

١ ـ مرحلة الصورة الاسطورية The Fairy Tail tage حيث تسود الافكار والمعتقدات الخيالية أو الوهمية .

٢ ـ المرحلة الواقعية realistic stage وفيها يرفض الاطفال خيالاتهم السابقة ، ويعتنقون التأويلات القائمة على اساس الظواهر الطبيعية .

٣ ـ المرحلة الفردية The individualistic stage وفيها يبدأ الطفل فى اختيار العناصر التى ترضى حاجاته وبواعثه من الدين ،أى ينتقى العناصر الدينية التى تشبع حاجاته الفردية . (٧)

وعلى الرغم من اختلاف تصورات أو مفاهيم الأطفال عن الله وعن النار وعن الجنة ، وما اشبه ذلك عن المفاهيم الثيولوجية التقليدية ، الا أن ذلك لا يعنى ان الاطفال لايشعرون بالرهبة والتقديس والاحترام نحو الذات الالهية ، وان كان كثير من هذه الآثار يتوقف على الطريقة التى يتعلم بها الأطفال المبادىء الدينية .

يقول مرى ومرى « وهناك أدلة كثيرة على ان التعاليم الدينية المبكرة من قبل المنزل والكنيسة هي العامل الاساسى فى تحديد الاتجاهات الدينيةاللاحقة . ان المنهج المستخدم فى تقديم المفاهيم الدينية للاطفال له اهمية عظيمة » . (٨)

ولا شك أن مفاهيم الطفل عن الدين تختلف اختلافا كبيرا عن افكار الكبار وعن خبراتهم ومشاعرهم ، ولذلك فالجوانب الدينية فى حياةالطفل اقل خضوعا لفهمنا عن جوانب شخصيته الاخرى ، فالنضج العقلى Mental maturity يساعد الطفل على أن يستبدل مفاهيم الطفولة الساذجة والمشخصة بمفاهيم اكثر عمومية واكثر تجريدا ، فكلما تقدم الطفل فى السن اصبحت علاقته بالله أكثر شمولا واقل تشخيصا ،وتصبح اتجاهات الطفل الدينية اقل تمركزا حول ذاته self-centered واقل انانية ، ويصبح اقل اهتماما بالحياة الاخرى . ومعنى هذا أن الدين لا يصبح له دور فعال فى حياة الطفل الا اذا تناول تصورات ومفاهيم تدور حول حياة الطفل الدنيوية

---

(٦) Argyle, N., (cited in) the religious behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1958.

(٧) Cole, L. and Hall, I., **Psychology of Adolescene,** Holt, Rinchart and Winston, N.Y. 1960

(٨) Merry F. and Merry, R., op. cit. P. 490.

المباشرة ولم يقتصر على الحياة الأخرى ، واذا ماتساءلنا عما يحدث فى فكر الطفل الدينى عندما يصل الى مرحلة المراهقة لوجدنا أن هناك عمليةانتقال أو تحول من تلك الاستجابات التى تثيرها الضرورة الخارجية الى تلك الاستجابات التىتثيرها الضرورة الداخلية، اىمن الدوافع الأنانية الى الدوافع غير الأنانية ، ولكن هذا لا يعنى اننستنتج انالشعور الشخصى بالواجبوبالمسئولية والاحساس بالمثل العليا والسلوك الغيرى ليستمعروفة قبل هذه السن ، وانها تظهر فجأة عند البلوغ Puberty ، وهناك كثير من الأدلةالتجريبية التى تؤكد حدوث النمو التدريجى وليس النمو أو الانتقال الفجائى من مرحلة الىاخرى .

وتبدو القدرة على التجريد بتقدم الطفلفى السن ، **ولقد وجدت نسبة مئوية كبيرة من** الاطفال الصغار الذين وافقوا على القضية الآتية« ان الله عبارة عن شخص ما يراقبك ليرى انك تتصرف تصرفا حسنا وهو الذى يعاقبك اذا لمتكن طيبا » . **بينما كانت هناك نسبة اكبر من** الاطفال المتقدمين فى السن (١٨ سنة) الذينابدواموافقاتهم للقضية الآتية : « ان الله قوة غريبة تعمل من أجل الخير اكثر من كونه شخصا » .

وبالتقدم فى السن تبدو نزعة التسامح نحوارباب الديانات الاخرى لدى المراهقين . (٩)

ولقد وجد أن الاطفال الكبار فى السن أكثراستعدادا للموافقة على القضايا مثل : « ان الكاثوليك واليهود والبروتستانت متساوون فىالطيبة ، أو ليس من الضرورى أن تذهب الى الكنيسة لتكون مسيحيا ، والمراهقون المتقدمونفى السن (١٨ سنة) كانوا اقل اصرارا على أن « الناس الطيبون يؤدون الصلاة بانتظام » .

وفى احدى الدراسات التى تناولت عينةمن الشباب من (١٦ الى ٢٤ سنة) تبين انارتياد الكنيسة تنخفض بالتقدم فى السن .

أما فكرة الطفل عن الدين فانها فكرةمحسوسة ملموسة وينطبق هذا على صورةالملائكة والشياطين ، اما العبادات كالصلاة فانها وسيلةالطفل الصغير فى الحصول على مطالبه . ولكن بتقدم الطفل فى العمر يدرك ان دعواته لا تجابكلها ، فلابد ان يؤمن بقيمة العمل حتى تجاب مطالبه .

أما المفاهيم الدينية فان الطفل الصغيرلا يفهم معناها لان قدرته العقلية لا تقوى على ادراك المعنويات المجردة كالخير والشر والصلاحوالتقوى ، ولكنه يدرك فقط الأمور الحسية الملموسة التى يستطيع أن يشاهدها ، وأن يحسبوجودها. وعندما يصل الطفل الى مرحلةالطفولة المتأخرة يستطيع انيناقش الأمور الدينية .ويأخذالطفل فى الاتيان ببعض الأسئلة التى تدور حول الخلق والموت والحياة والبعث وأصل العالم . .وهكذا . وفى أول الأمر يقبل ما يلقى عليه من اجابات ثم بتقدمه فى العمر يعيد النظر فيه .

---

(٩) Kahlen, R., **The Psychology of Adoles cence,** Harpers and Brothers, N.T. 1952, P. 439

وفي بداية مرحلة المراهقة هيل المراهق الى الشك فى القيم الدينية التى تعلمها فى مرحلة الطفولة، ويعجز عن فهم المعانى الدينية والفلسفية العميقة ، ويظل يشك فى هذه القيم حتى أواخر مرحلة المراهقة . وعندما يبلغ المراهق حوالى سن السادسة عشرة فانه يتحول نحو الدين مرة أخرى ، ولذلك تعرف هذه الفترة بفترة اليقظة الدينية .

تدل مناقشات المراهق وجدله العنيف على وجود اليقظة الدينية ، حيث يميل الى مناقشة امور مثل الثواب والعقاب ، **أو الجنة والنار والبعث والخلود والقضاء والقدر والجبر والاختيار .** وقد تزداد وطأة الشك الدينى عندما يموت أحد آباء أو أصدقاء المراهق المقربين . وعندما يقترب الفرد من مرحلة الرشد يتحول من الشك الى اليقين ، فيفكر تفكيرا هادئا فى الأمور الدينية ؛ ويظهر عندئذ الشعور بالتسامح نحو أصحاب الديانات الأخرى (١٠)

وبالرغم من أن كثيرا من علماء النفس يزعمون أن فترة المراهقة تمر بحالة ارتباك خلقى وتظرف سياسى ، وتغير فى القيم ، وقبول القيم الدينية أو رفضها ، ولكن هذا لا يحدث الا بالنسبة لقلة بسيطة من المراهقين ، اما الأغلبية الساحقة فانها تظل محتفظة بالاتجاهات الدينية التى يعتنقها الوالدان ، ويعتنقون مبادىء تشبه مبادىء الوالدين فى الفلسفات السياسية والأخلاق والجنس وما اشبه ذلك .

ففى احدى الدراسات وجد أن : ٨٤ ٪ من المراهقين أعضاء فى الكنيسة ، وأن ٥٠٪ يرتادون الكنيسة بانتظام . وأن ١٠ ٪ لم يذهبوا للكنيسة . وأن ٧٥ ٪ يعتقدون اعتقادا راسخا فى وجود الله . (١١)

وبتقدم الطفل فى العمر ينمو عنده الشعور بالتسامح الدينى ، وبالحرية الدينية religious liberalization ويحدث التحرر الدينى فيما بين سن ١٢ و ١٥ سنة وعلى ذلك تزداد نسبة عدد المراهقين فى هذه السن الذين يوافقون على عبارات مثل :

(١) **ليس من الضرورى أن تذهب للكنيسة** لكي تبقى مسيحيا .

(٢) الكاثوليك والبروتستانت واليهود كلهم متساوون فى الطيبة . بينما تقل نسبة الموافقة على عبارات مثل :

١ — كل لفظة فى الانجيل صادقة .

٢ — الله يراقبنا ويعاقب فاعل الشر .

• • •

---

(١٠) د. فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٨ .

(١١) Mussen, P.H., The psychological development of the child, Prentice-Hall, U.S.A. 1963.

أثر الخبرة الدينية فى عمليـة التطبع الاجتماعىأو التنشئة الاجتماعية :

هناك عوامل متعـددة تلعب دورا هاما فىعملية التطبع الاجتماعى أو التنشئة الاجتماعية Socialization * من ذلك جـماعة الانداداو الزملاء والاسرة والمدرسة والراديو والتلفزيون والصـحف والمجـلات والاندية والمعســكرات والمؤسسات الدينية وثقافة المجتمع ككل .

منذ اهتمام **استانلى هول وتلميذه دانيلز** Daniels (١٨٩٣) **واستاربوك** Starbuck (١٨٩٩) الذين كانوا يعتقدون أن التحول الدينى جزء هام من خبرة المراهق منذ ذلك التـاريخ ، اهتم علماء النفس بأثر الدين على النمو . حقيقةلا نعرف الا القليل عن التأثير المباشر للدين عـلى السلوك لأن وضع محكات تعتبر مسألة صعبة . فكيف يمكن فصل الشخص المتدين عن غيرالمتدين لتحديد أنهما يختلفان فى السلوك والقيم ؟

من بين المعايير المستخدمة عبارات الفـردنفسه ، هل يزعم هو انتمائه الدينى أو عـدم انتمائه ؟

ولقد أسفرت الدراسات التى تناولت مئات الجانحين انهم يقررون فى المقابلات وعلى الاختبارات النفسية أن لديهم بعض الارتباطات الدينية ، ولكن استخدام مزيد من الأسئلة يوضح أن معظم هؤلاء الجانحين لايدخلون الكنيسة ولو مرة واحدة فى السنة . وهكذا فان انتمائهم الدينى Their religious affiliation هو « انتماءلفظى وليس سلوكيا » ، وعلى ذلك فيلزم محك آخر غير محك الانتماء . بل أن ارتياد الكنيسة Church attendence كما استعمل فى كثير من الدراسات لا يصلح كمؤشر حقيقى لتدين الفرد الاصيل ، **فهناك بعض الاشخاص الذين يرتادون الكنيسة** لأسباب غير دينية كالذهاب نتيجة لضغوط الآباءأو لمجرد العادة ، أو حبا فى الظهور أو الطموح الاجتماعى ، أو للشعور بالسمو أو للتمتع بالصحبة الاجتماعية ، أو لمجرد قضاء وقت الفـراغ أو التخلص من الشعور بالوحدة والعزلة . وهنـاك دراسات استخدمت اختبارات لقياس المعـرفة الدينية كما فعل **مالديول** ، ولكن حتى هذا المنهج لا يكشف عن الاعتقاد الدينى الحقيقى ، وعـلى ذلك فان النتائج التى نحصل عليها من هـــذه الابحاث يجب أن تؤخذ بكثير من التحفظ ، فمعظم المعطيات تعطى معـلومات عن بعـض الجـوانب « الصورية » من الدين أو الرسمية ومن السلوك كالعلاقة بين ارتياد الكنيسة والسلوك ، ولا تعطى صورة عن الرابطة بين الانغماس العميق فى الدين وفى السلوك . اننا نتوقع أن الخبرة الدينية تؤدى الى تغيير كل الاتجاهات الاجتـماعية العريضـة كالاعتقاد فى الاخاء بين بنى الانسان ، وتغير السلوك النوعى المحدد كما يقاس على الاختبـار للغش مثلا . (١٢)

(*) تشير هـذه العملية الى امتصاص الطفل لقيم المجتمع ومعاييره واكتساب أنماط السلوك المقبولة .

(١٢) Ibid, P. 488.

اليقظة الدينية فى مرحلة المراهقة :

ومن الظواهر الدينية البارزة فى مرحـلةالمراهقة ظاهرة التحول الدينى The religious conversion **ولقد افترض استاربوك** Starbuck **منـذ وقـت مبكـر (١٨٩٩) أن هنـاك** علاقة وثيقة بين بداية المراهقـة وبين التحـولالدينى (١٣) ولكن الدراسات الحـديثة لا تؤيد وجود يقظة دينية فجائية فى المراهقة، وتؤكد مثلهذه الدراسات أن نمو الافكار الدينية عمليـة تدريجية مستمرة تحدث بدون طفرة تصـاحبسن البلوغ ، أو تدفق أو انفجار فجائى يصاحب مرحلة البلوغ . **ويتأثر الاتجاه الدينى فى المراهقة**بما تلقاه الطفل فى المراحل السابقة من تعـاليم دينية ، **فكلما كانت هذه التعاليم اكثر ضيقا او** اكثر رسمية او صورية كان المراهق اكثر ميـلا للابتعاد عن حظيرة الدين .

وليس هناك أدلة لتأييد الفرض القائل بأنالتغييرات البيولوجية فى البلوغ تؤدى الى حدوث ازمة انفعالية تؤدى بدورها الى اليقظة الدينيـة religious awakening .

وتكشـف الدراسات المبكرة التى أجريت فىحوالى سنة ١٩٠٠م كدراسة استاربوك أنالتحول الدينى يحدث فى السـن ما بين خمسـة عشروعشرين عاما ، الا أن الدراسـات المتـأخرة نسبيا (١٤) كدراسة **كلارك** E.T. Clark سنة١٩٢٨م حول سيكولوجية اليقظة الدينيةاوضحت أن متوسط سن حدوث هذه اليقظة هو ١٢ سنة،وهي سن مبكرة قليلا عن بداية البلوغ ، والاكثر احتمالا أن حدوث اىتكثيف intensification فى الميول الدينية أو الخبرة الدينية يرجع الى النضج العقلى intellectual maturation أكثر من البلوغ فى حـد ذاته . فلقـد وجـد **هولنجوورث** L.S. Hollingworth سنة ١٩٣٣أن تكثيف الميول الدينية يحـدث فى الاطفـال الموهوبين عقليا فى سن الثمانى سنوات لأولئـكالذين يصل عمرهم العقلى الى اثنى عشر عاما .

ان استعراض التراث السيكولوجى يعكسوجهات نظر متباينة حيال مسألة زيادة أو نقص الشعور الدينى فى مرحلة المراهقة ، فتبعا لوجهةنظر **جارسون** K. Garrison يؤدى نمـو دائرة معرفة المراهق ، ونمو عادات أفضل فى التفكـيرالى تساؤل المراهق وتشككه فى كثير من الاشـياء أو الافكار التى قبلها سابقا دون نقد أو تمحيص.

ان شك المراهق يثار عن طريق بعضالمبادىءوالمعلومات العلمية ، وعن طريق رغبته (١٥) فى اكتشاف نفسه بنفسه ومحاولته ربط العالم معخطة الحياة العامة وذلك بتفكيره الخاص .ويؤيد **جيرسيلد هذه الفكرة بالقول بأن الاطفال**يصبحون قادرين على التفكير فى الافكار المجردة عنـدما يصلون الى المراهقة . انهم يكتسبون فهما اكثـرعمقا عن معنى دينهم ، وسوف تزداد قدرةالمراهق

(١٣) Carmichael, L., Manual of child psychology, J. Wiley, N.Y. 1954, P. 699.

(١٤) Ausubel, D. Theory and Problems of adolescent development Grune and Stratton, N.Y., 1954, P. 270.

(١٥) Garrison, K., Psychology of adolescene, Prentice-Hall, 1955 P. 162.

على اختيــار وفحــص معانى الافكار والعقــائدوالمبادىء والقيم التى سبق له أن قبلها عن طيب خاطر بلا نقد او تمحيص ، قبلها من الآباء اوالكبار أو المعلمين .

وخلافا لهذا الراى يقول **كول** Cole (سنة١٩٦٤) ان الطفل يبدأ فى التشكك فى كل مظاهر السلطة ورموزهــا authority figures عند بلوغه مرحلة المراهقة وربما يبتعد عن دور العبادة ، ويثور على سلطات الأسرة والمدرسة ،وان كان هناك عدد كبير من المراهقين مايزال يعتبر الدين مصدرا ممكنــا للرضــا والاثارة النفسية**والانفعالية والعقلية** * ، **ففى نظره يأخذ كثير من الاطفال بعد** سن الخامسة عشرة فى التفكيرالنقدىفى المسائل الدينية ، وعند وصول مرحلة الرشد يستقر بهم الحال الى وضع غير مبال نسبيا ،وانكان اتجاههم (١٦) هو اتجاه تسامح نحو الديانات الأخرى وأربابها (١٧). أما **أوزابل** B. Ausubel فيرىان التناقض الدينى تثيره الاكتشافاتالعلمية فى ذهن المراهق ، وهو تناقض سطحى ، ولايؤثرفى جوهر الايمان الدينى religious faith ولقــد درس **فورســـتر** J. F. Forrester الاتجاهات الدينية لدى مجموعة من المراهقــين تتراوح أعمارهم من ١٣ الى ١٧ سنة . ووجــدأنهم يرغبون فى أن يصبح الدين عمليا ، وأنه من الأفضل ان نسلك سلوكا صحيحا عن امتــلاك**العقــائد الدينيــة الصــحيحة ، وان الخدمات الاجتماعية أكثر اهمية من العبادة ، ووجد انالعناصر الصوفية فى الدين** mystical elements ليس لها الا جاذبية قليلة بالنسبة للمراهقين .

ويمر النمو الدينى فى الفرد بمراحلمختلفةتختلف باختلاف عمر الفرد ، لأن فكرة الطفــل عن الدين تختلف عن فكرة الراشد الكبير . ففكرةالطفل الصغير عن الله فكــرة مادية مجســمة مشخصة . وعندما سئل عدد من الاطفال الصغارعن فكرتهم عن الله قالوا : « انه رجل عجــوز له لحية بيضاء ، ويلبس ملابس بيضاء فضفاضة ».أما التفكير الدينى فى مرحلة المراهقة فيمتاز بأنه تفكير نقدى ، حيث يلجأ المراهق الى نقد الافكارالتى تلقاها من الآباء والمدرسين والكبار فى مرحلة الطفولة ، وكان قد قبلها عن طيب خاطر .وللدينأهمية خاصة فى مرحلة المراهقة ، حيث يلجــأ المراهق للدين لكي يجد فيه مخرجا من مشكلاته،ولكى يجد فيه السند الذى يحقق له الشــعور بالأمن الذى فقده بسبب الصراعات التى تدور فىنفسه .

ويفترض بعض علمــاء النفس أن مرحــلةالمراهقة مرحلة كفر والحاد، ولكن يبدو أن التفكير النقدى هو الذى يدفع المراهق لاعادة النظر فىالعقائد التى سبق له أن تلقاها ، ويساعده على ذلك زيادة نضجه العقلى وتحرره الفكرى . ولقداجرى جليلاند Gilliland بحثا على الشباب فى سن المراهقة ، وتناول بالأسئلة موضوعات مثل**وجود اللهوالخلود والمعجزاتالتى قام بها الانبياء** والحياة الاخرى ، والاعتقاد فى وجود الجنة والناروفى **وجود الشياطين،وتبين له أن غالبية الشباب**

---

(١٦) Cole, L. and Holl, IK, Op. Cit. P. 477.

(١٧) Ausubel D., OP. Cit. P. 270.

(*) يعتبر الدين بالنسبة لكثير من الكتاب والعلماءوالفنانين مثيرا عظيما لعبقرياتهم وابداعهم ونبوغهم الفنى .

يعتقدون (١٨) فى صحة هذه المبادىء الدينية ،ولكن هناك نسبة قليلة لا تعتقد ، ونسبة أكثر منها فى حالة تردد وعدم يقين .

وهناك من المفكرين من يعتقد ان فترة المراهقة ليست فترة اضطراب خلقى أو دينى . « وعلى النقيض من الفكرة التى كانت تشيع سابقا نجد المراهقين لا يمرون بفترة من ثورة الاضطراب الاخلاقى والدينى ، ولكن المراهقين بالطبع على درجة كافية من الفهم والحكمة بحيث انهم يرون ذلك التناقض الذى يقوم بين المعتقدات المتزمتة من ناحية ، والجانب العقلى من ناحية أخرى ، وهم يتلمسون للحياة معنى وقيمة . وقد تمتلىء نفوسهم فى بعض الأحيان تحمسا وشوقا زائدين الى اعادة تنظيم الكون . ولكن هذه المثل العليا الا تتعارض أو تتصارع مع الواقع تصارعا يؤدى الى الارتداد عن الدين أو الاضطراب الخلقى . ان النزعات الخلقية والدينية اذا أرسيت قواعدها فى الطفولة تستمر الى المراهقة ثم فى مرحلة الرشد عند غالبية الشبان (١٩)

• • •

النمو الخلقى فى مرحلتى الطفولة والمراهقة

مفهوم الاخلاق :

ينبغى تحديد المقصود باصطلاح «الاخلاق» Morality فهل الاخلاق هي ما يقرره المجتمع حتى ولو كان خطأ ؟ أم أن الاخلاق هى ما يعتبره الفرد عدلا Justice وشفقة Kindness وايثارا Alturism وما الى ذلك من القيم الخلقية المطلقة ؟

لا شك ان مفهوم الأخلاق كمفهوم نابع عن المجتمع هو مفهوم دينامى فى طبيعته ، بمعنى أنه يتغير من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى آخر ،وينمو ويتطور او يتعدل .

ويعرف **هادفيلد** J. Hadfield الاخلاق بالقول :

« هناك معنيان عريضان لمصطلح «الاخلاق» أحدهما بمعنى الامتثال Conformity لمعايير **المجتمع** norms or mores **وعاداته ، والمعنى الآخر هو اتباع الغايات والأهداف الصحيحة » (٢٠)**

النوع الاول : يجعلنا آليا نتبع العادات ونمتثل السلوك الجماعى ، ونرعى التقاليد

---

(١٨) Gilliland, A.R., „ Changes in religious beliefs of college students " in J. Soci. psycli,P. 37.

(١٩) جلن مايرزبلير ، ستيوارت جونز ترجمة د. احمد عبد العزيز سلامه ، د. ضياء الدين أبو الحب ، سيكلوجية المراهقة للمربين ، دار النهضة العربية ــ القاهرة .

(٢٠) Hadfield, J., Child hood and adolescene, Penguin Books, 1964 P. 141.

الاجتماعية . وطبقا للمعنى الثانى فان الغـايات الصحيحة كالكرم والولاء والامانة تعدخيرة فى ذاتها وينبغى اتباعها بصرف النظر عن عادات المجتمع ومعاييره . (٢١)

والأخلاق بمعنى الامتثال لقيـم المجتـمع وانماط سلوكه تختلف من مجتمع الى آخر .

ويستخدم احيانا اصطلاح الخلق character ليعنى السلوك الخلقى moral behaviour ولكن اصطلاح الخلق يشير الى درجة التنظيـم الخلقى الفعال لكل قوى الفـرد . ويشـير الى الاستعداد « النفسـيفيزيقى » الدائم الذى يقمع البواعث تبعا لمبدأ تنظيمى معين . ومعنى هـذا الاشارة الى الأخلاق morality كخلق داخـلى يكمن فى داخل الفرد نفسـه . وهـكذا نرى أن اصطلاح الخلق يشير الى سمات الشخصية اكثر من اشارته الى الأخلاق التى تتضمن قوة ارادية كافية لتوجيه السلوك نحو نوع ما من القيـم . وتهتم الاخلاق بنوع خاص بقوى الفرد الارادية وأهداف كفاحه واتجاهاته . (٢٢)

ويقصد بكلمة الأخلاق Morality مـن الناحية السلوكية العادات والتقاليد والآداب والمثل المرعية فى مجتمع ما ، وعلى ذلك فالقيم الخلقية تختلف من مجتمع الى آخر ، كما تختلف فى نفس المجتمع من عصر الى آخر ، وتختلف فى نفس المجتمع وفى نفس العصر باختـلاف الطبـقات الاجتماعية . فالمبادىء التى تصـلح للمجتـمع الاشتراكى لا تصلح للمجتمع الراسمالى ، كذلك اخلاقيات المجتمع الديموقراطى تختلف عن أخلاقيات المجتمع الديكتاتورى ، فالفرد الذى يعيش متكيفا فى مجتمع رأسمالى يصبح غير متكيف اذا ما نقل الى مجتمع شيوعى مثلا . وطبقا لوجهة النظـر « الامتثالية » ما على الفرد الا أن يقبـل قيـم الجماعة التى ينتمى اليها حتى يعيش فى سـلام ووئام معها، ولكن رغم وجود هذه الفروق الثقافية فى مفهوم الأخلاق الا أن هناك بعض المبـادىء الخلقية « المطلقة » العامة التى تصدق فى كل مكان وزمان ، ومنها الصدق والامانة والولاء . . . الخ .

ويعرف الخلق بأنه تكامل العادات والاتجاهات والعواطف والمثل العليا بصورة تميل الى الاستقرار والثبات ، وتصلح للتنبؤ بالسلوك المقبل . (٢٣) فالنمو الخلقى لدى الطفل يسير من مجرد الرغبة فى تحقيق اللذة والسعادة الى التقيد بالمبـادىء الخلقية والاجتماعية السائدة فى المجتـمع الذى يعيش فيه الطفل .

ويتقدم الطفل فى العمر تتحول القوى الرادعة من كونها قوى خارجية اى صادرة من الخارج ، من الآباء والأمهات والمدرسين ، الى أن تصبـح قوى ذاتية داخلية هي ضمير الطفل ، ويتكون هذا الضمير عن طريق امتصاص قيم الآباء واكتسابها، وبذلك تصبح معايير الطفل نفسه .

---

(٢١) راجع كتاب « علم النفس ومشـكلات الفـرد » للكاتب ، منشاة المعارف بالاسكندرية ، لمعرفة الاتجاهات المختلفة فى تحديد السواء والانحراف .

(٢٢) يختلف معنى الاخلاق بالمعنى السلوكى كعادات فردية وجماعية عن الاخلاق بالمعنى الفلسفى ethrics او كعلم الاخلاق .

(٢٣) دكتور فؤاد البهي السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشـيخوخة ، دار الفكر العربى بالقاهرة / ١٩٦٨ .

ويقودنا هذا الموضوع الى التساؤل أيهما تصبح له القيمة العليا والمطلقة : الفرد أم المجتمع؟

فى ضوء الخبرات المستمدة من المجتمعات الديموقراطية والدكتاتورية يتضح ان الأمل الوحيد فى الاصلاح والتقدم يكمن فى النشاط الحر لأعضاء المجتمع . وليس هناك ضرورة لاتخاذ موقف دون آخر فى أيهما تكون له السيادة : الفرد أم المجتمع، اذ الواقع انهما يعتمدان على بعضهما البعض ، وهناك علاقة تفاعل قوية بين الفرد والمجتمع . فصلاح المجتمع من صلاح أفراده وصلاح الأفراد يؤدى الى صلاح المجتمع برمته .

ومن الناحية السيكولوجية فان مفتاح الأخلاق هو شعور الفرد بالواجبات والالزام فى كل من الفكر والعمل .

وعلى ذلك فان السلوك الذى يقوم به الفرد خوفا من عقاب المجتمع ليس خلقيا بالمعنى السيكولوجى ، ويصبح خلقيا عندما يصدر عن شعور الفرد بالواجب أو بالولاء أو العطف أو الشفقة أو الرحمة أو الحب أو الشرف وغيرها من الانفعالات المشابهة . ولكن هذه الانفعالات ليس من الضرورى أن تكون صحيحة اجتماعيا ، ذلك لأنها قد تنشأ أصلا من الاخطاء التى يرتكبها المجتمع ضد افراده .

ولا يمكن قبول الافتراض أن الانسان خير محض أو شر محض ، انما تسود آراء الكثرة من العلماء بأن فى الانسان الشر والخير معا ، وتفتح هذه الفكرة الآفاق واسعة أمام المجتمع ومنظماته التربوية لتنمية الجوانب الخيرية فى الانسان وسيطرتها على جوانب الشر فيه. وتلعب الاساليب التربوية دورا هاما فى توضيح مفاهيم الخطأ والصواب ، وخاصة لدى أولئك الذين يعتريهم الخلط وعدم القدرة على التمييز بينهما . فكثير من الناس ، وخاصة الشباب ، يقفون موقف الحيرة ازاء الوعظ والارشاد من قبل الكبار من ناحية وسلوكهم الفعلى العملى من ناحية أخرى. على أن مجرد المعرفة النظرية بالخير أو الشر لا تتضمن بالضرورة عمل الخير . المهم هو الارادة التى تفعل الخير وتتجنب الشر الى جانب ضرورة توافر الامكانيات البيئية والانفعالية والجسمية لممارسة الخير . فلقد وجد أن قوة الارادة تتأثر بتعاطى الفرد بعض العقاقير . (٢٤)

الانماط الخلقية :

يصنف الناس أحيانا الى أنماط خلقية مختلفة تبعا لنوع الأخلاق الذى يتبعونه :

١ ــ النمط النفعى The expedient type وفيه يسلك الفرد فقط سلوكا خلقيا للحصول على اغراضه الذاتية .

٢ ــ النمط الامتثالى conforming type وهو النمط الذى يفعل صاحبه مايفعله الآخرون، وما يقولون انه ينبغى عليه أن يعمله .

(٢٤) Johnes, V., Character development in children : an objective approach, in Manual of child psychology, ed. by, Carmichael, L., P. 821.

٣ ـ النمط العقلى أو النمط ذو الضمير الحى The rational or conscientious type
وله معاييره الخاصة الداخلية فى الصواب والخطأ

وتبعا لهذه المعايير يحكم على تصرفاته . وهو نمط ايثارى altriustic ويمثل على مستويات الأخلاق . وله مجموعة من المبادىء الخلقيـــة الثابتة المستقرة والتى توجهه. انه عقلانى وواقعى Realistic فى تقويمه لما هو خير له ولغيره من الناس (٢٥) ·وهو غير مضـــطر لعمل كثـير من التفسيرات أو التأويلات الخلقية لأنه يتبع «حرفية» القانون الخلقى ، اما الشخص النسبى فى مذهبه الخلقى relativist فانه يأخذ فى الحســـبان النوايا والدوافع والاصرار أو التعمد والنتـــائج العملية لعمله ، وكما يقــول **فروم** E. Fromm **في ضوء الأخلاق السلطوية تضع السلطة * ما هو** خير للانسان ، وتضع القوانين والمعايير للسلوك، اما فى الاخلاق الانسانية فالانســـان نفســـه هو موضوع المعايير وهو الذى يضع هذه المعـــايير ، انه مصدر المعايير والمسئول والمنظم ، وهو أيضا الموضوع الذى تنطبق عليه هذه المعايير . (٢٦)

خصائص الفكر والسـلوك الخلقى فى الطفـولة والمراهقة :

يضاف الى المشاكل السابقة مشكلة عمومية المبادىء الخلقية أو خصوصيتها ، بمعنى هل يكون الطفل الأمين فى البيت أمينا فى المدرسة وفى النادى وفى العمل وفى الامتحان وفى اللعب وفى جميــع المواقف والاماكن أم أن الامانة تتوقف على الموقف الذى يوجد فيه الفرد ومقدار حاجاته الى «الغش» مثلا ؟ وعلى دوافع الفرد وحاجاته ؟ لقـــد دلت دراسة هارتشون وماى (١٩٢٨) Hartshorne and May على عدم وجود ارتباط ذى دلالة بين الغش فى المدرسة والغش فى المنزل Cheating at home and at school ، ولكننا اذا اخـــذنا الاخلاق بمعنى الشعور بالذنب لتجنبنا الصعاب الناتجة من الاتجاه الامتثالى السلوكى ، اذ مـــن الممكن أن يخضـع الفرد للاغراء Temptation ومع ذلك يشعر بالذنب نتيجة لامتلاكه معيارا داخليا .

يسير الطفل فى بدء حياته بمنطق « اللذة » أى انه يميل الى تكرار السلوك الذى يجلب له اللذة المباشرة ويجنبه الالم . ويتكون ضمير الطفل عن طريق مجموعة الأوامر والنواهى التى يتلقاها من الوالدين اللذين يقومان بوظيفة الضـمير فى بدء حياة الطفل . فالطفل الصغير لا يسرق لأن «ماما» تقول لا تسرق ، ولأن السرقة تغضب « ماما » .

---

(٢٥) Jersild, A., The Psychology of adolescene, P. 368.

(٢٦) Fromm, E., Man for himself : an inquiry for the psychology of ethries, Rinehart, N.Y 1947.

(*) راجع أنواع القيادة وأثر كل منها على السلوك والشخصية فى كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية ـ بيروت .

وهنا ينبغى أن نتساءل عن العــوامل التىتؤثر فى مجرى النمو الخلقى فى حياة الطفل ؟

العوامل المؤثرة فى النمو الخلقى :

لقد تساءل كثير من الكتاب : هل يرجــعالسلوك الخلقى الىالوراثةأمالى البيئةوالاكتساب؟ يحتوى التراث السيكولوجى على كلا الاتجاهينأى الاتجاه الوراثى والاتجاه الاكتسابى . ومنبين الدراسات العديدة التى تؤيد العوامل الفطـريةفى الأخلاق The innate factors دراســة الأسر التى انتشر الجنوح والاجرام بين أعضائهابكثرة كبيرة عبر الأجيال المتعاقبة (٢٧) . ولقــد افترض قديما بعض العلماء وجود حس خلقى داخل الانسان، ولكن اذا كان للاخلاق حسمستقل فأين يقع هذا الحس من الجسم ؟ وفى غضــونالقرن الثامن عشر سادت حركة طبية تفترض انه نتيجة لاصابة الفرد بمرض ما فانه يفقد حســهالخلقى ، بينما تبقى قواه العقلية سليمة ، واطلق على هذه الحالة المرضية اصطلاح الجنون الخلقى moral insanity (٢٨) ويفترض **هنــرى مودسلاى** Henry Maydsley أن معظم المجرمينالصغار ضعاف أخلاقيا فى القوة الخاصة بتكوين الحدس الخلقى ، وكان يعتقد ان الطفل قد يكونماهرا عقليا ولكنه أعمى خلقيا ، وأن هذا الضعف الخلقى الموروث يبدو انه ينتشر فى أسر معينة عبرالأجيال المتعاقبة . ومن ناحية بناء الشخصية وجد أن كثيرا منالاعراض السيكوباتية والعصابيةترتبط بالجنوح (٢٩) وكان **لمبوروزو** Cesare Lombroso يعتقد بوراثية الاجــرام . ويعتقــدبعض الناس بأن الطفل يولد مزودا بضمير معين يساعده على التمييز بين الصواب والخطأ ، بل يزعم البعض أنالطفل يرث بعض السمات الخلقية المحددة كالأمانة والصدق ، ولكن هذه الفكــرةتخلص الآباء والمعلمين من مسئولياتهم ازاء تربية الطفل تربية خلقية سليمة حيث لا يعزون السلوكغير المرغوب الى فشلهم وانما الى نقص وراثى أو فطرى لا يمكنهم التغلب عليه .

ولكن الضمير فى واقع الامر يتكون خــلالالشعور بالالتزام أو بالواجبات الاجتماعية ، تلك العمليات التى تحول الضبط الخارجى الى ضبطداخلى (٣٠) . **يقول وليم مكدوجل** McDougall مؤيدا الاتجاه الوراثى للعقل البشرى : ان هنــاكنزعات فطرية أو موروثة هي المنابع الاساسية أو **القوى الدافعة لكل من الفكر والسلوك ، وهيالاســاس الذى تنمو عليه خلق وارادة الافراد والأمم بالتدريج تحت توجيه الملكات العقلية (٣١) .**

---

(٢٧) Kanner, L., Child Psychology, Charles C., Thoms, U.S.A. 1957, P. 679.

(٢٨) Burt, C., The Young delinquent, univ. of London, Press, 1957 P. 34—40.

(٢٩) Ibid.

(٣٠) Hawkes, G.R., Behaviour and development from 5-12 Harpers and Brothers, N.Y. 1962, PP. 122.

(٣١) لم تعد فكرة الملكات مقبولة فى الفكر السيكولوجىالحديث واصبح ينظر للعقل البشرى على انه وحدة .

اما **فرويد** Freud فيرى أن غريزتى الجنس والمحافظة على الذات هما العنصران الاساسيان فى الدافعية الانسانية human motivation وتتضمن غريزة المحافظة على الذات ، من بين ما تتضمن حماية معايير الفرد الخلقية والاجتماعية ويفترض آدلر Adler وجود نزعتين مسئولتين عن ارتباط الانسان بأخيه الانسان ، وهما :

١ ـ الرغبة فى القوة الشخصية والسمو .

٢ ـ الشعور الاجتماعى .

ولكن مثل هذه الاتجاهات التى تختزل الدافعية الانسانية فى شكل عامل أو عاملين تبالغ فى تبسيط التنظيم الدافعى فى الانسان .

وتدلنا الدراسات الانثروبولوجية التى تناولت بعض المجتمعات البدائية على أن القيم الخلقية ليست عالمية ، ومن ثم ليست موروثة ، وعلى سبيل المثال فان مجتمع الأرابيش Arapash ليس فى حاجة الى كثير من الوسائل التربوية التى تروضه على ممارسة السلوك الخلقى ، وانما يظهر هذا المجتمع كثيرا من مظاهر الايثار والتضحية(٣٢) تلقائيا .

وفى مجال تأييد وجهة النظر الوراثية فى نمو القيم الخلقية ربما نشير الى الفروق الملاحظة بين الذكور والاناث فى الأخلاق . فلقد وجد أن الاناث أكثر تأثرا بالنداء الانفعالى فى الحياة الدينية ، بينما الذكور أكثر جذبا بالشرف والعقاب الخلقى والنشاط الاجتماعى . وبالنسبة للعدوان فلقد أعطى **بايز وماريكارد** Bize and Maricard (١٩٣٧) حقنا من الهورمون المنشط للذكور لعدد من الصبيان الصغار ووجد زيادة واضحة فى العدوانية فى كل العلاقات الاجتماعية . كذلك أعطى كلارك وبرش Clark & Birch هرمونات ذكورة وأنوثة لقرد ذكر ، ووجد أن الهرمون الذكرى يؤدى الى زيادة السيطرة الاجتماعية عند الحيوان ، وأن الهرمون الانثوى يؤدى الى خضوع الحيوان ، ويؤكد هذا فكرة زيادة النزعات العدوانية فى الذكور عنها فى الاناث . وفى مجال الفروق الجنسية فى الأخلاق أيضا هناك ما كشفت عنه دراسة تيودور ـ هات Tudor-Hart حيث وجد أن الاناث يلقين اكثر من الذكور كثيرا من الأكاذيب التقليدية مثل : أمى ليست فى المنزل (٣٣)

أنا سعيدة لرؤيتك .

لقد قضيت وقتا ممتعا فى حفلتكم ؟

مثل هذه الأكاذيب اعتبرتها نسبة اكبر من البنات عن البنين «ضرورية» كذلك اعتبرت نسبة أكبر من البنات الأكاذيب الاجتماعية « ضرورية»(نسبة ٣٢ ٪ فى مقابل ١٨ ٪ من الذكور) ومن

---

(٣٢) Mead, M., Sex and temparament in three primitive societies, Routledge and Kegan Paul, 1948, P. 137.

(٣٣) Jones, V., OP. cit.

امثلة الاكاذيب الاجتماعية « الكذب للاحتفاظ بالاسرار » و « الكذب حماية من الغرامة » وما الى ذلك . وفى دراسة شيلى Sheelly (١٩٣٨) التىتناولت ٨٠٠ طفل تتراوح أعمارهم من ٩ الى ١٦ سنة وجد الذكور أكثر عدوانا وسيطرة واقــلخوفا واكثر تفاخرا عن الاناث اللائى كن أكثر شكا وخيالا ، واكثر خضوعا وطاعة للضوابط الاجتماعية ، ولقد وجدت نسبة الذكور الى الاناث فى الاحداث الجانحين الامريكيين تساوى ٦ ــ ١ .

ولكننا يجب أن نلاحظ أن هناك فروقاكبيرةفى نوع الجرائم التى يرتكبها أفراد كل جنس ، كذلك هناك فرق فىالمستويات الخلقية التىيضعهاالمجتمع على افراد كل جنس . فالمعروف أنالاسرة أكثر تسامحا فى قبول المخالفات التى يرتكبهاالولدالذكر . كذلك فانه يفترض أن الأب ــ اكثر مــن الأم ــ هو الذى يمثل السلطة الخلقية الرئيسيةفى الأسرة ، وانه أيضا الموضوع الخلقى الذى يتقمصه الولد والبنت على حد سواء . ان الأبأكثر تمثيلا للمعايير الاجتماعية ، وهو أكثر قدرة على القيام بعملية الضبط والربط فى الاسرة .

وفى هذا الصدد افترض فرويد أن الذاتالعليا أو الضمير فى النساء أضعف منها فىالرجال . ويرجع السبب فى ذلك الى بقاء البنات مدة أطولمن البنين فى مرحلةجمود عقدة الكترا Electra ✱.

وخلافا لوجهة نظر فرويد هذه يعتبر تيرمانوتيلور أن البنات يمتثلن أكثر من البنين لقــواعد الآباء والسلطة . كذلك تعانى البنات من مشاكلمدرسية ومنزلية أقل من البنين ، وان نســبة جنوحالأحداث بينهن أقلمن مثيلتها عند البنين. وفي دراسة ثرستون وكيف Thurstone and Chave عن الاتجاه نحــو الكنيســة وجد أن النســـاءاكثر استعدادا للذهاب للكنيسةعن الرجال.(٣٤)

ويرى فرويد Freud ان الاحساسبالعدلوغيره من القيم الخلقية اقل فى النســاء منه فى الرجال ، ويرجع ذلك فى نظره الى طرق تكوينالذات العليا عندهن ويقول فرويد : « انالسمات الخلقية التى اثارها النقاد فى كل الأزمنة ضـــدالنساء ــ اى أن احساسهن بالعدل أقل مــن احساس الرجال ، وانهن اقل استعدادا للخضوعلضرورات الحياة الهامة ، وانهن اكثر تأثيرا فى أحكامهن بمشاعر الحب والعداوة ــ كل هذا يفسربالرجوع الى التعديلات التى تحدث فى تكــوين ذواتهن العليا » .

ويبدو ان تعاطف الاناث ينتج من جــوانبشخصية اكثر من المبادىء والقيم المجردة . وفى هذا الصدد يقال ان النساء يتاثرن فى الاحــكامالخلقية والجمالية بالأسلوب وبالشعور اكثر من التاثر بالعقل .

---

(٣٤) Thrustone, L. and Chave. E., The measurement of attidutes. The University of Chicago Press, 1951.

(✱) تشير هذه الحالة الى ارتباط الفتاة بابيها معكراهية الام والشعور بالغيرة نحوها ، وتقابل عقدة اوديب فى الطفل الذكر التى تشير الى ارتباط الطفل جنسيا بامهوالغيرة من الاب وما يصحب ذلك من شعور بالذنب والصراع الانفعالى لدى الطفل .

ولقد وجهت انتقادات عديدة لفكرة وراثيةالأخلاق ، فعلى سبيل المثال ، وجد هارتشــون وماى أن الامانة تختلف باختلافالمواقف . فالطفل قد يكون أمينا فى المدرسة خائنا فى المنزل . ويؤكد الاتجاه البيئى فى نمو الاخلاق دور الاسرةوالمدرسةوالمسجد والكنيســة أو الجـماعات البشرية ، كجماعة الاصدقاء والزملاء والحركة الاجتماعيــةووسائل الاعلام والاتصال الجـماهيرى كالراديو والتلفزيون والسينما والمسرح والصحفوالمجلات **مما يؤكد أثر المنزل على الأخلاق** ، ما وجد فى احدى الدراسات من أن ٨٧٪ منالأناثالجانحاتأتين من بيوت محطمة ، حيث يقل تأثير المنزل ، وتقل فرص تدريب الطفل على السلوك الخلقى .

وفى دراسة اخرى وجد ان ضعف التدريبوالتأديب كان سببا فى ٩٠ ٪ من الانحــرافات السلوكية . ولا شك أن الطفل يبنى مفهومه عنالصواب والخطأ من الأمثلة التى يتلقاها من الكبار الراشدين . ولقد وجدت معاملات * ارتبــاطكبيرة نسبيا بين فكرة الأطفال عن الصواب والخطأ وبين افكار الكبار المحيطين بهم وكانت معــاملاتالارتباط كما يلى :

	معامل الارتبــاط
الأطفال والآباء	٥٥ر٠
الأطفال والاصــدقاء	٣٥ر٠
الأطفال ومعلمو الأندية	١٤ر٠
الأطفال والمدرســون	٠٦ر٠
الأطفال ومعلمو مدارس الآحاد	٠٠٢ر٠

ويبدو أن الآباء لهم اكبر قدر من التــأثيرفى تكوين مفهوم الطفل عن الخطأ والصــواب . ولقد تبين انه كلما زاد اتصال الطفل التصــاقابالكبار زاد تأثيرهم عليه وعلى سلوكه ، وتلعب علاقات الحب والعطف والحنــان والدفء دوراهاما فى تنمية الضمير القوى فى الأطفال .

فأسلوب التربية القائم على أساس الحبهو الذى يؤدى الى تنمية الضمير . اما الحمــاية الزائدة أو الخضوع لرغبات الطفل المبالغ فيهــافانهما يؤديان الى زيادة نزعاتالطفل نحوالعصيان والطغيان والمبالغة فى المطالب . اما الاطفال الذينخضعوا لسيطرة الأمهات والتحكم الزائد والتأنيب المبالغ فيه والذين كانوا يمنحون المكافأةلخضوعهمالتام ، أصبحوا منسحبين وخجولين . (٣٥)

ويعتبر المنــزل من اقــوى المؤسســـاتالاجتماعية فى نقل ثقافة المجتمع للطفل ، انه يكمل وظائف المؤسسات الاجتماعية الاخرى كالحكومةوالمدرسة والمسجد . بل انه يبدأ فى « عمله هذا » قبل أن يبدأ الطفل فى الاحســاس بدور هــذهالمؤسسات . كذلك تلعب المدرسة دورا هاما فى

---

(٣٥) Mussen, P.H., Op. Cit ; P. 356.

(*) يعرف معامل الارتباط بانه تحديد احصائى لكموكيف العلاقة بين متغيرين أو أكثر .

نمو السلوك والقيم الخلقية فى الطفل ، فلقدلوحظ أن السلوك الخلقى للاطفال يتدهور عندما تضعف الادارة المدرسية .

ولكي يمارس الطفل السلوك الصواب لابدمن معرفة الصواب والخطأ والتمييز بينهما ، وليس هذا التمييز أمرا سهلا، اذ يختلف الافرادفى تقدير الصواب والخطأ. ففى احدى الدراسات قررت ٩٠ ٪ من مجموعة من الاطفال الصغار أن ٩ مواقف من مجموع ٦٤ موقفا مدرسيا هي مواقف صحيحة أوصواب ،وعندما حكم المدرسون على هذه المواقف قرروا ان ١٢ موقفا صحيحا فقط ، وقرر هذه النتيجة ٩٠ ٪ من المدرسين ،وعلى الرغم من ان المعرفة النظرية بالصواب والخطأ لا تضمن بحد ذاتها ممارسة الصواب وتجنب الخطأ الا أن المعرفة مهمة ، لأن الفرد لا يختار الصواب فى موقف لايعرفه ، اللهم بمحض الصدفة البحتة . (٣٦)

ومن العوامل المؤثرة فى السلوك الخلقى ارتياد أماكن العبادة ، فلقد وجد أن للخبرة الدينية أثرا كبيرا على النمط القيمى للاطفال والشباب . ولقد وجد « هارتشون وماى » ان مقدار الغش يقل بارتياد الكنيسة . كذلك وجد أن الاطفال الذين يرتادون الكنيسة يحصلون على درجات أعلى فى اختيار « مساعدة الغير » أوالنزعة نحو مساعدة الآخرين .

وبالنسبة لأثر المجتمع أو الحياة الاجتماعية ككل يقول عالم الاجتماع الفرنسى دوركايم Durkheim « ان الحركة الاجتماعية العظيمة هي التى تخلق الجريمة . ففى الماضى كان الناس يرتبطون بروابط وثيقة بأسرهم التى كانت توحدوتضبط سلوكهم . » (٣٧)

ولقد أدى النمو الاجتماعى الى النزوح للمدن الكبرى وتحطيم الروابط الأسرية القديمة ، وأصبحت الوظيفة أو المهنة تمارس بعيدا عن دائرة الأسرة ، ولقد تحللت القيم القديمة دون أن يبتكر غيرها ، فأصبح هناك فراغ قيمي يحتوى الفرد المعاصر . لقد أصبح ابناء المجتمع الحديث اكثر عزلة وانسحابا ومن ثم ضعف التأثير الاجتماعى عليهم .

كذلك تؤثر الطبقة الاجتماعية على نوعية الأخلاق التى تنمو فى الطفل ، فلقد وجد أن اطفال الطبقات الاجتماعية والاقتصادية الدنيا أكثر تسلطا فى اتجاهاتهم ، فقد طالبوا بانزال العقاب ، كعلاج لعمل الخطأ اكثر من أطفال الطبقات العليا . ولقد وجد أن أطفال الطبقات الدنيا ينظرون للسلوك في ضوء الصح والخطأ ،بينما يحكم اطفال الطبقات العليا على السلوك طبقا لنتائجه العملية . كذلك وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا كانوا أكثر قبولا وتسامحا ازاء الافعال الخاطئة ، وذلك بالمقارنة باطفال الطبقات العليا ، وعلى سبيل المثال عندما سئلوا عما اذا كان « السكر » خطأ ، كانت هناك النسب المئوية الآتية التى أقرت أن السكر خطأ :

أطفال الاحياء الشعبية القذرة ٥ ٪

---

(٣٦) Ibid

(٣٧) Ibid

أطفال مناطق نصف قذرة	١١٪
أطفال الطبقة الاجتماعية المتوسطة	٢٠٪
أطفال الطبقة الاجتماعية العليا	٣٤٪

ولقد فسر هذا بأن أبناء المناطق الشعبية المتدنية المستوى اكثر الفة مع السكر عن زملائهم من أبناء الطبقات العليا .

ويقترح **بريكنردج** Breckenridge العوامل الآتية كأساس للنمو الأخلاقى الجيد :

١ ــ صحة جسمية جيدة لمقاومة الاغراء ، وللتحرر من الشعور بالمرارة أو النقص ، ومن وجود دوافع الانتقام .

٢ ــ الأمان الانفعالى لامكان الشعور بالحب تجاه الآخرين .

٣ ــ توفر وظيفة مناسبة ومنافذ للتعبير أو التصريف .

٤ ــ تدريب مستمر فى التحكم والضبط الذاتى للمساعدة فى التخلص من البواعث الطفلية .

٥ ــ وجود أفق اجتماعى مستمر الاتساع لتنمية القدرة على اكتساب المعارف ، وعلى التسامح وعلى التعاطف ، وعلى الفهم وتنمية الرغبة الاصيلة لتقدير حقوق وواجبات الناس الآخرين .

٦ ــ الطموح نحو الرغبة القوية فى عمل الصواب ، بحيث يجد الفرد الشعور بالرضا والسعادة نتيجة لعمل الصواب . وفى الغالب ما ينمو هذا الطموح نتيجة للتعاليم الدينية.(٣٨)

ولايمكن تخيل حدوث النمو الخلقى بمحض الصدفة ، بل انه يحتاج الى جهود وأساليب مدروسة ، ويتطلب تخطيطا دقيقا للمواقف التى تضمن التعاون والضبط الذاتى ، ونمو روح الجماعة . كذلك ينبغى تشجيع الطفل على تعميم المبادىء الخلقية ، وممكن اشراك التلاميذ فى مشروعات خدمة البيئة لتنمية الشعور بتحمل المسئولية وتقدير الصالح العام وحمايته . والى جانب المؤثرات الخارجية ففى مرحلة المراهقة توجد دوافع داخلية نحو التعاون ونحو تقدير العدالة ونمو الشعور بالولاء للجماعة ولقواعدهم وغير ذلك من المبادىء السلوكية المثالية . ففى المراهقة تنمو النزعات المثالية والنزعة نحو اصلاح العالم ونحو البذل والتضحية الذاتية ، وينبغى توجيه هذه المثالية نحو السلوك الخارجى الحقيقى كما ينبغى اشعار المراهقين بانهم مرغوبون ومطلوبون كما ينبغى أن يجدوا المنافذ الايجابية البناءة لتصريف طاقاتهم الزائدة . وأخيرا فاننا فى معرض الجدال بين تأثير البيئة والوراثة ، ينبغى ان نؤكد بأن الانسان يتأثر بكل من البيئة والوراثة معا ،

---

(٣٨) Breckenridge, M. and Vincent, E. Child development, W.B. Senders Co., 1949, PP. 488

وان العلاقة بين البيئة والوراثة هي علاقة تفاعل،أى تأثير متبادل قوى ، ولكننا ينبغى أن نضع مزيدا من الاهمية للعوامل البيئية، لان ذلك سوف يوسع من مقدرتنا على مساعدة الاطفال نحو النمو الجيد ، والايمان بامكان اصلاح الاعوجاج . ان ارجاع السلوك الانساني الى العوامل الوراثية وحدها يضيق من امكانية تعديل السلوك المنحرف وتوجيهه نحو الصواب . ولاشك أن ما يولد به الطفل من استعدادات وامكانيات يمكن صقلها وتشكيلها وتوجيهها وحسن استغلالها عن طريق الخبرات التى يمر بها الطفل ، والفرص التى تتاح له ، والاشراف الذى يلقاه .

المثال والقدوة :

كيف يختار الطفل الصغير مثاله الأعلى الذى يقتدى به ؟

نتيجة لالتصاق الاطفال الصغار بآبائهم فانهم يختارون منهم مثالهم الاعلى . وفى احدى الدراسات وجهت للأطفال الاسئلة الآتية :

١ ــ من هو الشخص الذى تعجب به أشد الاعجاب ؟

٢ ــ من هو الشخص الذى ترغب أن تشبهه من هؤلاء الناس الذين تعرفهم أو سمعت أو قرات عنهم ؟

ولقد اختار الاطفال الصغار (سن ٦ ــ ٧ سنوات) مثالهم الاعلى من بين أفراد الدائرة الضيقة لمعارفهم كالآباء والأمهات . وعلى حد قول ڤالنتين : « بازدياد السن تتسع خبرات الطفل، وبذلك يصبح الاشخاص الذين يختارهم الطفل مثالا أعلى من بين الاشخاص الذين قرا عنهم فى التاريخ أو فى الأدب أو فى الانجيل ، أو من بين الشخصيات العامة الشهيرة . (٣٩)

على كل حال وجد انه بعد سن الثالثة عشرة يعود الطفل للاختيار من دائرة المعارف المقربين . ومن المعروف أنه بالتقدم فى السن ينمو اتجاه التسامح نحو المذاهب الدينية المختلفة وأربابها ، كما تنمو نزعات الشك والنقد تجاه العقائد الدينية التى تعلمها الطفل من قبل .

ولقد وجد معامل ارتباط سالب بين عامل العمر الزمنى وبين قبول المعتقدات الدينية .

كذلك كلما تقدم المراهق فى السن زاد قدرة على التفكير فى الأمور المجردة ، وكلما قلت نزعته نحو « الاخلاق الموضوعية » أو الواقعية أو المطلقة حلت محلها الأخلاق النسبية ونمت نزعات التحرر والمرونة فى وجهات النظر .

• • •

(٣٩) Valentine, C., The Normal child and some of his abnormalities, Penguin Books, P. 201

مراحل النمو الخلقى :

على الرغم من أننا نستطيع ان نحدد مراحل معينة للنمو الخلقى ، الا أن النمو الخلقى ، كغيره من مظاهر النمو الاخرى ، يحدث تدريجيا لا فجائيا ، وليس هناك انتقال فجائى أو طفرى من مرحلة الى أخرى ، فالطفل لا يتحول من الطفولة الى المراهقة بين عشية وضحاها ، بل انه من الممكن أن يحدث نوع من النكوص regression او الارتداد من مراحل متقدمة الى مراحل سابقة عندما يتعرض الفرد لصعوبات نفسية حادة ، فالنمو لا يسير باستمرار فى خطوط مضطردة . كذلك هناك فروق فردية واسعة individual differences فى الوصول الى أى من هذه المراحل ، ولاتوجد فواصل حاسمة فاصلة وقاطعة بين هذه المراحل ، ولكنها تتداخل فيما بينهما(٤٠) ففى المراهقة تظل هناك رواسب من الماضى الطفولى وفى الشباب تبقى بعض سمات المراهقة . ويصف **جيرسيلد** Jersild حركة الانتقال من مراحل اقل نضوجا الى المراحل الاكثر نضوجا فى النمو الخلقى بما يلى :

١ ــ المفهوم العام لما هو صواب ولما هو خطأ يحل محل القواعد النوعية المحددة .

٢ ــ المعايير الداخلية تحل تدريجيا محل الطاعة للأوامر والنواهي الخارجية .

٣ ــ زيادة فهم (قواعد المباراة) نتيجة الاحترام المتبادل والموافقة اكثر من كونه نتيجة لطاعة الاوامر التعسفية .

٤ ــ نمو قدرة متزايدة واستعداد اكبر لأخذ الظروف المحيطة بالسلوك الخاطىء فى الاعتبار بدلا من الحكم الآلى على العمل الخلقى .

وبالنسبة للسلوك الانسانى ككل يمكن النظر اليه على انه يسير تبعا لمستويات أربع يمكن أن تتخذ دليلا على النمو الخلقى للطفل ، هذه المستويات هي :

١ ــ السلوك غير المتعلم أو السلوك الغريزى يتعدل بالنتائج الطبيعية للسلوك ، ومن أمثلة ذلك تعلم الطفل تلقائيا الا يصدم رأسه ضد الاشياء الحادة أو الساخنة .

٢ ــ الثواب والعقاب كما يمارسهما الآباء والمعلمون وغيرهم من الكبار ، اى الضوابط الخارجية .

٣ ــ القبول وعدم القبول الاجتماعى وخاصة من قبل الجماعة التى ينتمى اليها الطفل .

٤ ــ الايثار حيث تحرك الفرد وتسيره الرغبة فى عمل الخير العام ، ويمثل هذا أعلى المستويات الخلقية .

---

(٤٠) د. عبد الرحمن عيسوى ، معالم علم النفس ،دار المطبوعات الجامعية ــ الاسكندرية .

وفى الطفولة المبكرة يكون سلوك الطفل ليس خلقيا او لا اخلاقيا . ان حاجات الطفل الرضيع تشبه حاجات الحيوان ، بمعنى انها فيزيقية حسية ومباشرة، فيحاول ان يحصل على الاشباع المباشر لحاجاته وان يتجنب الالم . وفى محاولاته لاشباع حاجاته يكون الطفل الصغير انانيا متسلطا ومن خلال شعوره بالدفء والبرد والامتلاء والفراغ يحصل الطفل الصغير على الشعور بالخبرات الجيدة والخبرات (٤١) الرديئة .

ولقد ميز **بياجيه** Piaget بين نوعين من الاخلاق :

١ ـ النوع الاول الذى يظهر مبكرا ، او هو ما اطلق عليه اصطلاح (الاخلاق الموضوعية) objective morality وهنا تكمن الصحة والخطأ فى بعض مظاهر السلوك ، ويمكن ادراكهما موضوعيا ، **وهما بينان او واضحان بذاتهما** ، فالطفل الصغير **يعتقد ان اى شخص يستطيع ان** يدرك خطأ اخذ اى شىء يخص الغير او يخص شخصا آخرا ، وتبعا لراى بياجيه فان الاطفال فى سن الثمانى سنوات يحكمون على اى سلوك تبعا لنتائجه بصرف النظر عن الدوافع او النوايا التى تكمن وراء السلوك . وعلى ذلك فالطفل الذى كسر ، عرضا او مصادفة او قضاء وقدرا ، عشرة اطباق هو اكثر « شقاوة » او خطأ او مشاغبة من ذلك الطفل الذى كسر عامدا متعمدا كوبا واحدا . وبمرور الزمن يصبح الطفل قادرا على استيعاب الافكار المجردة حول الخير والشر بوجه عام .

ويعتقد بياجيه ان هناك انتقالا من الضبط الخارجى ومن الواقعية الخلقية الى النسبية الخلقية .

حيث يصبح حكم الطفل الخلقى نسبيا وليس حرفيا . يبدأ الطفل فى تكوين فكرته عن الصواب والخطأ عن طريق اكتشافه ان اشباع حاجته فى الحب والدفء لا يتأتى الا عن طريق ارضاء امه ، وعن طريق الحصول على موافقتها ، وهذا يضع الاسس الاولى نحو التعامل مع الناس، فموافقة او رفض الآباء تمثل الجذور الاولى للمعايير الخلقية . وفى دراسة هارتشون وماى وجد ان الاطفال من سن تسع سنوات يعملون طبقا للخير العام ويتعاونون فيما بينهم وتثيرهم دوافع الاحسان .

ويقرر **الج** Ilg ان الطفل عند سن ثمانى سنوات يستطيع ان يميز بين الخطأ والصواب والخير والشر ، وفى الفترة ما بين ٥ ، ٧ سنوات تحدث زيادة فى السلوك التعاونى وفى ادراك حقوق الآخرين .

وعلى الرغم من ان الجنوح يزداد انتشاره فى مرحلة المراهقة ، الا ان جذوره الاولى ترجع الى الطفولة المبكرة ، ولاشك ان النمو الداخلى الخلقى عامل اساسى محدد فى ازالة السلوك

---

(٤١) Ingleby, A., Towards maturity, Robert Hale, Ltd., London, P. 37, 1966.

الجانح . فى الطفولة المبكرة لا يدرك الطفل الصراع (*) بين الامانة والولاء للاصدقاء . وكلما تقدم الطفل فى السن كان اكثر وعيا وادراكا لهذا الصراع ، وكلما تقدم الطفل فى السن أيضا كان أكثر قدرة على ادراك المطالب الثقافيه والتوقعات الاجتماعية .

اما عن تطور الحكم الخلقى عند الطفل ، ففى مرحلة الطفولة المبكرة يسير الطفل حسب ما أسماه پياجيه « الخلقية الموضوعية » ومعنى ذلك ان العالم عبارة عما نشاهده فقط ، وليس هناك وجهات نظر متعددة ، وليس هناك نسبية ، فالاشياء اما بيضاء أو سوداء ، صواب أو خطأ ، فعلى قدر فهم الطفل فان الآباء فى نظره يعرفون كل شىء ، فاذا قالوا أن هذا خطأ فانه خطأ ، فكل ما يقوله الآباء أو يفكرون فيه فهو صواب .

فالاطفال يحكمون على الاشياء حكما موضوعيا ، اى دون اخذ الدوافع فى الاعتبار ، تلك الدوافع التى دفعت الطفل نحو هذا السلوك ودون اعتبار للظروف المحيطة والملابسات ، بل يتبعون « حرفية النص الخلقى » او حرفية القاعدة فى العابهم . فالعقاب يتناسب مع حجم الخسارة المادية التى أحدثها الطفل ، وليس وفقا لدوافع الطفل أو نواياه أو « سبق الاصرار والترصد » .

وعلى كل حال طبقا لمنطق بياجيه فان الطفل بالتدريج يتعلم ان القواعد الاخلاقية التى يضعها الكبار ليست مطلقة ، وبذلك يمكن تعديلها لكى تناسب الظروف المحيطة بموقف معين .

فى المراحل المتقدمة تظهر المرونة فى الاحكام الخلقية ، وعندئذ يدرك الطفل أن القاعدة الخلقية يجب أن تتعدل طبقا للظروف ، بحيث تحقق الصالح العام والخير الاكثر ، فالطفل الذى تأمره الاسرة بالعودة فورا بعد الخروج من المدرسة والذى ينفذ ذلك فى حالة تعطل المواصلات العامة « بالشعبطة » فى احدى سيارات النقل ، وبذلك يعرض حياته لخطر الموت فى سبيل تنفيذ تعليمات الاسرة يلقى عقابا غير مفهوم بالنسبة له ، ففى هذه المراحل المتاخرة يدرك الطفل ان الحكمة فى طاعة القوانين والقواعد الخلقية تكمن فى تنفيذ روح القانون اكثر من حرفية القانون . (٤٢)

علاقة الذكاء بالأخلاق :

فى بعض الدراسات وجد أن نسبة ذكاء مجموعة من الاطفال الاحداث الجانحين هى ٩٢٫٥ بينما كانت نسبة ذكاء مجموعة مماثلة من غير الاحداث الجانحين ١٠١٫٨ ، الا أن انخفاض الذكاء ليس عاملا اساسيا فى حدوث معظم حالات الأحداث (٤٣) الجانحين .

(*) يشير الصراع لحالة نفسية فيها تجاذب الفرد بين هدفين او مثيرين قد يكون احدهما مثيرا جيدا والآخر ضارا ، او كلاهما ضار او كلاهما خير كصراع الفرد بين الرغبة فى الثراء والخوف من العقاب او تانيب الضمير . وهناك صراع الاقبال ـ الاحجام ، وصراع الاقبال ـ الاقبال ، وصراع الاحجام ـ الاحجام .

(٤٢) Breckenridge, M.E. and Vincent, E.E. Child development physical and Psychological growth through the school years, W.B. Sounders Co., London, 1949.

(٤٣) Brooks, A., Child psychology, Methuen and Co., London, 1951, P. 409.

لقد أجرى عدد كبير من الدراسات لتحديدكم وكيف العلاقة بين الذكاء والاخلاق . وفى مثل هذه الدراسات يقارن الاطفـال أصحاب الذكاءالمرتفع بالاطفال متوسطى او ضـعيفى الذكاء ، يقارنون فى مسـتوياتهم الخلقية . ففى احدىالدراسات التى أجراها **تيرمان** Terman على٥٣٢ طفلا ذكيا تزيد نسبة ذكائهم عن ١٣٠ وجد أنهم يتفوقون فى السلوك الخلقى على المجموعةالضابطة من الاطفال من ارباب الذكاء المتوسط . ولقـداستنتج تيرمان انالاطفال المتفوقين عقليا يتفوقون عن الاطفال متوسطى الذكاء على اختباراتالامانةوالصدق والسمات الخلقية المشابهة . وهنـا يجب أن نتحفظ فى تفسير هذه الفروق وارجاعهاالى الذكاء وحده ، ذلك لأن أحدا لايستطيع أن ينكر تأثير البيئة المنزلية وغـيرها من العـواملالاجتماعية على الانحراف وعلى النمو الخلقى . لقد درس تأثير الذكاء على المستوى الخلقى عنطريق مقارنة نسبة الاطفال ضعاف العقول بين جماعات الاحداث الجانحين . وعلى سبيل المثالوجد بيرت Burt ٨ ٪ فقط من الاطفال ضـعاف العقول بين الاحداث الجانحين (نسبة ذكاء أقلمن ٧٠ ٭) ولقد وجد كل من هيلى وبرونر فى دراساتهما عن الاحداث فى شيكاغو وبسـتون ١٣ ٪ من ضعاف العقول ، اما هذه النسبة فى المجتمع العام فلا تتجاوز ١١/٢ ٪ . (٤٤)

وفى نفس الوقت وجدت نسبة الجنوح الىالصحبة السيئة عند ٦٢٪ من الحالات . كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره (٥٠٠ر.) بين الذكاءوالغش،بمعنى انه كلما زاد الذكاء قل الغش ، وكلما قل الذكاء زاد الغش . ويبدو ان تأثير الذكاء على الاخلاق نوعيا أكثر من كونه تأثيرا عاما ، فالاطفال الاكثر ذكاء كانوا أكثر تعاونامن الاطفال الاغبياء والمتوسطين ، ولكن العلاقة بين الكرم والذكاء كانت ضعيفة ، أما العلاقة بينالامانة والذكاء فكانت عالية (٤٥) .

وفى احدى الدراسـات وجـد أن طفـلالتسع سنوات الموهوب عقليا يصل الى مستوى نمو خلقى يعادل طفل الرابعة عشرة من الاطفالغير المنتقين .ولكن الذكاء يساعد فى سرعة حدوث النمو مهما كان الاتجاه الذى يتخذه هذا النمو ،فاما : اخلاق حسنة او « جرائم خطـرة » . كذلك فلقد وجد أن الاطفال الاكثر ذكاء أقل غشافى امتحاناتهم ، ولكن ليس ذلك بالضرورة لانهم أكثر خلقا ؛ بل ربما لانهم اكثر قدرة على حلاسئلة الامتحان بدون اللجوء الى الغش . ويبدو منطقيا ان نقول ان الطفل الذكى والطفل الغبىيختلفان فى قدراتهما على التنبؤ بنتائج اعمالهما ، كما يختلفان فى قدراتهما على الرؤية البعيـدةللمزايا البعيدة فى الاهداف المرتقبة ، وتفضيل ذلك على الاشباع المباشر لحاجاتهم الراهنة .

٭ من المعروف ان نسـب الذكاء ١٠٠ تشـير الىالطفل متوسط الذكاء وهو الطفل الذى يساوى عمـره العقلي عمره الزمنى .

(٤٤) Jones, V., Op. Cit. P. 793.

(٤٥) راجع كتاب المؤلف « القياس والتجريب فىعلم النفس والتربية » دار النهضة العربية ـ بيروت لتحديد معنى الارتباط والعلية والفرق بينهما .

وكلما زاد ذكاء الفرد كان اقدر على اختيار العناصر الصالحة من بيئته وعلى تشكيلها وتسخيرها بما يخدم أغراضه . كذلك لا يتعلم الذكى والغبى بالتساوى حتى من نفس الموقف، او من نفس البيئة ، والمفروض أن يساعد الذكاء الفرد على الاستفادة من بيئته الى أقصى حد ، وعلى تعديلها اذا كانت غير مواتية ، وعلى تكييف نفسه للمواقف الجديدة . ولقد دلت دراسة تيرمان أن الاطفال الموهوبين يتفوقون على الاطفال المتوسطين في السمات والقيم الموجهة نحو النجاح الذاتى أكثر من السمات والقيم الموجهة نحو المسئوليات والخدمات الاجتماعية، فالملاحظ أيضا أن الاذكياء يرتفع عندهم مستوى الطموح، وتفوقت المجموعة الموهوبة على المجموعة المتوسطة تفوقا اكثر دلالة فى الارادة والمثابرة ، وتفوقت اقل فى المشاركة الوجدانية والرقة ، كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره ١٦و. بين الذكاء ومساعدة الآخرين ، ومعامل ارتباط قدره ٠٩ر. بين الذكاء وروح التعاون .

ولكن لا ينبغى الاعتقاد بأن الضعف العقلى أو البغاء يؤديان بحد ذاتهما الى الجنوح ، هناك دائما عوامل متوسطة كثيرة ، فانخفاض الذكاء مثلا قد يقود الى الفشل والاحباط ، كما يقود الى كثير من الصعوبات في التحصيل المدرسي . كذلك فان مستوى طموح الفرد ينخفض في حالة الضعف العقلى .

كيف ينمو ضمير الطفل :

يظهر الضمير أو الذات العليا فى اصطلاحات التحليل النفسى ، في سلوك الطفل تدريجيا . ففى بداية حياة الطفل يرغب فى الاشباع المباشر لدوافعه أو لحاجاته بصرف النظر عن الاعتبارات الخلقية أو العملية ، فهو يطلب الطعام ويطلبه الآن وفى هذا المكان .

وبالتقدم في العمر يتعدى السلوك الاندفاعى خلال الخبرة ، فيتعلم الطفل أن بعض استجاباته سوف يثاب عليها ، وان بعضها الآخر سوف يجلب له العقاب ، وان بعض مطالبه لا يمكن تلبيتها فى الحال ، وان بعضها الاخر لا يمكن تحقيقه مطلقا . وبمرور الوقت يصبح تجنب بعض مظاهر السلوك الذى كان يحدث نتيجة لقوة خارجية يحدث الآن نتيجة « للسلطة الداخلية » فيكف الطفل عن الاتيان بالسلوك الخاطىء حتى فى غياب الكبار ممثلى السلطة الخارجية فى الطفل . وهنا يشعر الفرد بالذنب عندما يفشل فى مقاومة الاغراء .

وتبعا لنظرية فرويد هناك فى كل شخص منطقة من الدوافع غير المستأنسة تشبه الحيوان فى طبيعتها ، وعند الميلاد تحتوى هذه المنطقة على مجموعة من البواعث العامة « الغريزية » ، وهى ما اطلق عليه اسم **الذات الدنيا** Id فى هذا الدافع توجد قوتان مختلفتان هما :

١ ــ الدافع نحو الحياة ونحو الخلق والحب ، وهو الذى يسميه فرويد رغبة الحياة او غريزة الحياة .

٢ ـ والدافع العدوانى الهدام وهو ما اطلق عليه رغبة الموت أو غريزة الموت . وتبعا لوجهة نظر فرويـد فان الطفـل تحـكم « الانا الدنيا »حيانه . فهو بلا قيود او شعور بالاسف يسعى لتحقيق لذاته ، ويعبر عن دوافعه « الهدامة » نحو موضوعات العالم الخارجي .

وتشير الانا الدنيا في اصطلاحات فرويـد الى الطبيعة البدائية وغير المفكرة واللامعقولة ، والتى تستهدف اشباع الغرائز مباشرة اشباعا كليـا وعلنيا . ولكن بمرور الوقت ينمو تحكم الطفل ، ففى البداية يكون الطفل غير خلقى وغير اجتماعى ولا يتوقف عن السلوك غير المقبول الا فى حضور الكبار اصحاب السلطة فى العقاب .

اما **العنصر الثانى** فى الشخصية الانسانية فى الفكر الفرويدى فهى الذات الوسطى Ego وهى عبارة عن القدرة على التعامل عقليا بمعقولية مع الواقع ،وتنمو الذات الوسطى من الذات الدنيا، وتتمشى مع مبدأ الواقع ، وتمثل العالم الخارجى وقيوده وتكاليفه وفروضه ومستلزماته . وهى القوة التى تدرك الحدود او الفواصل الواقعية التى تمنع من حدوث الاشباع المباشر لدوافـع « الذات الدنيا » فتبعا لمنطق الذات الوسطـى هذه فان تأجيل الاشباع يضمن لنا اشباعا اكثر كمالا في المستقبل. وتحتوى الذات الوسطى على اجزاء شعورية واخرى لا شعورية . وهى التى تتصل دائما بالعالم الخارجى ، وتهتم بما يجرى فى بيئة الفرد ، وعليها ان تفى بمطالب الواقع ، ومن ثم فانها تنادى الطفل الصغير قائلة : انك ينبغى ان تطيع امك ، لانها سوف تصفعك ان لم تفعل ذلك .

وعليها ان تشبع المطالب الداخلية للذات العليا وتقاوم ضـغوط الذات الدنيا التى تدعو للانطلاق . وعلى ذلك فللذات الوسـطى ثلاثـة اسياد هى :ـ

١ ـ البيئة او الحياة الخارجية اوالمجتمع.

٢ ـ الضمير

٣ ـ الذات الدنيا

وعلى ذلك فكلما نجحت الذات الوسطى فى التعامل مع هذا المثلث تعاملا حسنا تحسن توازن الشخصية او اتزانها النفسى .

اما **العنصر الثالث** فى تكوين الشخصية فهو تبعا لنظرية فرويد الضمير او الذات العليا ، وهنا نتساءل كيف يتكون او ينمو ضمير الطفل الصغير ؟

كلما نما الطفل نمت المعايير الداخلية ،تلك المعايير التى نسميها صوت الضمير الذى يرشد الفرد فى سلوكه وفى احكامه الخلقية .

ويمثل الضمير معايير الفرد وقيمه ومبادئه ومثله العليا . انه السلطـة الضابطـة العليا فى الانسان ، فاذا لم يسـتجب الفرد لندائه فانه سوف يعاقب عن طريق قوة داخليه من خـلال الشعور بالذنب وكراهية الذات ونبذها .ويعطى فرويد اهمية كبرى لنمو الضمير في نضج الفرد،

فالفرد يظل غير ناضج حتى يعطي الاحترام الملائم لقوانين المجتمع الذى يعيش فيه ، وحتى يصبح لديه ذوق جيد ، ويطيع القانون ، يحترم حقوق الآخرين ، ويشعر بالواجب .

ويلعب الضمير دور الاب ، او الآمر اوالمراقب او الملاحظ او الشرطي على كل حال من الذات الدنيا والذات الوسطى . انه يعمل كقاض للاخلاق يحكم تبعا للمبادىء « المثالية » اكثر من المبادىء الواقعية ، انه يعمل من اجل الوصول بتصرفاتنا نحو الكمال المثالى . ويقال انه يحدد السلوك ، يقمعه أو يمنعه ، ويتحكم فى ضبطه ،وعلى الرغم من طبيعة الضمير الخلقية الا انـه اذا اصبح حادا أو قاسيا اكثر من اللازم فانه يظل يخز ويؤنب صاحبه على كل كبيرة وصغيرة ، بل حتى على مجرد الافكار السيئة ، حتى تلك الافكار التى ينجح الفرد في اخفائها عن الناس لا تنجو من عقاب الضمير عليها . وتؤدى حدة الضمير الى تكوين شخصية هيابة مترددة . فاذا زادت سيطرة الضمير فى الشخصية يصبح الفرد عبدا لمجموعة من العادات والتقاليد ، وعبدا لمشاعر الذنب والتأنيب القاسية . يقول فرويد ان الحياة الشخصية تشبه جبل الثلج العائم iceberg يغوص معظمه تحت سطح الماء . وعلى ذلك فالصراعات التى تحدث بين الذات الوسطى والذات العليا هي على المستوى اللاشعورى غير المرئى . وللمحافظة على توازن الفرد ينبغي ان تكون العلاقة بين الذات الدنيا والوسطى والعليا علاقة وئام وانسجام وتوازن . ولا ينبغى أن يكون الضمير قاسيا او حادا جدا ، لأن ضعفه اكثر من اللازم يؤدى الى نشأة الانحراف السيكوباتي .

واخيرا فاننا ينبغى أن نشير الى انه رغم تقسيم فرويد العقل الانسانى الى هذه العناصر الثلاثة الا ان العقل الانسانى فى الواقع وحدة دينامية متكاملة متفاعلة ، بل ان الانسان نفسه وحدة جسمية نفسية واجتماعية متكاملة متفاعلة ، وان هذه العناصر ليست الا تجريدات عقلية لوصف انماط معينة من السلوك ، وليس العقل البشرى مقسما الى موجودات مستقل بعضها عن البعض (٤٦) فلا ينبغى ان نتصوران الذات الدنيا والوسطى والعليا كائنات صغيرة تكمن داخل الانسان ، وانما هى مجرد تجريدات يضعها الباحث الملاحظ لوصف انماط معينة من السلوك .

ولا شك ان فهم الضمير عملية اساسية في فهم سلوك الانسان كله ، وهنا نتساءل عن العوامل المؤثرة فى نمو الضمير ، وعلى الفور تبرز امامنا ثلاثة عناصر اساسية هى :

١ ـ **قيم الثقافة** او معاييرها التى تكون جزءا اساسيا من الشرعية التى تنتقل للطفل عبر الآباء والامهات ، وتختلف تلك القيم من ثقافة الى اخرى ، فعلى حين نجد ان العدوان سلوك غير مرغوب فيه في اطار بعض الثقافات نجد ان توكيد الذات تؤكده وتشجعه ثقافة اخرى ، بينما تشجع ثقافة ثالثة الاعتراف الشخصى .

---

(٤٦) Burt, C., An Outline of Human relationships, William Heinemann, Ltd., London, 1959, P. 94.

٢ ـ **نمو الطفل العقلى** ، فالطفل الاكبر سنا والاكثر نضوجا من الناحية العقلية اكثر قدرة على ادراك وفهم ما نتوقعه منه ، انه يستطيع ان يفهم اسباب بعض القيود والمعايير ، كما انه يستطيع ان يعمم بعض المبادىء ، وان يطبقها على العديد من المواقف . كذلك فانه يستطيع اكثر من زميله الصغير ، ان يدرك المفاهيم المجردة التى تكمن وراء المسائل الاجتماعية مثل الايثار أو المساواة أو العدل او الحق او الخير او الصدق او الشفقة .

٣ ـ **علاقة الطفل بأبويه** . هنالك بحوث كثيرة استهدفت معرفة التأثير الوالدى على نمو ضمير الطفل . فى دراسات « التنميط » التى اجراها كل من سيرز وماكوبى وليفين Sears, Maccoby and Livin, 1957. طلب من امهات الاطفال ان يحددن علامات نمو الضمير فى سلوك اطفالهن . واتخذ لذلك معيارين هما :

أ ـ نزعة الطفل لكى يمثل الدور الابوى ، اى بمحاولاته تعليم اخواته واخوته واصدقائه معايير الآباء .

ب ـ سلوك الطفل الذى يعقب عمل الخطأ ، اى محاولاته الاعتراف بهذا الخطأ او الاعتذار عنه أو باصلاح ما أفسده . وحدد مقدار نمو ضمير الطفل على هذا القياس المكون من خمس نقاط هى :

١ ـ لا دليل على النمو اطلاقا : حيث ينكر الطفل ، ولا يبدو عليه عدم السعادة عندما يكون « شقيا » .

٢ ـ ادلة بسيطة على وجود الضمير .

٣ ـ نمو متوسط للضمير : بما لا يعترف بالخطأ مباشرة ، ولكنه يبدو خجولا أو جبانا ونادرا ما ينكر اخطاءه .

٤ ـ ضمير لا يستهان به ونام بدرجة كبيرة .

٥ ـ ضمير قوى : حيث يشعر الطفل بالتعاسة عندما يكون « شقيا » ودائما يعترف ولا ينكر أبدا ، ولديه حاجة قوية للعفو اوالحصول على تسامح الآخرين .

وتتم عملية امتصاص الطفل لمعايير الكبار عن طريق عملية التقمص او التوحد . فالتقمص القوى لشخصية الآباء يساعد على نمو ضمير الطفل . فلقد وجد (تبعا لدراسات ميسون ودستلر ١٩٦٠) Mussen and Distler أن صبيان سن الحضانة الذين كانوا اكثر ذكورة ، وبما يسبب تقمصهم لشخصية آبائهم كانو ايضا متقدمين فى نمو الضمير . كذلك وجد (فى دراسة ستين) بعض الادلة التجريبية ان الاطفال فى مواقف الاغراء يقلدون النموذج الذى يخضع للاغراء ، ويوحى هذا ان الآباء يعملون كنموذج لابنائهم فيما يختص بالسلوك الخلقى ، فقد اهتم البحث العلمى بعاملين اساسيين فيما يتعلق بنمو الضمير .

أ ـ نوع التأديب الابوى .

ب ـ دفء علاقة الاب ـ الطفل ، فيمـايتعلق بالنشاط التاديبى فى المنزل . كشفـت دراسة التنميط ان الاسلوب السيكولوجى اىالاتجاه الموجه بالحب ، ذلك الذى يتمثل بالمدح والغزل ، وسحب الحب ، ساعد فى نمو الضميراكثر من الاسلوب المادى الفيزيقى المتمثـل فى المكافأةالمحسوسة والحرمان والعقاب الفيزيقى.

وفي دراسة **ماك كونون** Mackinonon على طلاب الجامعـة وجـد ان الذيـن تجاوزوا الممنوعات كانوا اولئك الاطفال الذين كان آباؤهم يتبعون نظاما فيزيقيا فى التاديب اكثر منهنظاما سيكلوجيا .

ولكن هناك دراسة حديثة نسبيا (١٩٦١)اجراها كل من **بارتون وماكوبى والينسميث** Burton, Maccoby and Alinsmith على اطفال سن الاربع سنواتة عن مقاومة الاغراء فى الغش لم تؤيده هـذه النتائج ، ففـى هـذهالدراسة الاخيرة كان العقاب البدنى مرتبطـا بمقاومة الاغراء اكثر من العقاب السيكولوجىاو استخدام العقل. ويبدوان الاسلوبالفيزيقى والمباشر يؤثر فى الطفل الصغير ، ولكن تحل محلهالاساليب السيكولوجية التـى تشجـع التقمص مع الآباء يتقدم الطفل فى السن وبحصول مزيدمن النمو المعرفى cognitive development ويشبه التميز بين مناهج التأديب الفيزيقيـــةوالنفسية التميز بينأسلوب الاستقراء وأسلوب الاحسـاس induction and sensitizaion

وقد قام بهذه المحاولة ارنو فريد سنة ١٩٦١ Arnofreed . من بين الاساليب الاستقرائية استخدام الاستدلال مع الطفل او اهماله او نبذهاو استخدام الشرح والتفسير ، وتثير مثل هذه الاساليب في الطفل ردود فعله لتجاوزاته ، وربماتصبح ردود الفعل هذه مستقلة عـن المصادر الاصليـة للعقاب . وعلى سبيـل المثـال فانالاستدلال مع الطفل الصغير يشـرح النتائـج والمترتبات لفعل ما ، سوف تشجعه على فحصواختيار تصرفات ، وعلى قبول المسئولية عن هذه الافعال .

وعلاوة على ذلك فان هذا المنهج ينمـىقدرة الطفل على التعاطف او وضع نفسه فىمكان الغير والاندماج ذهنيا فى موقف الشخص الآخرعن طريق تحديد الآثار الضارة لسلوكه بالنسبة لوالديه وللآخرين .

اما اسلوب الاحساس او الحساسيـــةفيتقمـص العقاب البدنـى والزجـر والتعنيف والتوبيخ . هذا الاسلوب يجعـل الطفل شديدالتاثير للخوف من العقاب الخارجى الذى يعقب تجاوزاته او أخطائه ، كما يعطى اهمية كبرىلطالـب الآخريـن وتوقعاتهـم . ومن طريـق استخدام منهـج « استكمال القصص » مـعاطفال الصـف السادس فى احـــدى المدارس الامريكية وجدت علاقة بيننوع الاستجابةالخلقيةللطفل وأسلوب امه في التاديب ، فالاطفالالذين استخدمت أماتهم الاساليب الاستقرائية كانوااكثر ميلا لاستخدامأفكارعن الاصلاح اوالترضية

وفكـرة القبول فى قصصهـم ، بينمـا الاطفالالذين استخدمتأمهاتهم الاسلوب الحسى عبروا عن نتائج خارجية لتجاوزاتهم فى قصصهم .

وبصدد اسلوب الآباء التأديبى أيضا ميـز« هوفمان » Hoffman (١٩٦٣) بين التأديب التوكيدى القوى والتأديب غير التوكيدى وغيرالقوى ، النوع التوكيدى ، يتضمن العقاب البدنى والحرمان المادى ويؤدى هذا الاسلوب الىتوجيهخلقى خـارجى قائم على اسـاس الخوف من العقاب من الاكتشـاف .

اما النوع الثانى فيتضمن سحب الحب ،وانماطا من التأديب الاستقرائـى ، ويؤدى الى تكوين اتجاه خلقى داخلى يتميز بشعور قـوىبالذنب . ولقـد وجد « هوفمان » تأييدا لفكرته بأن المنهج الاستقرائى يـؤدى الى ضمير اكثـر قوة من منهج سحب الحب نظرا لفشل هـذا الاسلوب الاخير فى توجيه تفكير الطفل الى الآلامالتى يشعر بهـا الآخرون نتيجة لاخطائه . ان الادراك أو الوعى بمشاعر الآخرين والتحقق منان الطفل هو المتسبب فى عدم راحـة الاخـرين ينبغى أن يعمل على تنميـة ضـوابط داخليـةقوية(٤٧) .

ولقد وجد أن الاساليب الموجهة بالحبتنتشر بين أمهات الطبقة الاجتماعية الوسـطى ، اما الانماط الفيزيقية من التأديب فمنتشرة بينامهات الطبقات الاجتماعية الدنيا . وفى دراسة « آرنو فريد » اختارت امهات الطبقة الوسطى« الاستقراء » ، بينمـا اختارت « الاحساس » امهات الطبقة الدنيـا . أن الاسـلوب الفيزيقىالمنتشر في بيوت الطبقة الدنيا لا يشجع التقنص ولا يؤدى الى تقوية الضوابط الداخلية The inner controls ولم تسفر الجهود التى بذلت لربط الضمير بممارسات محددة نوعية لتربيـةالطفلعننتائج واضحة،ربما لان الجو السيكلوجى العام فى المنزل هو الاكثر اهمية عن اى اسـلوبنوعى محدد فى تربية الطفل .

فلقد وجد أن التهديد بانسحاب الحب ،وهو منهج سيكولوجى ، ليس له تأثير كبير اذا كانت الام « باردة نفسيا » أو كانت نابذة لطفلهاأصلا .

وعلى العكس من ذلك فان هذا المنهج اثبتفاعلية كبيرة عندما كانت علاقة الطفل بأمه علاقة قبول ودفـء . أن الطفل غير المقبول ليس لديهما يخسره بممارسة العمل غير القبول .

لقد وجد ١٨٪ فقط من الاطفال المنبوذينهم الذين حـكم عليهم بأن لديهـم ضمير قوى بالمقارنة مع ٣١٪ من المجموعة المقبولة .

كذلك وجد أن الاطفال الذين يقبلهم آباؤهمكان لديهم ضمير أقوى عن الاطفال الذين ينبذهم الآبـاء .

---

(٤٧) I — Ibid.

ولقد وجد أن هناك سمتين فى الاسرةترتبطان بنمو الضمير أو الذات العليا فى الاطفال، أى بوجود ضمير فعال يوجه السلوك ويرشده ،وهاتان الصفتان هما :

١ ــ الثبات او الديمومة consistency

٢ ــ اتحاد بين الثقة المتبادلة والقبول .

فالنمط الثابت للضبط الابوى وللتوقعاتيعطى مواقف واضحة جلية لنمو السلوك الايجابى ، وعلاوة على ذلك فان جو الثقة المتبادلةيساعد الطفل لامتصاص قيم الآباء ومعاييرهم فيقبلها الطفل على أنها معاييره هو .

أن نمو الضمير ينبغى أن يفهم لكى يفهمنمو الشخصية برمتها ، ذلك لان الطريقة التى يحل بها الفرد صراعاته الخلقية هى جانب ثابتمن جوانب شخصيته .

وليس هناك أقوى من توفير جو من الحبوالدفء .والحنان فى العلاقة بين الآباء والاطفال في نمو الضمير وامتلاك الضوابط الداخلية وتبنىقيم الآباء ومبادئهم ، تلك التى تعكس بدورها قيم المجتمع ومعاييره .

وفى بداية المراهقة تلعب الثقة المتبادلةوالقبول والثبات المتحد مع الدفء ، تلعب دورا هاما في نمو الضمير القوى(٤٨) .

والآن لنتناول عملية التنشئة الاجتماعيةبالعرض والتحليل لبيان الصلة الوثيقة بين النمو الخلقى والروحى فى هذه العملية .

• • •

تعريف عملية التطبع الاجتماعى وأهميتها :

أن تحديد النمو الاجتماعى مسالة صعبة ،وذلك نظرا لتعدد الدراسات التى تناولت موضوعات يمكن أن تندرج تحت هذا العنوان ،فدراسة الانفعالات والطموح والقيم والعادات السلو كيةوالعلاقات الاجتماعية واللغة ، ودراسةموضوعات مثل الغضب والعدوان والغيرةوالامان والسعادة والضحك والتعاطف والسلوك الجنسىكلها تتصل بالنمو الاجتماعى ، كذلك هناك دراساتمتعددةتتناول موضوعاتالنمو الاجتماعىدون أن تحمل هذا العنوان ، ومن امثلة ذلك دراسة جنوح الاحداث ونمو الاخلاق .

أما السلوك الاجتماعى فيقصد به السلوكالذى يتأثر بوجود الآخرين وبسلوكهم ، أو ذلك السلوك الذى ينظمه المجتمع ، أو السلوك الذىيقصد به التأثير فى الآخرين كالقيادة * مثلا فهو

---

(٤٨) Ibid P. 592.

* للمزيد عن موضوع القيادة راجع كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعي » دار النهضة العربية ــ بيروت.

سلوك يقصد به التأثير فى اتجاهات الآخرين وفى سلوكهم . أما النمو الاجتماعى Social growth فيقصد به نمو الفرد في السمات التى تسهل التفاعل الاجتماعى Social interaction أى الاخذ والعطاء والتأثير والتأثر بالجماعة .

أما التطبع الاجتماعى أو التنشئة الاجتماعية socialization فيقصد بها العملية التى يكتسب الطفل بموجبها الحساسية للمثيرات الاجتماعية ، كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة والتزاماتها ، وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين ، وأن يسلك مثلهم ، فهى العملية التى يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيا ، وتتضمن هذه العملية تعليم العادات الاجتماعية والاستجابة للمثيرات الرمزية ، كما تعرف بأنها العملية التى تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم مع بيئته الاجتماعية ، ويتم اعتراف الجماعة به ويصبح متعاونا معها وعضوا كفؤا فيها .

أما التوافق الاجتماعى فيقصد به تلاؤم الفرد وسلوكه لظروف المجتمع ومتطلباته ، وبذلك يصبح التكيف الاجتماعى social adjustment حالة تلاؤم للمجتمع الذى يعيش فيه أو البيئة الاجتماعية والوفاء بظروفه وشروطه ومتطلباته .

التأثير الاجتماعى social influence ويتضمن نوعية الاشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون واياهم الزيارة - ويقدر الطفل آباءه ، وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفونهم من أشخاص ، ولما يبدونه من حكمة ومعرفة . يقول الطفل : بابا ليس ضخما أو قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير والناس المهمون يدعونه لبيوتهم ، ويحضر اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٤٩) .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع أطفال الطبقات الوسطى للضبط الابوى ، ويبدو ان التعليم الاجتماعى عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الايجابية ، اى المكافآت ، نسبة العقاب .

كذلك وجد ان الثبات والديمومة فى المعاملة تساعد فى تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى مايرغب في تحاشيه .

اهمية عملية التطبع الاجتماعى :

لاشك ان عملية التطبع الاجتماعى هى أكبر انجازات الفرد ، حيث يؤدى الفشل فيها الى أن يعيش الناس حياة بائسة تعسة ، ويعانون من سوء التكيف Maladjustment كما يخلقون البؤس لغيرهم من الناس . بل ان الحروب ليست الا نتيجة للفشل الذريع لعملية التنشئة الاجتماعية فى الجماعات ، وتحدث الصعوبات والامراض الآتية نتيجة للفشل فى عملية التنشئة الاجتماعية :

١ - الذهان العقلى اى المرض العقلى أو الجنون Psychosis

---

(٤٩) McCandless, B.R., Children behaviour and Development, send. Ed. Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1967.

٢ ـ الجنوح او الانحراف السلوكى Deilnquency

٣ ـ ادمان الكحول Alcohol addiction

٤ ـ السيكوباتيه والجريمة . Psychopathy

٥ ـ الجنسية المثلية Homosexuality

٦ ـ بعض أنواع الضعف العقلى Mental deficiency

٧ ـ العصاب النفسى أو المرض النفسى . Neurosis

ولسوء الحظ فان اكثر المجتمعات تقدمامن ناحية العلوم الطبيعية والانتاج التكنولوجى مازال يفتقر الى علم صحيح للتنشئة الاجتماعية ، كما يحدث فى المجتمع الامريكى الذى تنتشر فيه مثل هذه الاضطرابات والجرائم اكثر من غيره على الرغم مما حققه من تقدم علمى وتقنى . اننا فى حاجة الى علم يحدد معالم عملية التنشئة الاجتماعية ، ولذلك نجد من يقول ان كل علم النفس « هو عبارة عن علم نفس اجتماعى » . ومن أكبر الفروض التى ينبغي اعتناقها ان عملية التطبع الاجتماعى عملية تعلم في المحل الاول ، فليس الخير أو الشر فطريا فى الانسان ، ويحدث هذا التعلم نتيجة لتوجيهات الآباء ، ونتيجة للخبرة الشخصية للطفل ونتيجة للنضج الجسمى والعقلى والنفسى والاجتماعى . ويحدث التعلم على المستويين الشعوى واللاشعورى .

ومن المبادىء الهامة فى عملية التطبع انهناك فروقا فردية واسعة فى مدى تطبع الافراد أو خضوعهم لعملية التطبع . ولقد سقطت فكرة « البذرة السيئة » التى كانت توحى بالانتقال الوراثى لسمات الشخصية الاجرامية والسيكوباتية . بل اننا لم نحصل على صلات واضحة بين الحالة الوراثية ومعظم الامراض العقلية والنفسية بل حتى الضعف العقلى . ولكن هناك تفاعل قوى وفعال بين الجبلة أو الاستعدادية وبين البيئة الاجتماعية والمادية . هذا التفاعل قد يجعل من السهل او الصعب على طفل ما أن ينمو راشدا سويا منضبطا عاقلا .

ولقد لاحظ بعض الباحثين تأثير حالة الحمل والولادة على شخصية الطفل . فقد لاحظ سونتاج (٥٠) (١٩٤١) ان الاطفال الذين مروا بحمل صعب كانوا أكثر نشاطا أو اندفاعا وتهيجا، كذلك كشفت الدراسات الطولية للنمو longitudinal studies أن التفاعل بين البيئة المادية والاجتماعية من ناحية والتكوين الجسمى physique وكذلك وقت الوصول الى النضج الجسمى ومستوى النشاط يؤدى الى تأثيرات مختلفة على الشخصية .

وتلعب العوامل الآتية دورا هاما في عملية التطبع الاجتماعى :

١ ـ مركز الطفل او تربيته فى وسط اخوته ، فالطفل الوحيد غير الطفل الاخير غير الوسيط ،

(٥٠) راجع « بحث حقلى للمؤلف عن « سيكولوجية المرأة العربية الحامل » ، الهيئة العامة للكتاب . مصر (تحت الطبع)

والطفل المرغوب فيه غير المنبوذ ، والوحيد على عدد من البنات غير الموجود مع عدد كاف من البنات غير الموجود مع عدد كاف من الذكور... الخ .

٢ ـ سن الآباء ، فطفل الآباء المتقدمين فى السن غير طفل الآباء الشباب .

٣ ـ البيئة المادية والاجتماعية المحيطة بالطفل .

٤ ـ الذكاء ، فالطفل ضعيف الذكاء أقل حساسية للمؤثرات التى تؤثر فى التنشئة الاجتماعية .

٥ ـ التكوين الجسمى للطفل ، فالطفل القوى البنية غير الطفل الضعيف .

٦ ـ **العلاقة بين الآباء والاطفال ونمط معاملة الطفل .**

٧ ـ المستوى الاجتماعى والاقتصادى للاسرة .

٨ ـ انتماء الاسرة الى جماعات الاكثرية او الاقلية فى المجتمع .

تنبع الدوافع الاجتماعية من المواقف التي يمتص منها الفرد المؤثرات الاجتماعية . هذه المؤثرات تكون فى أول الامر خارجية بالنسبة للفرد . ان عملية نمو وتعلم التفاعل الاجتماعى والتي ينتج عنها ان يمتص الفرد Intrnalization المؤثرات الاجتماعية وبذلك تصبح مثيراته هو شخصيا ، وذوقه ورغباته ، هو ،هذه العملية هى عملية التطبع الاجتماعى (٥١).

ان النتيجة النهائية لتنشئة الفرد الاجتماعية **تظهر فى اتجاهاته الاجتماعية social attitudes** وأفعاله واقواله في التعبير عن هذه الاتجاهات .كما تظهر فى تعامله اليومى مع غيره من الناس وتفاعله مع الجماعات الاخرى ، ومع نواتج ثقافته ، ويؤدى مثل هذا الاحتكاك الى نشأة اتجاهات محددة نحو هذه الاشياء . **فالانسان لايولد راسماليا او شيوعيا او جمهوريا او ديموقراطيا ... الخ وانما هو يتعلم ان يكون أيا من هؤلاء بالخبرة والتجربة .** (٥٢)

مراحل النمو الاجتماعى :

يذهب **أيركسون** Erikson (١٩٥٦) الى القول بأن عملية التطبع الاجتماعى تمر بثمانى مراحل او اطوار ، وهو في ذلك متأثر بعمق باتجاهات فرويد فى هذه المراحل ، ولقد افترض **هذه المراحل ، ليس بناء على أعمال تجريبية ، ولكن من خلال عمله المطول بالعلاج النفسى ، وخاصة مع** الاطفال والمراهقين ، من ابناء الطبقات الاجتماعية **الدنيا والوسطى والعليا . وهذه المراحل مرتبطة** اقل بالنظام العضوى عنها عند فرويد ، ولكنها أكثر ارتباطا بالتعلم الذى يحدث فى المراحل المختلفة . ويعتبر ايركسون ان كل مرحلة عبارة عن **أزمة نفسية** تتطلب الحل قبل الوصول الى

---

(٥١) Sherif, M. and Sherif, G. An outline of social psychology Harper and Row, N.Y. 1956.

(٥٢) راجع باب الاتجاهات فى كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية ـ بيروت

المرحلة اللاحقة . ويعتبر هذه المراحل كالطوابق المعمارية: فالتعليم المرضي وحل كل مشكلة ضروري اذا كان للطفل أن يمر بالمراحل اللاحقة بنجاح ، بالمثل فان أساس المنزل يعد ضروريا بالنسبة للطابق الاول منه ، الذي ينبغي أن يكون قويا بدوره لتعضيد الطابق الثاني ... وهكذا .

وهذه المراحل الثماني هي : ـ

١ ـ تعلم الثقة في مقابل عدم الثقة mistrust-trust

وتقابل هذه المراحل مرحلة الرضاعة ، وتشمل العام الاول أو الثاني اذا تناولنا الطفل تناولا حسنا وتمت تغذيته وحبه ، فانه ينمي في نفسه الشعور بالثقة وبالامان ، والشعور الاساسي بالتفاؤل . واذا عومل معاملة سيئة فانه يفقد الثقة والامان . وجدير بالذكر أن فرويد أطلق على هذه المرحلة اسم المرحلة الفمية :

٢ ـ **تعلم الذاتية او الاستقلالية في مقابل الشعور بالعار . ويعتقد اريكسون ان الازمة النفسية** الثانية تحدث في الطفولة المبكرة (**من ٢ ـ ٤** سنوات) وتقابل المرحلة الشرجية عند فرويد ، وهي المرحلة التي يحدث فيها أكثر مظاهر التعليم وضوحا وضبطا ، **ونعني التدريب على عادات** الاخراج ، ويخرج الطفل الذي يلقى معاملة والديه حسنة من هذه المرحلة متأكدا من ذاته ، سعيدا مبتسما بتمكنه من الضبط الجديد القوي ، ويشعر بالفخر أكثر من شعوره بالعار .

٣ ـ **تعلم المبادأة** learning intitiative **في مقابل الشعور بالذنب .**

ويعتقد ابركسون أن هذه الازمة تحدث في سن اللعب او سنوات ما قبل المدرسة ، وتبدأ تقريبا من سن ٢/١ ٣ سنة ، وفي اثنائها يتعلم الطفل ، الذي ينمو نموا صحيا ، أن يتخيل وأن يوسع مهاراته من خلال اللعب النشط من كل الانواع بما في ذلك اللعب الخيالي ، كما يتعلم التعاون مع الغير وأن يقود غيره بالمثل كما يتبع أو ينقاد للغير . اما اذا اعاقه الشعور بالذنب فانه يصبح خائفا يقف دائما على هامش الجماعات ، ويستمر في الاعتماد على الكبار بدون حاجة فعلية الى ذلك ويعاق نموه في مهارات اللعب play skills **وفي الخيال . وتقابل هذه المرحلة تقريبا** المرحلة القضيبية وعقدة أوديب في الفكر الفرويدي A Phellic and Oedipal Stages *

٤ ـ تعلم الاجتهاد industry **في مقابل الشعور بالنقص** inferiority .

وتحدث في سنوات المدرسة الابتدائية وقد **تمتد لتشمل بعض سنوات المدرسة الاعدادية** ، وهنا يتعلم الطفل اتقان المهارات الاكثر رسمية اللازمة للحياة ، كالتعامل مع الجماعة تبعا **للقواعد والتقدم من الالعاب الحرة الى اللعب** المنظم عمدا أو المشكل طبقا للقواعد ، وقد يتطلب فريق للعب ، وكذلك اتقان الدراسات الاجتماعية والقراءة والحساب . وهنا يشعر الطفل أن عمل

---

* **لمعرفة المزيد عن مراحل فرويد في النمو راجع كتاب المؤلف « معالم علم النفس »**

الواجبات المنزلية أصبح ضروريا ، وأن التأدب الذاتي يزداد تدريجيا . وهنا يصبح الطفل ، **الذى فقد الثقة ، شكاكا فى المستقبل ، والطفل الذى** يشعر بالذنب من المراحل السابقة يشعر الآن بالهزيمة والنقص .

وتقابل هذه المرحلة مرحلة الكمون عند فرويد .

٥ – **تعلم الهوية** identity **في مقابل** اضطرابات الهوية ، وتحدث هذه الازمة النفسية **فى نظره فى سن المراهقة ، من حوالى ١٣ – ٢٠** سنة . فقد أصبح الطفل **الآن** مراهقا ، يستطيع أن يجيب اجابة مرضية سعيدة للتساؤل : **من أكون انا ؟**

ولكن أحسن المراهقين تكيفا يعانون من بعض الاضطراب فى الهوية identity diffusion وخاصة الذكور ، حيث يعانون من جنوح بسيط يظهر فى شكل عصيان أو تمرد rebellion والخجل **والشك الذاتى ، وهنا تنمو نظرة المراهق للزمن – ويكتسب اليقين الذاتى فى مقابل الشك** الذاتى والحساسية الذاتية . فيقوم بأدوار ايجابية فى الغالب بدلا من اعتناق الهوية السلبية (كالجنوح) فيحاول المراهق الناجح أن يحصل على بعض الانجازات بدلا من الشلل من جراء مشاعر النقص . وفي المراهقة المتأخرة يكتسب **المراهق الرجولة وتكتسب المراهقة الانثى صفة** النسائية ، **وأحيانا يسعى للقيادة وبالتدريج ينمى نمطا من المثل المرغوبة ، وفي الغالب ما يلعب المراهق عدة ادوار حتى يجد اكثرها ملاءمة له .**

٦ – تعلم الصداقة الحميمة intimacy **فى مقابل العزلة . لأول مرة يشعر المراهق الناجح بالصداقة الحميمة والحقة . . التى يمكن أن يقوم** على اساسها الزواج الناجح أو الصداقة المستديمة .

٧ – تعلم الانتاجية generativity **فى** مقابل الاستغراق فى الذات self-absorption **فى** مرحلة الشباب المبكرة يتطلب النمو النفسى تعلم الانتاج سواء فى الزواج أو الابوة وفى العمل وفي الابداع أو الابتكار .

٨ – تعلم التكامل integrity فى مقابل اليأس despair **اذا مرت الأزمات السبع الماضية بنجاح فان الشباب الناضج يصل الى قمة التكييف اى التكامل .**

فهو الآن يثق فى نفسه ويشعر بالاستقلال ، ويعمل بجدية ، ويجد لنفسه دورا محددا فى الحياة وينمى فى نفسه مفهوما عن الذات self-concept ويكون سعيدا بهذا المفهوم . يصبح ودودا دون توتر او ذنب أو اسف أو بعد عن الواقعية ، ويصبح فخورا بما يبتكر أو ينتج من أولاد وبعمله أو هواياته . اما اذا فشل فى حل اى من الازمات السابقة فانه يشعر باليأس والاشمئزاز .

هذه المراحل ليست الا وصفا لفظيا لكيفية نمو الشخصية . ذلك لان المهم هو تحديد الظروف **البيئية التى تساعد الطفل على نمو هذه** الصفات الايجابية وغيرها .

ان التطبع الاجتماعى هو عملية تعلم تحيل الكائن البشرى من حالة الطفولة او الرضاعة ومن حالة الضعف والانانية الى حالة الراشد المثالي الذى يدين بالامتثال المعقول sensible conformity مع وجود سمات الاستقلال والابتكار (٥٣) والخلق والابداع .

• • •

التنشئة الاجتماعية فى الطفولة المبكرة :

تستخدم المجتمعات طرقا مختلفة في العناية بالطفل ، بل انه فى داخل المجتمع الواحد تختلف هذه الطرق من طبقة اجتماعية الى اخرى . ان المؤثرات الثقافية تبدأ فى التأثير فى شخصية الطفل فى اليوم الاول من ميلاده ...وتؤثر الام فى الطفل عن طريق اسلوب معاملتها اياه في التغذية وطرق اطعامه . والمعروف ان الام تسعى لتحقيق هدفين من وراء تغذيته هما :

أ ـ تغذيته

ب ـ تدريبه على تناول الطعام بطريقة صحيحة .

التغذية مسالة فسيولوجية وان كان هناك بعض الثقافات التى تفضل الاطفال السمان ، بينما هناك ثقافات اخرى تفضل الاطفال الناحلين . وتستهدف « ام » الطبقة المتوسطة ان يتدرب طفلها على تناول طعامه بدون ضوضاء او احداث أصوات ، وبدون أن يسكبه على نفسه ، وان يأكل كل الطعام من طبقه ، وان يستخدم ملعقة وشوكة وسكينا بطريقة سليمة. بل ان نظام تغذية الاطفال يتغير داخل المجتمع الواحد بمرور الوقت ، فقد تغيرت هذه العادات فى المجتمع الامريكي منذ عام ١٩٢٠ حتى يومنا هذا عدة مرات على القليل فيما يختص بعدد الوجبات وموعد كل وجبة . ففي العشرينات كان اطباء الاطفال يوصون باتباع نظام منتظم فى تغذية الاطفال مكون من ٣ وجبات يوميا . اما المستشفيات فكانت تتبع نظام تقديم اربع وجبات يوميا هي كالآتي :

١ ـ الساعة ٦ صباحا

٢ ـ الساعة ١٠ صباحا

٣ ـ الساعة ٢ بعد الظهر

٤ ـ الساعة ٦ مساء

٥ ـ الساعة ١٠ مساء

٦ ـ الساعة ٢ صباحا .

---

(٥٣) Erikson, E H. ; The problem of ego identity, J Amer Psychoanal Assn 1956, 4, 56-121

اما الآباء فكانوا يرغبــون فى اتباع نظــامٍيشبه نظام الكبار في الطعام ، ولذلك حذفــوا وجبة الساعة الثانية صباحا ، ولكن الثقافــةلا ينبغي ان تجمد نمو الطفل عن طريق وضــع أنظمة صارمة فى تغذيته ، وبالطبع لم يكن نظامالاربع وجبات هذا ملائما لكل الاطفال وكان على الآباء ان يتحملوا بعضا من صراخ الطفل قبــلالوجبات .

وفى الاربعينات بدأ يتحول الاتجاه نحــونظام الطلب الذاتي Self-demand schedule وبموجب هذا النظام يقدم الطعام للطفل كلمابكى طلبا له . والتقيد الوحيد الذى وضــع فى احدى الدراسات كان ضــرورة انقضاء ســاعــةكاملة بين اى وجبة والاستجابــة لطلب الطفــل للطعام . ولقــد تبين ان معظم الاطفال كانــوايطلبون الطعام بعد ثلاث ساعات، ونادرا ما كانت تصل هذه المدة الى اربع ساعات وخاصــة فىالاسبوع الاول من الميلاد . وكانت هذه المدة اطول أثناء الليل عنها أثناء النهار (٣ر٦ فى مقابل٢ر٩ ساعة) وبالطبع يتغير النظام المرغوب بتقدم الرضيع في الســن . واستمر هذا الاتجــاه فىالتزايد حتى اصبح هناك حاجة الى الاستفادة من نظام الانتظام فى الوجبات . ومزايا الطلــبالذاتي اى الايمان بنظام معين دون ان تكــون عبيدا لهذا النظام ، مع مراعاة فردية كل طفل.والمقصود من خضوع الطفــل لنظام الوجبــات الثلاث أو الاربع، هو خضوعه للمعاييرالحضاريةفيما بعد ، ويؤثــر الغذاء تأثيرا اكثر عمقــا فى شخصية الطفل اذا لاقى صعوبات فيما يختصبالغذاء حيث يشعر بعدم الامان ولا يحتــاج الطفل فقط لتفريــغ زجاجات الطعام فى جوفــهبطريقة آلية بل انه فى حاجة الى المص . ولقــد وجــد الطفــل فى حاجــة الى الامتصاص لمــدةساعتين يوميــا والا اضطــر الى مص اصابعــه او ملابســه او لعبه او اشياء اخرى . كذلــكلعملية الفطام اثر نفسي قوى اذا تمت بطريقة فجائية او قاسية تؤدى الى صعوبات انفعاليةيعانى منها الطفل . (٥٤)

• • •

المؤسساتالتي تسهم فى عمليةالتطبعالاجتماعي:

نتساءل عــن المؤسســات التي تسهــم فىعملية التطبع الاجتماعى هذه ، ومن أول هــذه المؤسسات التى تؤثر فى نمو الطفل الاسرة ؟

دور الآبــاء :

ان عملية التطبع الاجتماعي لا تعتمد علىالطفل وحسب بل على الآباء ايضا ، لانها علــى القليل بمفهوم الضبط الاجتماعي ، لا تحدث الااذا كان الآباء يعززون سلوك الطفل او يكافئونه عليه ، فاذا لم يقم الآباء بدور تقديم التعزيزاتوالمكافآت للطفل فان عملية التطبع الاجتماعي سوف تتأخر او تعاق . ويتحقق تعزيز سلوكالطفل عن طريقة عناية الآباء بجسمه ودفئــه ومأكله ومشربه ، على شرط أن يتم ذلك كلــهبطريقــة رقيقــة فى اثنــاء تغذيتــه وتنظيفــه

---

(٥٤) Hilgard, E R. introduction to psychology Rubert Hart-Davis London, 1962

واستحمامه وتغيير ملابسه ووضعه فى الفراش على شرط الا يتم ذلك ببرود او بطريقة آلية ميكانيكية ، وانما يصاحبه تقبيل الطفل « الدندنه » أو التودد اليه والتربيت عليه ولمس جسمه وتدليكه والغناء له حتى ينام .

ولقد وجد رينجولد (١٩٥٦) Rheingold أن حاجات الطفل المصحوب بالمثيرات الاجتماعية بما فى ذلك الاتصال الجسمي به ، يؤدى الى خلق طفل أكثر استجابة من الناحية الاجتماعية عن قضاء مثل هذه الحاجات بطريقة فاترة باردة وبكفاءة ولكن دون علاقات شخصية ولكن مثل هؤلاء الاطفال يسرعون فى النمو الاجتماعي عندما يتغير نمط معاملة الآباء معهم ، ويشعرونهم بالرعاية والرقة والحب ، كذلك وجد أن الرضيع يصبح قادرا على الاستجابة الاجتماعية وتزداد عنده عندما يستجيب الكبار بطريقة اجتماعية لاستجابات الطفل الصوتية المعبرة Vocal responses وينبغي تدريب الطفل على الاستجابة الاجتماعية او توجيهها الى القنوات الصحيحة عندما يبدأ فى اظهار مثل هذه الاستجابات ، وذلك حتى تصبح مقبولة لدى الآباء والاخوان والاخوات ، ثم المجتمع ككل ، بحيث يظهر الطفل الاستجابات الملائمة فى السن الملائم ، فاستجابات الغناء واشارات « باى باى » مناسبة لسن عام واحد ، ولكنها غير ملائمة لسن مدرسة الحضانة ، كذلك تبليل الفراش مقبول فى سن عام واحد ، ولكنه غير مقبول فى سن الاربع سنوات . وبالمثل البكاء من اجل الطعام مناسب فى سن ٩ شهور ، ولكنه غير ملائم فى سن ٩ سنوات مثلا . فهناك حاجة الى مزيد من الضبط والتوجيه لسلوك الطفل منذ الوقت الذى يبدأ فيه فى عمل الاستجابات الاجتماعية حتى يصبح مدنيا او متحضرا خاضعا للقانون ، ونسبيا راشدا كبيرا ، وغيريا او غيرانانـي .

وتبدأ عملية الضبط الاجتماعى والتكيف او التلاؤم مع تفاعل الطفل مع الآباء ثم مع اسرته ، ثم تستمر مع زملاء اللعب والاقارب والمدرسين ، وينبغي على اى مؤسسة تعمل لتحقيق التطبع الاجتماعي ان تقدم نمطا من الآتي :

١ ـ المكافآت
٢ ـ القبول
٣ ـ السماح
٤ ـ العقاب

بحيث يكسب الطفل الاتجاه نحو طاعة القانون واللياقة الاجتماعية فى سن الرشد ، وبحيث يصبح سعيدا وهادئا قادرا على القيام بدور الذكر أو الانثى المطلوب ممن هم فى مثل سنه ، وقادرا مهنيا على كسب عيشه .

نمط الآباء في التعزيز :

لا شك انه ، للمرور فى مراحل النمو المبكرة ، هناك حاجة ماسة الى توجيه الطفل ومن البديهى أن يكون المنزل هو المصدر الاول لتقديم مثل هذا التوجيه ، ويمكن تمييز منهجين فى مثل هذا التوجيه هما : ـ

١ ــ اتجاه سيكولوجى قائم على الحب والمكافآت غير المادية . هنا يسحب الحب أو يهدد بسحبه ، كما لا تعطى للطفل زجاجة الطعام في نفس اللحظة التى يطلبها فيها . واذا اصبح « شقيا » ينعزل عن الآباء وهو يشتاق الى النشاط واللعب، ولكن ينبغى أن يبقى لبعض الوقت داخل عربته أو حجرته . يرى الطفل مثل هذه النماذج من الحرمان كتهديد بانسحاب الحب ، ولذلك فانه يعمل ، فيما بعد ، على تعديل سلوكه لكى لا يفقد هذا الحب . وهناك أشكال أكثر تعقيدا من التهديد بسحب الحب كالحرمان من الملاطفة أو العناق أو التربيت أو الابتسامة أو كلمة المديح التى يتوق اليها الطفل .

٢ ــ يعتمد المنهج الثانى على الاشياء المادية، ويتراوح ما بين انزال العقاب البدنى الى حرمان الطفل من الطعام لتحويله الى السلوك الطيب . فى حالة منهج الحب تعمل على توضيح أن المعنويات تلفت أنظار الآخرين وانتباههم، لها أهمية خاصة . ويعلمه الآباء الضبط الذاتى خوفا من فقدان الحب .

أما المنهج السيء فانه يعلم الطفل الخوف من الأشياء المحسوسة المادية ، وهنا يقول الطفل لنفسه لابد أن تكون حسن السلوك حتى لا ينكشف أمرك وتنال العقاب ، فالضبط هنا من خلال الشعور بالعار . أما فى منهج الحب فالضبط من خلال الشعور بالذنب ، ولكن اذا كان الشعور بالذنب قاسيا جدا فانه يشل حركة الطفل ونشاطه . اما الشعور بالعار فيعتمد على توقع رجل الشرطة فى كل مكان يترصد الطفل للامساك به .

ولقد اتضح أن منهج الحب اكثر فاعيلة من الناحية الاجتماعية بحيث يتجنب الطفل الخطأ فى غيبة الكبار أو ممثلى السلطة ، ويمكن تمييز نوعين من التعزيز فى معاملة الآباء للطفل :

١ ــ تعزيز ايجابى reinforcement ويتمثل فى عبارة الام « ماما تحبك لأنك عملت كذا وكذا .. أو ماما سوف تعطيك كذا وكذا اذا عملت كذا ... »

٢ ــ تعزيز سلبى ، ويتمثل في قول الام لطفلها « ماما لن تحبك اذا عملت كذا وكذا .. أو ماما سوف تصفعك اذا عملت كذا وكذا .... »

وواضح أن التعزيز الايجابى يمنح المكافآت، اما السلبى فيعطى العقاب ، وهنا تساؤل ، أيهما أكثر فاعلية فى تعليم الطفل الثواب أم العقاب ؟ هناك ادلة تجريبية مؤداها ان الطفل يتعلم اسرع اذا تلقى كلا من الثواب والعقاب فى التعزيز ، فالتعزيز الايجابى لتعليمه ما ينبغى أن يعمله ، والتعزيز السلبى يعلمه مالا ينبغى عمله . وعلى ذلك فاذا تلقى الطفل تعزيزات من النوعين فانه يحاط علما بصورة اكثر شمولا عما لو تلقى تعزيزات من نوع واحد .

وتتضح هذه الفكرة من ابحاث كل من هارتوب ومور وسيجار Martup, Moore and Sager الذين وجدوا (١٩٦٣) أن الاطفال الذكور الصغار يتعلمون الادوار الجنسية الملائمة اذا منحت لهم المكافآت على السلوك بطريقة فيها ذكورة ، ويبحثون عن اللعب الذكرية ، ويعاقبون عندما يعملون أعمالا بناتية او أنثوية أو يبحثون عن لعب ودمى البنات ، وبالنسبة للاناث ، على

العكس من ذلك ، فكانت تعطى لهن المكافآت عندمايبحثن عن الاشياء « البنائية » بما فى ذلك اللعب، وكن يهملن عندما يتصرفن بطريقة « صبيانية » او يسعين للحصول على لعب الصبيان ، بل ان فاعلية التعزيزات تتوقف على الطريقة او الاسلوب الذى يمنح به التعزيز . فلقد وجد أن التعزيز ، سواء كان ايجابيا أم سلبيا ،عندما يمنح مباشرة وبثبات او ديمومة واستمرارية وبسخاء أو بكرم فان التعلم يتم بسرعة اكثر منه عندما يكون مؤجلا ،أو بدون ثبات او ضعيف او هزيل أو قليل ،ولكن هذا الفرض يحتاج الى كثير من الدراسات ، لان كمية التعزيزات تبعا لهذا الفرض ، تغير كمية التغيير فى السلوك ، ومعنى هذا أننا اذا أردنا ان نضاعف من السلوك الحسن فى سلوك طفل ما فاننا نضاعف من مقدار ما تعطيه له من مكافآت . كذلك فان التعزيز الجزئى يجعل الطفل تواقا الى المزيد من التعزيز ، فيواصل العمل الجيد ، اما اذا حصل على كل التعزيز فانه يفقد الاهتمام بمزيد من تحسين السلوك .

أثر وجود الأب فى الاسرة :

ما هو التأثير الذى يتركه وجود الاب فى الاسرة على شخصية الطفل؟ لقد اجريت دراسات كثيرة منها دراسة سيرز Sears (١٩٥١) ووجدان الصبيان الذين نشأوا فى بيوت مع الآباء كانوا أكثر عدوانا على القليل في خيالاتهم عن زملائهم الذين غاب الاب عن منزلهم .

كما كانوا اكثر ثقة ، وكانوا اكثر استعدادا لتاجيل الحصول على مكافأة صغيرة فى سبيل الحصول على مكافأة اكبر، ولكنها مؤجلة . كذلك وجد أن الاطفال الاكبر سنا والاكثر ذكاء كانوا اكثر استعدادا لتأجيل الاشباع المباشر . كذلك وجد مولتون Moulton (١٩٦٦) ان الاباء الاكثر قوة وحبا هم اكثر قدرة على انتاج اطفال يضبطون انفسهم بواسطة ضمائرهم ، وان الاطفال الذكور الذين يمتاز آباؤهم بالقوة والحب كانوا اكثر ذكورة عنهم عندما تكون الام هى الشخصية القوية والمحبة . كذلك وجد جروسيك Grusec (١٩٦٦) ان الكبار الذين يكافئون كثيرا يجعلون الطفل أكثر استعدادا لنقد نفسه (اكثر عما يلوم الآخرين مثلا) وذلك بالمقارنة بالاباء الذين لايكافئون أطفالهم سواء كانت المكافأة بالعطاء أو العقاب .

• • •

مصادر القوة فى عملية التنشئة الاجتماعية :

يحدد ولوتز Wolowtz (١٩٦٥) مصادر القوة التى يتم خلالها تقديم التعزيزات بانها : ــ

١ ــ القوة الفيزيقية ، ويدركها الطفل مبكرا ، ويعتقد ان والده يمتلكها أكثر من والدته .

٢ ــ القوة الجنسية ، ولا يدركها الطفل الا متأخرا نسبيا حيث يدرك ان والديه يمثلان قوة جنسية ، واذا كانت العلاقات الجنسية مجرد علاقات شهوانية او بهيمية بحتة فان فكرة الطفل عن الجنس تنمو سيئة .

٣ ــ الحكمة ، وللاسف فان الحكمة فى المجتمع الحاضر لاتبدو محترمة كما ينبغى .

٤ ــ التأثير الاجتماعى ، ويتضمن نوعيةالاشـخاص الذين يعرفهم آباء الطفـل والذين يتبادلون واياهم الزيارة ، ويقدر الطفـل آباءهوخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمـن يعرفهم من أشخاص ، ولمـا يبدونه من حكمةومعرفة ، يقول الطفل .. « بابا ليس ضخما أو قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير ، والنـاس المهمون يعزمونه لبيوتهـم ، ويحضـر للبيـت اسبوعيا مبلغا ضخما من المـال (٥٥) » .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع اطفالالطبقاتة الوسطى للضبط ، ويبدو أن التعليم الاجتماعى عموما يتقدم اسرع عندما تفوق نسبةالتعزيزات الايجابية اى المكافآت نسبة العقاب.

كذلك وجـد أن الثباتة أو الديمومـة فى المعاملة تساعد فى تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعـديل سـلوكه بحيث يحصـل على ما يريدويتحاشى ما يرغب فى تحاشيه .

تفسير عملية التطبع الاجتماعى :

هناك نظريات كثيرة لتفسير عملية التطبعالاجتماعى . أن نمو الفرد يتوقف على مدى رؤيته وردة فعله لقوى التطبع الاجتماعى التىيستخدمها المجتمع معه . يضع المجتمع الصورة التى يرغب أن يكون عليها نساؤه ورجاله.ويضععدة قواعد لارشاد الآباء والمعلمين فى ذلك ، ولكن كيف يرى الطفل هذه العملية ؟ وما هى المفاهيموالقوى التي تكمن فى داخل الطفل والتى تحدد نوع استجابته لهذه المؤثرات الاجتماعية ؟

هناك اتجـاهان نظريان فى عمليـة التطبعالاجتماعى هما :

أولا : نظرية التحليـل النفسى ونظـريةالتعلم الاجتماعى ، فكلاهما يرى أن الراشـد الكبير هو المحصلة النهائية لعملية تعلم الاسرةوالبيئة كما يراها الطفل ، وكما تؤثر فيه ، أى تعاليم الاسرة والبيئة . فاذا كانت هذه القوىمعتدلة كان الطفل سعيدا ، واذا كانت مؤذية أو ضارة كان الطفل تعسا . فالكائن الحى تصقلهوتشكله خبراته ، فيصبح جيدا أو سيئا تبعـا لجودة أو سوء مثل هذه الخبراتة .

تصنع النظرية التحليلية توكيدا أكثر مننظرية التعلم الاجتماعى ، على بعض مراحـل النمو التى تؤثر فيها الخبرات أكثر من غيرها منالمراحل . وهذه السن تبدأ من الميلاد حتى سن السـابعة . أما نظـرية التعلم الاجتماعى فترىان الطفـل كائـن قابل للتعـديل والتغيير فى أى سن كانت .

ثانيا : الاتجاه الثانى يذهب الى الزعم بأنقوى النمـو فى داخـل الكائن البشرى هى فى الاساس خلاقة ، فاذا كان الطفل مقبولا ، واذالم توصد الابواب امام اشباع حاجاته ، فانه ينمو شخصا سعيدا خلقيا واجتماعيا . مثلهذه النظرية لا تقلل من اثر التعلم . وانما هى فقط تدعى انه اذا اعطى الطفل ظروفا بناءة فانهسوف يوجه نفسه نحو القنوات البناءة . وينحو

---

(٥٥) McCandless, B.R. op. cit.

التعلم النشط دورا اقل فى هذه النظرية عنه عند فرويد وفى نظرية التعلم الاجتماعى. والعنصر الاساسى فى بيئة الطفل هو القبول ، وكان جانجاك روسو هو أول من قال بمثل هذه النظرية فى كتابه « اميل » وما زال يعتنقها كثير من علماءالنفس من أمثال كارك روجرز وماسلو Maslow Rogers وجيزل Gesell وان كانوا يختلفون عنه في بعض التفاصيل .

ويمكن تشبيه هاتين النظريتين بحالات من مجال البستنة فالنظرية الاولى ينطبق عليها المبدأ القائل : كما يثنى الجذع تنمو الشجرة على غراره .

وعلى ذلك يوصى بتوفير البيئة الجيدة ذات التربة الصالحة والضوء والماء والتخصيب الضرورى ، ولكن التعليم أو التشذيب الفعال والتشكيل والتطعيم والتسميد لابد من ممارستها. والنظرية الثانية أيضا تطالب ببيئة ذات تربة ملائمة وضوء وماء وربما أيضا سماد ، ولكنها تميل الى الاعتقاد بأن الطبيعة لديها أفضل معرفة عن كيف تنمو الشجرة .

فالتقليم والتطعيم والتشكيل والتسميد والتلقيح التهجينى تترك كلها للمجرى الطبيعى للاحداث وللطبيعة الفطرية للكائن. النظرية الاولى تنادى بمزيد من التعلم النشط كعمل مرغوب ، والثانية تنادى بقليل من هذا التعلم . وطبقا للنظرية الاولى فان الطفل سوف يصبح اجتماعيا وغيريا وايثاريا وواثقا من نفسه للحد الذى يلزمه لكى يكيف نفسه مع الآخرين ولكن يشبع حاجاته . وتتوقف سهولة هذه العملية على مدى كفاءة المعلم ومهاراته ، وعلى مدى ملائمة وكفاءة وفاعلية عملية التدريس . وطبقا للنظرية الثانية فان بذور عملية التنشئة الاجتماعية تكمن فى الناس ، وسوف تصل الى أقصى درجات النضج فى بيئة تمتاز بالقبول واللطف ، ولكنها بيئة سالبة . وربما يضع جيزل كثيرا من الاهمية للاستعدادية الموروثة للوراثة أكثر من كارل روجرز ، فجيزل لا يقبل القول بأن اعطاء الفرد البيئة المناسبة سوف يؤدى الى نموه النمو الملائم .

والواقع اننا لا نعرف الصحيح من هاتين النظريتين ، بل ربما لا نعرف اذا كان كلاهما صحيح أم خطأ ، فكلاهما يضع وزنا كبيرا على جوانب البيئة فى التنشئة الاجتماعية . فالنظرية الاولى يمكن وصفها بأنها نظرية تعليمية ، بينما النظرية الثانية ارتقائية . ويمكن اعتبار فرويد ممثلا للنظرية الاولى وجيزل ممثلا للثانية . النظرية الفرويدية تؤكد دائما النزعة الاجتماعية الفطرية فى الانسان ، بمعنى أن الطفل الصغير الانانى يجب أن يتحول الى شخص راشد كبير ايثارى قادر على تأجيل لذاته .

ونظرية التعلم الاجتماعى لا تضع افتراضات ازاء هذه المسالة ، ولكنها تفترض ان الايثار وتأجيل اشباع اللذات يتم تعلمهما اكثر من كونهما فطريتين ، ويضع جيزل كما يضع فرويد تأكيدا كبيرا على توابع ونواتج النمو ، ولكن فرويد لا يضع كل الاهمية ـ كما يفعل جيزل ـ للوراثة كعامل محدد للفروق الفردية بين الناس [10]

الشيخوخة في المجتمع الانساني المتغير *

أحمد أبو زيد

حين اصدر عالم الاجتماع البريطانى المعاصر بيتر تاونسند Peter Tounsend كتابه الممتع عن « الحياة العائلية لدى كبار السن The Family Life of Old People (١) اعتبر ذلك ايذانا ببدء الاهتمام بميدان جديد من ميادين البحث الاجتماعى ، كان مهملا الى حد كبير حتى ذلك الوقت ، واخذ اهتمام السوسيولوجيين والانثربولوجيين يزداد

(*) سبق ان اصدرت المجلة عددا خاصابالشيخوخة ، ونظرا لاهمية الموضوع توالىالمجلة نشر بعض الدراسات الاخرى من حين لآخر ـ التحرير .

(١) اعتمد تاونسند فى تاليف كتابه على دراسة عميقةاجراها فى المدة بين ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ فى حى Bethnal Green فى لندن ودرس اثناءها مائتى حالة لشيوخ متقاعدين عنالعمل . وكان السبب الرئيسي وراء هذه الدراسة هو ازدياد الشعور بالقلق فى بريطانيا على المسنين الذين كانوايتزايدون فى العدد بسرعة عالية والذين كانوا يعانون من الوحدة والعزلة والانقباض نتيجة لشعورهم بالاهمال منأولادهم واقاربهم ومن الدولة على السواء . وليس ادل على ذلك من أن ١٤٪ من سكان المنطقة كانوا محالين على المعاشومتقاعدين عام ١٩٥١ ، وهى نسبة عالية ، وكان هناك احساس بان هذه النسبة فى ارتفاع مستمر . وقد ضمتعينة الدراسة حالات من الجنسين وكانت كل مقابلة تستغرق حوالى ساعتين كانت تستخدم فيها الاستمارة والمقابلةالمفتوحة ، وكثيرا ما كانت زيارة المؤلف تتكرر لنفس الاشخاص مرتين وثلاث مرات واحيانا آربع مرات لاستكمال المعلومات ،ولكن الباحث كان يعتمد بالاضافة الى ذلك على بعض المصادر الاخرى التي تلقى مزيدا من الضوء على وضع الشيوخوالمسنين بصفة عامة .

بدراسة الشيخوخة كظاهرة اجتماعية ، وبحياة كبار السن والشيوخ فى المجتمع العربى المتقدم ، والعلاقات الاجتماعية التى تقوم بين مختلف الاجيال ، والدور الذى يلعبه الشيوخ فى حياة المجتمع المعاصر والمشكلات التى يعانون منها ، ونظرة المجتمع والدولة اليهم والخدمات التى تقدم لهم ، ويقارنون هذا كله بما يحدث فى المجتمعات التقليدية والمتخلفة او النامية والجماعات « البدائية » التى لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع ، والتى لايزال نظامها الاقتصادى يعتمد على اشكال اكثر بساطة ، مثل الجمع والالتقاط او صيد السمك او قنص الحيوان أو الرعي أو الزراعة البسيطة .

وليس معنى هذا أن دراسة تاونسند كانت أول دراسة على الاطلاق يطبق فيها المنهج العلمى وتتم بطريقة علمية منظمة ودقيقة . بل الواقع انه هو نفسه كان قد تأثر بعدد من الدراسات التى ظهرت من قبل، والتى عالجت مشكلة الشيخوخة فى بعض المجتمعات المحلية فى بريطانيا ، كما انه يبدو ان عددا من الدراسات حول الموضوع ذاته كانت قد أجريت فى بعض الدول الأوروبية ، وبخاصة فى فرنسا ، حيث نجد بالذات سلسلة طويلة من مشروعات البحوث الكبرى عن سيكولوجية الشيخوخة تتم تحت اشراف سوزان بيكو Suzanne Becaud التى كانت تهتم فى المحل الأول بتغيرات السن واثرها فى الذاكرة ، وفى الوظائف العقلية والسيكوحركية ، وكذلك تأثير التعليم على تراجع هذه الوظائف عند المسنين . كذلك كانت هناك دراسات كثيرة تعالج الشيخوخة من الناحيتين البيولوجية والطبية ، خاصة وأن علماء البيولوجيا فى دراساتهم للكائنات العضوية الدنيا ذات دورة الحياة القصيرة كانوا يعتبرون الشيخوخة خاصة اساسية فى دورة الحياة بأكملها ، وكانوا بالتالى يميلون الى فهمها على أنها جزء له مغزاه فى عملية الحياة ، بينما كان الاطباء يهتمون بالشيوخ نظرا لما يلعبه الطب فى علاج أمراض الشيخوخة ومحاولة اطالة الحياة عن طريق التغلب على المرض والعجز (٢) . وكان قد سبق ذلك كله مرحلة كان الاهتمام فيها بدراسة الشيخوخة يعتمد على التأمل النظرى البحث فى الأغلب ، وان كانت هناك الى جانب ذلك بعض المحاولات الجادة للقيام بالبحوث الأمبيريقية او حتى التجريبية التى لاداعى للخوض فيها هنا . ولكن على الرغم من هذا كله فان دراسة تاونسند تعتبر أحد المعالم الرئيسية فى البحوث الاجتماعية العلمية الدقيقة، بحيث يمكن القول أنها أرست قواعد الدراسة السوسيولوجية فى هذا المجال الهام ، وبحيث نجد عددا من تلاميذ تاونسند يكرسون جهودهم لدراسة الشيخوخة من زواياها المختلفة ، ويصدرون فى ذلك عددا من الكتابات والدراسات التى شجعت على القيام بدراسات مماثلة خارج بريطانيا ، مما ادى فى آخر الأمر الى أن اصبح علم الشيخوخة علما اجتماعيا بقدر ماهو علم بيولوجى ، بل لقد أخذ علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى السنوات الاخيرة يسيطرون سيطرة كبيره على دراسات الشيخوخة ، ويسلطون كثيرا من الاضواء على النواحى والمظاهر الاجتماعية لمشكلة الشيخوخة ، وهى المظاهر التى لا يعطيها الأطباء وعلماء البيولوجيا ما تستحقه من عناية وذلك بحكم تخصصهم الدقيق . ولكن المهم هنا هو أن الاهتمام بدراسة الشيخوخة من الناحية الاجتماعية اهتمام حديث نسبيا رغم ما احرزه من نجاح وتقدم. وان معظم المحاولات التى بأيدينا تدرس المشكلة فى جماعات وفئات معينة بالذات ، أو فى مجتمعات محلية محددة

(٢) انظر فى ذلك John E. Anderson, " Research on Ageing " in Burgess, E. W. (ed.) ; Ageing in Western Societies, A comparative Survey, Chicago University Press, 1960, 1969.

لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، ولامكان التعمق فى التحليل . وعلى الرغم من تزايد الدراسات والبحوث الاجتماعية والانثربولوجية والسيكولوجية فى هذا المجال، فان هذه الدراسات والبحوث لاتزال قليلة اذا هى قورنت بما حققه الاطباء وعلماء البيولوجيا الذين كان لهم بغير شك فضل السبق فى دراسة ظاهرة الشيخوخة عند الانسان .

وعلى اية حال فان علماء الاجتماع والانثربولوجيا فى دراساتهم للشيخوخة يأخذونها على انها أكثر من مجرد تغييرات بيولوجية وفسيولوجية وفيزيقية تطرأ على الجسم البشرى نتيجة للتقدم فى السن ، ويعتبرونها ظاهرة اجتماعية تتمثل فى موقف معين يقفه المجتمع من الفرد ويفرض عليه بمقتضاه قيودا وحدودا وقواعد سلوكية يلتزم بها ، كما تتمثل من الناحية الاخرى فى موقف معين ايضا يقفه الفرد نفسه من نفسه ومن الآخرين ، ويتمثل فى التزامه بتلك القواعد والقيود والمبادىء التى يضعها له المجتمع ، كما يمتنع عن كثير من الأمور التي كان يبيحها لنفسه قبل ان يصل الى تلك السن . ويقول آخر ان علماء الاجتماع والانثربولوجيا يعتبرون الشيخوخة احدى المراحل التى يمر بها الفرد خلال دورة الحياة وتلابسها مظاهر سلوكية وقيم اجتماعية معينة ، كما انها فى الوقتذاته منزلة اجتماعية يحتلها الفرد بحكم السن التى وصل اليها ، ودور اجتماعى يلتزم بالقيام به وادائه ... وربما كان هذا اوضح فى المجتمع البدائي والتقليدى منه فى المجتمع الصناعى الحديث .

(١)

لقد اهتم علماء الانثربولوجيا بالذات بدراسةهذا الموضوع وتتبع ظاهرة الشيخوخة فى الأساطير والتراث القديم وفى المجتمعات القبلية « البدائية » ولدينا ذخيرة هائلة من المعلومات المتعلقة بالشيوخ والشيخوخة فى هذه المجتمعات الأخيرة بوجه خاص . والواقع أن كثيرا من النظم الاجتماعية لدى القبائل الافريقية والاسترالية وقبائل الهنود الحمر وغيرها يصعب فهمها ان لم يؤخذ فى الاعتبار موقف تلك المجتمعات من الشيوخ والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها هناك ، والادوار التي يقومون بها ، والوظائف التي يؤدونها فى تماسك الجماعة .

فالمجتمعات القبلية التي توصف عادة فى الكتابات الانثربولوجية بأنها مجتمعات بدائية أو « متخلفة » تختلف فى نظرتها الى الشيوخ والشيخوخة اختلافا كبيرا عن المجتمعات الحديثة المتقدمة ، وبخاصة المجتمعات الصناعية . وربما كان السبب الرئيسي فى تلك الاختلافات هو أن الظروف والاحوال العامة فى المجتمع « البدائي » أو البسيط أو المتخلف لا تسمح الا لنسبة ضئيلة جدا من السكان بأن تعيش حتى مرحلة الشيخوخة المتقدمة ، وذلك نظرا لانخفاض مستوى العناية الطبية والتربية الصحية أو التثقيف الصحي هناك ، وتفشي الامراض والأوبئة والمجاعات التي تقضى على نسبة كبيرة من السكان فى مرحلة الطفولة أو الشباب . ولذا فان الشيخوخة كعملية بيولوجية تكاد لا تكون مفهومة تماما عند هؤلاء « البدائيين » حيث يموت الناس فى العادة فى سن صغيرة نسبيا وهم لا يزالون قادرين على العمل وعلى المشاركة فى الحياة . ومن هنا فان عدد الاشخاص الذين يحتاجون فعلا الى الاعالة فى الجماعات القبلية قليل نسبيا ويكاد لا يعتبر عبئا على الجماعة الا فى الحالات التي يتعرض فيها المجتمع ككل الى المجاعات الشديدة . وعلى ذلك فان الشيخوخة من حيث هي مشكلة تحتاج الى حل ليست قائمة هناك بنفس المعنى الذى نجده فى المجتمع الصناعى الحديث الذى تؤلف فيه الشيخوخة مشكلة ضخمة تحتاج الى تكوين مؤسسات تتولى أمر

الشيوخ والعناية بهم ، ووضع القوانين والقواعد والتنظيمات التى تنظم حياة هؤلاء الشيوخ وتهتم بتوفير مستوى اقتصادى واجتماعى معين لهم بعد أن استغنى المجتمع عن خدماتهم . وليس ثمة شك فى أن التكافل الاجتماعى القائم على أساس الروابط القرابية فى المجتمعات البسيطة والتقليدية ، والذى يقضى على اعضاء الجماعة القرابية الاهتمام والعناية بأمر أفراد الجماعة من الشيوخ والمتقدمين فى السن ، يساعد مساعدة فعالة على حل مشكلات الشيخوخة فى تلك المجتمعات . ومما يخفف من وطأة الشيخوخة على الشيوخ انفسهم وعلى بقية أفراد الجماعة فى وقت واحد ان تلك المجتمعات البسيطة وبخاصة « البدائية » منها تحاول بقدر الامكان الافادة من هؤلاء الشيوخ ومن خبراتهم العميقة فى شئون الحياة ، ومن هنا فانها تحدد لهم مركزا معينا ودورا يتعين عليهم اداؤه ، وانواعا محددة من النشاط الاجتماعى — أو حتى الاقتصادى ـ تتناسب مع ضعفهم الفيزيقى النسبي بحيث لا يشعر المجتمع بأنه يتحمل نحوهم مسئوليات ثقيلة أو أنهم يشكلون عبئا يصعب حمله ماداموا يؤدون لهذا المجتمع وظيفة لها اهميتها بالنسبة اليه على ما ذكرنا من قبل .

والواقع انالشيخوخةفى المجتمع «البدائي» والتقليدي تعتبر فى حد ذاتها انجازا له اهميته ومكانة متميزة ، وتجلب لصاحبها الاحترام الذى يتناسب مع المركز الاجتماعى السامى الذى يحتله فى الحياة الاجتماعية . فأهمية الفرد فى المجتمع البدائي لا ترتبط بالضرورة بقدرته على الانتاج الاقتصادى ، أو على الاصح بالمجهود الفيزيقى الذى يبذل فى عملية الانتاج. اذ ليس من شك فى أن العمل الشاق الذى يتطلب لياقة بدنية عالية وقدرة فيزيقية كبيرة انما يضطلع به الشبان . ولكن هذا لا يعنى اطلاقا عدم مشاركة الشيوخ فى النشاط الاقتصادى ، اذ أنهم يضطلعون بدور حيوى له أهميته فى عملية الانتاج ، ونعنى به الشعائر والطقوس السحرية والدينية التى تعتبر عنصرا أساسيا لضمان نجاح اية عمليةانتاجية، ويستوى فى ذلك صيد السمك أو قنص الحيوان أو تفليح الارض او بذر أو حصد المحصول أو غير ذلك . فهذه كلها أنواع من النشاط الاقتصادى لا يمكن البدء فيها ان لم تسبقها شعائر وطقوس معينة يقوم بها الشيوخ، وتعتبر ممهدة لذلك النشاط ومتممة له . ومن هنا فان علماء الانثربولوجيا الذين أتيحت لهم فرصة دراسة الدور الذى تلعبه هذه الممارسات السحرية والدينية فى الحياة الاقتصادية يعتبرونها بالعقل جزءا من عملية الانتاج ، مما يعنى بالتالي أن الشيوخ يسهمون بالعقل ايضا فى الانتاج ، وأن كان المجهود الفيزيقي الذى يبذلونه فى ذلك عديم الاثر ، او على الاقل غير واضح تماما .

والامثلة كثيرة على ذلك :

فبعض علماء الانثربولوجيا من امثال مالينوفسكى Malinowski وايفانز بريتشارد Evans-Pritchard وفيرث Firth يميزون بين « أنواع » السحر المختلفة حسب وظائفها، ويذكرون ضمن هذه الانواع السحر الانتاجى Productive الذى يهدف الى تحسين الانتاج ووسائله وتنظيم العمل ، والتحكم فى عوامل الطبيعة التي تساعد على ذلك مثل المطر . ومالينوفسكى بالذات يعطى لهذا السحر جانبا كبيرا من اهتمامه ، وهو يدرس عناصر الانتاج فى المجتمع البدائي وبخاصة مجتمع التروبرياند Trobriand الذى درسه ، ويشير بوجه خاص الى ما يسميه **بسحر الحدائق** Garden Magic ، وهو السحر الذى يمارسه الناس هناك بقصد تحقيق محصول وافر من نبات اليام Yam الذى يعتبر الغذاء الرئيسي عندهم ، وبدون ممارسة هذا السحر لن تفلح

الزراعة ولن تحقق محصولا وفيرا . ويقوم الشيوخ بأداء تلك الممارسات والطقوس ، ويعتبر ذلك هو الاسهام الذى يسهمون به فى النشاط الاقتصادى ، على الأقل فى ميدان الزراعة (٣) كذلك نجد عند كثير من القبائل الافريقية تدخل العناصر الغيبية المتعلقة بالآلهة والارواح والطواطم فى النشاط الاقتصادى ، وهى عناصر يشرف عليها الشيوخ وكبار السن فى تلك الجماعات . فالشعوب النيلية مثلا تعرف ما يسمى بنظام ((**شيخ الارض**)) ،وهو من الرؤساء الدينيين الذين يتمتعون بقوة روحية خارقة ، وبمكانة دينية عالية، ويشرف على توزيع الارض فى كل موسم زراعى بين العائلات المختلفة التى يحق لها زراعة تلك الارض ، كما انه يقوم بالصلوات والأدعية والطقوس قبل الشروع فى زراعة الارض حتى يضمن نجاح المحصول وابعاد الآفات عن الزراعة . وتعتقد هذه الشعوب أن زراعة الارض بدون الرجوع الى هذا « الشيخ » وبدون القيام بهذه المراسم والطقوس ، سوف يودى بالزرع والمحصول . وهذا نفسه يصدق على بعض الزعماء الروحيين والدينيين فى تلك المجتمعات القبلية ذاتها ، وفى بعض المجتمعات النيلية الحامية فى شرق افريقيا والذين يعرفون على العموم باسم « صانعى المطر » . ومهمة « صانع المطر rain-maker » هي القيام بالصلوا تو الادعية الخاصة بالاستسقاء واستنزال المطر فى سنوات الجدب ، ولذا كانت وظيفته من أهم الوظائف المكملة للحياة الاقتصادية فى تلك الشعوب . (٤)

ومن التسليم بأن أفرادا قلائلا فقط هم الذين يمارسون هذه المراسيم والطقوس فى تلك المجتمعات نتيجة لخبرتهم ودرايتهم بفنون السحر ، فان القيام بهذه الممارسات يعتبر وقفا على الشيوخ والمتقدمين فى السن ممن يحذقون هذه الفنون ، بل انه ليس من المفروض أن يقوم باداء دور « شيخ الارض » أو « صانع المطر » أو أن يمارس سحر الحدائق وغيره من أنواع السحر الانتاجي الأخرى الا من يكون قد بلغ مرحلة معينة من العمر هي مرحلة الشيخوخة ، اى أن هذه الادوار تعتبر بالضرورة من أدوار الشيخوخة ومن اوجه النشاط التى ترتبط بالضرورة بتلك الرحلة . وربما كان هذا أوضح في المجتمعات القبلية التي يقوم تنظيمها الاجتماعى على مايعرف باسم نظام او نسق طبقات العمر age-set system.

●●●

---

(٣) انظر بوجه خاص كتاب مالينوفسكى عن حدائق المرجان وسحر الحدائق وهو بعنوان :
Malinowski, B., Coral Gardens and Their Magic.

كذلك راجع ما ذكرناه فى ذلك الصدد فى الجزء الثاني من كتابنا : البناء الاجتماعى (الانساق) ، صفحة ١٢٨ حاشية ٢ حيث تقول ان الاستاذ مالينوفسكى يذكر فى كتابه Argonauts of the Western Pacific كثيرا من الطقوس التي يمارسها سكان جزر التروبرياند قبل الخروج الى رحلات التبادل المعروفة باسم الكولا ، وانهم يمارسون سحر الحدائق او « سحر الزراعة » حتى يضمنوا ليس فقط نجاح المحصول ، بل ولكى يحصلوا ايضا على ثمرات كبيرة من نبات اليام الذى يهتمون بزراعته . « فسكان هذه الجزر يتنافسون فيما بينهم على الحصول على درنات كبيرة الحجم يتخذون منها مصدرا للتفاخر فيما بينهم .ولكنهم يصلون الى ذلك ليس فقط بفضل الجهود الكبيرة التي يبذلونها فعلا فى الزراعة والعناية بالحقول ، بل وايضا عن طريق ممارسة نوعين من السحر ، احدهما يهدف الى نجاح زراعة الشخص وكبر حجم الدرنات التي تنبت فى ارضه ، والآخر يهدف الى افساد زراعة غيره من الزراع الذين يتنافسون معه . وكان من نتيجة ذلك ظهور نوع ثالث من السحر يحاول كل منهم آن يبطل به مفعول السحر الذى يوجهه خصومه الى زراعته وهكذا » . وليس من شك فى ان الشيوخ وكبار السن هم الذين يقومون بهذه الممارسات السحرية التي تؤثر تاثيرا مباشرا فى الحياة الاقتصادية .

(٤) Seligman, C. G. and Brenda Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, Routledge 1932, pp. 195-200 ; 326-34 and 398-404.

ويظهر نظام « طبقات العمر » في عدد من المجتمعات « البدائية » التي يقوم التفاضل الاجتماعي فيها على أساس السن أو العمر وليس على أساس الثروة مثلا كما هو الحال بالنسبة للغالبية العظمى من المجتمعات . وليس المقصود من (العمر) هنا السن الفسيولوجية أو المراحل العمرية التي يمر بها الفرد في حياته من الطفولة الى المراهقة والشباب الى الرجولة الكاملة ، انما المقصود هو تقسيم أعضاء المجتمع ـ وبخاصة الذكور منهم ـ الى جماعات وفئات طبقية بحيث تشمل كل جماعة منها جميع الافراد الذين ينتمون الى سن معينة ، مما يؤدي في آخر الامر الى ترتيب السكان جميعا في طبقات تعلو احداها الأخرى ، ويقف كل منها موقفا معينا من بقية الطبقات التي تعلوها أو تأتي دونها في السلم الاجتماعي ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتتصرف في كل شئون الحياة الاجتماعية ككل أو كوحدة متماسكة . (٥) **فكأن طبقة العمر هي جماعة محددة منظمة تضم جميع الاشخاص الذين ينتمون الى سن واحدة ، وغالبا ما تتألف من الذكور وحدهم.** وتتكون طبقة العمر في العادة من الاشخاص الذين يكرسون معا في وقت واحد . وبمجرد التحاق الشخص بطبقة عمر معينة نتيجة تكريسه فيها فانه يظل معتبرا عضوا في تلك الطبقة طيلة حياته . ويطلق على كل طبقة عمر في كثير من الاحيان اسم واحد يعرف به افراد الطبقة جميعا ويشتركون في حمله ، كما انهم يشغلون جميعا نفس المركز الاجتماعي ويتبعون نفس أنماط سلوكه في معاملتهم بعضهم بعضا ، ويتخذون موقفا واحدا ازاء غيرهم من الناس ممن ينتسبون الى طبقة العمر التي تعلو طبقتهم أو التي تكون ادنى منها في المنزلة . وعلى هذا الاساس فان (طبقة العمر) تختلف تماما عن (مرحلة العمر) التي تطلق عادة على تلك الاقسام المعروفة التي تنقسم اليها **حياة الفرد من حيث هو فرد** من الطفولة الى الشيخوخة ، وذلك بعكس الحال بالنسبة لطبقة العمر التي لها معنى اجتماعي وجماعي، ولا ينظر للفرد فيها الا باعتباره عضوا في تلك الجماعة أو (الطبقة العمرية) .

فكأنه يمكن حصر الفوارق الاساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، اى طبقات العمر ومراحله ، في نقطتين : الأولى هي أن الرجل الفرد لا يستطيع بحال ان يغير طبقة العمر التي ينتمي اليها . فولادة الفرد أو تكريسه في طبقة عمر معينة يعني انتماءه الى تلك الطبقة طيلة حياته . بينما هو ينتقل بالطبع وبحسب نموه من مرحلة عمر معينة الى المراحل التالية بمرور الزمن وبفعل تقدمه في السن . والنقطة الثانية هي أن فكرة التماسك والتمايز التي تعتبر ركنا جوهريا في (طبقة العمر) لا تظهر على الاطلاق في (مرحلة العمر) . فطبقة العمر هي جماعة من الناس تتميز باتحادها وتضامنها في اداء واجبات وأعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدي ـ كوحدة ايضا ـ وظائف معينة في الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر في مرحلة العمر . وهذا هو ماسبق أن المحنا اليه حين ذكرنا ان طبقة العمر لها معنى اجتماعي بينما يصطبغ مفهوم مرحلة العمر بصبغة فسيولوجية غالبة . **ومع ذلك ، فهناك علاقة وثيقة بين الاثنين ،** اذ لايمكن فهم نظام طبقات العمر الا بدراسة هذه الطبقات في ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التي يمر بها الانسان في حياته ، وذلك على أساس أن احتلال الطبقة

---

(٥) يوجد هذا النمط من التمايز الاجتماعي في مجتمعات معينة بالذات في افريقيا وامريكا وبعض جزر المحيط الهندي وبعض قبائل استراليا ، ولكنه لا يتمثل بوضوح وقوة في اى منها كما يتمثل في شرق افريقيا عند مجموعة الشعوب المعروفة باسم الشعوب نصف الحامية Half-Hamistes وبخاصة عند القبائل النيلية الحامية او النيلو حامية Nilo-Hamites وهي كلها مجتمعات تنفرد بنسق سياسي معين .

مركزا اجتماعيا معينا ، وانتقالها من مستوى اجتماعى الى مستوى آخر أعلى منه يرتبط بالانتقال التدريجى بين مراحل العمر المختلفة، كما ان الطبقات التي ينقسم اليهـا سكـان المجتمع تتوزع فى العادة بين مختلف المراحل العمرية (انظر فى ذلك مقالنا عن : « نظـام طبقـات العمر — دراسـة فى الانثربولوجيا المقارنة » — مجلة الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣) .

وليس هنا مجال تفصيل القول فى الشعائر التى تمارس لتكوين طبقة جديدة أو لالحاق الشبان المراهقين بهذه الطبقة الجديدة ، وهى الشعائر التى تعرف عادة باسم شعائر التكريس initiation ceremonies ويكفـى أن نقول ان هذه الشعائر هى التى تحدد تكوين الطبقة والاشخاص الذين ينتمون الى الطبقة الواحدة ، وأنها قد تستغرق عدة سنوات حتى يسمح لعدد كبير من الشبان بالدخول فيهـا لتكوين طبقة واحدة قوية ومتماسكة ومتعاونة، وذلك قبل أن يغلق موسم التكريس وتمـر سنوات أخـرى طويلة تتـراوح بين سـبع سـنوات وخمس عشرة سنة قبـل أن يبدأ موسم جديد للتكريس لتكوين طبقـة جديدة وهكذا .

وتعرف الطبقة الجديدة دائما باسم طبقة الابطال المحاربين لانهم يتولون الوظيفة الحربية، اى الدفاع عن أرض القبيلة او الهجـوم على القبائل الاخـرى المعادية . وتظـل هـذه الطبقات تمارس هذه الوظيفة حتى يتم تكوين طبقة عمرية أخرى تزيح طبقة المحاربين مـن وظيفتها وتحتل مكانها ، بينما ينتقل المحاربون القدامى الى مرتبة اجتماعية أعلى هى مرتبة شيوخ العشيرة ، وهذا يؤدى بالضرورة الى زحزحـة جميع الطبقات الأخـرى الموجـودة بالفعل ونقلها الى مراكز اعلى من تلك التى كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة ، اى أن الطبقة الناشـئة لاتمـارس حقها فى القيـام بوظيفة المحاربين الا بعد تقاعد الطبقـة التى تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات المخولة لها لتلك الطبقة الجديدة الناشـئة .

ويتم هذا فى معظم المجتمعات التى تعرف هذا النظام كل خمس عشرة سنة ، وبمقتضى ذلك تحدث نقلة الى أعلى فى كـل مكونات البنـاء الاجتمـاعى مع احتفاظ البنـاء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات . اى ان الطبقات كلها تنتقل من مرتبة الى أخرى أعلى منها فى ترتيب تصاعدى كلمـا تكونت طبقـة جديدة ، ولكن العلاقات النسبية بين الطبقات التى تشغل مختلف المراتب تظل كما هى بدون تغيير . واختلاف الطبقات يستتبع بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقـة تعتبر فى ادنى مسـتويات التمايـز الطبقى بعد تكوينها مباشرة وتصل الى اعلى تلك المستويات حين تقترب نهايتها ، اى حين يموت معظم افرادها بفعل السن وتكاد تختفي من الوجود .

ويختلف عدد المراتب الاجتماعية التى تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لآخر وان كان ثمة ميل عام الى التمييز بين ثلاث مراتب اساسـية هى البطولـة والرجولـة الكاملـة والشيخوخة . وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . **فالبطولة وظيفتها الحـرب** كمـا سبق أن ذكرنا ولكن هذه الوظيفة تتضـمن بالضرورة وظيفة أخرى هامة هى الوظيفـة الاقتصادية ، لأن الحرب فى كثير من الأحيـان يكون الغرض منها شن الاغارات على معسكرات الاعداء لسرقة الماشية (الابقار) التى تلعب دورا هاما جدا فى الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، وذلك على اعتبار ان الماشية هي اداة دفع المهر ودفع الدية وتقديم القرابـين والاضحيـات الى الآلهـة فى تلـك المجتمعات الوثنيـة وهكذا . **وترتبط مرتبـة الرجولة الكاملة بالاشتغال بامور الحياة المدنية**

والاقتصادية والسياسية ، وافراد الطبقة التى تشغل هذه المرتبة يدخلون فى تأليف مجالس الوحدات الاقليمية والقبلية التى تنظر فى المنازعات الداخلية بين افراد القبيلة وتحاول انهاء الصراع ، اى ان وظيفتهم فى الاغلب وظيفة سياسية . **واما مرتبة الشيخوخة فانها ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هى التى تشرف على امور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم أكبر الأحياء سنا فى المجتمع واقربهم بذلك الى الموت والى العالم الآخر وادناهم بالتالى الى الآلهة ، ولذا يلجأ الناس اليهم فى الملمات والازمات ، كما يطلبون اليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ويقبلون آراءهم ويخضعون لمشورتهم ونصحهم نظرا لمكانتهم الدينية الممتازة .**

ولسنا هنا بصدد الحديث عن نظام طبقات العمر فى ذاته وانما الذى يهمنا هو تبيين دور الشيوخ فى بعض المجتمعات (البدائية) والوظيفة التى يقومون بها فى تلك المجتمعات وهى وظيفة أساسية وهامة ، ثم تحديدها لهم حسب نظام محكم دقيق فى جملته ، ويأخذ فى الاعتبار القدرات الجسمية والكفاءة الذهنية وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم فى السن . ومما له دلالته هنا ان تكوين الطبقة الجديدة التى سوف تحتل مرتبة البطولة لايتم الا بموافقة الشيوخ او اعلى طبقة من طبقات الشيوخ فى حالة تعدد هذه الطبقات فى المجتمع ، وان الفتيان انفسهم هم الذين يلجأون الى شيوخ العشيرة طالبين اليهم الاذن بالتكريس . ويخضع الفتيان اثناء شعائر التكريس ذاتها وفى خلال المدة التى تستغرقها تلك الشعائر والتى قد تمتد الى عدد من السنين لنوع من الاشراف من طبقة الشيوخ ، كما انهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التى تتعلق بنوع السلوك المنتظر منهم بعد التكريس ، وتتعاون طبقات الشيوخ كلها فى هذه المهمة التربوية الحيوية بالنسبة للمجتمع وللمحافظة على كيانه واستمرار تقاليده وقيمه الاجتماعية والثقافية . بل ان الحرب الهجومية ذاتها أو الاغارات التى هي وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لايمكن أن تبدأ الا بعد استئذان شيوخ العشيرة وتلقى بركاتهم ودعواتهم التى تعتبر عنصرا أساسيا هاما لنجاح الاغارة او الحملة . والواقع أن الانتصار فى الحرب ونجاح الحملة أو فشلها هو مسئولية الرؤساء الشعائريين أو السحرة ورجال الدين قبل كل شيء ، لأنهم هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة ، وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها .

فواضح اذن من هذا كله ان الشيوخ فى هذه المجتمعات يتعدون فى وظائفهم المجال الاقتصادى البحت ، ويلعبون دورا أكبر واوسع واشمل بحيث يتغلغلون فى كثير من نواحى الحياة الاجتماعية بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويؤثرون فى كل مجالات الحياة . وهذا معناه فى آخر الأمر أن لهم فى تلك المجتمعات التى يطلق عليها اسم المجتمعات البدائية دورا ايجابيا واضحا يساعد على تشكيل الحياة الاجتماعية واستمرارها. وقد تختلف تفاصيل هذا الدور من مجتمع لآخر وانما المهم هو ان الشيوخ فى كل هذه المجتمعات يشاركون مشاركة فعلية وفعالة فى حياة المجتمع ، وانهم يشعرون بذلك ، كما أن المجتمع ذاته يشعرهم طيلة الوقت بحاجته اليهم . وهذه كلها مواقف تكاد لانجد لها مثيلا فى المجتمعات الصناعية المتقدمة والمجتمع الحديث على العموم .

(٢)

هذا الوضع يعتبر فى حقيقة الامر هو الوضع المنطقى فى كل المجتمعات الانسانية التى تلعب الروابط العائلية والقرابية فيها دورا هاما فى الحياة اليومية، وبالذات فى الحياة الاقتصادية، بحيث نجد ان اعضاء الجماعة القرابية يعتبرون

الشيوخ والمسنين عاملا من عوامل قوة الجماعة واستمرار وجودها وبقائها . ويصل الامر فى بعض الاحيان وفى بعض المجتمعات الى حد أن نجد الشخص يبيع المرتبة الاجتماعيــة التى يحتلها بحكم السن ، الى من هم أصغر منــه سنا لكى يشترى مرتبة اجتماعية أعلى ترتبط بدرجة أعلى من الشيخوخة . وهذا هو ماكنا نقصده حين ذكرنا ان الشيخوخة تعتبر فى ذاتها نوعا من الانجاز فى مثل تلك المجتمعات . وليس ادل على ذلك من أن المجتمعات البسيطة تترجم تنظيماتها الاجتماعية المختلفة فى حدود والفاظ وعلاقات قرابية وعائلية على اعتبار ان هــذه العلاقات هى الاساس القوى الذى يمكن ان تقوم عليه حياة المجتمع وتماسكه وتضامنــه واستمراره . ونظام طبقات العمر ذاته الذى اشرنا اليه فى الفقرة السابقة لايخرج عن ذلك فى آخر الأمر . ذلك أن الانتماء الى اى طبقــة عمرية انما يتم بعد ممارسة شعائر التكريس التى بمقتضاها يصبح جميع افــراد الطبقــة اخوة واخوات على ماذكرنا . (٦) وهذه اخوة اجتماعيــة او اخــوة متخيلــة أو متوهمــة fictitious كمــا يحب بعــض علمــاء الانثربولوجيا أن يصفوها ، وليســت اخــوة بيولوجية أو حقيقية ، ولكنها تخضع مع ذلك لجميــع القواعــد والالتزامــات والحقــوق والواجبــات والمسئوليات التى تخضــع لهــا الأخوة الحقيقية . ويتمثل ذلــك فى التعاون والتماسك بين افراد الطبقة وفى الامتناع عــن التزاوج فيما بينهم او من بين اولاد بعضهم بعضا على اعتبار أن العلاقات الجنسية بــين الاخوة والاخوات وذريتهم علاقة محرمة . بل ان طبقة العمر الواحدة تنظر الى الطبقات التى تعلوها على أنها طبقات آباء واجداد اجتماعيين تقع عليهم كل المسئوليات التى يجب أن يضطلع بها الآباء والاجداد الحقيقيون ، كما أنها تنتظر من الطبقات التى تصغرها أن تلتزم ازاءهــا بنفس الالتــزامات التي يلتــزم بهــا الأبنــاء الحقيقيون . فكأن نظام طبقات العمر ــ بشكل ما ومن زاوية معينة ــ نوع من التنظيم القرابى الاجتماعى او المتخيل الذى يلجأ اليه المجتمع القبلى لكى يحافظ به على كيانه واستمراره وعلى تماسكه ، على اعتبار ان أقوى اشكال التماسك فى المجتمع البسيط هو ذلك الذى يقوم على اساس القرابة .

وللمجتمعات البسيطة أساليبها الخاصة فى تشكيل نظمها الاجتماعية بحيــث تتخــذ فى آخر الأمر شكل التنظيم القرابى أو علــى الاقل تقوم على أساس العلاقــات القــرابية والعائلية الحقيقية او الاجتماعية (المتخيلة) وبذلك يرتكز التكافــل الاجتماعــى فى هــذه المجتمعات على قاعدة قرابية وليس على مجرد المصالح الاقتصادية أو السياسية . وليس ادل على ذلك من النظام المعروف باسم النظام الطوطمي Totemism الذى يشيع فى كثير من

---

(٦) تكتســب طبقة العمر وجــودها المتمايز وكيانها التماسك بعد ان يتم بالفعل تكريس كل الافراد الذين تتالف منهم ، اى انها لا تظهر كوحدة وظيفية الا بعد التكريس .وتقام معظم حفلات التكريس على المستوى الجماعى ، ويعتبر الختان اهم عنصر فيها ، كما يتعرض الفتيان اثناءها لكثير من التعذيب والمتاعب التى تختلف فى الشدة والقســوة من مجمع لآخر ، مثل خلع بعض الاسنان ، أو تشليخ الجبهة والراس ، او الوخز بالاشــواك والشــجيرات ، او الجلد بالسياط ، وهذه كلها عمليات تهدف الى اختبار قوة احتمال الشبان على ملاقاة الصعاب كما انها تعدهم للقيام بدور الابطال المحاربين على ما ذكرنا . وليس من شك فى أن الانتماء الى طبقة واحدة والمرور بفترة التكريس والخضوع لتلك الشعائر القاسية العنيفة التى قد تتضمن احيانا عزلة افراد الطبقة لفترة معينة عن بقية المجتمع تخلق بينهم نوعا من (الاخوة) الاجتماعيــة التي لا تعتمد على روابط الدم ، وذلــك على اساس ان افراد الطبقة ينتسبون فى العادة الى عشائر مختلفة داخل القبيلة الواحدة ، ويساعد على خلق علاقة (الاخوة) الاجتماعية نفس عملية الختان او التشليخ الجماعية حيث يمارسها على جميع افــراد الطبقة شــخص واحد فى وقت واحد ، مستخدما في ذلك سلاحا واحدا لا يهتم بتنظيفه بعد كل عملية فتختلط الدماء تبعا لذلك مما يوجد نوعا من الرابطة بينهم ــ انظر فى ذلك كتابنا : « البناء الاجتماعى » ، الجزء الثاني ــ الانساق . صفحة ٣٠٠ .

المجتمعات الافريقية القبلية وفى استراليا وغيرها ، والذى يؤدى فى آخر الامر الى ايجاد روابط قرابية اجتماعية بين اشخاص لا يرتبطون فى حقيقية الامر بأية روابط قرابية فيزيقية أو دموية . فأعضاء الجماعة الطوطمية يعتبرون أنفسهم متحدرين من سلالة ذلك الطوطم (وهو حيوان أو نبات أو قوة طبيعية تلعب دورا هاما فى حياة الجماعة) ويحملون اسمه ، وبذلك يعتبرون أنفسهم اخوة واخوات، ويحرم عليهم بالتالى الزواج فيما بينهم . ومع أن أفراد الجماعة الطوطمية قد يكونون مبعثرين كل التبعثر وتكاد لا توجد بينهم روابط قرابية حقيقية فان هذا لا يقلل بحال من قوة الروابط القرابية الاجتماعية . والذى يهمنا هنا بصفة خاصة هو المسئوليات التي تلقى على أعضاء الجماعة الطوطمية ، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود علاقات قرابية حقيقية ، وهذه المسئوليات والالتزامات لها الى جانب مغزاها القرابى دلالات اجتماعية واقتصادية تتمثل فى التعاون المتبادل الذى يمتد الى رعاية الشيوخ والمسنين من اعضاء الجماعة .

وهكذا نرى أن المجتمعات البسيطة أو « البدائية » تستطيع بأساليبها واجراءاتها الخاصة فى خلق روابط قرابية اجتماعية او متخيلة حتى بين الأغراب انما لتهيىء لنفسها نوعا من (الضمان الاجتماعى) ضد الأزمات التى تمر بها من ناحية ، بحيث يصلح هذا الضمان الاجتماعى لتأمين حياة اعضاء الجماعة تحت الظروف القاسية التي تسود فى تلك المجتمعات . ويمتد هذا الضمان الاجتماعى بحيث يشمل بطبيعة الحال الشيوخ وكبار السن باعتبارهم اعضاء فى الجماعة (القرابية) او باعتبارهم أقارب وعلى أساس ان الوحدة القرابية هى بالضرورة وحدة متعاونة ومتماسكة . وبهذه الطريقة يتمكن المجتمع البسيط او البدائي أن يقضى على المشاكل التي تعانى منها المجتمعات الاخرى نتيجة لشيخوخة بعض أعضائها وتقدمهم فى السن .

•••

ويمكن ان نجد مثيلا لذلك فى المجتمعات التقليدية التي لا يزال يغلب عليها طابع الحياة الريفية ، بل وايضا فى المناطق الريفية فى الدول المتقدمة . وليس من شك فى أن الثورة الصناعية وما ترتب عليها من آثار فى بناء العائلة هي المسئول الأول عن ظهور مشكلة الشيخوخة بالحجم الذى نراها عليه فى المجتمع الحديث ، وهذه مسألة سوف نعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن الذى يهمنا الآن هو انه قبل هذه الثورة الصناعية فى أوروباكان الشيوخ وكبار السن يجدون اشباعاتهم فى انتمائهم العائلي ، حيث كان النمط السائد للعائلةهو العائلة الممتدة extended family التي يجد فيها الفرد ـ بصرف النظر عن سنه ـ الأمان والاطمئنان والاستجابة والاعتراف بالكيان ، وحيث كان الشيوخ يؤدون وظيفة وظيفة اجتماعية حيوية تتمثل ـ فى ابسط صورها ـ فى تقديم خبرتهم ونصحهم وارشادهم لأولادهم الكبار البالغين على ما يقول بيرجس Burgess (٧) .

والمعروف أن العائلة الممتدة ترتكز أساسا على مبدأ استمرار الأجيال المنحدرة من صلب رجل واحد فى المعيشة معا بحيث يؤلفون وحدة اجتماعية واقتصادية متعاونة ، بمعنى ان الرجل لا ينفصل حين يكبر ويتزوج عن (بيت) العائلة بل يظل محتفظا بعضويته وانتمائه اليه ، وبذلك فقد تضم العائلة الممتدة أفرادا ينتمون الى ثلاثة أجيال او اربعة ،

---

(٧) Burgess, E. W. ; " Family Structure and Relationships " in Burgess (ed) op. cit., p. 271.

يتعاونون معا فى الحياة اليومية ، ويقوم بينهم نوع من التكافل الاجتماعى الذى ينبع من شعور كل فرد بالمسئولية نحو الآخرين اجتماعيا واقتصاديا . ونظرا لان هذه العائلة تستمد قوتها الى حد كبير من الأجيال السابقة ومن كبار السن والشيوخ الذين يوجهون كل شئونها ويتحكمون الى حد كبير فى تصرفات الأعضاء الاصغر منهم سنا فانهم يحظون لذلك بكثير من المهابة والاحترام . ولقد كان هذا النمط من التنظيم العائلي يسود كثيرا من المناطق الريفية حتى فى أوروبا ذاتها ، كما أنه كان يوجد لطبيعة الحال فى المجتمعات الاكثر بساطة والمجتمعات التاريخية ذات الحضارات القديمة ، ولا يزال هو النظام السائد فى المجتمعات الشرقية على ما ذكرنا . واستمرار هذا النمط من التنظيم العائلي يدل على تماسك الاجيال والتمسك بالتقاليد كنتيجة حتمية لاستمرار بقاء الأبناء وزوجاتهم وأولادهم داخل نطاق العائلة ، وذلك فضلا عن ارتباط العائلات المختلفة ببعض عن طريق الزواج والمصاهرة فالعائلة الممتدة هى التي تحدد فى الأغلب لاعضائها العائلات التى يمكن لهم الزواج منها آخذةفى الاعتبار المركز الاجتماعى لتلك العائلات بصرف النظر عن الميول الشخصية . ولا تزال بقايا هذا النظام موجودة للآن فى بعض مناطق الريف الأوروبى . وكل هذا من شأنه توفير قدرمن الطمأنينة والاستقرار والاحترام للاجيال السابقة وكبار السن الذين يتدخلون فى معظم الامور التى تعتبرها امورا خاصة وشخصية مثل مسألة اختيار الزوجة .

وهذه كلها أمور مألوفة لدينا ، ونحن نعرفها من خبراتنا ومن حياتنا اليومية حيث انها تسود فى المجتمعات الريفية الشرقية ، ولكن هناك كثيرا من الشواهد التي تشير الى ان هذا هو الوضع فى بعض المجتمعات الريفية فى اوروبا اومريكا ، حيث لا تزال الروابط العائلية تتميز بدرجة عالية من القوة والتماسك،وحيث لا تزال أنماط العلاقات القرابية تكشف عن مدى الاحترام الذى يتمتع به الشيوخ الذين يلعبون دورا فعالا فى حياة العائلة . (٨) وقد يحسن بنا ان نشير هنا الى بعض ما يسجله علماء الانثربولوجيا والاجتماع بهذا الصدد فى المجتمع الريفى فى الغرب ونكتفى بمثال واحد

---

(٨) الواقع ان بعض علماء الاجتماع البريطانيين الذيندرسوا التجمعات العمالية فى بعض المناطق المتخلفة فى المدن الصناعية بانجلترا وبالذات فى لندن قد سجلوا وجود بعضبقايا العائلة الممتدة فى الاحياء الصناعية التى يسكنها العمال والتي يعملون فيها فى الوقت ذاته ، اى الاحياء التي تعتبرمناطق عمل وسكنى واقامة معا وبذلك تكون مناطق مغلقة الى حد كبير اذ تتم كل انواع النشاط الاجتماعي التى يقوم بها السكان داخل حدود تلك المناطق ، كما ان الرجل حين يتزوج فانه يميل الى الاقامة بجوار اسرته وبخاصة اسرة امهان كانت تعيش فى المنطقة ذاتها . ومن هنا فان شكل العائلة الممتدة هو الشكل الاومى ، وان نواة هذه العائلة الاوميةالممتدة تتالف من الجدة (ام الام) وبناتها وحفيداتها،وهذه مسالة قد تبدو غريبة لمن لم يدرس هذا الموضوع ، كما انهاتختلف اختلافا كبيرا عن الاعتقاد السائد من ان نواة الحياة العائلية فى المجتمعات الغربية الصناعية هي الروابط العائليةالابوية التي تعتمد على الذكور لا الاناث . وقد اشار الى هذه الظاهرة كل من تاونسند ، الذى سبقت الاشارة اليه ،ويونج وويلموت Young and Willmott اللذين اشتركا معا فى دراسة بعض الاحياء المتخلفة فى لندن ، واللذين تعتبردراستهما تمهيدا للدراسات التي قام بها تاونسند فيما بعد . ومن الطريف ان نجد ان هؤلاء العلماء الثلاثة يجمعون على انالنساء فى تلك المناطق الصناعية المتخلفة اكثر ارتباطا بامهاتهن واخواتهن ، وفير هؤلاء الاقارب النساء من ارتباط الرجلباقاربه من كلا الجنسين حيث يفضل الرجل فى العادة ان يقيم علاقاته الاجتماعية مع اصدقاء وليس مع اقارب . وقداشارت اليزابت بوت Elizabeth Bott الى ذلك فى دراستها القيمة عن Family and Social Network حين ذكرت ان احد الرجال الذين كانت تعتمد عليهم فى بحثها قال لها ان « الرجال لهم اصدقاء ، اما النساء فان لهنقريبات وانه ليس للنساء صديقات وانما لهن امهات فقط » . ويبدو ذلك واضحا بشكل قوى من التعاون المتبادل بينالقريبات وقت الحاجة والشدة . وهذه كلها مظاهر سائدة فى المجتمعات البسيطة والتقليدية المتخلفة .

لذلك ، مستمد من الدراسة القيمة التى قام بها اثنان من العلماء هما آرنسبرج وكيمبول على المجتمع الريفى في ايرلنـدا ، وعن المنزلة الاجتماعية العالية التي يتمتع بها الشـيوخ هناك ، والدور الاجتماعي الذى يقومون به فى حياة المجتمع كنتيجة طبيعية لقوة الروابط العائلية وتماسك الوحدات القرابية هناك .

ولقد لاحظ الباحثان أن الفلاح الايرلندى يعيش فى العادة الى سن متقدمة ، ومع انه من الصـعب رد طـول العمر في المجتمع الريفى الايرلندى الىاسباب معينة بالذات مثل الطعام والمناخاو العوامل السلالية أوالعناية الطبيةالتى يحظى بها الرجل الاوروبى عموما ، الا انه ليس ثمة شك فى أن الفلاحين الايرلنديين – كمـا يقول الباحثان – يعيشون طويلا ويتغلبون على الأمراض ، لان لديهم ما يعيشون من اجله ، وهو كثير . ذلك انهم فى مجال حياتهم الخاصة يحظون بكثير من الاحترام ويتمتعون بكثير من القوة والسلطة والنفوذ . وسـلوك الفـلاح العادى هناك وعواطفه ومواقفـه واتجاهاتـه وحديثه فى الحياة اليومية تشير كلها الى ذلك الاحترام الذى يتمتع به الشيوخ والمسنون فى المجتمع ، وان هذا الاحترام وتلك المراعـاة للسن وللشيخوخة يعتبران جزءا من اخلاق المجتمع الريفي وقيمه ، وان الطفل يتعلم منذ صغره كيف ينبغي عليه ان يسلك ويتصرف مع الذين يكبرونـه فى السـن ، وبخاصـة الشيوخ ، ليس فقط داخل عائلته وانمـا فى نطاق المجتمعككل ، وهذا فى حد ذاته يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحـديد المراكـز الاجتماعية والمراتب التي يحتلها افراد المجتمع بحسب تقدمهم في السن ، كما يحدد انماط السلوك التي يجب اتباعها ، لدرجة ان المجتمع يفرض الجزاءات والعقوبات على كـل مـن يخرج على قواعد السلوك التى يجب مراعاتها نحو الشيوخ ، وهى جزاءات تتراوح بين اللوم والتوبيخ والمقاطعة والنبذ وغير ذلك . ولا يعنى هذا اطلاقا ان الشباب لا يختلفون مع الشيوخ ، او انهم يقبلون دائما وجهة نظرهم وآراءهم ومواقفهم ، اذ كثيرا ما يعبرون عن معارضتهم للشيوخوانتقادهم لآرائهم وافكارهم التقليدية القديمة ، ولكن هذا يتم فى حدود معينة مرسومة ، وان كان الشبان فيما بينهم كثيرا ما يسخرون منهم دون ان ينسوا مـع ذلك نسق القيم الذى يمثل الشـيوخ فيـه الحلقة الرئيسية التي تربط افـراد العائلـة بعضهم ببعض ، والذى يتمتعون فيه بأكبر قدر من الاحترام والمهابة والتبجيل . ومع ان الشباب يريدون دائما بطبيعة الحال ان يكون لهم كيانهم المستقل المتمايز عن الشيوخ فانهم لا يجراون فى كثير من الاحيـان على الافصاح عما يدورفى اذهانهم . وينعكساحترام المجتمع لكبار السنوالشيوخ فى كثيرجدا من التصرفات العادية فى الحياة اليومية ، وهى تصرفات قد تبدو عديمة الاهمية لأول وهلة ولكن لها دلالتها العميقة . فالشيوخ يجلسون دائما فى صدر المكان على المقاعد المجاورة للنار للتدفئـة ، بينما يجلس صغار السن فى مؤخرة الحجرة . والشيوخ هم الذين يتكلمون بينمـا ينصـت صغار السن والشبان ، وحتى حين يكـون الكلام موجها الى احد هؤلاء الشبان فكثيرا ما يجيب كبار السن عنه ، بل وقد يصل الحال بالشاب بان يتحرز من الكلام الا حين يؤذن له بذلك . ومن الطريف ما يلاحظه المؤلفان من ان « افضل فنجان شاى ، واكبر قطعة خبز ، والبيضتان بدلا من البيضة الواحدة ، وما الى ذلك تقدم كلها للشيوخ » دليلا على الاحترام والاعزاز والرعاية ، وهما يريان انه بدون هذه اللفتات الصغيرة تفقد حياة الجماعة الريفية طعمها ومعناها ، كما يصعب على الباحـث ان يفهم العلاقات الاجتماعية بل وبناء المجتمع كله ان لم يأخذ هذه الامور فى الاعتبار . (٩)

(٩) Arensberg, C. M. and Kimball, S.T., Family and Community in Ireland, Cambridge, Mass., Harvard University Press, 1948, pp. 173-78.

وهذه كلها كما ذكرنا من قبل امور مألوفة وشائعة فى مجتمعاتنا العربيــة التي يقــوم تنظيمها الاجتماعى على اساس روابط القرابة والدم والمصاهرة ، وحيــث لا تــزال العائلــة الممتدة هي النمط الغالب ليس فقط فى المناطق الريفية بل وايضا فى المراكز الحضرية والمدن . **والمهم هنا هو ان هذه الروابط القرابية القوية هي التي تساعد الشيوخ على الاستمرار فى اداء الدور الذى يتلاءم مع سنهم ، كما تساعد المجتمع على الاعتراف بهذا الدور وتقبله ، وبالتالي على تقبل الشيوخ واحاطتهم بالرعاية والاحساس طيلة الوقت بالحاجة الى وجودهم الذى يعتبر (بركة) فى اغلب الاحيان . ومن هنا تعتبر الشيخوخة ليس مجرد انجاز كما قلنا ، بل انها تعتبر قيمة يحافظ المجتمـع عليها ويسترشد بتعاليمها .**

(٢)

هذا الالتزام بمساعدة المتقدمــين فى الســن والشيوخ والــذى يرتبط بالعائــلة الممتــدة وبالروابط القرابية القوية لم يلبث ان طرا عليه كثير من الضعف والوهن بتقدم المجتمع الانسانى ، وتحول الكثير من المجتمعات من الحياة الزراعية البسيطة الى التنظيم الصناعى الاكثر تعقدا ، والذى ادى الى ظهور أنمــاط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقيم الاخلاقية التي لم تكن معروفة من قبل . ذلك انه قبل الثور الصناعيــة التي بــدات بوادرها الأولى فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم وضحت معالمها فى القرن التاسع عشر ، كان النمط العام للحياة الاجتماعية فى المجتمعات القريبة هو نفس النمط الريفي الذى لا يزال يســود فى المجتمعات التقليديــة البسيطة ، والذى كانت الروابط العائلية والقرابية تلعب فيه دورا أساسيا فعالا فى كل مجالات الحياة، والتي كان الشيوخ يؤدون دورهم الواضح الحيوى فيها طالما كانوا قادرين على الحركة وعلى ابداء الراى فى شئون الجماعــة التــي ينتمون اليها . ولقد تغير هذا كله تغيرا جذريا بدخول التصنيع الى المجتمع وظهور مراكز صناعية متقدمة كانت تعتبر – ولا تزال – مراكز جذب للسكان وللايدى العاملة ، نظرا لما تتيحه من فرص جديدة للكســب والعمــل لا تتوفر فى المجتمع الريفي الذى يعتمد علــى الزراعة وغيرها من اشكال النشاط الاقتصادى الاكثر بساطة . ولقد ترتب على ذلك الحراك السكانى من اجل الالتحاق بالمصانع كثير من التغيرات الهامة التي تتمثل فى انفصال الافراد عن عائلاتهم الكبيرة الممتدة ، وتكوينهم عائلات صغيرة او عائلات نووية – حســب التعبــير الشــائع فى الكتابــات السوسيولوجيــة والانثربولوجية – تتألف مــن جيلــين اثنين (جيل الوالديــن وجيــل الاولاد) بدلا مــن الاجيال الثلاثة او الاربعة التى تتكــون منهــا العائلة الممتــدة ، وضعف الروابط العائليــة والعلاقات القرابية نتيجة لذلك ، والفصل بين مناطق السكنى والاقامة ومناطق العمل ، بعد ان اصبح الشخص يعمل فى المصانع الكبيرة التي تقام فى اماكن معينة بعيدة عن الساكن ، بعد ان كان يعمل مع اعضاء عائلته فى نفس موطن اقامته الاصلى ، وازدياد الاتجاه الــى الفردية نتيجة لاستقلال الفرد اقتصاديا عــن عائلته الممتدة ، وتبعثر اعضاء العائلة الواحدة بين مختلف مناطق العمل والصناعة ، والتحاقهم باعمال مختلفة بحيث ان الزوجين كثيرا مــا يعملان فى مهن واماكن مختلفة ومتباعدة بعد ان كانت وحدة العمل والنشاط الاقتصادى تجمع بينهما ، بل وبين كل اعضــاء الوحــدة القرابية ، وظهور التخصص الدقيق وبخاصة فى مجال الصناعة مما ادى الى تباعد اعضاء العائلة الواحدة فى عمليات الانتاج الاقتصادى بعد ان كانت وحدة الانتــاج قبــل الثــورة

الصناعية هي الوحدة القرابية الممتدة على ما سبق أن ذكرنا (١٠) . ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا كله هي ان اصبح الشيوخ يمثلون عبئا على العائلة . **فالعائلة الصغيرة او النواة لم تعد ـ بحكم تكوينها وبحكم الظروف التي تعيش فيها ـ تحتمل أو تستطيع اعالة الشيوخ او استيعابهم او العناية بامرهم . بل ان الشيوخ لم يعودوا يؤلفون جزءا في تكوين هذا النمط من العائلة نظرا لان الرجل ينفصل عن عائلته بمجرد ان يكبر ويتزوج ان لم ينفصل عنها قبل ذلك ويرحل للعمل في مكان بعيد . (١١)** ومن ناحية اخرى فان التغيرات التي طرات على طبيعة العمل وطبيعة العملية الانتاجية ادت الى ان تصبح الوحدة الانتاجية تقوم على اساس المصالح الاقتصادية بعد ان كانت تقوم على اساس روابط الدم والقرابة . فالعمال الذين يعملون في اى صناعة من الصناعات وفي اى مصنع من المصانع لا تربطهم ببعض ولا بصاحب العمل سوى روابط المصلحة المشتركة . فصاحب العمل يحتفظ بالعمال طالما كانوا على درجة معينة من الكفاءة والمهارة واللياقة البدنية التي تؤهلهم للقيام بالعمل الذى يوكل اليهم على الوجه الاكمل ، والا استغنى عنهم بحجة عدم حاجة العمل اليهم او عدم امكانهم تحقيق المستويات المطلوبة في الانتاج . ويتضح ذلك بأجلى صورة في استغناء العمل عن العاملين حين يصلون الى سن معينة تقل عندها قدراتهم وكفاءتهم ومهارتهم . وهى امور غير مألوفة في المجتمعات التقليدية البسيطة او اساليب الانتاج الاقتصادى التقليدى . ومن هنا كان الرأى الذى يذهب اليه الكثيرون من علماء الاجتماع والانثربولوجيا من أن مشكلة الشيخوخة والاحساس بها كمشكلة اجتماعية تحتاج الى حل ، انما هي وليدة الثورة الصناعية وما ادخلته من تغيرات على اساليب العمل والانتاج، وما ترتب على ذلك من تغيرات

---

(١٠) ترتبط فكرة التخصص وتقسيم العمل بالمعنى الدقيق للكلمة بالمجتمعات الاكثر تطورا ، وبخاصة المجتمعات الصناعية ، لدرجة آن اصبح نظاما لازما للصناعة الحديثة ويرتبط بها ارتباطا قويا في الاذهان ، وبحيث نجد أن الكثيرين من الكتاب ينكرون على الشعوب (البدائية) والبسيطة اية معرفة بالتخصص . والمقصود بالتخصص وما يرتبط به من تقسيم للعمل هو توزيع الادوار المختلفة على أشخاص مختلفين بطريقة تكفل في آخر الامر تحقيق هدف واحد متكامل ومحدد بحيث يقوم الافراد باداء ادوار معينة وانجازها . والنسق الصناعي بالذات يعتمد آكثر من غيره من الانساق الاجتماعية والاقتصادية على الدقة المتناهية في التخصص وفي تقسيم العمل والتمييز بين الادوار المختلفة التي تؤلف كلها في الوقت ذاته وحدة متماسكة متكاملة . وذهب الكثير من الكتاب أيضا الى ان التدقيق في التخصص يؤدى في آخر الامر الى كفاءة المصنع وكفاءة العملية الانتاجية وتبسيط العمل ، وذلك نظرا لان العمال يصبحون اكثر كفاءة ومهارة في انجاز اعمالهم . والاتجاه العام على اى حال في الانتاج الصناعي يميل الى المبالغة في التخصص وتقسيم العمل بحيث اصبحت الناحية الفنية التي يتضمنها الدور الذى يقوم به اى عامل من العمال مجهولة تماما للعمال الاخرين الذين يشتغلون في نفس الصناعة الواحدة ، ولكنهم يؤدون فيها ادوارا مختلفة ، وان بعض هذه الادوار يكاد لا يعرف معناها او اهميتها الا الذين يمارسونها بالفعل . والاكثر من ذلك انه في بعض الاحيان قد يجهل العامل نفسه اهمية العمل الجزئي الذى يقوم به بالنسبة للعملية الانتاجية ككل . ويذكر عالم الاجتماع الامريكي ماكيفر Mac Iver في هذا الصدد ان اكبر مساوىء التخصص وتقسيم العمل هي انهما يجعلان الناس بمثابة اجزاء في آلة واحدة كبيرة . فبعضهم يصبح بمثابة (الكباس) وهكذا ، وبذلك يصبح العامل وعمله مجرد آجزاء صغيرة لا قيمة لها في ذاتها وبذاتها ، انظر في ذلك :

Mac Iver, R. M. ; Community : A Sociological Study, Macmillan, London 1936, Pp. 359-62.

(١١) Clark Tibbitts, « Retirement Problems in American Society », in Eisenstadt (ed.) Comparative Social Problems, Free Press, N. Y. 1964, p. 195.

فى العلاقات داخل الوحدة الانتاجية وبين المشتركين فى العمل الواحد . (١٢) واحد المظاهر الهامة لهذه الشيخوخة وما يترتب عليها من تغير العلاقات داخل العمل هو ظاهرة التقاعد عن العمل او الاحالة الى المعاش حين يبلغ العامل سنا معينة يفترض عندها انه لم يعد قادرا على العمل والانتاج حسب المستويات المطلوبة على ما أشرنا اليه .

ويعتبر التقاعد عن العمل — من حيث هو نظام اجتماعى له قواعده المحددة — ظاهرة حديثة نسبيا حتى فى المجتمع الأوروبي والامريكى ، كما انه يشكل نوعا من التحدى لنمط جديد من الحياة يختلف كل الاختلاف عن النمط المألوف الذى اعتاده المرء اثناء حياته العاملة النشيطة . ففى المجتمعات الريفية وقبل الصناعية ، او المجتمعات التقليدية والبسيطة عموما وكذلك فى العصور السابقة على الثورة الصناعية نجد ان نسبة ضئيلة جدا من السكان هى التى كانت تعيش حتى سن متقدمة وتصل الى مرحلة الشيخوخة الفيزيقية ، اى ان عدد الشيوخ فى هذه المجتمعات قليل نسبيا بحيث لا يؤلفون مشكلة اجتماعية خاصة ، وان العائلة الممتدة كانت تتحمل مسئولية العناية بهم وبذل الرعاية الضرورية لهم ، فضلا عن ان الشيوخ انفسهم كانوا يسهمون فى مختلف اوجه النشاط الاجتماعى والاقتصادى بما يتناسب مع حالتهم الفيزيقية والذهنية . الا ان تقدم الخدمات والرعاية الصحية وتقدم الطب وما ترتب عليه من اطالة فترة الحياة وبالتالى ازدياد عدد الشيوخ فى المجتمعات الاكثر تقدما ، وكذلك الانجازات العلمية والتكنولوجية التى امكن تحقيقها وما ترتب عليها من ظهور اختراعات كثيرة ، واستخدام القوى الميكانيكية والآلية فى الانتاج بدلا من القوى العضلية ، مما ادى الى زيادة انتاج العامل وتضاعفه من ناحية ، وعدم حاجة الصناعة فى كثير من الاحيان الى كل الايدى العاملة المتاحة ، واحلال الآلة محل الانسان وبخاصة حين تتقدم السن بهؤلاء العمال ، كل ذلك ساعد على تضخم مشكلة الشيخوخة بحيث اصبحت تحتاج الى تضافر كثير من القوى لدراستها وايجاد الحلول المناسبة لها وذلك بعد أن فقدت العائلة الممتدة وظيفتها ومبررات وجودها .

ولقد شغلت الاذهان مشكلة السن التى يمكن عندها أن يتقاعد المرء عن اداء عمله المألوف المعتاد ، أو التى ينبغي على المجتمع ان يجبره عندها على التخلى عن عمله والكف عن ممارسته ، وان كان يبدو أن معظم الدول فى الوقت الحالى ترى أن السن المناسبة لذلك هى الفترة بين سن الستين والسبعين ، وأن كان هذا التحديد لايخلو من التعسف . ذلك ان مثل هذا التحديد ، وان كان يرتكز بغير شك على كثير من الاعتبارات الاجتماعية والعملية يغفل الفوارق والاختلافات الفردية ، مثل القدرة الفيزيقية الفعلية على العمل والأداء ، والحالة الصحية عند مختلف الافراد ، والوضع المالى للفرد وحاجته الى العمل والى المحافظة على مركزه الاجتماعى ومكانته فى العائلة والمجتمع ، وقدرته على الاحتفاظ بعمله وممارسته على مستوى معقول ومقبول . وثمة شواهد وادلة كثيرة تشير الى أن معظم الذين يحالون الى المعاش لبلوغهم سن التقاعد التى ترتبط بمرحلة الشيخوخة من وجهة نظر المجتمع انما يميلون الى الاستمرار فى أداء عملهم ، او على الاقل القيام بعمل مايستطيعون ان يكسبوا منه بعض الدخل من ناحية ، وان يرتبطوا عن طريقه من ناحية اخرى بالحياة الاجتماعية وبالمجتمع مما يشعرهم بأنهم لايزالون قادرين على ان يؤدوا أعمالا يحتاج

---

(١٢) Bromley, D. B., The Psychology of Human Ageing, Pelican, London 1966, pp. 270-72.

اليها غيرهم من الناس ، وان لهم بالتالى وظيفة يقومون بها فى المجتمع الذى ينتمون اليـه . ولكن الوضع يختلف بطبيعة الحال بالنسبة لصاحب العمل الذى يرى ان العنصر الاساسي الحاسم فى ذلك هـو مدى كفـاءة العامل أو الموظف وقدرته على الانتاج ، فضلا عن الرغبة المشروعة فى استخدام فئات أصغر سنا لقدرتهم ليس فقط على العمل بل وأيضا على التكيف مع الاوضاع الجديدة المتغيرة وعلى استيعاب التجديدات ، بل والقدرة على الابتكار وعلى الخلق والتجديد . (١٣)

واذا كان التقاعد يعنى بداية مرحلة جديدة بالنسبة للشيوخ فانها مرحلة لاتخلو من متاعب ومشكلات وصعوبات ، وربما كان أصعب هذه المشكلات التى تواجه الانسان بعد تقاعده هى مشكلة التكيف مع الأوضاع الجديدة التى يجد نفسه فيها . وقد اجريت بعض الدراسات فى الخارج حول هذا الموضوع لمعرفة مدى قدرة الاشخاص الذين ينتمون الى مهـن واعمـال وطبقات اجتماعية ومستويات ثقافية مختلفة على التكيف مع هذه الاوضاع الجديدة التى تحيط بهم ، ويبدو من تلـك الدراسـات أن المشكلات الرئيسية التى يحس هؤلاء الشيوخ المتقاعدون بضرورة ايجاد حل لها هى مشكلة ضمان توفير دخـل يكفى لاشبـاع حاجاتهم ومتطلباتهم ، بحيث يتوفر لهم مستوى معين من الحياة الكريمة الصحية التى لا تخلو مـن ممارسـة بعض النشـاط والمشاركة فى حياة المجتمع ، ثم ايجـاد فرص كافية للاتصال بالآخرين وخلق علاقات اجتماعية وصداقات جديدة ، ثم الرغبة الشديدة فى الاحسـاس بالمحبة والعطف ، أعنى حب الآخرين وعطفهم وحنوهم ورعايتهم لهم . ومع أن معظم هذه الدراسات تبين ان غالبية الشيوخ المتقاعدين يتكيفون بشكل أو بآخر مع ظروفهم الجديدة، فثمة أعداد كبيرة منهم تشعر بالضياع والحيرة وانعدام الهدف وخلو الحياة من معنى ، وان كان ذلك لايمنعهم من أن يبذلوا الجهد للتشبث بأدوارهم القديمة التى كانوا يقومون بأدائها ، او بالبحث عن دور جديد مفيد وفعال ، وتوفير درجة معقولة من الأمن والطمأنينة . ومع ذلك فان ثمة اتفاقات فى كل هذه الدراسات والبحوث على ان الشـيوخ المتقاعـدين فى المجتمعـات الصناعية الحديثة يعانون من انخفاض واضح فى مستويات الحياة سواء فى السكن أو فى نوع الطعام أو فى الحالة الصحية ، وذلك فضلا عن الانسـحاب الجزئى او الكامل مـن الحيـاة الاجتماعيـة ، أو على الاقـل القـدرة على المشاركة بطريقة فعالة فى المناشط الاجتماعية المنظمة . ولكن لعل أشد مايثير فى نفوسهم الألم هـو الشـعور بأنهم يمثلـون عبئا على أولادهم . ويزيد مـن حدة هـذا الشـعور انصراف الاجيال الشابة عـن اعطـاء هؤلاء الشيوخ ما يحتاجون اليه مـن رعاية وعطف وعناية نتيجة لانشغالهم هم انفسهم باعبـاء الحياة المتزايدة فى القسوة (١٤) .

وكان لابد لهؤلاء الشيوخ من ان يعثروا على بديل يعوضهم عـن المصـادر السـابقة التى يستمـدون منها العطف والمحبـة والاعزاز ، والتى تزودهم بشبكة العلاقات الاجتماعيـة التى كانوا يدخلون طرفـا فيها . فاسـتقلال الابناء اقتصاديا وانتقالهم من موطن الاقامـة

---

(١٣) Tibbitts, op. cit., p. 196.

(١٤) من الدراسـات الهامة التي عرضـت لهذه المشكلات :

Susan H. Kubie and Gertrude Landau, Group Work with the aged, International Universities Press, N.Y. 1953 ; Retirement Policies and the Railroad Retirement System, Washington D.C. : Government Printing Office, 1953 ; Heron, A., Preparation for Retirement ; Solving New Problems, National Council of Social Service, London 1963.

الاصلى وتبعثرهم للبحث عن عمل يعثبر بغير شك خسارة عاطفية هائلة للآباء الشيوخ يصعب عليهم تعويضها ، كما انه يفرض على هؤلاء الشيوخ حياة الوحدة والحرمان من العلاقات القرابية والعائلية التى كانت تؤلف جزءا كبيرا من نشاطهم واهتماماتهم اليومية . ويزيد ذلك الشعور بالوحدة والعزلة عن حياة المجتمع حين يفقد المرء زوجه أو أصدقاءه مما يضع كثيرا من القيود والتحديدات على عالمه الاجتماعى وعلى نطاق علاقاته الشخصية بأفراد المجتمع الذى يعيش فيه . وهذا الانسحاب من المجتمع والحياة الاجتماعية يتم تدريجيا بحيث لايكاد المجتمع أو حتى الفرد نفسه يشعر به فى اول الأمر الى ان يسلم الفرد فى النهاية الى نوع من العزلة تكاد تكون تامة ، وبحيث يقع الفرد نفسه فى ظل النسيان ممن يعيشون حوله كما بينت دراسة تاونسند ، وان كان الكثيرون من الشيوخ ، وبخاصة الذين قاموا بادوار هامة اثناء حياتهم العاملة والنشيطة ، كثيرا ما يقاومون هذا الميل الى التراجع والانسحاب من الحياة العامة ، ويحاولون الاستمرار بقدر الامكان فى ممارسة نشاطهم بشكل أو بآخر ، لانهم يجدون من الصعب عليهم النزول عن المكانة التى كانوا يتمتعون بها أو التفريط فى حقوقهم وسلطتهم . ولكن النتيجة النهائية على أى حال والطابع العام السائد الذى يطبع حياة الشيوخ هو ازدياد الشعور بالوحدة والانعزال والانحصار داخل دائرة من العلاقات الاجتماعية التي تضيق بالتدريج (١٥) .

وهذا كله من شانه ان يلقى مسئولية رعاية هؤلاء الشيوخ والمسنين على عاتق المجتمع ككل ، أو على عاتق الدولة التى يتعين عليها ازاء هذه التغيرات العميقة فى العلاقات القرابية والعائلية التقليدية ان تحل محل العائلة الممتدة وتقوم بوظائفها فيما يتعلق بالعناية بهؤلاء الشيوخ ، وذلك رغم الفجوة الواسعة الهائلة التى تفصل بين الحكومة والفرد . والملاحظ انه على الرغم من تزايد عدد الشيوخ والمسنين فى كل المجتمعات الانسانية بدون استثناء ، نتيجة لتقدم الرعاية الصحية والخدمات الطبية بالذات ، أن الشيوخ لايؤلفون قوة ضاغطة على الحكومات فى أى من تلك المجتمعات ، حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بحيث يضطرونها الى الاستجابة لمطالبهم . اى أن الشيوخ - من حيث هم فئة متميزة عن بقية فئات المجتمع - يفتقرون الى التنظيم القوى الفعال المؤثر ، وان كانت النقابات والاتحادات العمالية والمهنية المختلفة قد استطاعته ان تحقق الكثير من المزايا لاعضائها الذين يصلون الى سن التقاعد ، بحيث توفر لهم فى شيخوختهم درجة معينة من الحياة الكريمة المريحة . ولكن الشيوخ - كشيوخ ، أو كفئة بصرف النظر عن اعمالهم او مهنهم او تخصصاتهم الاصلية وغير ذلك من عوامل التفاوت والتفاضل - ينقصهم ذلك التنظيم الذى يمكن ان يضمهم جميعا ويتكلم باسمهم كفئة ، ويطالب بحقوقهم كما هو الحال مثلا فى تنظيمات الشباب . وليس من شك فى ان الحكومات تعطى فى الوقت الحالي اهتماما متزايدا لمشكلات الشيوخ والشيخوخة وتضع القوانين والتشريعات التي تكفل ضمان حقوقهم . ولكن مهما يكن من أمر هذه الجهود فان الحكومات بكل تنظيماتها ومؤسساتها واجهزتها التي تسخرها للسهر على رعاية الشيوخ لا يمكن أن تكون بديلا حقيقيا يحل محل العائلة الممتدة القديمة رغم قصور الامكانيات المادية للعائلة . فكل هذه المؤسسات والاجهزة لا تستطيع ان تعطي الشيوخ ما يحتاجون اليه حقا من دفء الصداقة والرفقة الحقيقية التي يشعر بها المرء بين افراد عائلته وبخاصة حين

---

(١٥) Bromley, op.cit ; p. 85.

تتقدم به السن . ولذا فانه رغم كل الجهود التي قد تبذلها بعض الحكومات والهيئات لتهيئةواعداد بيوتللشيوخ والعجائز وتزويدها بمختلف وسائل التسلية والتثقيف ، ومحاولة شغل أوقات هؤلاء الشيوخ فان الشعور والانعزال والتمركز حول الذات يظل مسيطرا عليهم . ويكشف هذا الشعور عن نفسه في كثرة الشكوى والتذمر التى تميز حياة الشيوخ، وهيشكوى تمتد فى كثير من الاحيان الى كل الاوضاع العامة السائدة فى المجتمع ، وتتخذ شكل المقارنة بما كان يحدث فى العهود السابقة ، وان كانت هذه الشكوى تصل الى ذروتها فيما يتعلق بانصراف الأبناء والاقارب عن الاهتمام بهم واعطائهم ما يستحقونه من رعاية ، وما هم بحاجة اليه من عطف .

وعلى أية حال فالملاحظ هو ان الحكومات فى محاولتها رسم سياساتها الخاصة برعاية الشيخوخة تتخذ بوجه عام أحد اتجاهين متعارضين تماما .

فاما الاتجاه الاول فانه يقوم اساسا على الايمان باستقلال الفرد فى اتخاذ قراراته ورسم حياته بنفسه دون تدخل من السلطات ، وان ذلكيجبأن يكون الحال فيما يتعلق بالشيوخ. ولذا يرسم أصحاب هذا الاتجاه سياستهم على أساس ضمان تحقيق استقلال هؤلاء الشيوخ والمسنين والعجزة وتوفير حرية الحركة والعمل لهم بحيث يستطيع كل منهم أن يأخذ زمام المبادرة بنفسه مثلما كان يفعل خلال مراحل حياته السابقة قبل أن يصل الى مرحلة الشيخوخة . وهذا معناه ان رعاية الدولة للشيوخ يجب أن تأخذ فى الاعتبار امكان توفير الظروف التي تساعد الفرد على أن يختار بنفسه أسلوب حياته أثناء الشيخوخة ، وهذا الاتجاه يسخر من الاعتقاد السائد عن كثير من الناس من أن المرء يفقد استقلاله وقدرته على اتخاذ القرارات حينتقدم به السن ويصل الى الشيخوخة الفيزيقية . ولذا فان المهم عند أصحاب هذا الاتجاه هو الكشف عن مصادر القوة الكامنة فى الفرد ، وعن المقومات الاساسية فى شخصيته وتكوينه التى تساعده على الاحتفاظ باستقلاله وكيانه المتميز ، وانه لا بد للمرء من ان يتنبه فى مرحلة مبكرة من حياته الى مرحلة الشيخوخة التى سوف يصل اليها فى وقت من الاوقات ، ان طالت به الحياة وطال به العمر ، وان يستعد لهذه المرحلة ليس فقط بتوفير ما قد يحتاج اليه حينئذ من مال او ممتلكات ، بل وايضا عن طريق تنمية اهتمامات جديدة يمكن أن تملأ عليه حياة الوحدة والوحشة والفراغ . وهذا كله كفيل فى آخر الامر بان يجذب الشخص المسن الى حياة المجتمع من جديد ، بحيث يشارك فى حياته وحياة الجماعة ويقوم بدور ايجابى فعال فى حياة ذلك المجتمع .

وأما الاتجاه الثاني فانه على العكس من ذلك تماما يأخذ فى الاعتبار **سلبية الفرد وبخاصة** حين يصل الى مرحلة الشيخوخة . فالشيوخ بحكم واقعهم وضعفهم وتدهور قواهم الفيزيقية والذهنية لا يستطيعون ان يهتموا بانفسهم او ان يعطوها ما تستحقه من عناية ورعاية . كما أن الفرد بطبيعته قلما ينتبه أثناء شبابه الى ما سوف يؤول اليه امره بمضى السنين . وبذلك فانه قلما يأخذ عدته للمستقبل ، وان يعمل مقدما على توفير ماسوف يحتاج اليه حين يصل الى الشيخوخة . ولقد وصلت الحياة الحديثة الى درجة من التعقيد يعجز معها الشيوخ عن أن يواجهوها وحدهم وبدون عون من الدولة ذاتها ، ومن هنا كان أصحاب ذلك الاتجاه يرون أن من أهم مايجب على الدولة ان تضطلع به هو أن توفر للشيوخ والمسنين والعجائز من أعضاء المجتمع الضمانات المادية والاجتماعية التى تسمح لهم بأن يمضوا الفترة الباقية من حياتهم دون أن يشغلوا انفسهم بأمور العيش

أو الخوف مـن المرض . ويقول آخـر فان ما يحتاج اليـه الفرد حين تتقـدم به السن ويصل الى مرحلـة الشيخوخة هـو مختلف الخـدمات الاجتماعيـة والصحية والترفيهية دون أن يحمل هو نفسه ما لا يطيق من أجـل البحث عنها ، أو من أجل أن يثبت لنفســه وللآخرين انه لايزال قادرا على المشــاركة فى حياة المجتمع والقيام بدور ايجابي يعود بالخير على الآخرين . (١٦)

● ● ●

وايا مايكون موقف الحكومات والمؤسسات من الشيخوخة والشـيوخ فالشىء الواضـح الآن هو ان الشيخوخة تعتبر من أهم المشكلات الرئيسـية التى تواجه المجتمعات الحديثـة والتى تشـغل بال الكثيرين مـن العلماء مـن مختلف التخصصات . ولقد كان معظم اهتمام العلماء فى الماضى موجها الى النواحى الطبيـة والبيولوجية كما ذكرنا ، وفى هذين المجالين بالـذات تتمثـل اهم الاسهامات فى بحـوث الشيخوخة ، ولا تزال هذه النواحى تحظى حتى الآن بكثير من العناية ، بينما قليل جدا مـن البحـوث تعرضت للجوانب الانســانية والاجتماعية للمشكلة رغم انها تتصل فى المحل الأول بالفرد من حيث هو انسان وعضـو فى مجتمع . ولقد جاءت هذه الاسهامات متأخرة نسبيا ولكنها حققت كثيرا من النجاح وكشفت عن ميادين كثيرة غنية وعميقة ، وان تكن هناك ميادين أخرى أوسع وارحب واعمق لاتزال مجهولـة وتحتاج الـى كثير مـن البحـوث والدراســات الميدانيـة الجـادة فى مختلـف المجتمعات والثقافات . ومما يؤسف له اننا هنا لم نكد ننتبه الى هذا الموضوع الحيوى ، ولم تقم حتى الآن أية دراسات جدية حول المشكلات الاجتماعية الواقعية التى يواجههـا الشيوخ والعجائز فى المجتمع العربى المعاصر ، كما أن الجامعات العربية لم تول هذا الموضوع ما يستحقه من عناية واهتمام ، على الرغم من أن العالم العربى مقبل الآن على تغيرات سريعة وعميقة نتيجةللاتجاه نحو التصنيعوالتحديث، وما سوف يترتب عليهما من تغييرات فى البناء الاجتماعى والنظم الاجتماعية وانســاق القيم والثقافـة التقليديـة والعلاقـات بين الناس وبخاصة داخل نطاق العائلـة . واذا كـان الشيوخ فى مجتمعاتنا لايزالون يجدون الكثير من الرعاية والاحترام والمراعاة ، ولا يزالون يلعبون دورا فى الحياة الاجتماعية ، وان كان يختلف من مجتمع لآخر ، فان ذلك يرجـع فى المحل الاول الى روح التكافل الاجتماعى الذى يرتكز كما رأينا من قبل على الروابط القرابية والعائلية التي تستمد قوتها من القيم التقليدية المتوارثة ، وهذا كله سوف يتعرض للتغير بغير شك نتيجة للاتجاه نحو الحياة الحديثة ، وبذلك فان مكانة الشيوخ والنظرة اليهم والى الشيخوخة سوف تتغير بدورها . وقبل ان تظهر المشكلة بنفس الحجم الـذى نجـده فى المجتمعات الاوروبية الحديثة قد يكـون مـن الخير أن نعد لها العدة من الآن عـن طريـق الدراسة والبحث ، ليس لكى نمنع وقـوع المشكلات والصعوبـات المتعلقة بالشيخوخـة ولكن لكى نخفف من وقعها ومن آثارها بقدر الامكان . وسوف يتطلب ذلك بالضرورة اتخاذ خطوات ايجابية مدروسة لتحديـد موقـف المجتمعمن الشيوخواعدادهم لمواجهة الظروف الجديدة التي سوف يجدون أنفسهم حيالها .

والذى يبدو للمرء من دراسة الاوضـاع فى المجتمعات الصـــناعية الحديثة هـو انه مع التسليم بكل ما فعلته المدنية الغربية الحديثة فى مجال اطالة فترة الحياة بالنسـبة للغالبية

(١٦) Havighurst, R. J. ; " Life Beyond Family and Work ", in Burgess, op.cit., pp. 303-4.

العظمى من السكان فى تلك المجتمعات نتيجة لتقدم الطب بالذات فان هذه المدنية الحديثة ذاتها أساءت اساءة بالغة لكثير من الاساليب القديمة التي كان الشيوخ يعتمدون عليها فى تكيفهم مع واقع الحياة ومع الظروف الجديدة التى يواجهونها بحكم شيخوختهم . بل انه يمكن القول ان أساليب المدنية الحديثة فى حل مشكلات الشيخوخة تكشف عن كثير من نواحى النقص والقصور اذا هى قورنت بالاساليب والاوضاع التقليدية القديمة التى كانت تسهم اسهاما كبيرا فى أن يمضى الشيوخ الفترة الاخيرة من حياتهم وهم ينعمون بغير قليل من الطمأنينة والسعادة وراحة البال ، وهى العناصر التى تؤلف ما يحب بعض الكتاب أن يسموه « الشيخوخة الناجحة » ، أيا كان المقصود من هذه التسمية . وربما كان الدرس الذى يمكن استخلاصه من كل البحوث والدراسات التى اجريت حتى الآن عن الشيخوخة فى مختلف الشعوب والمجتمعات هو ـ كما يقول سيمونز Simmons (١٧) ـ أن المقومات الاساسية للشيخوخة الناجحة ـ بالاضافة الى الراحة النفسية التى اشرنا اليها ـ ترتكز بعد كل شيء على قدرة الافراد انفسهم على التلاؤم بنجاح مع الاطار الاجتماعى السائد فى العصر الذى يعيش فيه هؤلاء الافراد ، وقدرتهم على توكيد حقوقهم فى اطالة فترة اسهامهم فى الحياة الاجتماعية ، واجبار المجتمع على الاعتراف بهم لاطول فترة ممكنة ، ثم قدرتهم على ان يدركوا متى ينبغي عليهم أن يتوقفوا عن ذلك كله .

ولعل مما يلفت النظر حقا فى موضوع الشيخوخة اننا نجد انه فى الوقت الذى اهتم فيه العلماء والباحثون من مختلف التخصصات بدراسة المراهقة كمرحلة فريدة فى تجربة الحياة ، وتميزه تماما عن مرحلة النضج والرجولة الكاملة فان الباحثين عموما يميلون الى أن يعتبروا الشيخوخة مجرد امتداد بائس وتعيس لمرحلة النضج والرجولة ، وانها بذلك تمثل نوعا من التراجع والتدهور والاضمحلال والهبوط عن المستويات والمعايير التي يحققها الانسان الناضج المكتمل الرجولة حين يبلغ أواسط العمر ، وذلك بدلا من أن ينظروا الى الشيخوخة على انها تمثل نوعا من التحدى لنمط من الحياة له آفاق مختلفة وجديدة تماما فى تجربة الحياة . والواقع أن هناك من الاسباب والمبررات ما يدعو لأن ننظر الى الانتقال لمرحلة الشيخوخة وما يصاحبه من تغيرات هامة وحيوية فى شخصية ونفسية وعلاقات الشخص بالمجتمع بنفس النظرة التى ننظر بها الى الانتقال من المراهقة الى النضوج ، والى ان نعطى لمرحلة الشيخوخة نفس العناية التى حظيت بها مرحلة المراهقة . بل ان مجالات البحث فى مرحلة الشيخوخة باعتبارها تجربة فريدة ومتميزة فى حياة الانسان ، وما قد يمر به المرء من تجارب ويتعرض له من أساليب وأنماط سلوكية جديدة قد تجعل البحث فى الشيخوخة أكثر اثارة من البحوث التي أجريت على مرحلة الشباب مثلا .

ثم هناك نقطة أخيرة يوجه النظر اليها كثير من العلماء وهي أن الباحثين حين يتكلمون عن الشيخوخة يركزون كلامهم فى الأغلب على « المشكلات » ويكادون لا يتكلمون عن انجازات الشيخوخة او امكاناتها أو عن الفرص المتاحة للشيوخ فى حياتهم الجديدة أو التي يجب العمل على استغلالها والافادة منها . فهم يصورون الشيخوخة كما لو كانت « لعنة » ـ كما يقول سيمونز ـ بدلا من ان يعتبرونها مرحلة عادية وطبيعية من مراحل العمر التى

---

(١٧) Simmons, Leow. ; « Social Participation of the Aged in Different cultures '', The Annals of the American Academy of Political Science, Vol. 279, p. 50.

سوف نصل اليها جميعا ، ان لم يكن هناك من الاسباب ما يمنع دون ذلك ، وان لم تحدث الوفاة فى سن أصغر لسبب من الاسباب ، والتى يجب لذلك أن نهيىء انفسنا لها باعتبارها تجربة تستحق أن يخوضها الانسان بكل قوة وعمق . ومن الملاحظ أيضا ان معظم الدراسات التي أجريت على الشيخوخة تميل الى توكيد وابراز ما يقدمه ـ أو ما يجب أن يقدمه المجتمع للشيوخ والمسنين والعجائز بدلا من أن تحاول البحث عما يمكن لهؤلاء الشيوخ والمسنين والعجائز ان يكتشفوه فى أنفسهم من قدرات وكفاءات ومهارات وخبرات يستطيعون ان يقدموها للمجتمع وان يفيدوا بها غيرهم . ان علينا أن نكشف عن القدرات والامكانات الكامنة عند الشيوخ ، وان نعمل على تنمية هذه القدرات والامكانات وتطويعها الظروف الاجتماعية القائمة . وهذا كله سوف يتطلب فى آخر الامر أن نراجع موقفنا ونظرتنا الى الشيخوخة ، وان نعيد تقييمنا لأساليب البحث والدراسة وللموضوعات والجوانب التي يمكن ان نهتم بها فى دراستنا للشيخوخة وحياة الشيوخ .

* * *

أهم المراجع

— Birren, J. E. ; (ed.) Handbook of aging and the Individual, Chicago 1959.

— Bromley, D. B. ; The Psychology of Human Ageing, Penguin, London, 1966.

— Burgess, E. W. ; (ed.) Ageing in Western Societies, Chicago 1969.

— Clark, F. Le Gros ; Growing Old in a Mechanized World, Nuffield Foundation, London 1960.

— Comfort, A., ; The Process of Ageing, Signet, N.Y. 1964.

— Eisenstdt, S. N. ; Comparative Social Problems, Free Press, N.Y., 1964.

— Felstein, I. ; Later Life : Geriatrics Today and Tomorrow, Penguin, London 1969.

— Gilbert, Jenne G. ; Understanding Old Age, Ronald Press, N.Y. 1952.

— Havighurst, R. J. and Albrecht Ruth ; Older People, Longmans, N.Y. 1953.

— Lehman, H. C. ; Age and Achievement, Princeton U.P. 1953.

— Munn, N.L.; Evolution and Growth of Human Behaviour ; Houghton Muffin, Boston 1955.

— Rosset, E. ; Ageing Process of Population, Pergamon Press, Oxford 1964.

— Sheldon, J. H. ; The Social Medicine of Old Age, O.U.P. 1948.

— Towns end, P., The Family Life of Old People, Penguin, London 1963.

— and Wedderburn, Dorothy ; The Aged in the Welfare State, Bell London 1965.

— Zubek, J. P. and Solberg, P. A.; Human Development, McGraw-Hill, London, 1954.

* * *

ميكلانجلو

(بمناسبة ذكرى مرور خمسمائة عام على مولده)

د . ثروت عكاشة

منذ خمسمائة عام على وجه التحديد وشمس النهضة الايطالية تتوهج ، ولد طفل انفصل من أيامه الأولى عن أبيه القاضى المتقاعد وعن أمه ليعيش فى كنف زوجة عامل فى محاجر الرخام ، فاذا الطفل يرضع مع لبن حاضنته حب الرخام ونحته وتشكيله ، واذا بأمه تموت بعد ستة أعوام وهو بعيد عنها فحرم من حنانها الى الأبد .

وما يكاد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى ينضم الى مرسم الأخوة ((**جيرلا ندايو**)) ليتدرب على انجاز رسوم الفريسك الجدارية، لكن هواية النحت تجتذبه الى ترك المرسم بعد عام واحد للالتحاق بمدرسة النحت فى حدائق **آل مديتشى** حيث عاش بين تماثيل العصر الكلاسيكى التى تضمها مجموعة **لورنزو** العظيم . وهناك ينحت رأس تمثال لجنى صغير (فون) يراها الأمير لورنزو حاكم دوقية فلورنسا فتبهره مواهب الصبى **ميكلانجلو** ، ويدعوه للاقامة فى قصره وسط مجموعة الفلاسفة والادباءوالشعراء الذين صاغوا فلسفة المذهب الانسانى خلال مناقشات طويلة ، كان ميكلانجلو يتشربها وتتسلل الى اعماق نفسه ، فاذا بها تشكل خلفيته الفكرية التى تظل متوثبة فى وجدانه طوال عمره .

كان دعاة المذهب الانسانى قد اكتشفوا فى الحضارة اليونانية القديمة انماطا فكرية وفنية أكثر ثراء وخصوبة ، فتاقوا الى التوفيق بين الافكار والاشكال الوثنية وبين الاعراف المسيحية ، ورأوا فى الأفلاطونية مثلهم الأعلى، فهاموا بتطبيقها في سلوكهم ومنجزاتهم .

على أن تأثر ميكلانجلو بأفلاطون كان مرتكزا على عدةنقاط في فكرهستكون نبراسا نستهدى به فى أعمال ميكلانجلو الفنية . كانت محاورة أفلاطون ((**تيماوس**)) **عن الخلق والتكوين ، وكذلك محاورة ((المأدبة)) (سمبوزيوم) عن الحب والجمال** أكثر ما شد ميكلانجلو الى أفلاطون ، ولم يلبثا ان صارا السلف الفلسفى لجميع أعمال ميكلانجلو الفنية .

شده الى أفلاطون نظرته الفلسفية الى المثلث والدائرة والمربع بوصفها الاشكال الخالدة التى تهيء مفتاحا لطبيعة الكونالحقة حتى قال فى **محاورة فيليبوس :((ليسماأعنيه بجمال الاشكال ما يراه الناس عادة جميلا أو يحسبونه كذلك وراء ما يرونه من كائنات أو صور لهذه الكائنات ، وانما الجميل عندى قد يكون حزمة من الخطوط المستقيمة وما ينتج عنها من مسطحات وكتل شكلها الفرجار والمنقلة والمثلث ، لكنها فريدة في ذاتها ، ينطلق جمالها من نبع روحها ،يعيش لاصقا بها الى الأبد))** .

وأغراه التثليث الافلاطونى الذى قسم الوجود الى مستويات ثلاثة هى عالم الوهم والخيالات ، وعالم الصيرورة المادى المتغير ، والعالم العقلى ، والتى على اساسها قسم المجتمع البشرى الى طبقات ثلاث ايضا : المنتجون من العمال والزراع ، والمحاربون ، والفلاسفة والحكام ، ورمز لهم على التوالى بالنحاس والفضة والذهب ، وحدد لكل طبقة هدفا : الكسب للعمال ، والطموح للمحاربين، والهيام بالحقيقة المطلقة للفلاسفة ، كما قسم التعليم الى مراحل ثلاث : الجهل والرأى والمعرفة . وجعل للنفس الانسانية ثلاث ملكات : الشهوانية والوجدانية والعقلانية ، وزعها على ثلاثة مواضع : المعدة والصدر والرأس . وجعل للملكة العقلية أسمى المهام وهى نشدان الخلود ، فالانسان بحكم ذكائه ((كالشجرة لا تضرب بجذورها فى الارض بل تشب بفصونها الى السماء)) . ومن ثم كان العنصر العقلانى فى النفس هو الذى يرتفع بنا من الارض ((الى اشباهنا القابعة فى السماء)) . وهو ما سوف نرى تطبيقه العملى المذهل فى تصوير ميكلانجلو بسقف مصلى سيستينا .

كما تصور أفلاطون صعود الانسان من ادنى مراتبه حتى بلوغ أصله الالهى . وفى هذه العودة الى العالم الالهى ، تدرك النفس الاله ، وهى مازالت فى أسار سجنها الدنى تصارع من أجل ذلك ، وتبذل الجهد والمعاناة فتنتقل من المحدود المتناهى الى اللامحدود اللانهائى ، حتى تنفلت من الاسر المادى الى الحرية الروحية والخلود .

ولذلك كان أفلاطون يكن للحياة الدنيوية احتقارا عميقا ، فهو يعدها عبئا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى الذى سقط منه فى الاصل ، على ما سوف نرى في تماثيله للأسرى .

ويسمعنا أفلاطون في ((**المأدبة**)) صوت **أريستوفانس** شاعر الملهاة يتحدث عن الحب قائلا : ((سمعت على لسان الكاهنة ديوتيما أن الكائنات كانت مركبة : اما من جنس مذكر خالص أو جنسمؤنث خالص،أو منالجنسين معا . وعندما تعالت هذه الكائنات علي الآلهة

عاقبتها بأن شطرتها الى أنصاف . ومن هنا جاء نـزوع الانســان اما الى مثيله أو الى الجنس الآخر وفق الكائن الذى انحدر عنه .

كذلك كانت تلح على ميكلانجلو نظرة أفلاطون بأن الانســان قد عب مرة من ميــاه نهــر النسيان فأنسي أصله الالهى ، حتى اذا رأى امرأة جميـلة ذكرته بأصـله الالهى . ولكن لا يلبث الاغراء الجســدى والجمال الزاوى ان يشداه الى جمال الحقيقة الأبـدى ... ثم فى النهاية الى تأمل حقيقة الحق والخـبر الخالدة .

واخيرا رأى ميكلانجلو فى المثل الأفلاطونية روحانية مطلقة ، وعشق الجمـال بوصـفه مثـالا مطلقـا أزليا أبديا ، تحتفظ الـروح الانسانية بذكرى مبهمة لمعايشـته في ماض بعيـد ســابق على الحيـاة فوق الأرض ، فلا تنفك ـ الروح ـ تعشق ذلك الجمـال وتصبو اليــه وتبحث عنه .

لقـد آمن ميكلانجلو أن على العاشـق أن يسمو من الحب الجسدى الى الحب الروحى، الى حب الجمـال المثالى الذى هو جـزء من القداسة والخير . وذلك هو المجـال الذى يشتاقه العباقرة والفلاسفة ويطمحون اليه .

كان ميكلانجلو فنانا شكلته الفلسـفة ، شأنه شـأن الفنان فيدياس الذى عاش خلال العصر الذهبى الكلاسـيكى ، غير أن صـوت **ســافونا رولا** الراهب المسيحى الثائر كان يطارد ميكلانجلو ، بينما كان ذهنه مؤهـلا لتمثل التجريدات الأفلاطونية . فكان قدره ان يظل عقله العاصف نهبا لهاتين الفلسفتين المتصارعتين خـلال اعماقه حتى آخر حياته، مترجما رؤاه فى اشـكال دراميـة مرئيـة ، فأبدع لنـا روائع خـالدة فى عـالم النحت والتصوير والعمارة والشـعر . واذا كانت عظمة الانسان تكمن فى استهانته بالعقبـات المـادية وشحذه لقدراته العقلية والروحية، فلا بد من أن نعـد ظهـور ميكلانجلو أحـد الأحداث العظمى فى تاريخ الانسانية .

ولمـا كان العمل الفنى بالنسبة لميكلانجلو هو أن يشــارك على الدوام في عالم الأفكار ، جاءت كل انجازاته الفنية فلسفية كما هى جمالية ، وثنية كما هى متدينة ، وأفلاطونية كما هى مسيحية .

ففى عالم النحت حمل تمثال **((باكخوس))** اله الخمر المبكر **(لوحة ١)** بصمات وثنيته الدفينة بحيث لا تكاد تفرق بينه وبين تماثيل العصر الكلاسيكى ، ومالبث تمثاله التـالى « العذراء الآسيـة (بيتيا) » ان كشف عن ايمانه الدينى الصادق **(لوحة ٢)** .

وفى عالم التصوير جمعت رسـوم سقف مصلى سيستينا العرافات الوثنيات **(لوحة٣)** جنبا الى جنب مع الانبياء العبريين **(لوحة٤)** كما افسحت المكان للنظرية الافلاطونيـة عن العودة الى العالم الالهى ، الى جانب نظرية الخلاص المسيحية .

وتجيء **لوحـة يوم الحسـاب** فى عنفهـا وضراوتها الشـبيهة بسفر الرؤيا في الروعة والترهيب لتتجاوز الشخصيات الأسـطورية مثل شخصية خارون حارس العالم السفلى لدى الاغريق مع شـخصيات العهدين القديم والجديد .

وتمثل سنوات حياته الأخيرة مرحلة من التبتل والورع المسيحى لم تنطفىء معها شعلة الافلاطونية في أعماقه . ففى الوقت الذى كان يمنح جهده كله لخدمة العقيدة المسيحية كان

ينظم شعرا يفيض بالوهج الأفلاطونى الذى تجلى من قبل :

ـ فى تماثيل العذراء حين عبر عن اتحاد الجمال الجسدى بالجمال الأبدى .

ـ وفى تمثال موسى حين ربط بين قوى الانسان المادية والمعنوية وبين الخير الأبدى .

ـ وفي وقوعه تحت سيطرة الاشكال الافلاطونية الخالدة التى تهيىء مفتاحا لطبيعة الكون والتى نلمسها فى سقف مصلى سيستينا (لوحة ٥) .

ـ وحتى فى أشكاله المعمارية المجردة نجده يقيم الأعمدة وكأنها الأسرى ، تشدها القيود فلا تستطيع فكاكا من ثقل الحمل المادى الذى لا مفر من حمله (لوحة ٦ ثم ٩ ب) ، على حين تحوم القبة الشامخة عاليا فى الكمال الهندسى للشكل الدائرى ، الرامز للسموات التى هبط منها الانسان والتى يجب أن يتلمس طريقه نحوها من جديد .

اننا نقف اليوم فى خشوع وذهول ونحن نتأمل هذه العبقرية الفذة التى بزغت فى مجالات فنون اربعة هى النحت والتصوير والعمارة والشعر .

•••

وقد ظن فنانو عصر النهضة أنهم توصلوا الى القواعد الجمالية النهائية المحددة للشكل ، وما ينبغى ان ينطوى عليه من توافق، خلال فترة التطور التى اعقبت **جوتو ومازاتشيو** وبلغت ذروتها **برافائيل** ، واذا **بميكلانجلو** يضرب عرض الحائط بهذه القواعد فى مستهل القرن السادس عشر . وكان واعيا بما يموج فى وجدانه من قلق وما يعتمل فى داخله من صراع . كان ايمانه التقليدى بالشكل قد وثق روابطه بالنحت أكثر من التصوير مع أنه كان عبقريا في كليهما ، كما شده هذا الايمان التقليدى بالشكل الى الجسد الانسانى فى الوقت الذى استهان فيه بمشاهد الطبيعة . غير أنه لم يكن راضيا عن التقديس الممنوح للشكل فى عصره ، فأطلق في مقابل الشكل نقيضه ، وهو الطاقة الكامنة فيه ، التى تطمح الى التحرر من سجن الشكل ، لكنها لا تملك الا التمرد وتمزيق بعض القيود ، التى لا تتيح لها الا ان تطل براسها فحسب ، بينما يبقى الجسد كله سجينا .

وقد تجلى كفاحه ضد قواعد الشكل المألوفة فى عصره فى افتتانه بموضوع الارقاء والأسرى المغلوبين ، الذى يعد صياغة جديدة لموضوع هيلنستى قديم ، هو صراع لاوكوون كاهن أبو للو الطروادى ضد الأفاعى الضارية التى أرسلتها الآلهة الناصرة للاغريق ففتكت به هو وبنيه . فنشهد فى تماثيله التوكيد على العضلات المتوترة ، بصفتها باعثة الحركة المهددة بتفجير اغلال الشكل ، والمعبرة عن تبرم الارقاء الساخطين بأغلالهم التى تقيد أطرافهم ، بينما يتجلى الانفعال محتدما فى أجسادهم وهى تصارع لتحرر نفسها من قالب الصخر الذى يحاصرها ويطوق حركتها والذى توقف ازميل المثال قبل انفلات الأرقاء من ربقتهم .

لقد تجسدت ازمة الشكل فى أوج عصر النهضة في منحوتات ميكلانجلو حيث يبدو الشكل وكأنه يصارع ضد ضغط خانق فى التماثيل التى تتجلى قوتها المعبرة فى كونها لم تكتمل .

ومن بين تماثيل الأرقاء اثنان بمتحف اللوفر ، يعد تمثال العبد المغلول أقربها الى الاكتمال (لوحة ٧) .

ويبدو كأنه يمثل فتى نائما يقض مضجعه حلم مرعب ، اكثر مما يمثل أسيرا يحتضر كما يحلو لبعض مؤرخي الفن تسميته . فبينما نجد القيود مجرد شرائط رقيقة تعجز عن أن تكون وثاقا ، تتجلى الروح الحبيسة التى تعذبها ذكرى أصولها الالهية ، وكأنما وجدت راحتها فى النوم بعد عذاب نفسى ممزق .

ويصور التمثال الآخر المعروف باسم **العبد المتمرد (لوحة ٨)** عنف صراع كائن مفتول العضلات كتب عليه أن يضيع كفاحه هباء .

وفى كلا التمثالين نشهد نفس الصراع اليائس مع القدر . انها مأساة الانسان الذى يحد الزمن من امكاناته ، ويعييه ادراك سر الوجود ، ويتطلع رغم فنائه الى الخلود ، ولا تعوقه قيود الجسد عن أن يحلم بحرية بلا حدود .

ولا شك في ان أشكال أرقاء ميكلانجلو ذات وشائج قربى مع نقوش أقواس النصر والاضرحة والتوابيت الرومانية ، فان نماذج الارقاء المغلولين يمكن اقتفاء اثرها فىالمنحوتات الهيلنستية التى تصور مارسياس التعس وأبوللو يسلخه حيا لتجاسره وتحديه له فى مباراة موسيقية . كما أن الشبه بين هذا العبد المغلول وذاك المتمرد ،وبين الابن الاصغر فى مجموعة تمثال الكاهن لاوكوون فى غيرحاجة الى تعليق جديد .

ونلمس نفس الأثر فى تمثالى الأسيرين المعروفين باسم أسيرى بوبولى (لوحة ٩ ، ١٠) . والمعروف انهما قد صمما كتمثالى كارياتيد بطرفى قاعدة ضريح البابا يوليوس الثانى عام ١٥٣٢ ، غير انهما استبعدا ، فأهداهما ميكلانجلو الى الدوق كوزيمو دى ميدتشى الذي احتفظ بهما في كهف بحدائق بوبولى بفلورنسا . ويكاد الصخر أن يمثل سجنا قاسيا فى هذين التمثالين ، اذ يبدو الأسيران محتجزين بين ثنايا كتلة الصخر دون سبيل الى الخلاص منها ، رغم كل ما يبذلانه من جهود . ويشى شكلهما الذى لم يكتمل بأن أسلوب ميكلانجلو فيهما كان قريب الشبه بلوحات فن النقش الشديد البروز .

وما أجمل ما تحدث به ميكلانجلو الى صديقته وهاديته **فيتوريا كولونا** عن النحت حين قال في احدى قصائده :

« ليس فن النحت ياسيدتى هو تشكيل قطعة صخر صلبة ، ولكنه تحرير للشكل من سجن الصخر ، بازالة الزوائد عن الصورة المتخيلة فى الذهن للشكل الكامن فى الصخرة » .

هكذا كان التمثال لميكلانجلو شكلا كامنا فى كتلة رخام ، ينتظر يد أستاذ النحت البارع كى يولد على يديه ، وكأنه يعبر من خلال تماثيله عن فكرة افلاطون بأن نفس الانسان ما تزال سجينة فى جسده حتى ترقى الى الكمال بواسطة قوة خلاقة تفوقها سموا ورفعة .

وفى تمثال العذراء الآسية « بييتا » لوحة ١١،٢) يكتشف جمال التنفيذ ودقة التفاصيل واثارة المشاعر عن أن ميكلانجلو كان ما يزال واقعا تحت تأثير طراز النهضة الفلورنسية . غير أنا نلمح أن ميكلانجلو قد بدأ بالفعل يدخل بعض التعديلات على النمط الهرمى الشائع وقتذاك ، اذ جعل ثنايا ثوب العذراء العديدة قاعدة للهرم وراس العذراء قمة له ، وشكل جسد المسيح على غرار آلهة الاغريق ، بينما احتفظت العذراء رغم شجنها بالوضعة الكلاسيكية ، فبدت بحق ، الأم راعيةالاحزان

الجليلة التى لا تهون من شأنها دموع أو أنات . فضلا عن أن ميكلانجلو قد استباح لنفسه تناول مقاييس اشكال بحرية تؤجج تأثيرها التعبيرى ، وتؤكد التوافق والانسجام فى تصميمه،كما أكثر من الاردية ليضمن فيضا من الأطواء والخطوط ، وصاغ جسد المسيح اصفر حجما من العذراء ليحقق التوازن فى تكوينه ، واقام تمثاله المثلث بلا كوة داخلها أو خلفية معمارية تدعمه ، فكان تمثال العذراء الآسية بمثابة اعلان لاستقلال النحت ، كما ينفرد بأنه العمل الوحيد الذى وقعه ميكلانجلو .

وعندما طرد أهل فلورنسا أسرة مديتشى واسسوا الجمهورية عام ١٤٩٤ بزعامة الراهب سافونارولا مضوا يجسدون انتصارهم فى أعمال فنية ذات صبغة وطنية بطولية كان أحدها تمثال عملاق لدواد (**لوحة ١٢ ، أ ، ب**) قاتل الطاغية جالوت . وهو تمثال هرقلى الطابع ، هائل الضخامة يبلغ ارتفاعه حوالى ستة أمتار ، يقف عاريا ممسكا بمقلاعه منتظرا وصول جالوت عدو شعبه .

ولو اننا وقفنا عند حد تأمل **جسد داود** وحده ، لخيل الينا بتوتره وحيويته أنه ينتمى الى العهد الكلاسيكى،والى الطابع الهلينستى على وجه التحديد أكثر مما يحمل طابع القرن السادس عشر . ولكننا ما نكاد نتطلع الى راسه حتى ندرك القوى الروحية التى لم يعرفها الاقدمون ، وهى تنطق بازدراء المتع الحسية .

وقد انجز ميكلانجلو تمثال موسى ليقام فى ضريح البابا يوليوس الثانى المعروف باسم البابا الرهيب ، وكان قوى الفكر عامر النفس بخشية الله . واذا كان ميكلانجلو قد **تخيل موسى** على انه تجسيد للارادة القوية فقد أراد له فى نفس الوقت أن يكون صورة شخصية مثالية **للبابا يوليوس** الذى كان مشرعا للقوانين شأن موسى العبرى (**لوحة ١٣ أ ، ب**) . ويبدو موسى وكأنه تجسيد لقوى الطبيعة ، أو بركان بشرى موشك على ثورة غاضبة على عصيان البشر . ففى سكونه نذير عاصفة ساخطة ، وتكاد قسماته تنطق بالوصايا العشر ، وتحكى لنا قصة صعوده جبل سيناء وحديثه مع ربه . ونكاد نحس أنه قد اتخذ جلسته هذه ليحاسب البشرية من فوق منصة القضاء . ومنذ عهد قريب أبدى المثال الفرنسى اوجست رودان ملاحظة وجيهة بأنه يمكن دحرجة التمثال من فوق جبل دون أن يتهشم منه اى جزء أساسى » . **ويكشف هذا التماسك عن قدرة ميكلانجلو على تطويع الرخام الى الحد الذى يحتشد فيه بالقوى التعبيرية والجيشان المستكن فى ثنايا الاطواء والمكاسر وعضلات الذراعين المفتولة ، والعقلانية المسيطرة على ملامح الوجه ، والمزاج النارى الملتهب .**

● ● ●

وفى تماثيل ضريح مديتشى تتجلى من جديد روعة النحت التى تجلت فى تمثال موسى وتتكون كل مجموعة من مجموعتى النحت الشهيرتين من شخصية جالسة فى ثياب الحرب المدرعة داخل كوة ، مع شخصية رمزية راقدة على كل جانب من جانبى التابوت . فيعتمر لورنزودى مديتشى (لوحة ١٤) بخوذة مجسدا الرجل المفكر ، على حين يحمل جوليا نودى مديتشى عصا القيادة مجسدا رجل المآثر البطولية (لوحة ١٥) . وهكذا يمثل أحدهما حياة التأمل والآخر حياة الحركة المفعمة بالنشاط . ولم يضف ميكلانجلو على شخصيات آل مديتشى الجالسة أية ملامح ذاتية ، وهو ما اصاب أهل فلورنسا بالذهول أمام هذا المفهوم المثالى . وقد طمأنهم

فى سخرية وثقة بالنفس ثبت صدقها قائلا بأن احدا لن يذكر بعد الف عام ما كان عليه شكل الدوقين .

وعند قدمى جوليانو يرقد تمثالا الليـل والنهـار . وتمثل الليـل (لوحة ١٦) أنثى تغفو فى نعاس ثقيل . ونحن اذا أطلنا النظر فى تكوين هذه الأنثى التى تتفجر اثارة ، والتى قد تغرينا فيها الاثداء الشبقه الريانة الممتلئة ، والتى قد تخدعنا سيقانها البضة الفـارهة ، فان قدرا اكبر من التأمل سيكشف لنا عن اختباء ملامح غلمانية وراء كل هذا .

فان أفسحنا لصورة هذه الانثى مكانا فى ذاكرتنا دقائق قليلة ، ريثما نلتقى بصـور غلمان ميكلانجلو المصورين على سقف سيستينا حيث أخفى وراء فتـوة غلمانيتهم سـحرا أنثويا دفينا ، سـوف نصل فى النهاية الى اكتشـاف عالم غريب من غلمـان ميكلانجلو وفتيانه لم يعرفه بعد عالمنا الواقعى .

ويمثل **النهار** (لوحة ١٧) عملاق هرقلى الطابع مفتول العضلات يلتفت برأسه من فوق كتفه ، غير ان وجهه غائم القسمات .

فاذا انتقلنا الى تابوت لورنزو نرى الجلال مشرقا على جسـدى الراقدين بين النـوم واليقظة . ويمثل الرجل الغروب (لوحة ١٨) على حين تمثل المرأة الفجر (لوحة ١٩) وهى صنو الانثى الغافيـة التى تجسـد الليل فى ضريح جوليانو .

● ● ●

دلف ميكلانجلو من عالم النحت الى عالم التصوير مزودا بملكة اعطاء صوره القـدرة على اثارة احساس المشـاهد ، فيوهمه بانه يلمس بأعصاب كفه وأصابعه الجسـد المصور حتى لتدور أنامله مع انثناءاته واستداراته المختلفة ، وهو ما ينفـرد برنارد بيرنسـون بتسميته « القيمة اللمسية » . كما أنه اختار موضوعا لرسومه الجسد البشرى الذى كان موضوع تماثيله ، مؤمنا بانه ليس مثل الجسد البشرى العارى شىء قادر على التعبير عن نفسه ، وعن تنبيه وعينا بكل ما يطـرأ من تغيرات ، وليس مثله شىء يمكن أن ندركه نحن ، بمجرد تمثله لنا في الصورة التى يتبدى فيها فى الحياة اليومية الواقعية ، وليس مثله شىء يمكن أن يثير احساسنا بأننا جميعا نشاركه فى تجربة الحياة ، وهو ما جعل ميكلانجلو لا يرى فى عالمنا كله شيئا يستحق النحت والتصوير غير الجسد الانسانى ، ليس الانسان العادى الذى يدب فوق الارض كما تدب الآلاف ، بل جنس انسـانى خاص يتميـز بالجلال ، والطاقة ، والقدرة على التعبير والاثارة ، وقد كان ميكلانجلو نفسه انسانا متميزا ، يحيا وحيدا ، زاهدا في متع الحياة المـادية . بل أن المرأة الانثى الناعمة الجمال والدافقة الفتنة لم تجتذبه فى حياته الخاصة ، ولم تشده فى حياته الفنية الا فى عمل فنى واحد لم يلبث أن اهمله وراء ظهره ، ليقدم لنا جنسا من عالم خياله ومثله .

كان حرص ميكلانلجو على العرى فى الاجساد البشرية التى يصورها قائما على ايمانه بان الأردية تمثل عائقا فى ترجمة حركة الجسـد البشرى ، وفى اثارة احساس المشاهد بالضغوط التى يقاومها الجسد ، والمقاومة التى يبذلها ، والنبض الخفى السجين باعماقه . وما دامت الأردية تحول بيننا وبين التأثر المباشر بالطاقة التى يعيشـها الجسـد المصـور ، كان من الضرورى تصوير الجسد عاريا ، حتى يمتلك ناصية القدرة على اثاة حسنا بالحركة المتمثلة في توتر عضلاته ، وارتعاش بشرته واسترخاء وضعته ، وتميز اعضائه من ربعة الكتف الى النتوءات التى تطفو فوق جسده كله وكأنهـا

انبثاقات طاقة دفينة من جسد عملاق ... فهذه العلامات كلها توقظ فى الذهن على الفور اسم ميكلانجلو .

وقد أصبحنا الآن قادرين على أن نفهم لماذا ينبغى أن يهتم بالعرى كل فن يدور حول الجسم البشرى ، ولماذا استحوذ العرى على الفن الكلاسيكى فى مختلف أطواره ، ليس فقط بوصفه أفضل وسيلة تبعث الحياة فى الفن ، بل لكونه كذلك أكثر الموضوعات أهمية في العالم الانسانى . وكان ميكلانجلو أول فنان بعد عصر النحت الاغريقى يدرك تماما هوية العرى فى فن تصوير الشخوص ، فمن قبله كان العرى يدرس كوسيلة علمية تعين على تصوير الانسان المكسو بالثياب ، ولكنه اكتشف أهمية العرى كغاية فى نفسه ،وكهدف نهائى لفنه ، فالفن والعرى بالنسبة اليه مترادفان .

ولن نجد فى غير أعمال ميكلانجلو ـ اذا ما طرحنا جانبا روائع الفن الاغريقى ـ اشكالا تعزز احساسنابقوة أثر الصورة علينا ،وتصل حركاتها الى وجداننا مباشرة ، فتلهمه بنفس القدر من العمق .

واننا لنرى عمق ايمان ميكلانجلو بالجسد البشرى العارى كموضوع اساسي للفن التشكيلى ، فى انه حين كلف فى غمرة الحماس الذى صاحب قيام الجمهورية بفلورنسا برسم لوحة بطولية تزين القاعة الكبرى المتخذة لانعقاد مجلس المدينة الجديد ، لم يختر ميكلانجلو من معركة كاسكينا التى نشبت خلال الحرب بين بيزا وفلورنسا عام ١٣٦٤ الا لحظة غريبة هى تلك التى كان الجنود الفلورنسيون يستحمون اثناءها فى نهر الأرنو ، بينما كان التحذير ينطلق معلنا هجوم العدو .

لقد جاء اختياره لهذه الزاوية من الموضوع نتيجة ايمانه بقدرة الجسد البشرى العارى على حمل جميع الافكار والعواطف والتعبير عن مختلف الانفعالات . ولا شك أنه كان أقدر على أن يجسد أفكاره وانفعالاته في عراة النهر أكثر مما يجسدها فى حركة الجنود المتطين صهوات الجياد . ومن المؤسف أن المخطط المبدئى الكامل لهذه اللوحة بحجمها الاصلى، وهو التصميم الذى نسميه « بالكرتون » لم يترفق به الزمن اذ فقد بعد أن تحدث عنه بينفينوتو شللينى بأنه كان أعظم عمل قدمه ميكلانجلو ، وأنه يمثل بحق « أكاديمية الرسم العالمية » بل أنه يفوق فى عظمته سقف سيستينا الذى سنعرض له الآن . (لوحة ٢٠) .

●●●

ولقد أضاف ميكلانجلو مثلا أعلى للجمال مقرونا بالقوة ، ورؤيا لانسانية عظيمة كان يتوق الى رؤيتها تدب على أرضنا يوما من الأيام . فنحن لن نلتقى كثيرا بمثل هذه الفحولة والعنف وقوة التأثير،وتجسيد حلمنا بروح عظيمة تسكن جسدا جميلا ، مثلما نلتقى بالاشكال المرسومة على سقف مصلى سيستينا. لقد اتم ميكلانجلو ما بداهمازاتشيو وهو ابداع نمط انسانى مؤهل أى تأهيل ، ى يخضع الارض ويسوسها نحو التألق والحق والخير والجمال .

كان ميكلانجلو منكبا على تشييد الضريح الذى اراد **يوليوس الثانى** تشييده لنفسه ، غير أن البابا مالبث أن نحاه عن هذا العمل الذى كان قد منحه فكره وقلبه ، وكان على وشك أن يمنحه بقية عمره ، فقد كان يتضمن نحت اربعين تمثالا يفوق كل منها الحجم الطبيعى للانسان ، اكمل منها تمثال موسى الذى عرضناه منذ لحظات ، ولو انه ظل

يتابع هذا العمل الخارق رغم كل ما نعلمه عن قدرته المذهلة فى نحت الرخام الذى كان سريع الاستجابة لضربات أزميله الحاسمة ، لأمضى عشرين عاما في اتمامها .

وقد حنق الكثيرون على البابا الذى أزاح مثالا عبقريا عن النحت ، ليغرقه فى تصوير سقف مصلى سيستينا بمبنى الفاتيكان ، الا ان احدا لا يملك الا أن يعترف الآن أن هذا القرار الذى اتخذه البابا كان أقرب ما يكون الى الالهام الاسطورى . ذلك أن هذا العمل قد فجر طاقات ميكلانجلو الخبيئة ، وأتاح له التعبير عن رؤيته الباطنية للعلاقات الانسانية والمصير البشرى . وقد ترك البابا لميكلانجلو الحرية فى اختيار الموضوع الذى يصوره ،وهو استثناء لم يتمتع به أحد فى هذا العصر الذى كان الفنانون يلتزمون فيه بنصوص القصص الدينى وتعليمات القساوسة . وقد استطاع ميكلانجلو أن يعمل خياله في القصص الدينى وأن يصوں عملا يبهر مشاهديه . والذين شاهدوا تصاوير هذا السقف من نقاد الفن على مر التاريخ وقفوا مذهولين أمام هذا الموضوع الذى لعب فيه خيال ميكلانجلو دورا كبيرا بعد أن استمده من نصوص سفر التكوين ، فلم يتفقوا على تفسير واحد . غير أنهم احسوا جميعا هذه الوحدة المتوهجة المشبوبة التى ربط بها ميكلانجلو جسد الانسان بعقله وروحه . فأعجبوا بكل ماينبض به الجسد من القوة العضلية التى كانت طابع تماثيل الكوروس الاغريقية ، كما انبهروا بما يشع حوله من القوة المعنوية الدفاقة فى صور العرافات والانبياء ، وأن كان من الواضح أن ميكلانجلو قد منح الروح اهتماما يفوق مامنحه للجسد .

وليس من شك فى أن متابعة رسوم السقف تسبب عذابا كبيرا للمشاهد حين يضطر الى ثنى عنقه الى الخلف طويلا ليستكمل جوانب هذه الملحمة الهائلة ، غير انه سرعان ما ينسى هذا العذاب ليجد وجدانه وقد غاب فى هذا العالم السحرى . فما بالنا حين نذكر أن ميكلانجلو قد اضطر ، لانجاز هذه الرسوم ، أن يضطجع على ظهره طوال اربعة أعوام . وقد عبر عن هذا العقاب الذى ينوء بحمله البشر في كلمات بالغة البساطة والرقة باحدى قصائده جاء فيها ما ترجمته :

« الى السماء تشمخ لحيتى .

والى الوراء ينثنى قفاى .

مثبتا فوق عمودى الفقرى .

وترقوتى تنتصب عالية كأنها قيثارة .

وعلى وجهى ترتسم لوحة ثرية ملونة .

من قطرات الفرشاة الثخينة والدقيقة » .

●●●

هجر ميكلانجلو من ناحية المبدأ فكرة زخرفة الاسطح المستوية بتصميمات زخرفية مقتبسة من عالم الاشكال النباتية ، فحيث يتوقع المرء أن يشهد نبتة متحوية يجد مكانها اجسادا بشرية ، ولا شىء غير الاجساد البشرية . ثم ما يلبث أن يدرك الايقاع المتناغم الذى يربط بين هذه الكتل ويفصل بينها .

لقد اختار ميكلانجلو أن يروى قصصه عن طريق الاجساد العارية ـ كما مر بنا ـ ونحن ندرك من القاء اول نظرة على هذه الرسوم الفسيحة غياب الابنية ومشاهد الطبيعة الا رموزا موجزة كالشجرة الوحيدة التى تمثل الجنة ، وعشبة هنا وأخرى هناك تشير الى خصوبة الارض ، وهكذا استخدم ميكلانجلو وسائل التعبير فى ايجاز بليغ فى هذه التصاوير . وكان المزج بين ايقاع الخطوط

والايحاء بالعمق وسيلة اعانته على رواية القصص بهذا الايجاز الفريد .

ولو انا تأملنا تصميم ميكلانجلو لسقف سيستينا لوجدناه تكوينا عضويا متماسكا تسيطر عليه فكرة فلسفة وفنية موحدة ، يمزج فى ايقونوغرافيته بين اللاهوت التقليدى العبرى المسيحى والفلسفة الافلاطونية التى تشر بها ـ كما مر بنا ـ في صباه أثناء اقامته بقصر لورنزودى مديتشى ، وهى التى شكلت وجدانه فبقى الى آخر حياته مسيحيا مؤمنا بالأفلاطونية ، اى مؤمنا بوجود قوة خارقة تعلو قوة الانسان وتوجه حركته ، هى قوة الالهام .

قسم ميكلانجلو فراغ السقف الى الاشكال الهندسية الافلاطونية التى ذكرناها من قبل وهى المثلث والدائرة والمربع . (لوحة ٥) .

ثم عاد ميكلانجلو فقسم التكوين ثانية الى ثلاث مناطق تلعب فيه كثافة الضوء دورها . تغطى ادناها واشدها قتامة البنيقات الثمانى المثلثة وبنيقات الاركان الاربعة على شكل المقرنصات . وتشمل الثانية الفراغ المحصور بين البنيقات المثلثة والمنطقة الثالثة العليا المخصصة للوحات التسع الرئيسية .

وتواكب هذه التقسيمات من الناحية الرمزية مستويات الوجود الافلاطونية الثلاثة التى سبق ذكرها .

ـ **عالم الوهم والخيالات :** وقد عبر عنه ميكلانجلو بالانسان غير الملهم الذى لم يتلق الوحى بعد ، وصوره فى أدنى المستويات على البنيقات المثلثة الثمانى .

ـ **وعالم الصيرورة المادى المتغير،** وعبر عنه ميكلانجلو بأنبياء العهد القديم والعرافات الوثنيات الذين يتوسطون بين الانسان والله بحكم ملكاتهم العقلية السامية . وصوره فى المنطقة المتوسطة بين المثلثات واللوحات التسع .

ـ على حين صور فى المساحة العليا **قصة الخلق والانسان وعلاقته المباشرة بالله»** والتى تبدو لنا من خلال التقسيم المعمارى مشرفة علينا من أعلى مستوى كونى .

وبلغت مساحة السقف التى صورها ميكلانجلو حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع ، ويضم التكوين ثلاثمائة شخصية . وقد رسم ميكلانجلو المخطط المبدئى (الكرتون) على الورق أولا ثم قسمه الى أجزاء يتسع اليوم لتنفيذ أحدها وراء الآخر .

ويدل خروج ميكلانجلو عن رسوم المخطط المبدئى على أن عنصر الارتجال قد صاحبه أثناء العمل . وكانت ألوانه محددة بألوان سطح الفريسك ، وكلما تقدم العمل كان يؤثر تدرجات اللون الرمادى الذى كان يسبغ على أشكاله المصورة طابع التماثيل المنحوتة . وقد كان الشائع ايامها ان يتولى القيام بهذه الاعمال الكبرى الاستاذ بمساعدة تلامذته ، ولكن الثابت أن ميكلانجلو قد قام بتصوير السقف كله وحده ، واقتصر عمل المساعدين على التجهيزات الاولية فحسب .

واذا كان ميكلانجلو قد وقع اختياره من سفر التكوين على قصة الخلق من بدايتها حتى انتشاء نوح بالخمر . فقد شاء لنا أن نطالع هذه القصص مصورة على سقف المصلى بادئين من النهاية ، لأنه رسمها بطريقة عكسية ، فبدأ بنوح وانتهى بلوحة فصل النور عن الظلمة .

فما نكاد ندلف الى القاعة حتى يعلونا نوح بجسده المستلقى ثملا (لوحة ٢١ أ ، ب) .

وكما يصور ميكلانجلو نوحا الانسان فريسة لشهواته الجسمانية يصوره كادحا من أجل لقمة العيش ، فجعله على يسار اللوحة يحرث التربة القاحلة قوى البدن واهن الروح . كما أوقف أبناءه حوله ، دون أن يبدو عليهم الأسى لشهود عورة أبيهم ، ودون أن يتعجلوا باخفائها بالرداء كما جاء في سفر التكوين ، بل جعلهم شهود المصير المأساوى للانسان نفسه الذى ينبغى له ان يلهب ويكد ويخطو الى الشيخوخة ، وينتهى الى الموت . وتذكرنا وضعة نوع المستلقية بآلهة الانهار الرومان ، وقد مالت رأسه فى هذه اللوحة على صدره فى ارهاصة بلبغة بالنهاية المرتقبة وهى الموت .

ثم تأتى لوحة الطوفان (لوحة ٢٢) ، التى تذكرنا اشكالها بالجنود العراة المستحمين فى نهر الارنو خلال معركة كاسكينا . وتكشف لنا عن فكرة ميكلانجلو في تمثل الفراغ للايحاء بأن الشخوص وافدة صوب المشاهد من وراء الجيل متعاقبة عصية على الاحصاء ، فلايسع المرء الا التسليم بضخامة الحشد المتدفق . وترمز هذه اللوحة للمأزق الذى يسقط فيه الانسان عندما تحاصره عوامل الطبيعة القاسية التى لا يملك معها الا الاستسلام .

وتصور اللوحة الثالثة (لوحة ٢٣) نوحا وابناءه حول المذبح وهم يقدمون القرابين ويجمعون الوقود ويشعلون النار ليتنسم الله رائحة الرضا من ذبائحهم التى يضحون بها شكرا لله على نجاتهم من الطوفان .

وما تكاد المساحة المتاحة لميكلانجلو تتسع حتى تتضاعف قدراته فنراه فى لوحة خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة يبسط جناحيه محلقا الى ذرى لم يبلغها احد من قبل او من بعد (لوحة ٢٤ .) كان من قبله يصورون خطيئة الانسان بواسطة شخصين واقفين متواجهين يربط بينهما مشهد تناول التفاحة من شجرة معرفة الخير والشر التى تنتصب بينهما . لكن ميكلانجلو لا يقتنع بتقليد الاسلاف بل يبتكر تكوينا جديدا ، كما أنه لا يصور الغواية كما كانت تصور قبله عملية سلبية بل يحيلها الى فعل ايجابى يختاره الانسان بارادته . فيصور حواء فى وضعة الاسترخاء المعهودة فى التصوير الرومانى مولية ظهرها للشجرة ملتفتة لفتة عابرة نحو الحية التى لها جذع امرأة ، وتتناول التفاحة متثاقلة ، وصور آدم في الشطر الايسر من الصورة ضخم الجسم أدنى مرتبة من الانسان ، وهو يمد يده الى غصن الشجرة الممتد فوق حواء ، التى يبدو جسدها ناعما شهوانيا ، ويواكب حركة ذراعها الممدودة غصن مواز ينبثق من جذع شجرة فى الخلفية .

وكما خلق ميكلانجلو تكوينا جديدا لقصة الغواية ، فقد أعرب من خلال جسد حواء عن فكرة جديدة أيضا هى أن الكسل الانثوى المترف يوقظ الرذيلة فى أعماق الانسان .

ولا تضم جنة عدن سوى أوراق شجر قليلة ، فلم يشأ ميكلانجلو أن يجسد المكان بأسلوب مادى . ومع ذلك فهو يحتال كى يوحى بالترف والحركة بواسطة خطوط الارض والايحاء بعمق الفراغ . وكلاهما يتباين مع الارض المستوية الجرداء فى النصف الايمن من الصورة ، مجسدا شقاء آدم وحواء بعد طردهما من الجنة حين ازاحهما الى طرف الصورة الايمن ، محتفرا فجوة عميقة بينهما وبين الشجرة .

ويفسر بعض المؤرخين الثنائية التى تجمع بين الحية والملاك المنتقم في مشهد الطرد من الجنة باللوحة بأنهما تنطوى على فكرة أن الجريمة والعقاب مثل العلة والاثر ، هما مظهران توأمان للشر .

ونلاحظ اختــلاف تعبير آدم فى مشــهد الطرد عنه فى مشهد الغواية ، اذ يبدو مدركا خطيئته وان مضى فى طمأنينة وكبرياء ، محاولا أن يدفع بحركة ذراعيه حد السيف الـذى يهدده به الملاك المنتقم . على حين بدت حواء منكمشة محاولة أن تحتمى بظله وهى تسرع الخطى وقد انحنى ظهرها والتفتت بوجهها نحو الجنــة آسـية وكأنها تســترق نظـرة أخيرة .

وهكذا نرى في الشطر الايسر من الصورة مشهد الغواية والخطيئة حيث تتجلى الرغبة العمياء ، بينما نرى فى الشطر الايمن مشــهد الطرد حيث تتجلى المعرفة والندم .

وتشمل اللوحات الخمس التالية مراحل خلق الله للكون والطبيعة .

ففى لوحة خلق حواء (لوحة ٢٥) يبــدو الاله يهوه لأول مرة وهو يخلق الانثى باشارة آمرة من يده التى لا تلمس جسد حواء أو ضلع آدم كما اعتاد المصورون من قبل ، وانما يتجلى داخل اطواء عباءته وقد أمال التفكير العميق رأســه ، وحواء تنهض بطريقة تعرب بوضوح عن انها طوع أمر الله ، وتتسم ايماءة الدهشة والعجب المرتسمة عليها ــ وكأنها فى صــلاة ورعة ضارعة ــ بجمال لانهائى أودع ميكلانجلو فيه مفهومه عن الجمال الجسدى ،بينما يرقد آدم مستندا الى صخرة ، متكوما كأنه جثــة هامدة ، وقد اندفع كتفه الايسر الى الامام، وقبضت يده برخاوة على جــذع خشبى . ويساير الخط المحيط للتــل شــكل جسم آدم ويحتويه ، على حين يتوازى مع شــكل حواء واتجاهها جذع شجرة مشذب الاغصان. لقد احتشــد كل شيء فى المساحة المتاحــة وشارف الحواف حتى لم يعــد مكان للاله الخالق لكى ينتصب فيه . ونكتشف هنــا مفهوم ميكلانجلو الافلاطونى عن الخلق ، بأنه عملية عقلانية خالصة . ثم نشــهد بعد ذلك الموضوع الرئيسى في عملية الخلق وهو خلق آدم (لوحة ٢٦) ،وهو أحد الاعمال النــادرة التى تجمع بين العظمــة الفائقة والبســاطة المعجزة ،حتى بالنسبة لأولئك الذين لاينفعلون فى يسر بالاعمال الفنية . فمعناها واضــح ومؤثر من الوهلة الأولى ، ويزيد شغف المرء بها كلمــا طال تأمــله لها ، اذ نرى الجســد الانســـانى فى روعــة ليس لها مثيل سابق ، مستلقيا على الارض فى الوضعة التى اعتدنا ان نرى عليها التماثيل اليونانية لآلهة الانهار والخمر،الذين ينتمون الى الارض ولايتطلعون الى الفكاك منها .

ويتجه الاله الخالق في سحابة ســماوية تضم زمرة من الملائكة صــوب جســد آدم الخامد الملتصق بمضجعه الصخرى . ونتأمل الانســـان يمد يده حتى تكاد تلمس يد الله ، وكأن شحنة كهربائية تسرى بين أصـــابعهما . وعبر هذه الشحنة الدافقة فى هذا النموذج الطبيعى الفذ ، خلق الله النفس الانسانية . فما يكاد الاله يلمس طرف أصبع آدم الممتدة حتى تدب فيه الحياة ، فتنطلق القوى الكامنة فى جسده ، التى تتجلى ــ رغم عجــزه عن الحركة ــ فى انثناءة ساقة اليسرى ، وبروز جذعه المصور بالمواجهة وتوتر عضلات ساقه اليمنى المصورة بالمجانبة . ولكن آدم يتقبل الحيــاة على مضض وهو ما يعبــر عن ذلك التشاؤم الذى يشيعه احتقار أفلاطون للحياة الدنيوية واعتباره لها عبئا ثقيــلا وعقــوبة للانسان على نسيانه لأصله الالهى ، وانجذابه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التــأمل العقلى . ومن خلف الله وفي ظل عباءته تتراءى حواء غامضة مستخفية وكأنها ما تزال كامنة فى اعماقه ترهص بما ســوف يكابده آدم على يديها من شقاء .

• • •

وتتوالى مشاهد مراحل الخلق المبكرة فى تصاعد دافق بالحركة والحيوية .

ففى لوحة فصل اليابسة عن الماء (لوحة ٢٧) تتفجر قدرة الاله مانح البركة ، وهو يندفع من خلفية الصورة باسطا يديه فوق سطح الماء ، فنظن الى أن ميكلانجلو قد نقل الشعور بالسلام الذى ينطلق عن هذا المشهد بايماءة من الله وكأنه يبارك الكون . كما تعمد التعبير عن التضاؤل النسبى للذراع اليمنى ، وغمر التكوين المساحة التى حددها اطار الصورة تماما .

●●●

ثم نشهد الله بعد ذلك يخلق الشمس والقمر والنجوم (لوحة ٢٨) باشارات آمرة للايحاء بضرورة اخضاع هذه العناصر النارية الملتهبة بالحزم والقوة لا باللين والمباركة .

وهنا يغدو الله تجسيدا « لفكرة الخلق » نفسها شأنه شأن الأجرام السماوية ، فينطلق فى فلكه ينثر النجوم والكواكب التى تنطلق بدورها في المدار الذى يرسمه لها .

ونلمس فى هذه اللوحة بوضوح ازدياد الدينامية فى اندفاعة الاله الى الامام باسطا ذراعيه الى أن يوقف مسيرته بحيث ينحنى جذعه الى الوراء ، كى يتسنى له أن يخلق الشمس والقمر اثناء هذه الوقفة العابرة . ومع أن كلا الذراعين يومئان بحركة الخلق الا أن الذراع اليمنى تبدو أقوى تأثيرا ، ليس فقط لان الله ينظر فى اتجاهها بل لأنه قد لحقها نصيب كبير من التضاؤل النسبى .

كذلك فان المساحة التى تمثلها صورة الله اكبر من سابقتها ، حتى لا تترك موضع قدم لفراغ زائد لا ضرورة له .

والغريب في هذه اللوحة تكرار صورة الله، حيث يستدير فنراه من الخلف مندفعا وكأنه أعصار صوب عمق الصورة ، غير أن هذا التكرار تقليد فنى قديم ، فلو أنا غطينا نصف الصورة لتجلى لنا كيف أن تكرار الشكل منفلتا ، هو جزء جوهرى من الاثر الشامل للحركة المدومة .

ويبين الايجاز المتتابع فى تصوير المخلوقات، أن فكرة ميكلانجلو هى تصوير طبيعة الله الخلاقة أكثر مماهى تصوير الاشياءوالكائنات التى يخلقها .

وفى النهاية نصل الى الذروة مع لوحة فصل النور عن الظلمة (لوحة ٢٩) حيث ينبثق الوضوح من العلماء ، وتتعانق الحكمة المسيحية الداعية الى معرفة الحقيقة كطريق لتحرر النفس ، مع النصيحة الهاتفة الالهية لسقراط . « اعرف نفسك » . أن مفهوم الله قد تطور : من اتخاذ شكل الانسان فى لوحة خلق حواء ، الى التجلى في الروح الكونية فى اللوحات التالية ، ثم يستحيل فى هذه اللوحة تجريدا شائعا نابضا فى ملكوت الوجود الخالص ، بعد أن أصبح الجسد رمزا للروح واتشحت قسمات الوجه بالضبابية .

لقد تحقق الهدف الافلاطونى الجديد لاتحاد الروح من الله عن طريق التدرج من قيد البنيقات ، الى البصيرة التنبؤية للعرافات ، واخيرا صعود سلم القصص الدينى نحو ضوء المعرفة النقى ، للوصول الى نقطة الذوبان والتلاشى في حرية اللانهائية .

ومن بين كافة المحاولات التى قام بها الانسان الفانى المحدود كى يقدم صورة للطاقة المطلقة بلا حدود ، نجد هذه اللوحة اكثرها اقناعا ، وان لم تكن أشدها واقعية . ولا غرو فان الصور الفوتوغرافية الحديثة لتكوين رؤوس المذنبات النجمية تعرض نفس هذه الحركة الشبيهة بالدوامة .

لقد استطاعت تصاوير سقف مصلى سيستنيا هي والتصاوير الجدرانية لرفائيل في غرفة التوقيع بمبنى الفاتيكان أن تنقل من فكر ايطاليا في عصر النهضة أكثر مما نقلته آدابها المكتوبة . كما أنها كشفت عن عمق بصيرة ميكلانجلو وقدرته على التنبؤ بما يوحى للمشاهدين بأنه فنان كل العصور ، وربما بصفة خاصة عصر الرومانسيين ، وهذه هي الصفة التي تميزه عن منافسه العبقري رافائيل .

ونستطيع قبل مغادرة سقف المصلى أن نتمهل لحظة أمام **تصاوير الغلمان العراة** (لوحة ٣٠) لنقارنها بتمثال **الانثى الغافية** التي ترمز لليل (لوحة ١٦) وتلك التي ترمز للفجر (لوحة ١٩) والتي رجوت استضافتهما في الذاكرة عدة دقائق ، ولنتأمل جيدا هؤلاء الغلمان الذين يمتلكون من السحر والفتنة والاثارة ما يستطيعون به منافسة جميلات الفتيات ، ليس في بشرتهم المصقولة ، ولا في رقة الملامح ، ولا استدارات المناكب ورشاقة السيقان ، ولا في انبثاق الاثداء وانسدال الشعور ، بل كذلك في التثني والتأود في الوضعة المثيرة واللفتة الداعية ، المترددة الحائرة بين الجسارة والحياء .

في أي عالم رأى ميكلانجلو ذلك الجنس البشري الغريب ؟ لا شك أنه جنس ابتدعه هو بخياله . ولعل لوحة يوم الحساب (لوحة ٣١) هي أشهر تصاوير روما الجدارية ، وهي بلا شك أكبرها حجما ، اذ تغطي مساحة قدرها ستة عشر مترا في اثني عشر مترا . وقد توزعت رسومها على ثلاثة أقسام وفق التثليث الافلاطوني : تسود في أعلاها مملكة السماء يتوسطها المسيح في جلاله على عرش السحب بوصفه قاضيا والعذراء الى جواره . ومن حوله حلقة من الرسل وآباء الجنس البشري المذكورين في التوراة تحيط بهم حلقة أخرى من الانبياء والشهداء والنساء العبريات والقديسات العذارى والعرافات الوثنيات .

ويشرف من احدى الكوتين العاليتين جماعة من الملائكة يحملون صليب المسيح ، ومن الكوة الثانية جماعة أخرى يحملون العمود الذي عذب عليه . وتبدو الملائكة بلا أجنحة ؛ والقديسون بلا هالات في أجساد عملاقة ، تتحرك محتدمة كأوراق الشجر الصخابة في أتون العاصفة .

ويعج القسم الاوسط بحشود البشر ، بعد الفراغ من الحساب ، حيث يرقى الطائعون الى الجنة ، بينما يتهاوى العصاة في الجحيم (لوحة ٣٢) ، ورسل الرب تنفخ في الصور ، بينما يحمل ملاك صغير كتاب الحسنات الدقيق ، وينوء ملاكان قويان بحمل كتاب السيئات البالغ الثقل والضخامة .

ويحتجز ميكلانجلو القسم الاسفل لصورة الجحيم اليوناني (لوحة ٣٣) كاشفا بذلك المنبع الثاني لفكر ميكلانجلو الذي شكلته المسيحية الافلاطونية ، حيث يبسط خارون مملكته في العالم السفلي حول نهر ستيكس الى اليمين ، وحيث تحتشد زبانيته وزبائنه . على حين يتدافع الى اليسار الموتى مبعوثين من قبورهم يوم القيامة والذين يتطلع اليهم المسيح في جلاله لحظة وصولهم الى الجحيم ، شاهرا يده اليمنى في حركة تلقى الرعب وهو يصدر حكمة عليهم بالهلاك ، مشيرا بيمناه الى الطائعين ليشهدوا جرح جنبه الدامي (لوحة ٣٤) .

لقد بعثت هذه اللوحة انتفاضة هائلة في فن التصوير ، وخلفت أسلوبا جديدا مثله الاعلى :

- كونية الفضاء اللانهائي .

ـ والانفلات عن أسار الزمان والمكان .

ـ وتحريك الوجدان البشرى باثارة الشفقة والرثاء .

على ان هذه اللوحة التى أحدثت هـذا التأثير الهائل على المصورين المعاصرين قـد أثارت عداء محموما من جانب رجال الـدين والفكر الذين كانوا يقاومون حركة الاصلاح الدينى . وهكذا امتدت أيدى التزمت لتغطى معظم الاشكال العارية فى لوحة يوم الحساب .

● ● ●

فاذا تركنا عالم النحت والتصوير والعمارة ودلفنا الى عالم الشـعر وجدنا الباب مفتوحا الى اعماق ميكلانجلو ، فليس غـير الشـعر ساحرا يزيح بعصاه الستر .

وكان ميكلانجلو واحدا من اعظم اربعـة أو خمسـة شـعراء ايطـاليين فى عصره ، واذا كان أشدهم صدقا فقد كان اقلهم شأنا من ناحية الصنعة الشـعرية ، فكان تعبيره الشعرى من أكثر الاشـعار الغنائية الايطالية تركيزا وغموضـا ، حتى كان بعض ناشرى شـعره يتبعون كل قصـيدة بشرح هـو في حقيقته ترجمة نثرية بالايطالية الحديثة .

وليس يعنى هـذا ان لغته نفسها كانت عسيرة بالنسـبة للقـارىء العصرى ، ولكنه الفكر وراءها الذى يبدو ساطعا وخفيا فى آن معا . والواقع أن شعر ميكلانجلو هو شـعر ذاتى بحت . واغلب الظن انه لم ينظم قط قصيدة دون أن يكون واقعا تحت تأثير انفعال ما ، فلم يكن ينظم الا مدفوعا بحاجة قوية ، او ممزقا بعذاب ، أو محاصرا بعاطفة وتكشف مخطوطاته التى خلفها عن تلقائية الهاماته . فقد كانت كثرتها مسجلة على طرف رسم أو عجالة تخطيطيـة ، أو على خطاب أو ظهـر فاتورة حساب ، مما يجعلنا نرى بوضوح أنه كان يسجل خواطره ـ أو على الاقل مسودتها ـ على أول ورقة تقع بين يديه .

وتحمل أشعار ميكلانجلو التى تبلغ حوالى المائتين وخمسـين قصـيدة طابع التكثيف لانفعالاته ، بلا تكلف او اسـهاب مصطنع أو بلاغية لفظية ، فالشعر هو مملكة ميكلانجلو الخاصة . ولم يكن يكتب أشـعاره للعـامة بل لنفسه هو ، أو لانسان بذاته . ومن ثم كان ديوانه الشعرى اشبه بيوميات لعواطفه، ومرآة لقلبه ، وسيرة ذاتية عاطفية وروحية .

وفى عصر كان كل عمل فنى خاضعا للتقاليد أكثر مما هو الحال الآن ، كان على ميكلانجلو رغم تفوقه على غـيره فى التعبير عن نفسـه الحقيقة ، ورغم أن ممارسته للشعر قد بقيت فى اطار الهواية بعيدا عن الاحتـراف ، أن يلتزم بالتقاليد الفنية التى لا يستقيم الشكل الشعرى من غيرها ، ودون أن يكون مع ذلك مؤمنا بها ، وذلك ماهوى بصنعته الشعرية عن مستوى رفاق فنه .

كان عالم الشـعر ملاذ ميكلانجلو ، يفزع الى خلوته كلما أججت انفعالاته عذاب القلق فى أعماقه . وما أكثر ماكان يهرب الى الشعر . فما كانت حياته الا قطعة متصـلة من العذاب الداخلى العاصف الذى يتضاءل أمامه كل حزن عابر . وكان احتدام مشاعره يشـده الى عزلة موحشـة ، يرفض داخل أسوارها رؤية الاصدقاء ، ويعسر عليـه أن يعيش فى سـلام حتى مع نفسه ؛ لكنها كانت تتيح له اشباع حاجته الى التأمل والتركيز الهـائل لانجاز اعماله الابداعية . ومع ذلك فكم كان رقيق المشاعر مع بسطاء الناس ، عطوفا حانيا على الفنانين الناشئين ، كلما عرف الانفلات لحظات خارج أسوار العزلة .

حتى الانثى لم تعرف طريقها الى خلوته ، فعاش دون أن يتخذ زوجة أو خليلة مع أن صداقته بمساعديه ونماذجه كانت تفوق في عنفها وصدقها أعمق العلاقات البشرية .

وليست نظرته للحب بعيدة عن النظرة الافلاطونية : فالجمال البشرى يوقظ فى النفس أصالتها الالهية ، ويرتقى بها الى عالم الآلهة أن هى انسلخت من الانجذاب الجسدى وهامت بالروح . وهكذا أحب ميكلانجلو صديق عمره تومازو كافاليرى النموذج الذى التقى فيه جمال الروح بجمال الجسد ، فخلد صداقتهما فى قصائد من شعر اخاذ ، ترجمته هو وغيره عن الفرنسية لا الايطالية :

« بلا روية انطلقت اليك .

ظننتنى على شاطىء جدول نحيل .

أعبره دون ان يبلل ماؤه ما فوق قدمى .

لكن .. ها أنذا مذ خلفت الشاطىء .

محاصرا وسط خضم محيط هائل .

تشمخ أمواجه من كل جانب .

آه لو كنت مستطيعا العودة للشط .

لهرولت سريعا .

لكنى مادمت بلغت مكانى .

فلأ صنع من قلبي صخرة .

واخوض بها اليم .

واسمك فى روحى وكيانى .

يملؤنى ريا وعذوبة .

تجعلنى لا أعبأ بالضجر .

ولا أخشى الموت .

حتى اذا ما أطلت المرأة على أفق حياته اقبلت فى ثياب سيدة مترهبة تعيش في دير القديس سلفستر بروما تحمل أربعين عاما من الثقافة الرفيعة والورع والفضيلة ، وتمنحه اهم ما كان فى حاجة اليه : حنان الامومة الذى لم ينعم به لوفاة والدته فى طفولته ، وطمأنينة النفس التى كان يطاردها شعوره بالاثم وخوفه من عذاب النار . بينما كانت **فيتوريا كولونا** تبشر بعقيدة جديدة تجعل من الايمان وحده مخلصا من كل الآثام .

وهكذا وجد ميكلانجلو اخيرا المرأة الصديق والمرأة العزاء ، والمرأة الطمانينة ، والمرأة الخلاص .

وأيقظت فيتوريا المسيحية ، فى أعماق ميكلانجلو ، فاشتعل بحماس خلاق ، وعكف على انجاز أعمال فنية دينية تمثل فكرة الخلاص بواسطة السيد المسيح ، كانت قمتها لوحة يوم الحساب التى واكب تنفيذها هذه العلاقة المتسامية .

وحين ماتت فيتوريا بعد ان اضاءت حياة ميكلانجلو عشرة أعوام بكى العملاق كطفل رضيع فقد الى الابد أمه ، والتفت التشاؤم ثانية حول وجدانه ، وصبغ شعره بالأسى وتوقع الموت وراح يقول : ــ

« اثق أن الفناء مقبل

لكنى لا أعلم موعد اقدامه

العمر قصير

لم يبق لى منه سوى القليل

الحياة الدنيا تستهوى حواسى

بينما تستحثنى روحى للقاء الموت .

العالم ضرير شرير

يعصف بالاشياء بضربات علوية

النور انطفأ

فولى معه كل أمان .

ينتصر الزيف

ويستخفى الحق

وا أسفاه .. ورباه ، متى يتحقق أمل المؤمن بك ؟

وطول الانتظار يفتك بالآمال

ويترك الروح فريسة للموت .

ما قيمة النور الغامر .. الذى تعد به

مادام الموت سيقبل بغتة .

ويقبع المرء أمامه بلا حول ولا قوة

ثم يخلفنا دون حراك

فى نفس الوضع الذى يلقانا فيه » .

● ● ●

ومع احساس ميكلانجلو بأقتراب الموت دب فيه التخاذل فلم يعد يكمل رسومه أو تماثيله، وأخذ يشوه نسب الجسم التشريحية عامدا ، ففتح الابواب على سعتها أمام المدرسة المتكلفة « مانريزم » ثم لطراز الباروك .

كتب الى فاسارى مؤرخ فنانى عصر النهضة عام ١٥٥٩ قبل وفاته بخمسة أعوام: « **ليس ثمة فكرة في أعماقى لم يتسرب اليها الموت** » ، واصر على قضاء بقية أيامه فى خدمة بلاط البابا بروما لعله يظفر بالخلاص .

وانتقل العبقرى العملاق الى عالم الخلود، وبقيت تماثيل باكخوس وداود وموسى والعذراء الآسية ، وتصاوير سقف مصلى سيستينا ولوحة يوم الحساب لتذكر الاحياء بأن رجلا فذا قد شارك بازميله وفرشاته في صنع عصر كامل هو عصر النهضة الايطالية ، وفى دفع البشرية خطوة حاسمة على طريق التقدم. **كان اسمه وسيبقى ميكلانجلو ... أو الملاك ميكائيل .**

★ ★ ★

المراجع

— Bottari, Steffano — Michelangel. La Cappella Sistina. Eratelli Fabri — Albert Skire 1968.

— Berenson, Bernard — Italian Painters of the Renaissance vol. 2. Florentino and Central Italian Schools. Phaidon, London. New York, 1968.

— Clar , Keneth — Civilisation, a personal view. British Broadcasting Corporation and John Murray 1969.

— Forlani, Anna — Michelangelo. Fratelli Fabri Editori 1963.

— Fleming, William — Arts and Ideas, Holt, Rinehart and Winston New York 1961.

— Goldscheider, Ludwig — Michelangelo. Complete edition. Phaidon 1959.

— Huygho, René — l'Art et l'Ame. Flammarion 1960.

— Pope Hennesy, J. — Italian High Renaissance and Baroque Sculpture, 1963.

— Revel, Jean - Francois — Michel-Ange: Le Secret d'un coeur révélé par les Sonnets. Collection Génies et Realités. Paris Hachette 1961.

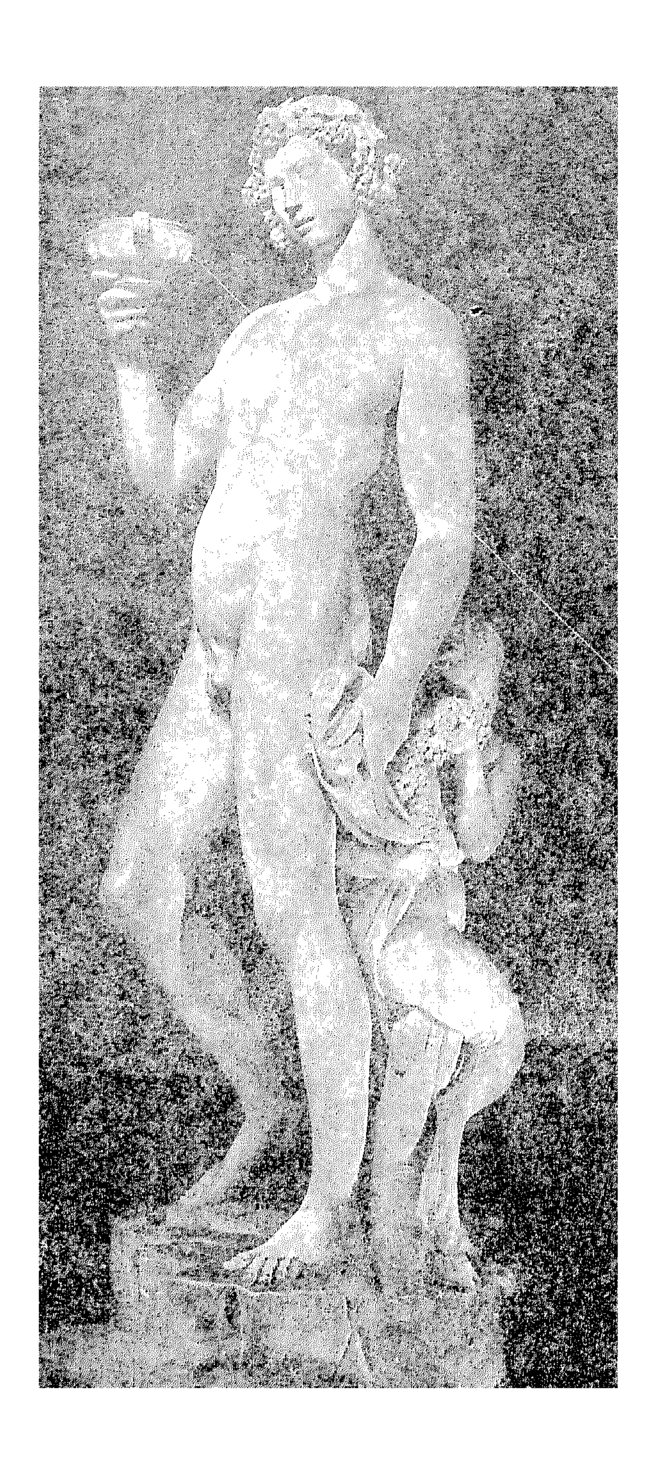
— Redig de Campos D. — Michelangelo . . . Cappela Paoline in Vatican. Collezione Silvana Milano 1956.

— Vasari, Giorgio — Life of Michelangelo Buonarroti, The Folio Society. London 1970.

— Wolfflin, Heinrich — Classic Art. An Introduction to the Italian Renaissance, Phaidon. London, New York 1968.

ـ العهد القديم من الكتاب المقدس .

* * *



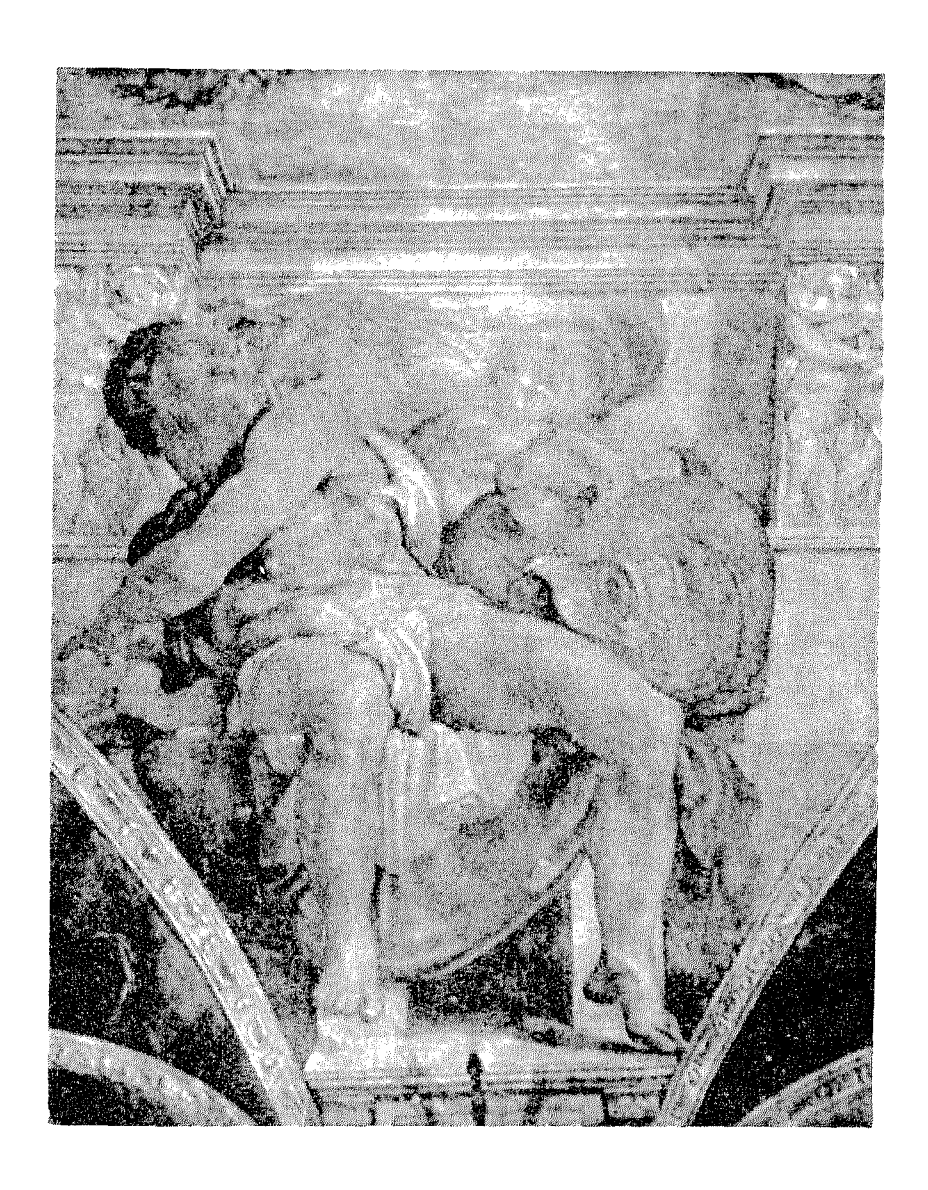
(لوحة ١) باكخوس



(لوحة ٢) العذراء الآسية (بيتا) الفاتيكان



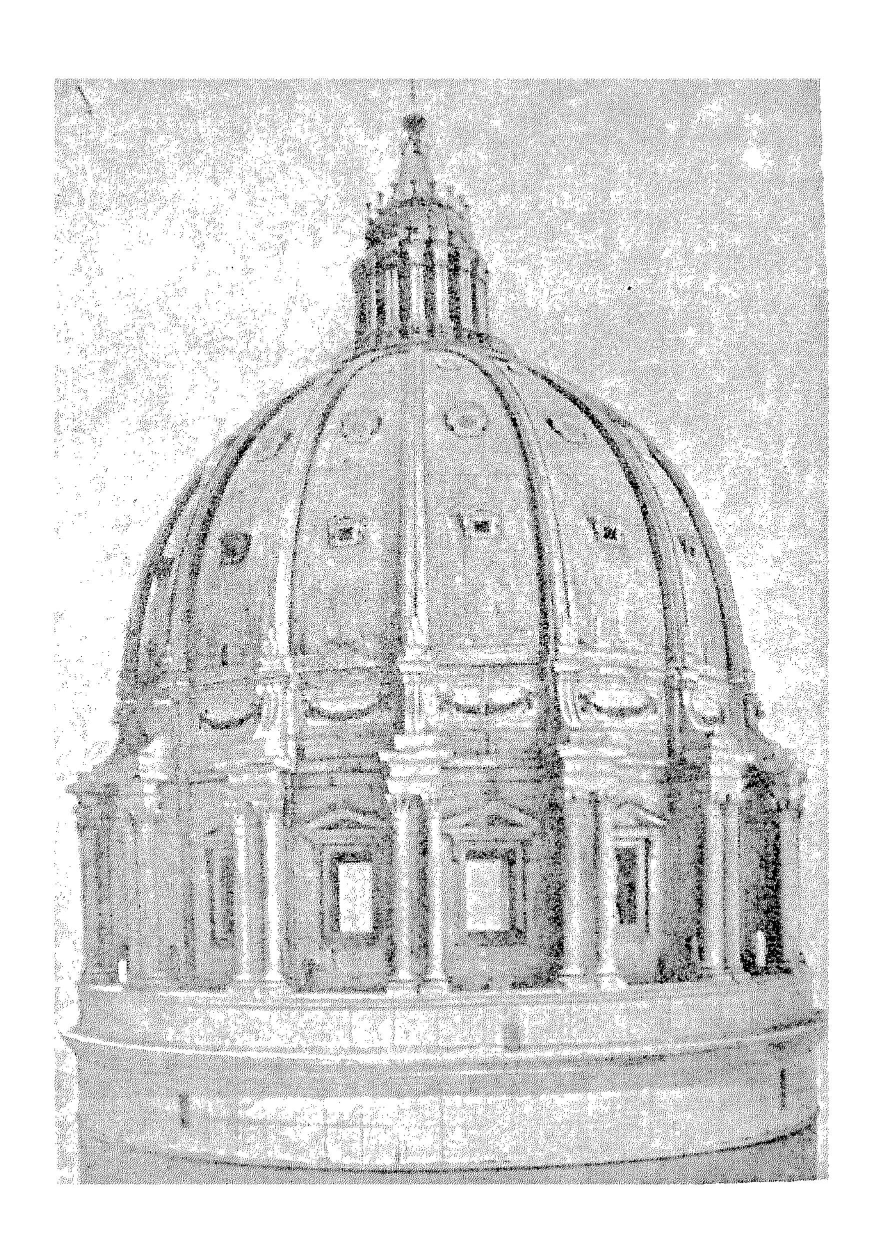
(لوحة ٣) سقف مصلى سيستينا عرافة كوماى



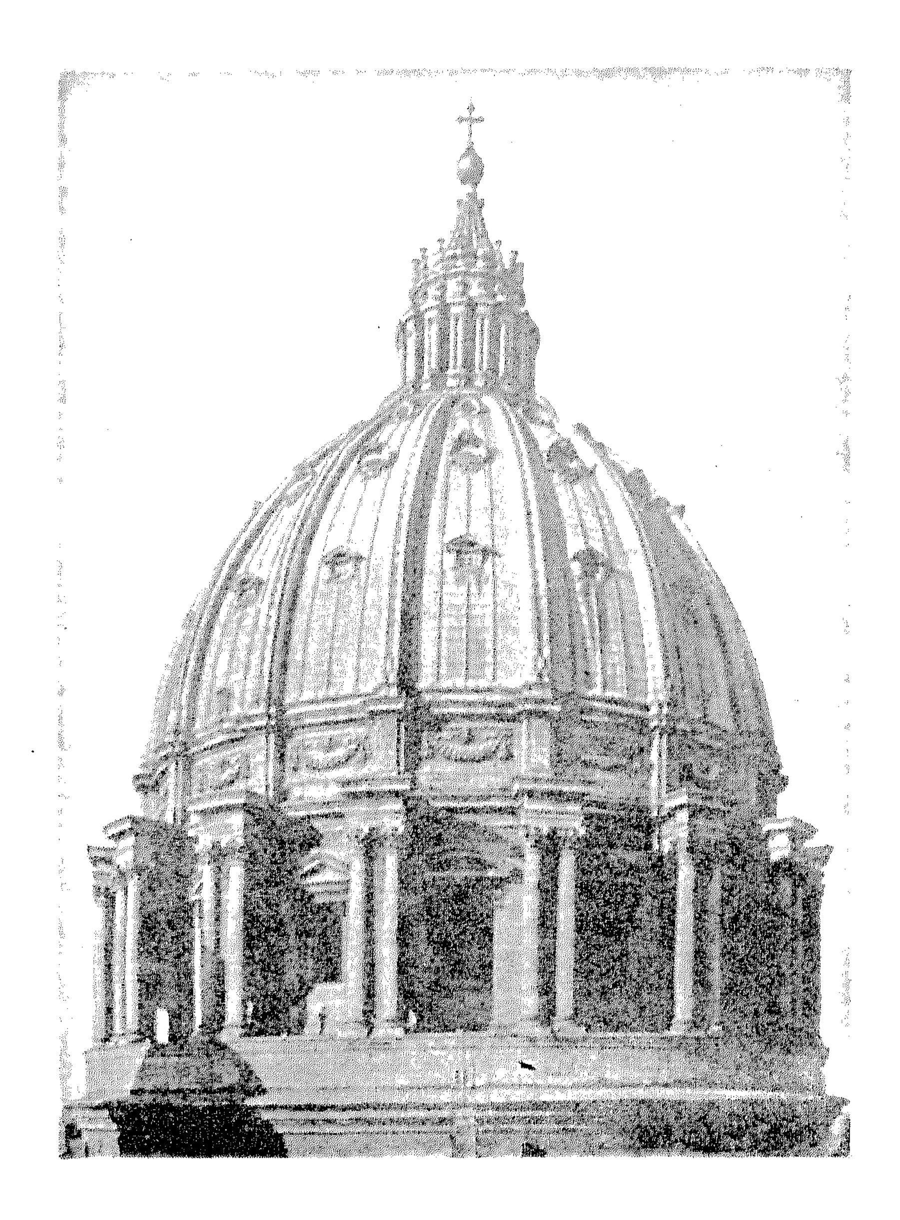
(لوحة ٤) سقف مصلى سيستينا النبي يونس والحوت



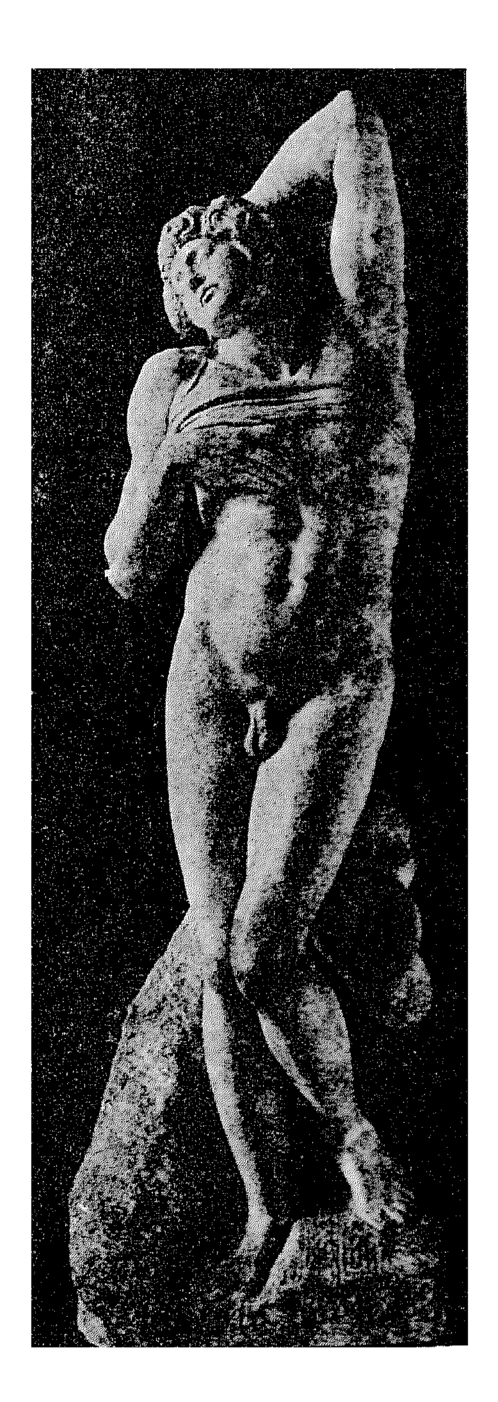
(لوحة ٥) سقف مصلى سيستينا



(لوحة ١٦أ) نموذج خشبي لقبة كنيسة القديس بطرس بروما



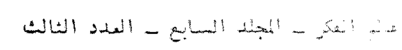
(لوحة ٦ب) قبة كنيسة القديس بطرس بعد الانتهاء منهـا



(لوحة ٧) العبد المغلول ـ متحف اللوفر



(لوحة ٨) العبد المتمرد ـ متحف اللوفر

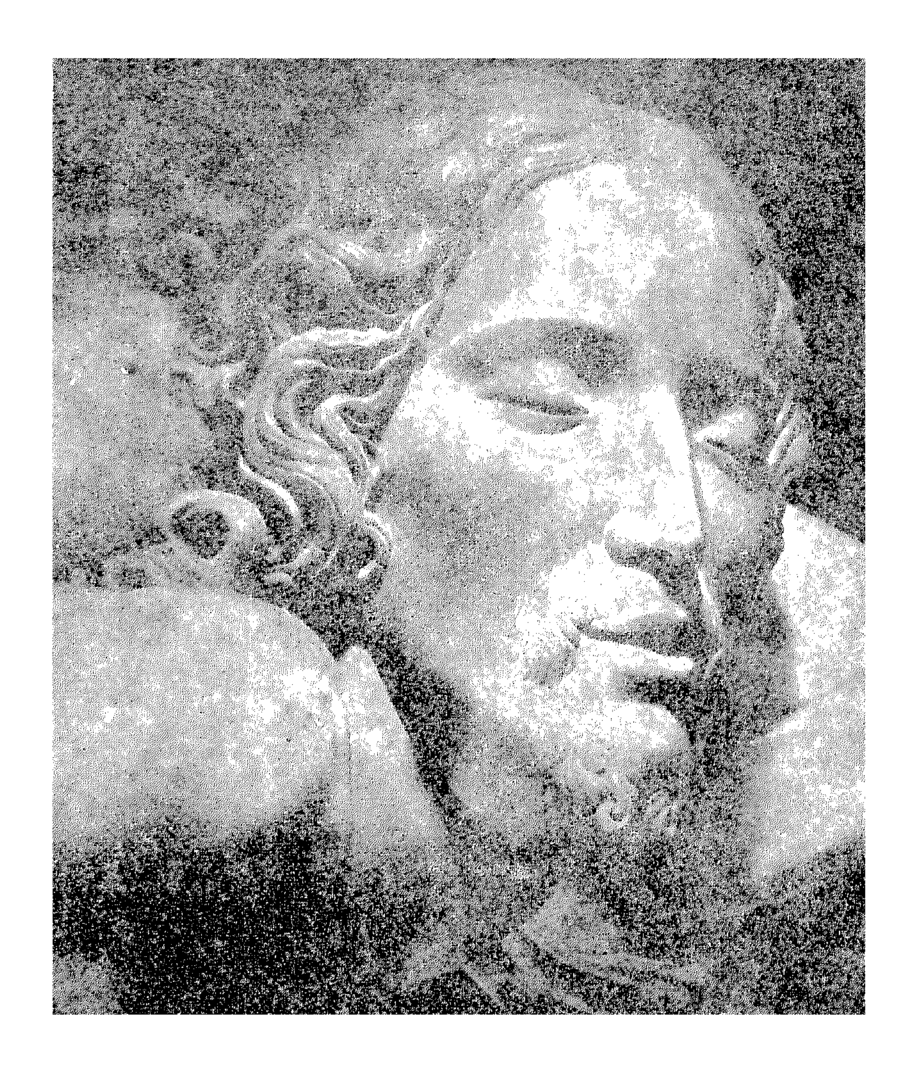




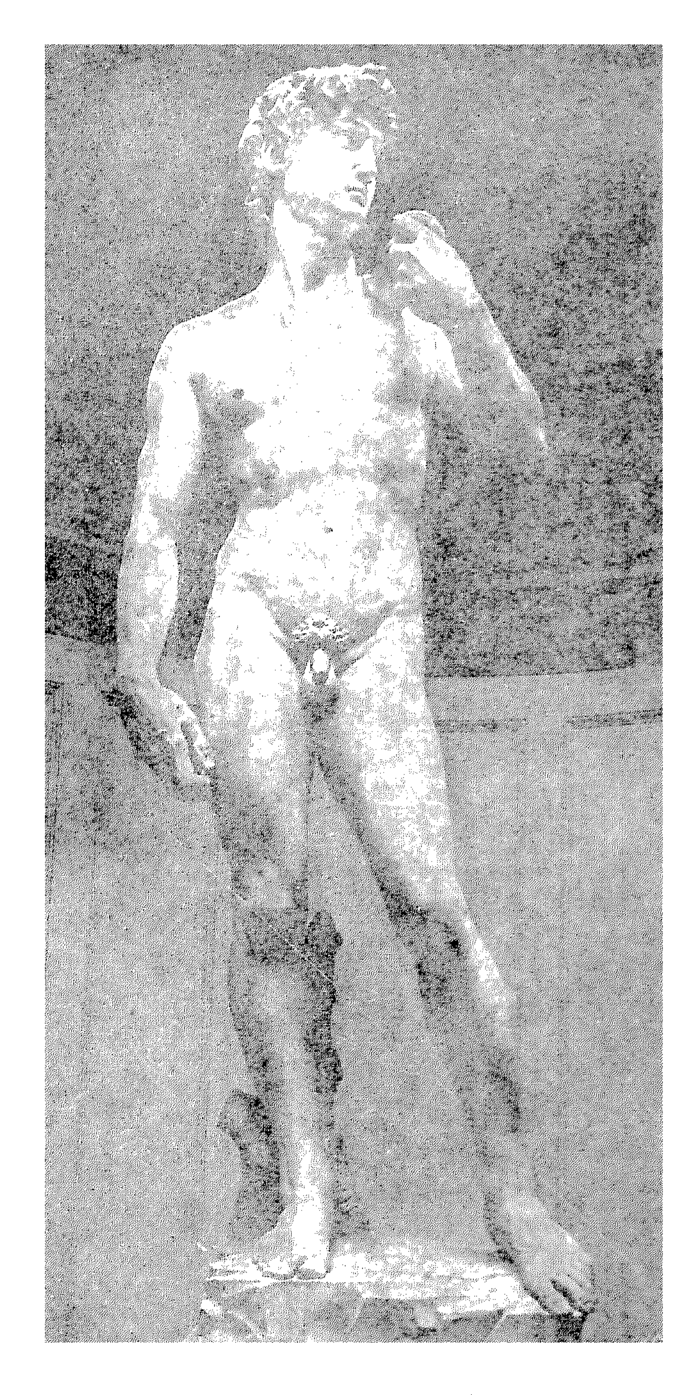
(لوحة ٩) أسير بوبولى



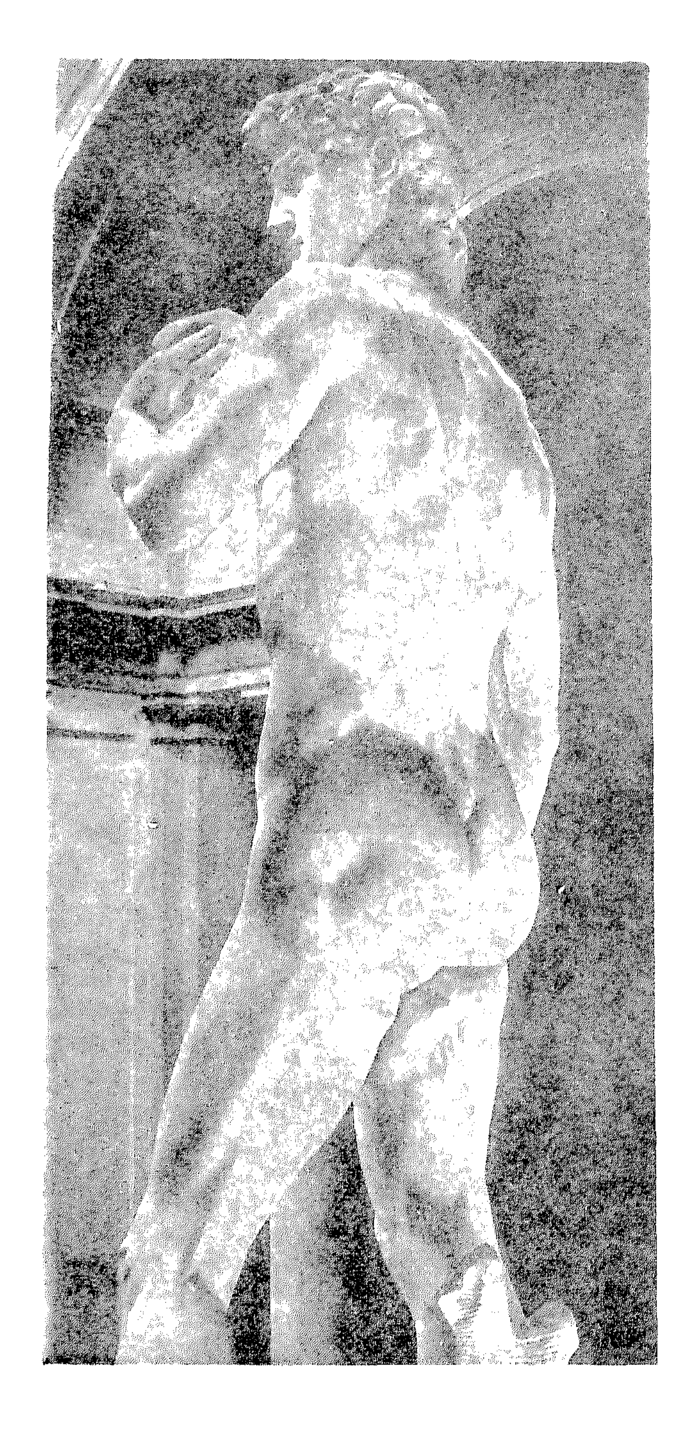
(لوحة ١٠) أسير بوبولى الملتحي



(لوحة ١١) العذراء الآسية «تفصيل» وجه المسيح



لوحة (١٢ أ) داود



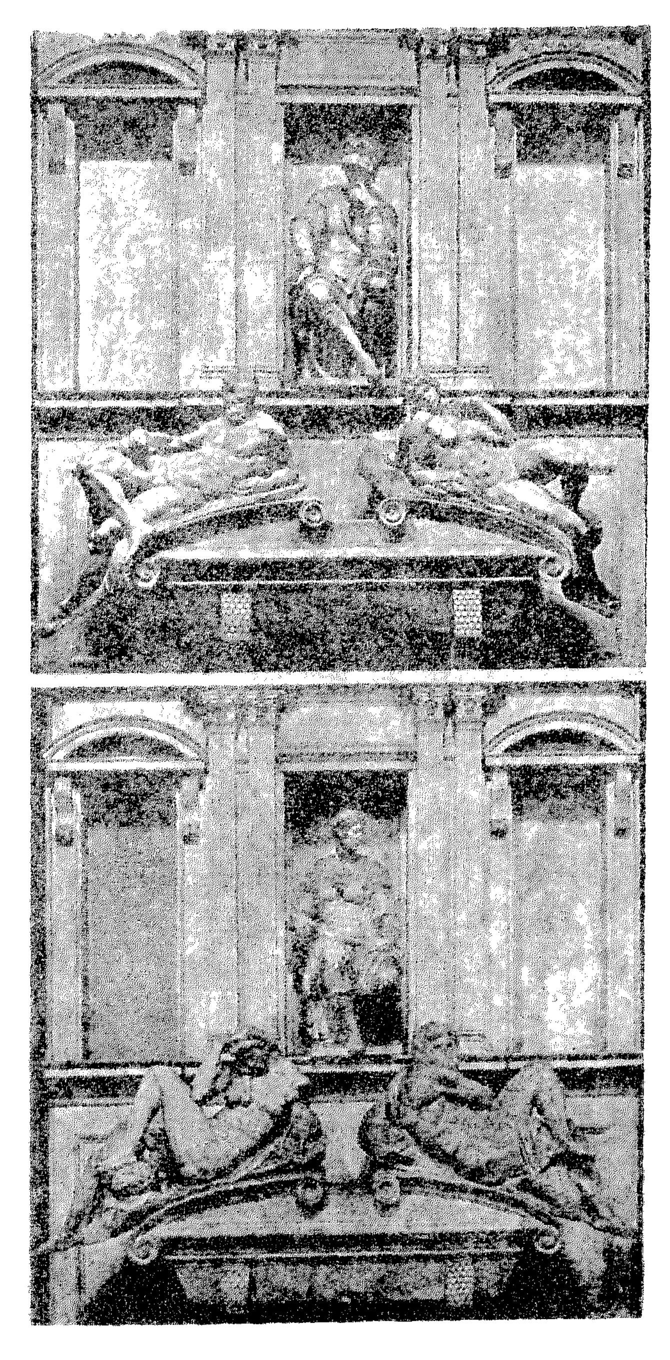
(لوحة ١٢ ب) داود



(لوحة ١٢ أ) موسى



(لوحة ١٣ ب) موسى ــ تفصيل اليد اليمنى واللحية

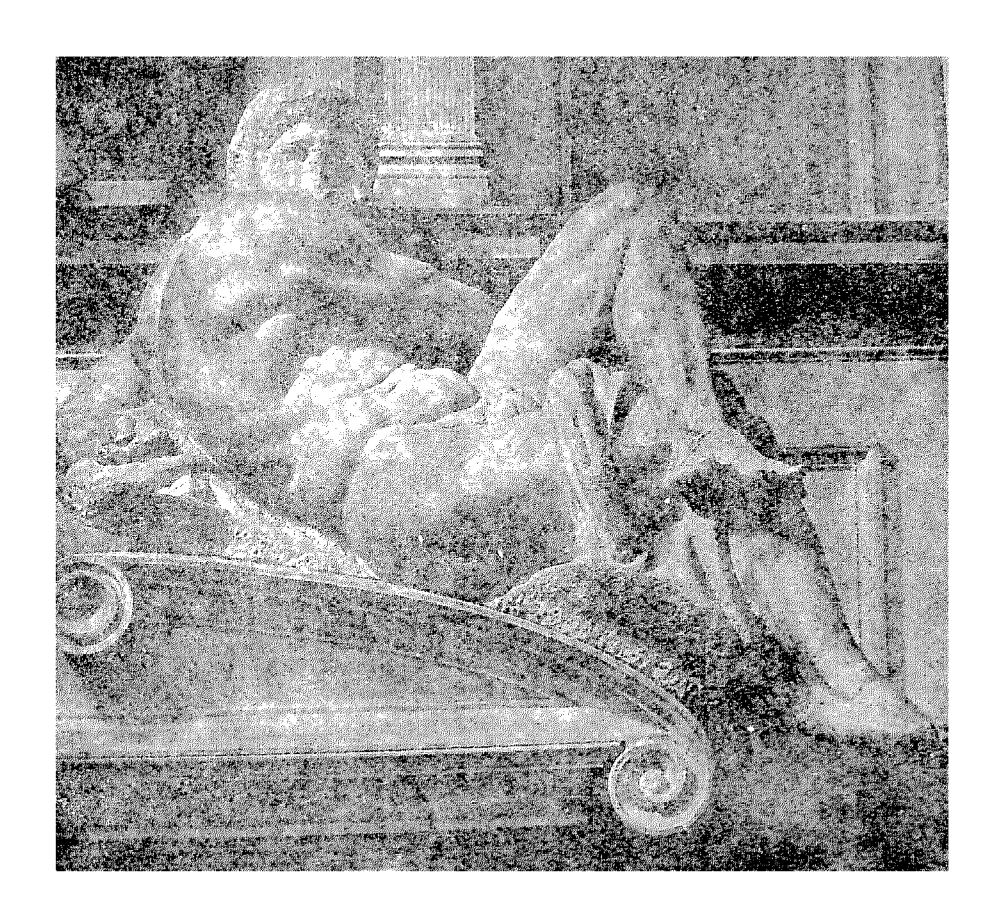


(لوحة ١٤) ضريح لورنزو

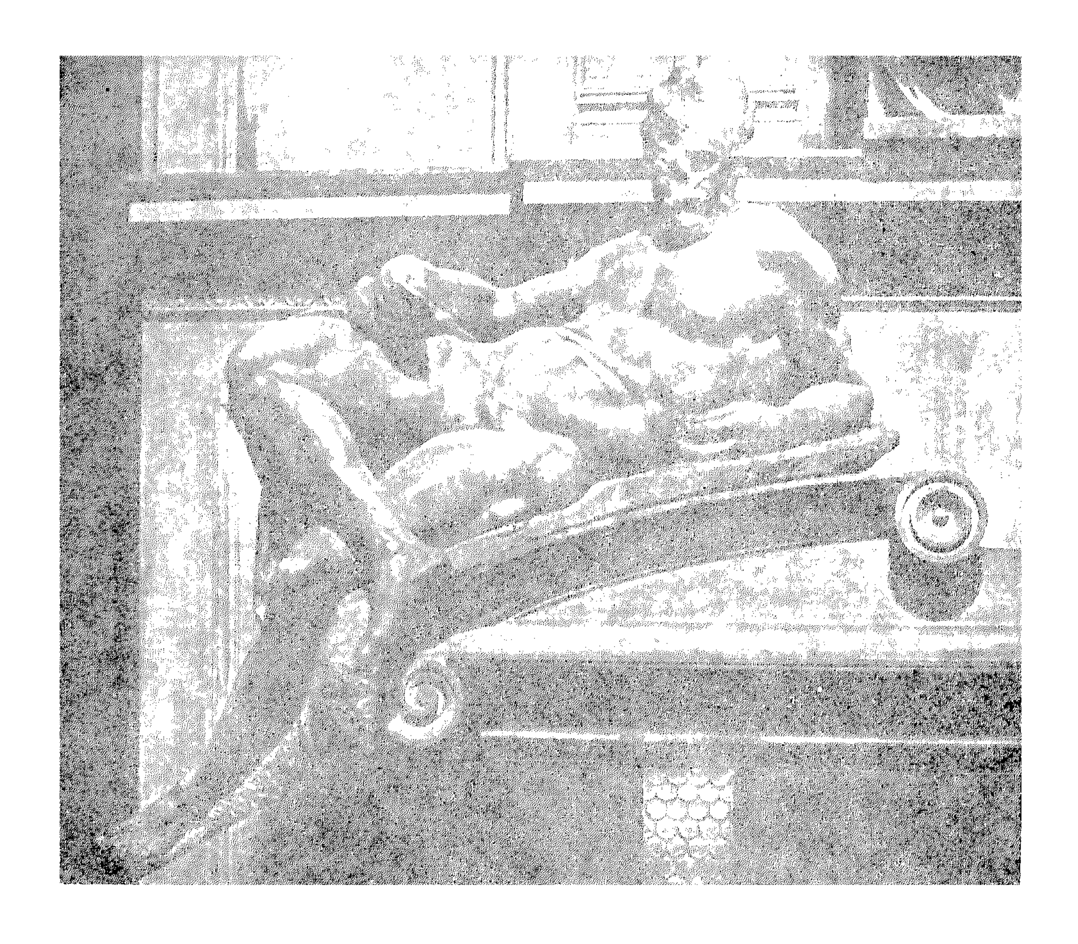
(لوحة ١٥) ضريح چوليانو



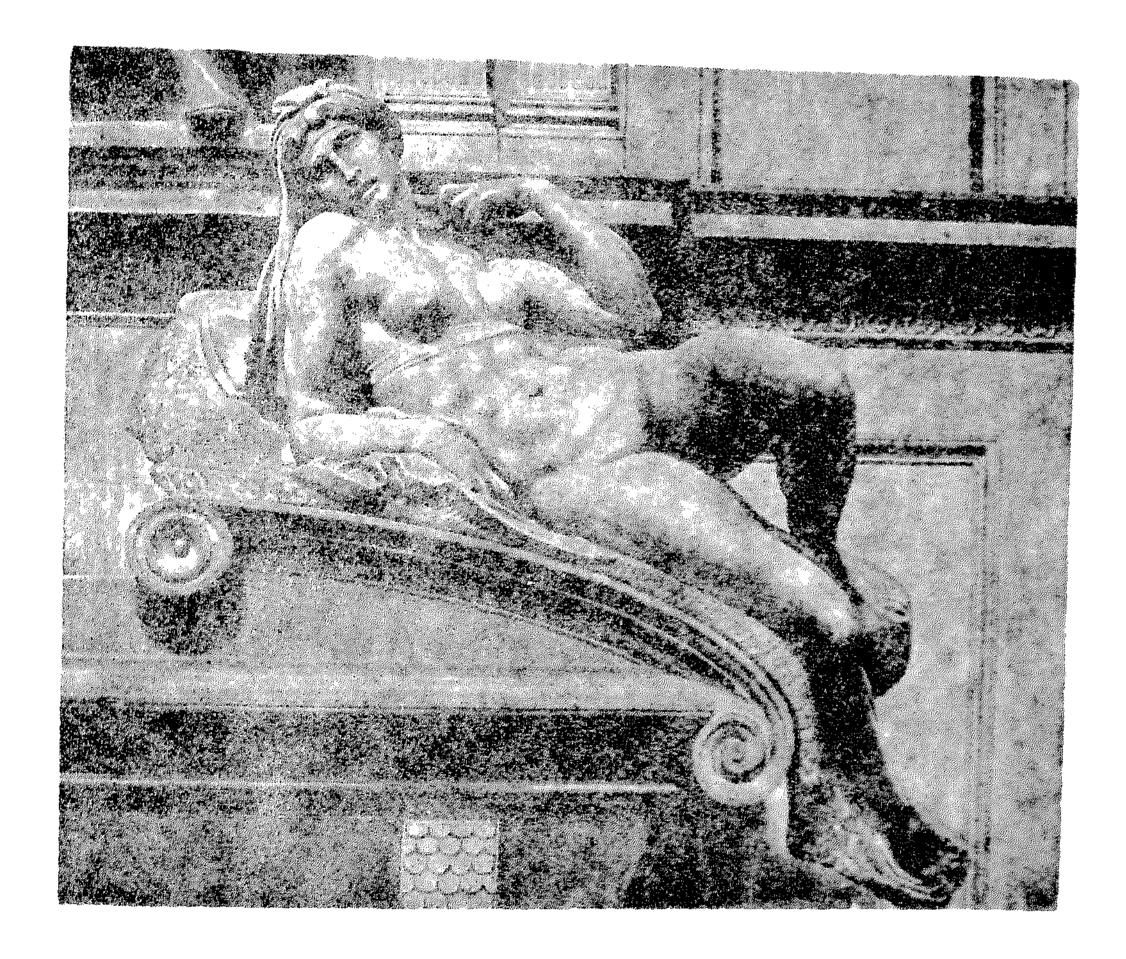
(لوحة ١٦) جوليانو ـ الليل



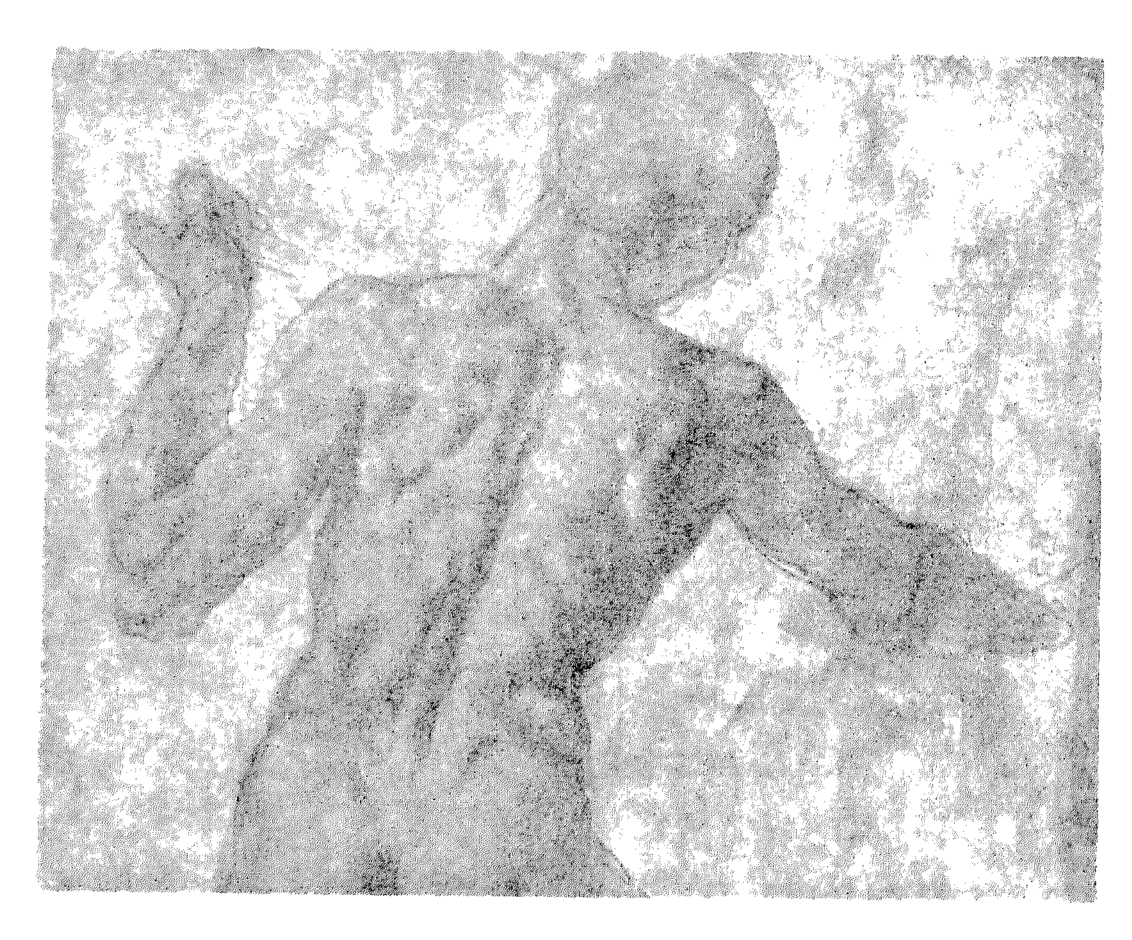
(لوحة ١٧) ضريح جوليانو ــ النهار



(لوحة ١٨) ضريح لورنزو – الغروب



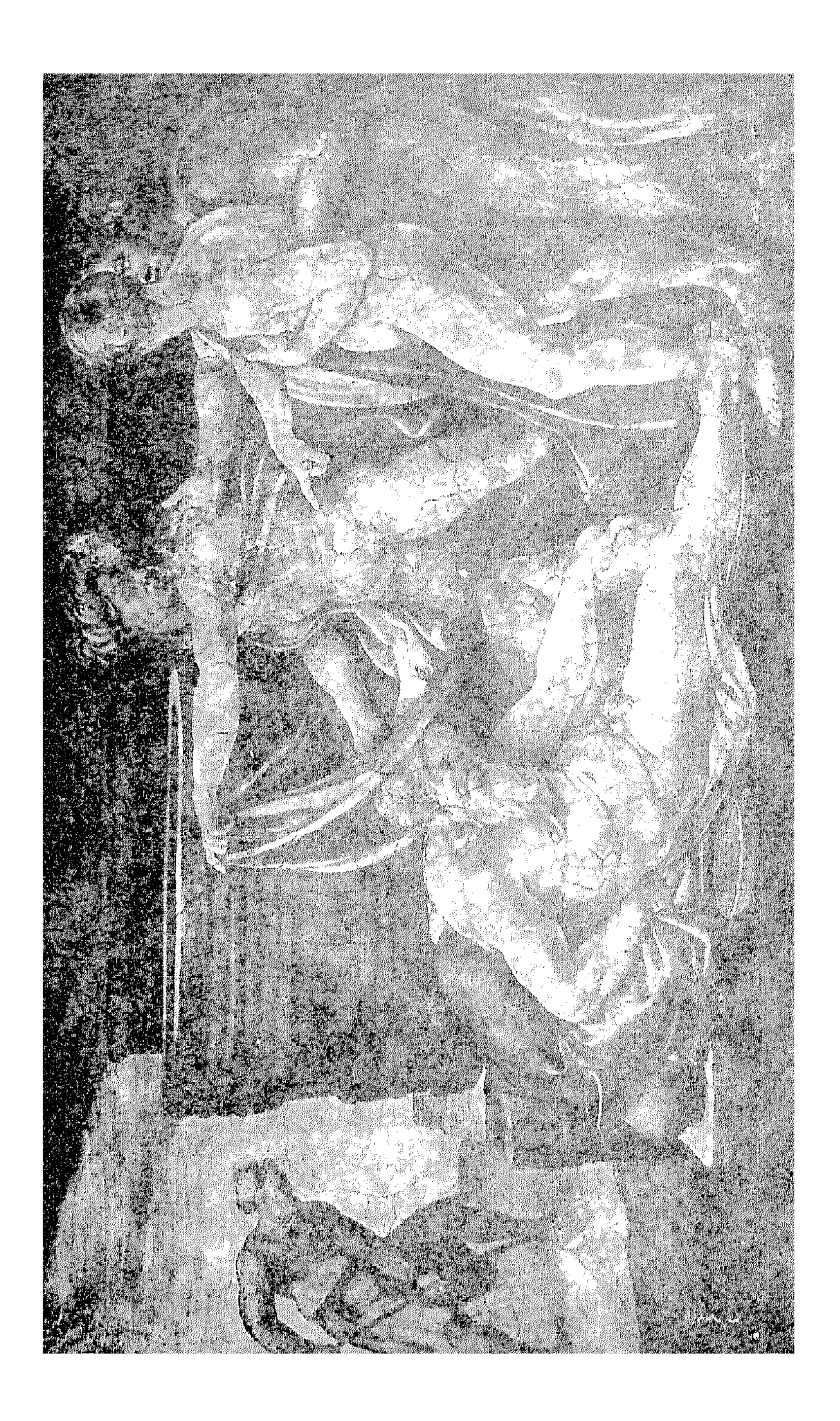
(لوحة ١٩) ضريح لورنزو ـ الفجر



(لوحة ٢٠) دراسة لمعركة كاسكينا



(لوحة ٢١ أ) سقف مصلى سيستينا ـ نوح ثملا



(لوحة ٢١ ب) سقف سيستينا – نوح ثملا





لوحة (٢٢) سقف مصلى سيستينا – الطوفان



(لوحة ١٢) سقف مصلى سيستينا – نوح وأبناؤه يقدمون القرابين



(لوحة ٢٤) سقف مصلى سيستينا – خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة



لوحة ٢٥) سقف مصلى سيستينا – خلق حوّاء



(لوحة ٢٦) سقف مصلى سيستينا ـ خلق آدم



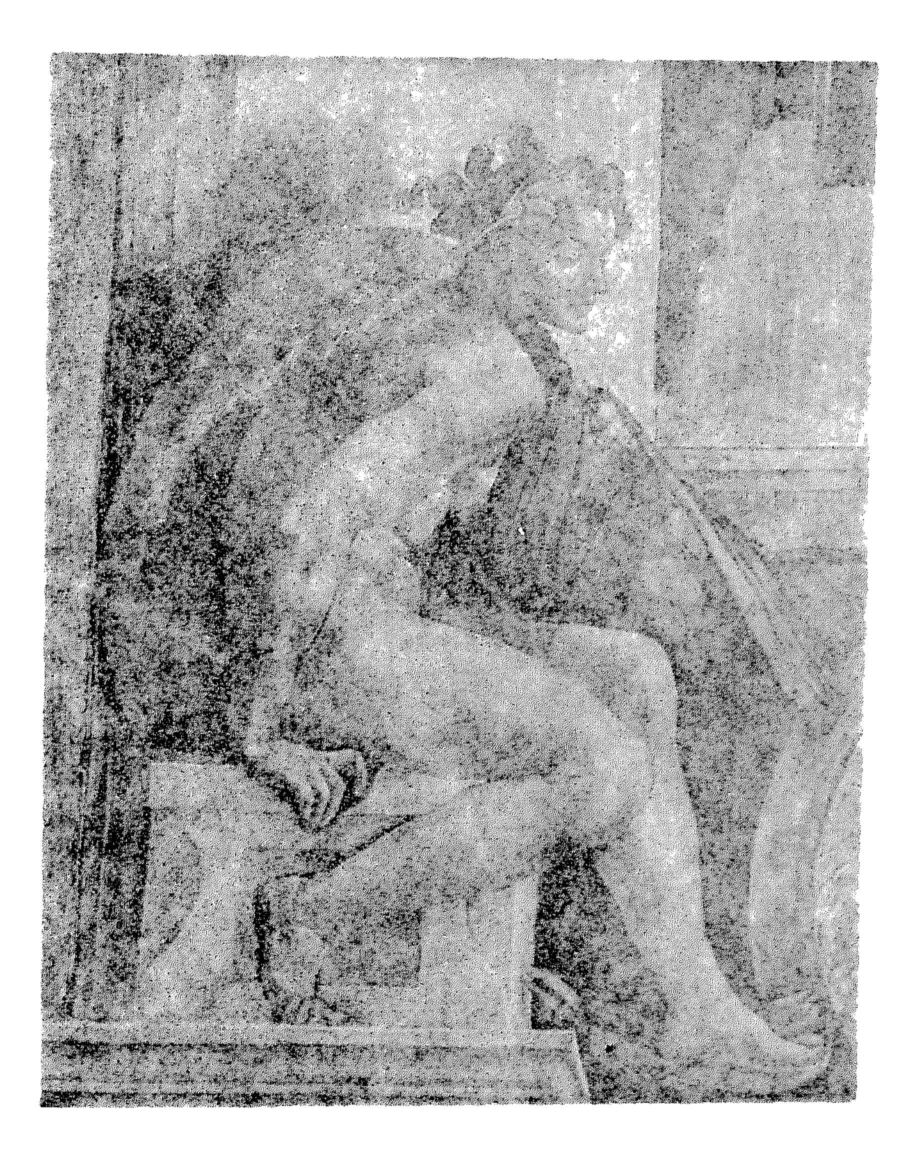
(لوحة ٢٧) سقف مصلى سيستينا فصل اليابسة عن الماء



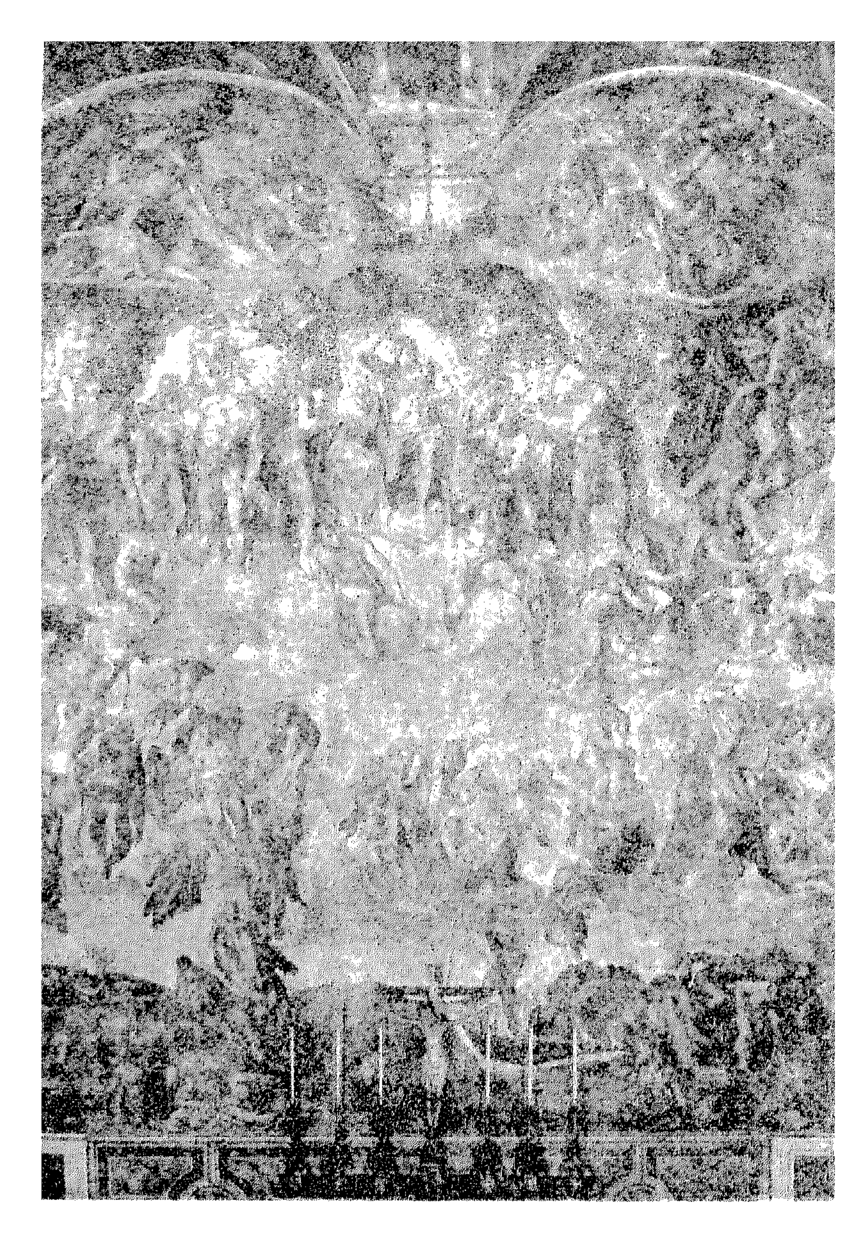
(لوحة ٢٨) سقف مصلى سيستينا – خلق الشمس والقمر والنجوم



(لوحة ٣٩) سقف مصلى سيستينا ـ مشهد فصل النور عن الظلمة



(لوحة ٢٠) سقف مصلى سيستينا غلام عار (انيودى)



(لوحة ٣١) مصلى سيستينا ــ لوحة يوم الحساب



(لوحة ٣٢) مصلى سيستينا — تفصيل من لوحة يوم الحساب — العصاة يتهاوون الى الجحيم

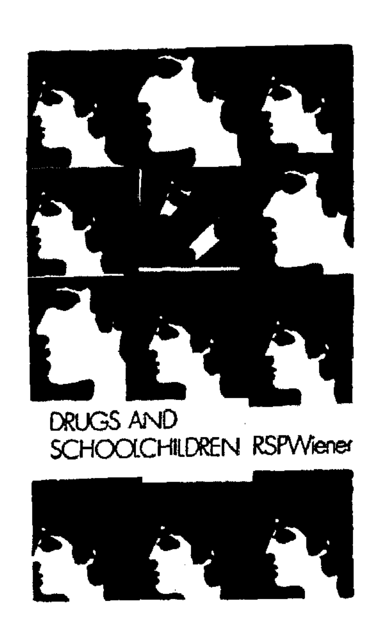


(لوحة ٣٢) مصلى سيستينا ـ تفصيل من لوحة يوم الحساب
« الجحيم »



(لوحة ٣٤) مصلى سيستينا ـ تفصيل من يوم الحساب ـ المسيح في جلاله بوصفه قاضيا

عرض الكتب



المخدرات وطلبة المدارس

تأليف : ر . س . ب . وايـنر

عرض وتحليل الدكتور : عدنان الدوري

ان موضوع العقاقير المخدرة يشكل موضوع الساعة فى أولويته بين البحوث والدراسات الاجتماعية والنفسية والطبية،والطبية العقلية والقانونية المعاصرة . لقد ظهرت كتب عديدة ودراسات علمية لا حصر لها تناولت هذا الموضوع ، الا أن الجديد فى هذا الكتاب انه يعالج جانبا حيويا من هذه المشكلة ، وهى ظاهرة تفشى هذه السموم المخدرة بين فئة طلبة المدارس من المراهقين الذين لا تتجاوز اعمارهم التاسعة عشرة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور براينر من الباحثين العلميين المتخصصين فى معالجة المشكلات الاجتماعية الذين يعملون فى مدرسة لندن للدراسات الاقتصادية ، كما قد درس علم النفس فى جامعة سدنى باستراليا ، وعمل فترة ما فى المعهد القومى لعلم النفس الصناعى فى الجامعة المذكورة .أماكتابه هذا فهو حصيلة البحث العلمى الذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراه فى جامعة لندن .

ينقسم الكتاب الى اقسام ثلاثة خصص القسم الاول كمدخل نظرى لعرض أبعاد مشكلة المخدرات بوجه عام وبيان أهداف الدراسة وايجاز بعض الدراسات العلمية التي تناولت هذه المشكلة . وقد خصص القسم الثانى لعرض ماهية الدراسة الميدانية حيث تناول طريقة البحث وكيفية اختيار عينات البحث وعمليات الاستبيان وجمع المعلومات المطلوبة . اما القسم الثالث فقد تضمن خلاصة النتائج وبعض التوصيات المتصلة بموضوع المشكلة . كما ذيل الكتاب بملاحق خاصة باستمارات البحث والاستبيان وبعض الرسائل المتداولة لغرض جمع المعلومات المطلوبة .

وعلى الرغم من أن الباحث فى كتابه هذا لم يهدف الى معالجة مشكلة المخدرات بوجه عام ، الا انه افرد ما يزيد على السبعين صفحة من كتابه لعرض أرضية اكاديمية نظرية لموضوع المخدرات ، وهذا لا شك يعكس اهتمام الباحث بالاطار النظرى العام الذى يشكل المدخل الاكاديمى للدراسة موضوع الكتاب .

واذا كان الانسان قد استخدم العقار المخدر منذ آلاف السنين الا أن هذه العقاقير المخدرة لم تصبح مشكلة ذات ابعاد اجتماعية ونفسية وطبية وقانونية الا خلال القرنين الماضيين . اما اليوم فقد بلغت مشكلة العقاقير المخدرة أبعادا خطيرة لدى الكثير من المجتمعات المعاصرة ، وليس ادل على ذلك من بعض الاحصائيات العالمية التي تشير الى أن عدد الاشخاص الذين يتناولون نبات الماروانا يزيد على المائتي مليون شخص فى جميع انحاء العالم . وهناك احصائيات عالمية لعام ١٩٦٢ تشير الى أن عدد الذين يتناولون بعض العقاقير المهدئة والمنشطة بصورة غير مشروعة يزيد على العشرة ملايين شخص فى العالم . اما فى الولايات المتحدة الامريكية فان مشكلة المخدرات تجاوزت أبعادها التقليدية المألوفة، حيث يشير المكتب الفدرالى للمخدرات فى احصائية صدرت فى عام ١٩٦٥ أن عدد المدمنين على عقار الهيروين وحده بلغ (٥٥ر٨٩٩) شخصا ، هذا على الرغم من تلك العقوبات الشديدة التي تضعها القوانين الجزائية الامريكية لمنع تداول هذا العقار منذ عام ١٩١٤ .

ما هو المقصود بالعقاقير المخدرة ؟

هناك تعريف عام ورد بقاموس اكسفورد الانجليزى يعرّف العقار بانه كل مادة طبية جوهرية عضوية أو غير عضوية تستخدم بصورة نقية أو فى تركيب كيماوى خاص . وهذا التعريف لا شك لا ينصرف الى العقار المخدر الذى يتناوله الشخص بصورة غير مشروعة ، فالعقار لا يصبح مشكلة اذا استخدمه صاحبه لأغراض طبية علاجية مشروعة أو تحت اشراف طبى . اما العقار المخدر الذى يمنع القانون تداوله فهو كل مادة كيماوية تؤدى الى تغير محسوس فى مزاج الشخص الذى يتناوله ، والى تبدل واضح فى شعوره وفى ادراكه، وذلك حين يستخدم هذا العقار بصورة غير مشروعة وبأسلوب يخالف معايير المجتمع ونظمه . ولكن ما هى تلك المواد المخدرة التي يمنع القانون تداولها خلافا للأغراض الطبية المشروعة ؟

ان العقاقير المخدرة التى يشيع استعمالها اليوم بين غالبية الشباب والمراهقين هى الانواع التالية :

(١) مركبات الأفيون opiates وبوجه خاص مركب الهيروين heroin .

(٢) مركبات نبات القنب cannabis

(٣) عقاقير الهلوسة وبوجه خاص المركب المعروف LSD .

(٤) مركبات الامفتامين amphetamines

(٥) مركبات حامض البربتيوريك barbiturates .

(٦) المركبات التى تشتمل على الامفتامين وحامض البربتيوريك معا .

ولعل من الضرورى أن نتناول هذه العقاقير بتعريف موجز لبيان بعض صفاتها المميزة وتأثيراتها المختلفة .

أولا ـ مركبات الافيون : وقد عرف الانسان الافيون opium منذ اربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، اما عقار الهيروين heroin وهو من مركبات الافيون فقد ظهر فى المانيا منذ عام ١٨٩٨ وهو عقار يجرى تصنيعه من

عقار المورفين ويطلق عليه علميا مصطلح diacetylmorpline . ولا شك ان مركبات الافيون ومنها عقار الهيروين تعتبر من أخطر العقاقير المخدرة ، حيث تقول منظمة الصحة العالمية ان هذا العقار يؤدى الى حالة الادمان addiction حيث تتبلور الرغبة الشديدة لاستمرار تناول العقار بأية وسيلة كانت والرغبة المستمرة لزيادة كميته ، وبالتالى الاعتماد المباشر على العقار يوما بعد يوم . ويرى الكثير من العلماء أن هذا العقار يؤثر على الجهاز العصبى المركزى ، والى هبوط الفعاليات الجثمانية والعقلية واحتقان حدقة العين والامساك المعوى وانقطاع طمث النساء وفتور فى الرغبة الجنسية وغير ذلك من الاعراض الأخرى . ولاشك أن ادمان عقار الهيروين يفقد المدمن قدرته على مواصلة حياة اجتماعية سوية وتكوين علاقات سليمة بالآخرين ، كما وان المدمن لايسعى فى الواقع الى عقد صداقات جديدة خارج اطار علاقته بالمدمنين من أمثاله ، ولذلك فهو غالبا ما يفضل العزلة على تكوين صداقات جديدة .

ثانيا – مركبات نبات القنب cannabis

وهذه عقاقير عرفها الانسان منذ عام ٢٧٣٧ قبل الميلاد ، وهى تستخرج من اوراق أو بذور أو قشور نبات يعرف بالقنب cannabis saliva ومن اشهر أنواعه الماريوانا marijuana وتستخرج من الازهار المجففة لأنثى هذا النبات ، والنوع الثاني هو الحشيش hashish وهو يستخرج من مسحوق النبات المجفف بعد مزجه بالمادة الصمغية التى تكسو قشرة هذا النبات . وهناك اكثر من ثلاثة وتسعين اسما يطلق على مستحضرات نبات القنب ، الا أن الشائع منها الماريوانا والحشيش والكيف والداجا والجانجا .

اما التأثيرات الشائعة لهذه المركبات فهى طلاقه اللسان واحلام اليقظة وزوال القلق والمعوقات الباطنية لحرية النشاط والشعور بالمرح والتغير والارتخاء . كما وهناك خطأ شائع يدعو الكثير للاعتقاد بأن لهذه المركبات تأثير معين فى زيادة الطاقة الجنسية ، ولكن الثابت علميا انه لاتوجد علاقة بين مثل هذه المركبات وبين زيادة الحيوية الجنسية ، ولكن ربما لبعضها تأثير فى اطالة العملية الجنسية . أما بعض التأثيرات الضارة لمثل هذه المركبات فهى لازالت موضوع خلاف كبير . فقد يجد البعض ان الاعتياد على هذه المركبات لمدة طويلة يؤدى الى تدهور القدرات الذهنية ويضعف القدرة على مواصلة العمل المنتظم ، كما يؤدى الى اضطراب العلاقات الاجتماعية بالآخرين ، وهو فى الغالب يقود الى حالة الادمان على المخدرات . الا ان منظمة الصحة العالمية لاتؤيد ظهور حالة الاعتماد البيولوجي نتيجة تناول هذه المركبات ، ولكن مثل هذه المركبات تؤدى الى حالة الاعتماد النفسي . كما يرى البعض الآخر أن هذه المركبات هى اقرب فى تأثيرها الى تأثير الكحول ، وهذا يجعلها بعيدة عن مركبات الأفيون ، اذ ان استعمال مركبات نبات القنب بصورة معتدلة، كما يراها البعض ، لاتزيد فى خطورتها عما يتعرض له الانسان نتيجة اسرافه فى تناول الكحول . الا ان هناك من يعتقد بان تناول هذه المركبات يشكل جواز سفر للعبور الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى اشد خطورة كالهيروين حيث تؤيد غالبية الاحصائيات وجود مثل هذه العلاقة .

ثالثا – عقاقير الهلوسه hallucinogenics

ومن أبرز انواعها العقار الشائع باسم LSD والعقار DET والعقار DMT والعقار DPT . وربما يكون عقار LSD اكثرها شيوعا لسهولة الحصول عليه . وهذه عقاقير فى الغالب تؤدى الى تغيرات محسوسة فى التفكير وفى الادراك

وفى المزاج ، ولكنها لاتؤدى الى اضطرابات دائمية فى الشخصية . وقد اكتشف عقار LSD علميا منذ عام ١٩٣٨ ، الا ان الاهتمام بدراسة آثاره تبلور خلال عام ١٩٤٣ . ويمكن ايجاز أبرز الآثار الجثمانية التى تنشأ عن تناول هذا العقار بأنها تشتمل على اتساع حدقة العين وثبات نسبة ضغط الدم ورعشة سريعة وحادة فى الركبة وزيادة فى النبض وضعف واضح فى النطق . اما الآثار النفسية فيمكن تلخيصها بظهور حالة امتزاج بين الذات والعالم الخارجى وظهور الشعور بالاتحاد مع كل الاشياء أو حالة انفصام عن الذات ، أو حالة انفصام عن العالم الخارجى . ويقول أحد العلماء بأن هناك حالة انتحار واحدة تحدث بين كل (٢٥٠٠) حالة ممن يتناولون هذا العقار . كما ويتفق غالبية العلماء على ان غالبية الذين يتناولون هذا العقار يعانون من بعض الاضطرابات العاطفية أو أنهم يعانون من اضطراب واضح فى شخصياتهم .

رابعا ـ مركبات الامفتامين وهذه تشتمل على مجموعة كبيرة من العقاقير يزيد عددها على العشرين ، ويشيع تسميتها بالحبوب المنشطة للحيوية او تلك التى تعرف بـ PEP-PILLS وهى اما أن تكون من مستحضرات الامفتامين بصورة نقية أو مختلطة بمركبات حامض البربتيوريك . اما المراهقون فهم يطلقون على هذه المركبات تسمياتهم الخاصة مثل مصطلح METH او DEXIES أو BENNIES اوPURPLE HEARTS . والأصل فى هذه المركبات انها تستعمل لاغراض طبية خاصة عرفها الطب الامريكى منذ عام ١٩٢٧ تحت اسم البنزيرينBENZEDRINE لمعالجة حالات الصرع والتسمم والحالات الكحولية وبعض الاضطرابات النفسية والعصبية الاخرى . الا أن استخدامها لاغراض غير مشروعة جاوز أهدافها المشروعة ، حيث تشير بعض الاحصائيات الامريكية الصادرة فى عام ١٩٦٥ الى أن عدد الوصفات الطبية التى صرفت من قبل الجهات الصحية بصورة مخالفة للقانون تجاوزت ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ وصفة طبية . أما تأثير هذه المركبات فيقول الاطباء المتخصصون انها تزيد من ارتفاع ضغط الدم وارتخاء العضلات واتساع حدقة العين ، وهى فى الغالب تساعد على زوال الارهاق الجسدى والعقلي وتضاعف الحيوية وتزيد الثقة بالنفس . ويؤكد بعض الاطباء ان تناول هذه المركبات بصورة معتدلة وبكميات صغيرة وفى أوقات متفاوتة لا يثير مشكلة ادمان بالمعنى الطبى ، الا أن تناولها بكميات كبيرة وبأوقات متكررة يؤدى الى حدوث تأثيرات سلبية كحدوث زيادة مفرطة فى الحيوية ربما تقود الى بعض النتائج غير المرغوب فيها اجتماعيا ، كما قد تؤدى الى حالة الانهيار او الى ادمان عقاقير مخدرة اخرى .

خامسا ـ مركبات حامض البربتيوريك Barbiturates وهذه تدخل فى الغالب تحت مركبات الامفتامين الا انها تختلف فى تأثيراتها الكيماوية والنفسية ، فالامفتامين عقار منشط يضاعف حيوية الجهاز العصبي ، بينما تعتبر مركبات حامض البربتيوريك عقاقير مسكنة مهدئة خافضة للحيوية . ولعل مركبات حامض البربتيوريك أقل خطورة من مركبات الامفتامين ، وذلك لعدم شيوعها بين الشباب والمراهقين على نطاق واسع .

والدراسة الميدانية او البحث العلمي موضوع هذا الكتاب جاء عرضه فى القسمين الثاني والثالث من الكتاب . ففي القسم الثاني طرح الباحث خطته فى البحث والطرق التى استخدمها فى جمع البيانات المطلوبة ، وكيفية اختيار عينات البحث وتنفيذ خطوات البحث . اما القسم الثالث فقد خصصه الباحث لنتائج البحث وتحليل المعلومات المتحصلة وطرح بعض التوصيات .

ويقوم البحث على خطة اختيار مجموعتين من الاطفال احدهما مجموعة بحث ضمت (١٠٣٩) طالبا من طلبة المدارس ممن تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، وقد اختارهم الباحث كعينة للطلاب الاطفال الذين يعتقد أنهم تناولوا بعض العقاقير المخدرة فى فترة من فترات حياتهم ، وهم يمثلون اربع مناطق جغرافية مختلفة من منطقة مدينة لندن . أما المجموعة الثانية فهي مجموعة ضابطة تمثل عددا مماثلا من الاطفال الذين انكروا استعمالهم للعقاقير المخدرة بشكل من الاشكال طيلة حياتهم .

وعلى الرغم من أن الباحث شعر بصعوبة التأكد من صحة استعمال الاطفال للعقاقير المخدرة ، وذلك بمجرد الاعتماد على ادعائهم المجرد ، فقد قام بتجربة تحضيرية أولية تناولت مجموعة صغيرة من الاطفال لمعرفة مدى امكانية الاعتماد على مجرد الادعاء باستخدام العقار المخدر ، وقد دلت نتائج هذه التجربة الاولية على امكانية الحصول على مثل هذه الاعترافات الى حد ما .

ويظهر ان البحث كان يقوم على فرضية أولية وهى امكانية تشخيص بعض الاختلافات بين طائفة الذين يستعملون العقاقير المخدرة وبين أولئك الذين لم يستعملوها ، وقد أمكن اختبار هذه الفرضية بطرح استبيان مفصل على الطائفتين لتحقيق هذا الغرض . ويمكن تلخيص أبرز النتائج التى توصل اليها الباحث بما يلي :

١ ـ ظهر ان نصف افراد مجموعة البحث قد اعتادوا على استعمال عقاقير مخدرة بصورة فعلية وأن ٧٥٪ منهم قد تناولوها بصورة غير منتظمة ، كما تأيد أن بعضهم تناولها عن جهل لتاثيرها بينما تناول البعض نوعا واحدا أو نوعين أو ثلاثة انواع من هذه المخدرات .

٢ ـ لم يجد الباحث اختلافات تتصل بالجنس ، اى بين الذكور والاناث ، ولكن ظهر ان غالبية افراد الجنسين يمثلون سنا متقدمة نسبيا ، وان غالبيتهم قد اعتادوا على الانقطاع عن الدراسة بصورة متكررة ، كما أن غالبيتهم ايضا لا يلجأون الى آبائهم لحل ما يعترضهم من مشكلات ، وان هؤلاء الآباء فى الغالب يتميزون بلين واضح وعدم اكتراث بضبط سلوك ابنائهم او الاشراف على تربيتهم .

٣ ـ لقد ظهر أن نوعية النشاطات التي يمارسها أفراد الجماعة التي تستخدم العقاقير المخدرة فى أوقات فراغهم هي أقرب الى تلك التي يزاولها البالغون بوجه عام ، كالتردد على المقاصف ودور الرقص ودور التسلية ، وان هذه الطائفة تنفق الكثير من المال على التدخين وعلى المشروبات الكحولية وعلى العناية بالملبس وتيسير العقاقير المخدرة ، ويميل أفراد هذه الطائفة الى الاختلاط بمن يكبرهم سنا ولا يجدون حرجا فى تقليد الانماط السلوكية الخاصة بالبالغين ، ولذلك فان أفراد هذه المجموعة يسلكون سلوكا يفوق سلوك الاطفال الذين هم فى سنهم .

٤ ـ ويتميز افراد عينة البحث بأنهم أقل احتراما وأكثر اندفاعا فى سلوكهم ، وهم يعلمون الكثير عن المخدرات واستعمالها ومزاياها .

٥ ـ وقد ظهر ان أفراد عينة البحث يعتقدون بأن تناول العقاقير المخدرة يزيد من جاذبيتهم الجنسية لدى الجنس الآخر .

اما القسم الثالث فقد تضمن توصيات الباحث بهدف تقرير سياسة تربوية تعليمية تتعلق بموضوع مشكلة المخدرات بين طلبة المدارس . ويعتقد الباحث بادىء ذى بدء بأن مشكلة تعاطي المخدرات بين طلبة المدارس

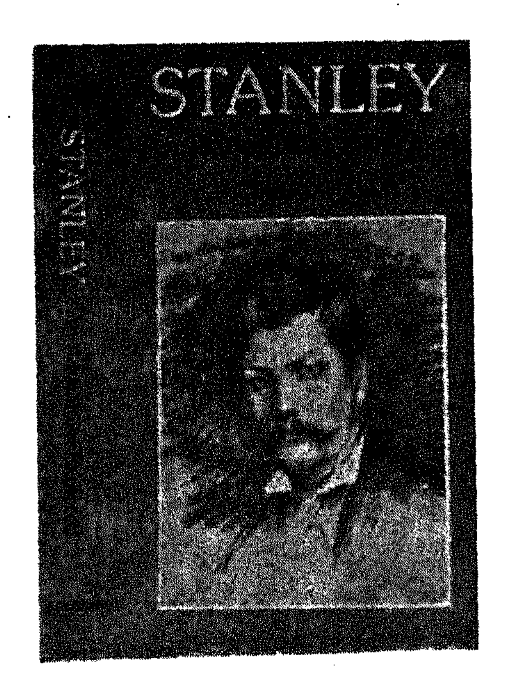
لم تبلغ بعد مرحلة خطيرة من حيث انتشارها او شيوعها . ففي تقدير الباحث أن أقل من ١٠٪ من طلبة المدارس ربما تناولوا بعض العقاقير المخدرة فى فترة من فترات حياتهم تحت دوافع التقليد أو لغرض الظهور على الاقران .

ويرى الباحث ان القيام بحملة اعلامية اصلاحية بهدف تبصير الاطفال بخطر المخدرات وآثارها السيئة قد تكون فى جدواها اقرب الى تلك الحملات الاعلامية العقيمة التي تقوم بها بعض الجهات الصحية من وقت لآخر لتبصير أطفال المدارس بأضرار التدخين ومساوئه . ويفسر الباحث عدم جدوى هذه الحملات الاعلامية الواسعة بأنها قد تزيد من وعى الاطفال بوجود مثل هذه المخدرات التي يجهلون موضوعها جهلا تاما ، ولذلك فان مثل هذه الحملات تعرف الاطفال بوجود مشكلة المخدرات ، الامر الذى يدفعهم الى تجربتها بدافع الفضول وبوصفها عادة شائعة غير ضارة بدليل انها شائعة بين عدد كبير من الاطفال فى كل مكان .

وربما يكون لبعض الافلام الخاصة بموضوع المخدرات فائدة ارشادية فى هذا الباب ، الا ان الدراسات العلمية المتيسرة فى هذا المجال لم تؤيد بالرأى القاطع ايجابية مثل هذه الافلام التعليمية ، ولذلك فان الباحث يعتقد بامكانية القيام بحملات اعلامية بين الاطفال ، ولكن على أسس محددة واهداف مدروسة ، وبناء على دراسات ميدانية لتحديد نطاق هذه الحملات ونوعية المعلومات التي تقدم للاطفال وكيفية تقديمها والاشخاص الذين يقومون بعمليات التوعية المطلوبة ، الى غير ذلك من المتطلبات الاخرى .

وعلى العموم فان مثل هذه الدراسة الرائدة أن لم تأت بالشيء الكثير الجديد فى ميدان واسع كبير فهى بلا شك قد ألقت الضوء على زاوية حيوية من هذا الموضوع حيث اظهرت نوعية الاطفال الذين يستخدمون العقاقير المخدرة ، ولكن ينبغى أن لا يقف البحث عند تشخيص الافراد الذين يستعملون هذه العقاقير المخدرة ، بل بمتابعة وملاحقة حياتهم لمعرفة من يعتاد منهم على هذه العقاقير فى مستقبل حياته ومن ينقطع عن استخدامها لاكثر من سبب ، وبالتالى معالجة أولئك الذين تصبح العقاقير المخدرة مشكلة كبيرة فى حياتهم ومشكلة أكبر بالنسبة لمجتمعاتهم .

★ ★ ★



ستانلى المستكشف المغامر

عرض وتحليل . الدكتور عبد الرحمن الشرنوبي

صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٧٤ ، اى بعد مائة عام تماما على بدء ستانلى رحلته الشهيرة الى افريقيا ، حيث كشف مصب نهر الكنفو الحقيقي. الف هذا الكتاب الصحفى «ريتشارد هول » واصدرته دار جوليتز للنشر فى لندن ويبدو ان موضوع هذا الكتاب لم يكن ليشغل بال مؤلفه لولا ان اتيحت له الفرصة ـ كصحفي ـ لكي يعيش فى قلب القارة الافريقية لعدة سنوات ، استطاع فيها ان يغطي بقلمه احداث الثورة الكونغولية فى بداية الستينات ، بنفس القدر الذى استطاع فيه ان يغطي بقدمه كل المناطق التي بلغها ستانلى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ان لم يكن قد زاد عليها .

من هنا نستطيع القول بأن بريق تلك القارة وسحرها ، الذى طالما سلب الاوروبيين عقولهم ، لاتزال جذوته متقدة حتى الان. فرحلات ستانلي التاريخية ظلت وستظل من اعظم ما سجلته قصص الرحلات اثارة فى تاريخ كشف افريقيا .

لقد قام ستانلي بأربع رحلات ناجحة الى اواسط هذه القارة . كانت رحلته الاولى خلال عامي ١٨٧١ و ١٨٧٢ ، وكانت الغاية منها البحث عن الدكتور لفنجستون الذى سافر الى القارة فى مهمة كشف بتكليف من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ، ولكن بعد ان اعتلت صحته وانقطعت اخبارة ، كان لابد من البحث عنه ، وتقصي اخباره ، فكان ان سافر ستانلي موفدا من قبل الجريدة الامريكية التي كان يعمل بها انذاك وهي جريدة النيويورك هيرالد .

اما الرحلة الثانية ، فكانت في الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧ . وكانت غايتها كشف المنطقة من زنزبار شرقا حتى مصب نهر الكونغو على المحيط الاطلسي غربا ، وكان بعد نجاحه فيها اول رجل ابيض يكتشف مجرى هذا النهر العظيم .

ولم تخرج **رحلته الثالثة** (١٨٧٩ ـ ١٨٨٤) عن كونها رحلة تقليدية كما يحلو للبعض ان يطلق عليها ، الا انها كانت الرحلة التي مهدت لحكم الملك ليوبولد وسيطرته على الكونغو بواسطة ستانلي واعوان آخرين .

امارحلته **الرابعةوالاخيرة** (١٨٨٦ ـ ١٨٨٩) فقد جاءت تلبية لدعوة من بريطانيا لانقاذ **امين باشا** الذى تحرج موقفة وانقطعت اخباره بعد الثورة المهدية ، وحقق فيهاعبورا شبيها بعبوره في رحلته الثانية .

هذه كانترحلات « هنرى مورتون ستانلي» التي سجلها فى مؤلفية الخاصين :

The Dark Continent و How I found Livingstone

وفيها كل الاثارة ، وكل الغموض ، وكل المبالغة . الامر الذى جعل العالم ينظر الىهذا الرجل ـ ستانلي ـ كمعجزةعصره وبطلزمانه .

وحينما يغوص المرء فى قراءته لهذا الكتاب، سوف تعود به الذكرة الى رائحة التاريخالذى ميز القرن التاسع عشر وتاريخ الكشوف الجغرافية فيه كشف منابع النيل ، كشف بحيرات وسط افريقيا ، وكشف مصب ومجرى نهر الكونغو .. لاشك ان هذا الاطار التاريخي فى حد ذاته ينبغي الا يجعل من ريتشارد هول بطلا حينما يغطي نفس الاجزاء التي جابهاستانلي واكثر ،فالمؤلف حينمايعلن عن ذلك صراحة ، انما يعترف ضمنا بمقدار الجهد الذى بذله ستانلي بين مستنقعات افريقياوغاباتها ورطوبتها وامراضهاومواطنيها وسوف يدرك القارىء مباشرة ان الجهدالذى بذله المؤلف في رحلاته لكي يستفيد منها فى كتابة مؤلفه الذى بين ايدينا عن ستانلي ،لم تحقق شيئا ولم تأت بجديد . الامر الذى يدفعنا للتصور بأن المؤلف ثمت لدية فكرة الكتابة عن ستانلي ، بعد عودته كمراسل صحفي من القارة الافريقية .

لقد اصطحب« هول » معهالىافريقيا كتاب ستانلي : « كيفوجدت دكتور لفنجستون »، ومن ثماصطبغ فى رحلة « هول » خيالستانلي مع مواقعاقدامه ووقعها ، فبدترحلةستانلي كما لو كانت قد تراءتتماما امام اعينريتشارد هول ، الذى تحركت مشاعره نحو ستانلي ، فتحول من ناقم عليه ـ كشأن الكثيرين ممن يعرفون حقيقته ـ الى متعاطف معه .

ها هو ذا كتاب « ستانلي » يقسمهالمؤلف الى ثلاثة اقسام لتضم سبعة وعشرين فصلا قصيرا . القسم الاول يتناول فيه رحلةستانلي الرئيسية (١٨٧٤ ـ ١٨٧٧) ، والقسمالثانى ينقلنا الى شخصية ستانلي وطفولته ونشأته وحبه ، بالاضافة الى عودته من جديد الى الاستطراد فى سرد ظروف كشوفه ورحلاته وعلاقاته فى افريقيا . ثم ينتهي بالقسم الاخير ليحكي قصة المعاناة التي تميزت بها حياة ستانلي ؛ حتىبعد ان نجح فى تحقيق الكثيرمن آماله وتطلعاته ، حتى مات فى العاشر من مايو عام ١٩٠٤ .

زودنا ريتشارد هول فى كتابه باثنين واربعين رسما وصورة ولاشك كان خلفهاجهد كبير بذله المؤلف لكى يحصل عليها من مصادرها المتباعدة ،ربما ساعده على ذلك

مهنتـه كصحفـى ، وعلاقتـه بالـوكالات والشخصيات الصحفية .

لقد ضمن ريتشارد هول كتابه بالاضافة الى المقدمة التقليدية فى بدايته ملحقاتضمـن كلمة شكرلمن قدمله يد المساعدة فىانجازه هذا وفهرسا للاماكن ، وآخر للاشخاص بالكتاب وقائمـة جيدة ومطولـة بالمراجـع والمصادر قسمها وفقا لترتيب فصول الكتاب ، وعلـق على كل منها .

هكذا .. وعلى امتداد اربعمائـة صفحـة تضمنت كافة محتويات الكتاب ، استطـاع المؤلف الصحفى ان يمـزج بـين روح البحث والرواية ، ليخرج حقيقة ملامـح وقسمات ستانلي . لقد اجهد المؤلف نفسه كثيرا لكي يميط اللثام عن الشخصية الحقيقية لهـذا الرجل الذى طالما اخفاها عن الناس . ولقد حقق المؤلف غايته ، اذ يدرك القارى ، عقب سرد المؤلف لطفولة ستانلى وظروف نشأته ، التفسير الحقيقي للغموض المتعمد الذى ميز ستانلى وتصرفاته ، فكان حزينا ابدا مفتقـرا الى الثقة بالنفس .

ان المؤلف يعرض حقائق هـذه النشأة ، ويترك القارىء يتساءل : ترى بعدان قرأت هذا الجزء عن ستانلي .. هل كان لاصل نشأتـه تأثير على شخصيته إذ انـه حقـا « ابن زنا » لسيدة تدعى (Elizebith Parry) من ويلز أم لدخوله اصلاحية الاحداث فترة من الزمن ؟ فقد دخلها وهو في السادسة مـن عمره وهرب منها بعد تسع سنوات ليعيش بعدها حياة التشرد والسعى المضني للرزق ، معتمدا على نفسه ، خلال سنوات العـذاب والمهانة فى انجلترا والولايات المتحدة . امكان لحبه من تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعـا « اليك بيك » وفشله فى ذلك الحب اثر ؟ ترى .. هل كان لبحثه عن رجل يتبناه فى نيو اورلينز مهما كانت شخصيته ، وبأى اسلوب ممكن (حتى تحقق له ما أراد على كبر) أثـر في غموضـه وحزنه ؟ ام لانه كان يتصف بالشذوذ الجنسي كما قال بعض علماء النفس عنه وبعض اصدقاءه المقربين ؟ يالها من تساؤلات مزعجة تحيـط به حقا ويكفي ان تثار .. مجرد اثاره ، لكي ندرك خلفيات هذه الشخصية والغموض الذى يكتنفها .

لقد كان « ريتشارد هول » مستعدا لتبنى وجهـة النظر التقليديـة عن ستانلـى البارد المعقد ، الذى ترتبط باسمه مظاهـر الرعب والقسوة . ولقد كتب يقول : ان الخوض فى دراسة شخصيـة ستانلى ، كتسلـق جدار عمودى صلد من الجرانيت . الامر الذى يفسر احجام الكثيرين من الكتاب والمحللين عن الكتابة عن الجوانب الخاصة جدا من حياة ستانلى ، رغم انه كان من اجرأ مغامرى القرن التاسع عشر ، وأكثرهم اصرارا ونجاحا على الاطلاق.

لكن .. لماذا كان انطباع العالم عن ستانلى الى هذا الحد من السوء طالما لم يفص الكتاب والمحللـون بين جوانـب شخصيته وحياتـه الشخصية ؟ لقد نقلت رواية جوزيف كونراد : « قلب الظـلام » ، صـورة ملطخة بالرعـب والفزع والدماء واهدار الحقوق الانسانية على ارض هـذا الجزء مـن افريقيا الذى طرقـه ستانلـى . وكان دور هـذا الاخـير فى تلك الروايـة ، دور الخادم الانتهازى الذى بنـى للملك ليوبولد امبراطوريته فى افريقيا . فكان لا بد ان يكـون قاسيا دمويا ، لـما ارتبط به تاريخ السيطرة والاستعمار من امور لاانسانية في تلك البقعة من العالم .

الا ان افكار المؤلف قد تغيرت تماما عن ستانلي ـ على حد قوله ـ عندما سلك نفس الطريق الذى سلكه صاحبنا من قبل فى رحلة بحثه عن الدكتور لفنجستون .

يقول ريتشارد هول : لقد احسست بمقدار الجهد الجهيد الذى بذله ستانلي وهو يخترق تلك المسافات منذ قرن مضى . لقد ادرك المؤلف ان ستانلي حجب شخصيته الحقيقية خلف مظاهر كاذبة ، او على الاقل ، لا يعرفها العالم عنه . لقد وقف « هول » امام النصب التذكارى الحقيقى لستانلي وقال : ينبغىان يكون الكونغو بأسره صاحب هذه الحدود المتراميةفى افريقيا (١) ، هو النصب التذكارى الحقيقى لهذا الرجل .

لقد كان ستانلى عدوا حقيقيا لذاته . ولقد كان تعاميه عن اظهار بعض الحقائق ، سببا كافيا للانتقاص من روعة انجازاته . ان المؤلف يحاول السمو والتحليق بستانلى كواحد من اكبر أصحاب الانتصارات فى العالم، ليمحو السمعة السيئة التى التصقت بهذا الرجل . الا أن الانسانية لن تغفر له ما ارتكب فى حق ابنائها من جرائم فى سبيل تحقيق غاياته .

نجح ستانلى فى رحلته الاولى وعاد بأخبار مطمئنة عن الدكتور لفنجستون (٢) الذى رفض العودة معه ، مفضلا استمرار عمله ليتم كشوفة ، فتركه ستانلي على أمل أن يرسل اليه معونة عاجلة . وبر ستانلى بوعده فعلا ووصله ما يريد فى اغسطس عام ١٧٨٢ .

لقد ذهل ستانلى ـ الذى طافت مقالته عن هذه المهمة الناجحة كل ارجاء العالم ـ عندما سمع اسمه يتردد كبطل من الابطال ، واصبح العالم المفتون ينظراليه كبطل الساعة ، لقد استطاع ان ينقذ الدكتور لفنجستون ، ويعيد للعالم صلته به ، بل ويحقق مع كل هذا جانبا من الكشوف الجغرافية التى ذهب من اجلها لفنجستون (٣) ويعود بالأخبار والحقائق والغرائب معا .

لكن ستانلى الذى استطاع ان ينقذ لفنجستون وفريقه لم يكن ليقنع بهذه المهمة التى انجزها فى افريقيا . انه مجرد صحفى يتابع الأخبار ويحقق الحوادث ويراسل صحيفته . لا .. هذه المرة لا بد من سبر أغوار افريقيا . نعم ، سأكون مكتشفا .. هكذا اراد وصمم وخطط لمهمته القادمة .. لقد جربت بنفسى الامر ، ونجحت فيما عجز عنه آخرون ، بل واشتركت مع لفنجستون نفسه في جزء من المحاولة .. لماذا اذن لا اكون فى سجل الخالدين من امثال بورتون وسبيك ولفنجستون نفسه ؟ . اننى ستانلى المنقذ .

لقد تردد وارتاب فى امكانيات نجاحه فى بادىء الامر ، بل داخله شعور بأن الصدفة وحدها كانت وراء خروجه سالما من رحلته الاولى . وان الحظ لاشك سوف يخذله هذه

---

(١) يشترك الكونغو بحدوده مع عشر دول مجاورةتحيط به من جميع الاتجاهات تقريبا .

(٢) اوفد لفنجستون من قبل الجمعية الجغرافيةالملكية البريطانية عام ١٨٦٦ لحل لغز شبكة التصريف النهرى فى وسط افريقيا ؛ وبحيرات هذه المنطقة ، وبذل الجهدلتحقيق منع تجارة الرقيق فى اكبر اسواقه .

(٣) انتهز الفرصة ليصحب دكتور لفنجستون فسارمعه وحققا معا كشف الاجزاء الشمالية من بحيرة تنجانيقا ، وتأكدا انها ليست ضمن منابع النيل ، كما اعتقد « بورتون »من قبل .

المرة . لقد كان ستانلى قليل الثقة بنفسه دائما لقد كان يتصور ان الرحالة والمستكشفين يكونون من علية القوم وكبراءه ، ابناء الاسر العريقة من الضباط والرياضيين .... الا انه ـ ولاول مرة ـ يصمم على كسر هذا الحاجز النفسي الذى افتعله بنفسه . لقد قرر ان يفرض اسمه فرضا على العالم باسره .... لابد ان يحدث هذا .. نعم لابد .

ان المؤلف ريتشارد هول يتحدث باسهاب فى القسم الاول من الكتاب عن ادق التفاصيل المتعلقة بفتاة حبه (اليك بيك) ، شكلها ، عمرها ، ودارها ، ثم عن تفاصيل اتفاقه معها على الزواج قبيل رحلته .. ذلك الزواج الذى لم يتم قط . ثم يقدم سردا لتحركاته بين نيويورك ولندن ،ومناطق اخرى من العالم وكيف سبق له ان وطد علاقته بالعديد من الشخصيات الانجليزية حينما كان ضمن فريق المراسلين لجريدة النيويورك هيرالد ،وكيف كان « وقحا » فى شجاره بالجمعية الجغرافية الانجليزية ، حينما ساورتها الشكوك حول رحلته لانقاذ لفنجستون ، ولماذا وصفته الملكة فكتوريا بعد ان دعى لمقابلتها بقصرها بانه رجل عنيد وقبيح .

ان ستانلى مرة اخرى فى لندن يحاول ان يعد لرحلته انسب الظروف ، كما سعى للاتصال بمصادر جديدة لتمويل رحلته الثانية ، ونجح في اجتذاب جريدة الديلى تلجراف التي وافقت على الاشتراك مع النيويورك هيرالد لتمويل المشروع . هكذا اصبحت رحلته بعثة انجلو امريكية ، وفر لها قسيسا من لندن ، والاخوين Pocock ادوارد وفردريك ، والافريقى المخلص الذى رافقه من زنزبار Kalulu ، مع بعض كلابه .

ان التفاصيل الدقيقة التى يذكرها المؤلف ليست جديدة على الجغرافيين ، الا ان المتتبع للسرد السلس الجذاب الذى تميز به اسلوب ريتشارد هول يكتشف مقدار مغامرة ستانلى بحياته وسمعته ورجاله ومستقبله . كان انتهازيا يحارب مع الاقوى من الجماعات الافريقية المتصارعة ، وحدث هذا عندما انضم الى رجال مملكة متيسا Mtesa ضد القوما Voma عند الطرف الشمالى لبحيرة فكتوريا ، وبنفس القدر كان قاسيا لا يعرف الرحمة .. فقد قتل امامه العشرات ، وهو واقف يتسلى بمنظرهم ، حدث هذا وسجله بالصورة ريتشارد هول مع وصف دقيق لطريقة الاعدام المحلية هناك ، وقد وقف ستانلى يشاهد ويتمعن .

اخيرا وصلت جماعة الى بوما عند مصب الكنغو . يالها من مغامرة حقيقية راى فيها ستانلى لم يره انسان ن نقائض الطبيعة .. كم مرة اجتمعت فيها المشاكل مع المظهر الطبيعى الرائع لقلب افريقيا . كم مرة سقط امامه المرضى على بسط خضراء بين افناء يعجز امهر الفنانين عن رسمها ، او حتى تخيلها . وكم كان مضحكا فعلا منظره بلباسه الافرنجى بين جماعات ضحكت عليه قبل ان يحاول حتى ان يقترب ليكتشف ما يريدون . كل هذا غير ذى موضوع امام ستانلى الآن . لقد حقق انجازا هائلا فقفل بعده عائدا مرة اخرى الى زنزبار عن طريق راس الرجاء الصالح .

الا ان ريتشارد هول يعود مرة اخرى الى شخصية ستانلى فى قسمه الثانى ولا يستطرد فى نتائج رحلة ستانلى . فمن هو ستانلى هذا ؟ وما هو الاسم الحقيقى له ؟ ماهى ظروف نشأته المشينة البائسة ؟ .. انها ولا شك

استفسارات بعيدة تماما عن خواطر المهتمين بدراسة تاريخ الكشوف الجغرافية التي ارتبطت في جزء منها ــ بشخصية ستانلي . ولكنه كصحفي ، تحركه كوامن المهنة و « غريزتها » ، فيسعى بصبر لتحقيق سبق لا جدال ، حول هذه الشخصية ، والجوانب النفسية التي تتحكم في تصرفاتها .

ولد جون رولاندز (John Rolands) وهو الاسم الحقيقي لستانلي ، من ابنة جزار كانت تعمل في مخبز عند اطراف مدينة (Denbigh) الصغيرة ، الواقعة في شمال شرق ويلز في ٢٨ من يناير عام ١٨٤١ (٤) . ويقال ان المخبز الذي كانت تعمل فيه هذه السيدة واسمها اليزابيث باري (Elizebeth Parry) كان يقع خلف مكتب للشئون القانونية والمحاماة ، يعمل به شخص يدعى فوغان هورن (Vaughan Horne) الذي ولع بها حبا ، وتورطت معه في علاقة غرامية حملت خلالها منه سفاحا هو جون رولاندز (ستانلي فيما بعد) . الا ان ابوة هذا الرجل لجون ، او حتى ابوة غيره لهذا الطفل ، لا تزال لغزا غامضا ، خصوصا وان امه قد انجبت بعده ، وخلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت ميلاده ، انجبت ثلاثةابناء آخرين غير شرعيين . يالها من امرأة سيئة السمعة اذن ، ويالها من نشأة قاتمة لجون !

لقد وجد نفسه وهو في سن السادسة ــ اي جون رولاندز ــ بين اسوار اصلاحية للاحداث (منذ فبراير عام ١٨٤٧) . ولا يزال اسمه مدونا في سجلات الاصلاحية وقد كتب امامه اصطلاح (لقيط) . وفي هذه الاصلاحية حيث بقي تسع سنوات ، تلقى كل تعليمه . وكان مجيدا للرياضيات والجغرافيا والرسم ؛ الا انه كان سيء السلوك ، مشاغبا . فقد حاول الهرب من الاصلاحية مرتين وفشل ، ولكنه حينما تسلق سور هذه الاصلاحية للمرة الثالثة واستطاع ان يتخطاه ، اطلق ساقيه للريح هاربا والى الابد من هذا المكان البغيض .

اتجه بعد هربه الى مسقط راسه ، ولكنه لم يجد ارضا صلبة يقف عليها ليحصل حتى على قوت يومه .. انه ابن تلك السيدة سيئة السمعة . ولكنه نجح بعد اسابيع قليلة في الحصول على وظيفة مساعد مدرس بمدرسة (St. Asaph) .

ويتحدث « ريتشارد هول » عن كيفية التوصل الى حقيقة اسم ستانلي الحقيقي وذلك عن طريق خطاب ارسله الى خالة في ليفربول ، عقب هربه من الاصلاحية ، لكي يساعده في الحصول على عمل . ثم يتتبع تنقلاته وظروف عمله وكيف كان ضعيف السيطرة على الطلاب ، وكيف كان فاشلا في الحصول على وظيفة بمحطة سكة حديد (مولد) . وحينما وفر له خاله وظيفة كاتب في مكتب للتامينات في ليفربول تركها ليعمل ساعيا خصوصيا .

وفي خضم يأسه واصراره على عمل ، تساءل : الا يمكن ان تكون ليفربول بداية النهاية لشقاء السنين الماضية ؟ الهجرة في

(٤) لم يحدد ستانلي مطلقا تاريخ ميلاده ربما عن عمد . وكان يفضل ان يقول انه من مواليد عام ١٨٤٣ . كتب على قبره انه ولد في العاشر من يونيو عام ١٨٤٠ . ويذكر سجل وفيات التايمز انه ولد « حوالي » عام ١٨٤٠ . اما دائرة المعارف البريطانية فتذكر في طبعتها الحادية عشرة انه ولد عام ١٨٤٢ ، كما يذكر قاموس ناشيونال بيوجرافي ، ان ستانلي من مواليد عام ١٨٤١ .

ذروتها ، والميناء يستقبل الف اسرة مهاجرة الى العالم الجديد اسبوعيا . والميناء غاص بالسفن ، والبحارة بالعشرات والمئات .

نجح ستانلي في العمل على ظهر السفينة وندرمير (Windermere) المتجهة الى نيو اورليانز كمنظف للكبائن ، لقد راى الاهوال في أول رحلة له استغرقت سبعة اسابيع . لقد وجد نفسه مرة اخرى فريسة للوحدة والانعزال والمهانة ، كما قاسى كثيرا من نومه تحت المقاعد ، ومن اضطراب صحته بتأثير دوار البحر ... وغير ذلك كثير .

وحينما دخلت السفينة الى المسيسيبي ، وقعت عينه على عظمة هذا النهر ، وشاهد ما عوضه عن شقاء الاسابيع الست ، وفي وصف ادبي رائع يتحدث المؤلف عن هذا المشهد مستطردا : انه الجنوب ، ارض القطن والزنوج وملاك الاقطاعيات الزراعية الهائلة من المهاجرين الاوروبيين .

وحينما كان العجوز « ستانلي » الذى يعمل سمسارا للقطن بين الزراع على امتداد المسيسبي ، وتجار نيو اورليانز ، وقعت عيناه على جون رولاندز الذى بادره بالسؤال في رنة حزينة شيقة : سيدى ... هل تريد غلاما يكون فى خدمتك ؟

بعد ان رحب العجوز ستانلي الذى لم فى ينجب ولم يتخذ من قبل ولدا ، وكذلك زوجته ، بمقدم هذا الغلام ، لم يلبث ان طرده لقلة حيائه ولسوء ادبه ، ولكنه بعد ان استقام ومارس العمل الشريف ، وحقق ارباحا سال لها لعابه ، استقل في اعماله وكان محبا مخلصا لعمله لدرجة كبيرة . وكان قد عرف آنذاك باسم هنرى ، انه الآن هنرى ستانلي .

لم يدم عمله خلال الحرب الاهلية ، فقد كان جنديا فيدراليا ، ولكنه مرة اخرى كان مشبوه التصرف كالمرتزقة ، يحارب مع الجانبين . وأصبح يحس فى قرارة نفسه بأنه فعلا كالمتشرد الذى يحيا حياة مشبوهة يعوزها الاستقرار .

وفى اجازة له كان يقضيها في اوروبا زار مدينته (Benbigh) وكتب فى سجلها اسمه الحقيقي : انا جون رولاندز اللازم فى البحرية الامريكية ، ملتحق بالفرقاطة Teconderoga ، واعمل حاليا فى تركيا . وكتب تاريخ الزيارة : ١٤ ديسمبر ١٨٦٦ .

وحينما قام برحلة الى لندن ، استطاع ان يقابل مندوب جريدة النيويورك هيرالد ، وهو الكولونيل اندرسون (Finaly Anderson) عام ١٨٦٧ ، ووطد علاقته به ، الامر الذى مهد لستانلي ليصبح مراسلا لنفس الجريدة فيما بعد ، بل بعد قليل جدا من تركه عمله بالبحرية الامريكية في نفس السنة (١٨٦٧) .

بدأ عمله مراسلا بمخالفة أوامر المسئولين فى هذه الجريدة الذين طلبوا اليه أن يتجه غربا من لندن ، ولكنه رفض واتجه شرقا .. هكذا . كما اخفى اسمه الحقيقي – والى الابد هذه المرة – ولم يكن قد استقر على اسمه الاوسط حتى اصبح بورتون . هنرى بورتون ستانلي ، ذلك المراسل الصحفي لجريدة نيويورك هيرالد الامريكية ، الذى تنقلَ بين الحبشة والهند والاسكندرية والقاهرة وغيرها من مدن شرق افريقيا والشرق الادنى .

ومن خلال العودة الى الحديث عن مغامراته فى افريقيا بعد هذا السرد المطول والدقيق عن

حياته الشخصية ، يعود « ريتشارد هول » مرة اخرى ليحكي ادق علاقاته مع جماعات الكشف التي صاحبته من الاهالي أو المرافقين البيض ، ومقدار حرصه على الحصول على اية مكاسب ترفعه الى حد الشهرة او الغنى ، وفى سبيل ذلك استخدم اسلوب المرتزقة تارة والمهادنة تارة اخرى والقمع والمكر والخداع تارة ثالثة ، حتى انه عالج تمرد جماعة الوطنيين التي كانت تصاحبه في احدى رحلاته ، بالقتل رميا بالرصاص . ولقد سجل ريتشارد هول هذه الحادثة بين حوادث اخرى تنم عن نفس شرسة بعيدة عن الرحمة ، كما صور لنا كيف كان ينتقل من ورطة الى اخرى خلال تجواله فى وسط افريقيا بين وحوش مفترسة ، وغابات هائلة كثيفة ، وامراض قاتلة ، وشلالات رهيبة ، بالاضافة الى ما ذكره من مشاكل « ستانلي » مع بعض الشخصيات والجمعيات العلمية ، ووصف مفصل للقاءه بالدكتور « لفنجستون » .

حينما توجه ستانلي الى زنزبار عام ١٨٧٤ ـ كما يقول « ريتشارد هول » حقق بعد انطلاقه منها أهم هدف له ، حينما اطمأن الى انه اتى بجديد حينما اكد ان بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة ، واكتشف لاول مرة وادى نهر كاجيرا كمخرج وحيد لهذه البحيرة. ثم اتجه الى تنجانيقا ، ووصل الى اوجيجي ، ودار محاذيا سواحلها بقاربه واثبت انها بحيرة مغلقة لا علاقة لها بنهر النيل كما قال « بوتون » من قبل ، والتقى ـ بعد ان عبرها الى الجانب الغربي ـ بالشيخ حميد بن محمد الزعيم العربي (Tippu Tib) الذى ساعده فى الهبوط الى نهر الكونغو .

ويكتب المؤلف عن رحلته فى مجرى هذا النهر الكبير باسهاب ، ويكتب عن تفاصيل توزيع قواته او افراد حملته فى النهر والبر ، وكيف تعرضت جماعة النهر الى متاعب جمة ارتبطت في معظمها بالاندفاع الشديد للمياه والشلالات ، بنفس القدر الذى تعرضت فيه جماعات البر لمتاعب المستنقعات والغابات والامراض والحيوانات المفترسة . ولكنه بعد كل هذا ،استطاع انيبلغ مدينة بوما Boma على مصب هذا النهر ، ولقد اكد المؤلف ـ وهو موفق فى هذا كل التوفيق ـ على وقفة الركب عند الشلالات التي سميت فيما بعد بشلالات ستانلي (يناير ١٨٧٧) ، والمدينة الصغيرة التي عرفت كذلك فيما بعد بمدينة ستانلي (ستانلي فيل) . واخيرا ... عاد « ستانلي » الى زنزبار بطريق البحر عن طريق راس الرجاء الصالح . وهكذا وفق المؤلف فى عرض هذا الجانب ، ولكنه عرض اساسه المعلومات التاريخية التىاتى بها غيره من قبل . ولقد سجل خط سير الرحلة على الخريطة الوحيدة بالكتاب ، التي وضعها « ديكورا » للغلاف الداخلي للكتاب .

حكى « ستانلي » وكتب ونشر العديد من المقالات عن رحلته الرئيسية هذه . وكان من بين ما ذكره طواف العالم وفتن رجال اعمال اوروبا واقتصادييها ، حديثا مسهبا عن الاقتصاد الغابي الممكن قيامه فى افريقيا ، نخيل الزيت، الاخشاب بأنواعها،والمطاط ... وغيرها كثير كثير . فسال لعاب القوم ،

(٥) International Association of Congo

وتشكلت الرابطة الدولية للكونغو (٥) براس مال بلجيكي الماني أيطالي ، لكن حماس مساهمة ملك بلجيكا « ليوبولد » كان ينبىء بأن امرا ما ينتظر تلك المنطقة .

وبالتدريج ، تحول ستانلي الى خادم مخلص للملك « ليوبولد » حينما سافر للمرة الثالثة عام (١٨٧٩) وظل حتى عام (١٨٨٤) جعل الكونغو خلالها مزرعة هائلة لهذا الملك . فكانت الشرارة الاولى التي أحرقت هذه القارة فيما بعد .

وفى عام ١٨٨٦ ــ علمت اوروبا بحصار وعزل الحاكم المصرى للمنطقة الاستوائية ــ الذى لم يكن مصريا ابدا ــ بعد قيام الثورة المهدية ، ولا بد من العمل على انقاذه . وعندما تشكلت لجنة الانقاذ هذه ، كان على رأسها « ستانلي » ، وكيف لا .. الم ينقذ دكتور « لفنجستون » من قبل ؟ ..

وصل « ستانلي » فعلا الى حيث التقى بأمين باشا على شاطيء بحيرة البرت ، وبدلا من انقاذه ، عرض عليه العمل كمدير في خدمة الملك « ليوبولد » بشروط مالية لم يوافق عليها « أمين باشا » . وفى طريقه الى الساحل الافريقي ، استطاع ستانلي عقد عدة اتفاقيات مع الزعماء الوطنيين من النوع الذى احكم قبضة الاستعمار على مناطقهم فيما بعد ، حتى كانت معاهدة (ماكينون) المعروفة التي ابرمت بين الشركة البريطانية لشرق افريقيا وحكومة الكونغو .

وهكذا تدخل افريقيا دورا لا يستغرق « ريتشارد هول » كثيرا فى الحديث حوله ، ولكن التاريخ الافريقي يعرفه ويسجله بدقة بين صفحاته ، قصة الصراع العالمي الدموى على ارض افريقيا ، قصة الصراع على الارض والرجال والثروات ، اجرت فيها اراض افريقية ، وبيعت اخرى ، ودار قتال على انتزاع ثالثة من ابنائها .. وهكذا سار الشوط بافريقيا الصابرة .

ان المؤلف يختم كتابه بعرض لشخصيات مجهولة وقفت وراء ستانلي تدفعه وتؤازره ، مالاً وعطفا وحبا . ولكنه ابدا لم يتغير حتى آخر ايام حياته حينما وافته المنية صباح العاشر من مايو عام ١٩٠٤ . فرغم انه منح الجوائز والتقديرات من الملوك والعظماء ودور الصحف الكبرى فى اوروبا وامريكا ، الا انه لم يدفن بجوار العظماء فى كنيسة « وستمنستر » بجوار لفنجستون كما اراد لنفسه في بداية الشوط . لقد رفض رئيس الكنيسة دفنه بها بدون ابداء الاسباب . ويبدو أن شعورا خفيا لدى ستانلي كان يحركه نحو عدم الثقة بما يود ان يبلغه ، فكتب فى مذكراته بالحرف الواحد : « انني لم آت الى الدنيا من اجل الحصول على السعادة ، او السعي اليها ، فقط اتيت من أجل عمل خاص أؤديه ... » .

ان الكتاب يزخر بالتحقيقات الدقيقة التي تتتبع حياة الرجل ، ساقها « ريتشارد هول » بأسلوب ذكي ، ولكنه بسيط وسلس وجذاب ، شأن الكتابة الصحفية المتمرسة التي تخاطب العامة والمثقفين على حد سواء . والكتاب بهذا الاسلوب حين يجمع بين البحث الدقيق لبعض القضايا التاريخية والجغرافية مما لا يتسع المجال لعرضه فى هذا السياق ، وبين الرواية الجذابة المثيرة المصورة ، هذا بالاضافة الى قرب المؤلف الشديد من دقائق اسرة

« ستانلي » وارشيفها ، سواء في انجلترا او الولايات المتحدة ، مع التجربة الخاصة والمباشرة للمؤلف في افريقيا ، يجعل كل هذا من كتاب « ستانلي » المستكشف المغامر ، كتابا مفيدا بحق لما يضيفه من جديد ، ويعدل مسار بعض الافكار عن هذه الشخصية ، ولكنه لم يات بجديد في مجال الكشف او التحقيق التاريخي الذى كان بعيدا عنه كل البعد .

لم يخل الكتاب من بعض الاخطاء المطبعية ــ شان بعض الكتب التي تخرجها دور النشر الانجليزية في الآونة الاخيرة للاسف على غير ما عودتنا . والكتاب يفتقر الى ترتيب افكاره ترتيبا علميا،بالاضافة الى ان المؤلف استخدم عناوين فصوله باسلوب مثير فيه تورية . ومع كل هذا ، فان الكتاب بحجمه واسلوبه وصوره ومستنداته ، يرقى الى مصاف الكتب التي يسعى المرء لاقتنائها .

* * *

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ،وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

1. Clark, W., Ronald, **The Life of Bertrand Russel**, Jonathan Cape and Weidenfeld & Nicolson, London 1975.

2. Frye, Richard N. , **The Golden Age of Persia, The Arabs in the East**, Weidenfeld Nicolson, London, 1975.

3. Haswell, Margaret, **The Nature of Poverty, A Case-History of the First Quarter Century After World War II**, Macmillan Press Ltd., 1975.

4. Howe, Michael, **Learning in Infants and Young Children**, Macmillan Press Ltd., 1975.

5. Swingewood, Alan, **The Novel and Revolution**, Macmillan Press, 1975.

